

عبد الله المهردي
امام الشيعة الاسماعيلية
ومؤسس لدولة الفاطمية في بلاد المغرب

تأليف

طه احمد شرف
D.Lit., M.A. (Cairo)
دكتور في الآداب ، وماجستير في الآداب

هين براهيم حسن
D. Lit. (Cairo), Ph. D.,
D.Lit. (London)
رئيس قسم التاريخ بجامعة فؤاد الاول

الناشر

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا

مطبعة الشكشي بالأزهر بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

منذ انتقل الرسول إلى جوار ربه ، اختلف المسلمون فيمن يلي الزعامة فيهم . ولما ولي أبو بكر الخلافة ، ذهب فريق من المسلمين ، إلى أن هذه الزعامة يجب أن تقرر في آل بيت النبي ، واعتقدوا أن علي بن أبي طالب ، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة ، وأولاده من بعده ، أحق الناس بها . وتميز أنصار علي وأولاده باسم الشيعة .

وقد جر التنافس على منصب الخلافة ، إلى صراع عنيف بين الشيعة وغيرهم ، ذهب ضحيته عليّ وابنه الحسين وغيرهما . ونال العلويين في عهد بني أمية كل ألوان الأذى والاضطهاد .

ولما انتقلت الخلافة إلى العباسيين ، لم يرق ذلك العلويين ، واعتقدوا أن العباسيين اغتصبوا حقهم في الخلافة ، كما اغتصبها الأمويون من قبل . وكان العباسيون أشد بطشاً بأبناء عمهم العلويين ، فلجأ هؤلاء منذ عهد محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق إلى التستر ، ليدروا عن أنفسهم حتى هؤلاء الخلفاء . ولكنهم لم يتركوا المطالبة بحقهم في الخلافة ، وإن اختلفت أساليبهم في ذلك .

وقد بحثنا في الباب الأول من هذا الكتاب في جهود أئمة الإسماعيلية ونوابهم

(حُجَجِهِمْ) من بيت القدّاح ، فبيّنا كيف قام هؤلاء جميعا بتنظيم الدعوة الإسماعيلية في أرجاء العالم الإسلامي كافة ، فوضعوا لها نظاما سريا بديعا متقنا ، واتخذ الأئمة من سَكَلِيَّة مركزا رئيسا لنشر دعوتهم ، كما اتخذ أنصارهم من أمهات المدن الإسلامية ، كالكوكة والأهواز والرّيّ وزَيد والفسطاط ، مراكز لنشر هذه الدعوة . ولم يأت النصف الثاني من القرن الثالث الهجريّ ، حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد راجت في كثير من أرجاء العالم الإسلامي ؛ فظهرت في بلاد اليمن على يد ابن حوشب ، وفي العراق على يد سحمان قَرْمَطَ و زَكْرِيَّ بن مَهْرُويّه ، وفي البحرين على يد أبي سعيد الجنّابيّ ، وفي بلاد المغرب على يد أبي عبد الله الشيعي ، وفي مصر على يد أبي علي الداعي المقيم ، وفي خراسان على أيدي كثير من الدعاة العلماء .

وكان أئمة الإسماعيلية يثقون بحُجَجِهِمْ من بيت القدّاح ؛ ولذلك اعتمدوا عليهم في ترويج دعوتهم . وبلغ من ثقتهم بهم ، أنهم كانوا يستودعونهم الإمامة ، لينقلوها إلى أبنائهم من بعدهم ، حتى إن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، استودع ، حين دنت منيته ، الإمامة سعيدا الخير بن الحسين بن عبد الله القدّاح . ليتعهد الدعوة ، ثم ينقلها إلى ابنه أبي القاسم حين يستقيم له الأمر .

وقد بينا في الباب الثاني موقف عبيد الله ؛ فكان عليه أن يحافظ على تراث الدعوة الذي أقامه أئمة الإسماعيلية وأنصارهم من القداحية ، فنظم الدعوة بين القرامطة ، وقضى على المعارضين منهم ، وأحل محلهم من يثق بإخلاصهم وولائهم ، وعمل على ازدياد نفوذه في بلاد اليمن والمغرب وفارس . واسكنه اضطر أمام ثورة بعض قرامطة الشمال من أبناء زكرويه بن مهرويه ، إلى الفرار من سلبية إلى بلاد المغرب ، مارا في طريقه بالرملة والفسطاط وطرابلس ، حتى انتهى به المطاف إلى سجلماسة حاضرة بني مدرار ، حيث سجن حتى أخرجه أبو عبد الله الشيعي .

وكذلك عاجلنا في هذا الباب مسألة نسب الفاطميين التي كانت ولا تزال موضع جدل عثيف بين العلماء ، واعتمدنا على أمهات كتب الإسماعيلية ، وانتهينا إلى كشف اللثام عن كثير من المسائل الغامضة ، وألقينا ضوءا كشف عن حقيقة نسب عبيد الله ، وهو أنه لم يكن من أبناء الأئمة الإسماعيلية نسبا ، وإنما كان من أبناء الإسماعيليين الروحيين أو التعليميين .

وقد أوضحنا في الباب الثالث موقف عبيد الله بعد أن أصبح خليفة في بلاد المغرب ، وكيف عمل على أن يمد نفوذه إلى المشرق ، فأرسل الحملات لفتح مصر أكثر من مرة ، واستعان بأنصاره القرامطة خاصة ، كما حاول الاتصال بأنصاره في فارس وخراسان وغيرهما من بلاد الدولة العباسية . كما بينا كيف حاول عبيد الله أن ينشر نفوذه على جميع بلاد المغرب ، وكيف وقف في وجه الأمويين في الأندلس والأدارسة في المغرب الأقصى ، وبسط نفوذه على جزيرة صقلية ، وهدد جنوبي إيطاليا ، وأسس مدينتي المهدي والمحمدي .

وفي الباب الرابع تناولنا الكلام على عبيد الله الخليفة ، وإمامته لطوائف الإسماعيلية ؛ فعالجنا موقفه من القرامطة ، وبيننا كيف أنه لم يعبأ بقاعدة تعيين رؤسائهم عن طريق الوراثة ، فسنّ لهم نظاما يقضى بأن لا يتم تعيين رؤسائهم إلا بموافقته ، حتى إن هؤلاء القرامطة أصبحوا أداة فعالة في تحقيق سياسته في الشرق . وعلى هذا النحو سار عبيد الله المهدي مع إسماعيلية اليمن ، وإن كانت هذه السياسة قد جعّرت إلى وقوع النزاع بين أنصار الدعوة الإسماعيلية في هذه البلاد .

أما في الشرق والأندلس ، فقد اعتمد عبيد الله المهدي في تنفيذ سياسته على طائفة من العلماء ، كأبي حاتم الرازي ، الذي انتشرت الدعوة الإسماعيلية على يده في بلاد الرى خاصة ، واستجاب له جماعة من أنصار الدولة العباسية ، واشتهر بمصنفاته التي لا يزال كثير منها في حوزة البهرة إلى اليوم . ومن هؤلاء العلماء الدعاة ، النسفي الذي استطاع بلباقته السياسية أن يجذب نصر بن أحمد الساماني أمير بلاد ما وراء النهر إلى عبيد الله المهدي ؛ وقد ذاعت شهرته في عالم التأليف . ومن هؤلاء العلماء ،

السجزي ، الذي أتم أعمال الرازي والنسفي . وقد اشتهر بمؤلفاته الكثيرة في المذهب الإسماعيلي والرد على معارضيهِ . وعلى الرغم من أن هؤلاء الدعاة كانوا من الفرس ، كان أكثر كتبهم — لحسن الحظ — باللغة العربية .

وأما في بلاد الأندلس فقد انتشرت الدعوة الإسماعيلية على يد ذلك العالم الفيلسوف ، ابن مسرة ، الذي استطاع عبيد الله بفضل تدخله ، أن يثير ابن حفصون على الحكم الأموي في الأندلس .

وكذلك عرضنا في هذا الباب لتنظيم الدعوة الإسماعيلية الداخلي على يد عبيد الله المهدي ، فشرحنا علاقته برعاياه ، وبيننا كيف استغل هذا الخليفة الإمام الدعوة لمصلحة الدولة ، وكيف تخلص من أبي عبد الله الشيعي الذي قامت الدولة الفاطمية على يده ، والذي لقي مآلقيه أبو مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية من قبل .

وقد ذكرنا في الباب الخامس أشهر مميزات الدعوة الإسماعيلية في عهد عبيد الله ، فتناولنا الكلام على دورى الاستتار والظهور ، كبداً للإمامة ، وعمومية الدعوة ، والحلول ، وما إلى ذلك ؛ ثم بيننا عوامل نجاح عبيد الله التي تتلخص في ضعف العالم الإسلامي ، وضعف سائر طوائف الشيعة ، وتحمس المسلمين لعقيدة المهدي المنتظر ، وفي سن ذلك النظام الدقيق الذي وضعه الإسماعيلية لنشر دعوتهم ، وأخيراً ذكرنا صفات عبيد الله وأخلاقه ، وتكلمنا على زوجاته وأولاده .

وصفوة القول أننا بحثنا تاريخ عبيد الله المهدي والمذهب الإسماعيلي في عهده بحثاً شاملاً من النواحي المختلفة : دينية وسياسية وثقافية واجتماعية ، مستعينين في ذلك بما عثرنا عليه من المراجع الإسماعيلية ، مخطوطة ومنشورة ؛ وألحقنا بالكتاب كثيراً من الوثائق التاريخية ، التي توضح تاريخ هذا العهد . كما ذيلنا الكتاب بثبت يشمل المصادر ، مرتبة على أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، وبفهارس شاملة لأسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة

وقد عقدنا العزم ، بمعونة الله ، على أن نوالى بحث تاريخ المذهب الإسماعيلي

من الناحية السياسية بوجه خاص ، وما طرأ عليه من تطورات ، وذلك في عهد
المعزدين الله ، والمستنصر بالله ، والحسن الثاني الزاري ، أحد أجداد سمو أغاخان .
وسنفرد لكل من هذه الشخصيات بحثاً خاصاً .

ولإتفاف في هذا المقام ، نهدي أجزل الشكر ، وأعطر الثناء ، إلى حضرة صديقنا
الوفى الأستاذ مصطفى البسقا ، الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ،
لتفضله بمراجعة هذا الكتاب ، وإلى حضرة الدكتور محمد كامل حسين المدرس
بالكلية ، لتفضله بإمدادنا بكثير من مخطوطات الإسماعيلية التي في حوزته ، وحضرة
حسن أحمد محمود افندى الطالب بقسم الماجستير بكلية الآداب لمساعدته القيمة في
عمل الفهارس ؟

حسن ابراهيم حسن طه أحمد شرف

٢٥ يولييه ١٩٤٧

محتويات الكتاب

صفحة						
٢	مقدمة الكتاب
٨	محتويات الكتاب

الباب الأول

طائفة الإسماعيلية إلى أن تولى عبيد الله رئاسة الدعوة

صفحة						
١٧	١ — العلويون والمتشيعون إلى ظهور طائفة الإسماعيلية
٢٥	٢ — أئمة الإسماعيلية
٢٩	(أ) إمامة إسماعيل بن جعفر...
٣٥	انقسام العلويين بعد جعفر الصادق
٣٦	(ب) إمامة محمد بن إسماعيل
٤٠	(ح) إمامة عبد الله الرضى بن محمد بن إسماعيل
٤٣	(و) إمامة أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل
٤٥	(هـ) إمامة الحسين بن أحمد
						٣ — نواب الأئمة الإسماعيلية من بيت القداح
٤٧	(أ) ميمون القداح
٥١	(ب) عبد الله بن ميمون

- (ح) أثر عبد الله بن ميمون في نهضة المذهب الإسماعيلي ... ٥٦
- (د) أثر عبد الله بن ميمون في نشر الدعوة ... ٥٨
- (هـ) خلفاء عبد الله بن ميمون
- ١ - علاقتهم بالأئمة ... ٦٥
- ٢ - شخصية أبناء عبد الله بن ميمون ... ٦٦
- ٣ - مدى نشاط أبناء عبد الله بن ميمون ... ٦٩
- ٤ - انتقال زعامة الإسماعيلية إلى عبيد الله
- (أ) عبيد الله الحجة ... ٧٧
- (ب) عبيد الله الإمام ... ٧٨

الباب الثاني

عبيد الله

منذ تولى زعامة الدعوة الإسماعيلية حتى قيام الدولة الفاطمية

- ١ — موقف عبيد الله من أنصار الدعوة الإسماعيلية ... ٩٢
- (أ) موقف عبيد الله من القرامطة
- ١ — من القرامطة في سواد الكوفة ... ٩٢
- ٢ — من قرامطة البحرين ... ١١٠
- (ب) موقف عبيد الله من أنصار الدعوة في اليمن والمغرب
- وفارس ... ١١١
- ١ — في بلاد اليمن ... ١١٢
- ٢ — في المغرب ... ١١٦

- ١٢٢ ٣ — في فارس ...
- ١٢٤ ٢ — رحلة عبيد الله إلى بلاد المغرب ...
- ١٢٥ (١) من سليمة إلى الرملة ...
- ١٢٩ (ب) من الرملة إلى الفسطاط ...
- ١٣٣ (ح) من الفسطاط إلى طرابلس ...
- ١٣٦ (د) من طرابلس إلى سجاسة ...
- ١٣٧ أسباب نجاح عبيد الله في فراره ...
- ١٤٠ (هـ) عبيد الله في سجاسة ...
- ١٤٣ ٣ — نسب عبيد الله ...
- ١٤٤ (١) نسب عبيد الله إلى علي وفاطمة ...
- ١٤٤ ١ — الستون الذين يؤيدون صحة النسب ...
- ١٤٩ ٢ — الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة النسب ...
- ١٥٢ انتساب عبيد الله إلى الموسوية ...
- ١٥٦ (ب) نسب عبيد الله إلى ميمون القداح ...
- ١٥٧ ١ — آراء الإسماعيلية ...
- ٦٠ ٢ — آراء السفين المعارضين ...

الباب الثالث

عبيد الله المهدي والخلافة

- ١٧٠ ١ — علاقة عبيد الله بالعباسيين ...

صفحة							
١٧٠	أسباب هذا العداء
١٧٢	(١)	امتداد نفوذ عبيد الله في المشرق
١٧٢	٤ —	الهجوم الفاطمي على مصر
١٧٣	(١)	الحملة الأولى
١٧٥	(ب)	الحملة الثانية
١٨١	(ح)	الحملة الثالثة
١٨٦	٢ —	امتداد نفوذ عبيد الله في خراسان وفارس
١٨٨	٣ —	امتداد نفوذ عبيد الله في بلاد المغرب
١٨٨		تنظيم عبيد الله بلاد المغرب
١٩٩		صقلية في عهد عبيد الله المهدي
٢٠٤		مدينتا المهديّة والمحمديّة

الباب الرابع

عبيد الله المهدي وإمامة الإسماعيلية

صفحة							
٢١١	٨ —	عبيد الله الخليفة والقرامطة
٢١١	(١)	موقف عبيد الله المهدي من أبي سعيد الجنابي...
٢١٤	(ب)	موقف عبيد الله المهدي من خلفاء أبي سعيد
٢١٤		عبيد الله وسعيد بن أبي سعيد
٢١٧	(ح)	موقف عبيد الله المهدي من أبي طاهر الجنابي (٣٠٥-٣٢٢ هـ)
٢١٨		معاوضة أبي طاهر عبيد الله المهدي في سياسته

صفحة	
٢٧٠	(١) استتار عبيد الله
٢٧١	١ - التعمق في السرية
٢٧٢	٢ - التحمس الحربي
٢٧٣	٣ - الدعوة للامام المستور
٢٧٤	(ب) ظهور عبيد الله (٢٩٦—٣٣٢هـ)
٢٨٠	٣ — أشهر مبادئ الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي
٢٨٠	(١) مبدأ الإمامة في عهد عبيد الله المهدي
٢٩٢	(ب) الدعوة العامة للجميع
٢٩٥	(ج) الاشتراكية
٣٠٠	(د) الحلول
٣٠٤	٣ — عوامل نجاح عبيد الله
٣٠٥	(١) ضعف العالم الإسلامي
٣٠٦	(ب) انتشار التشيع
٣٠٨	(ج) ضعف طوائف الشيعة الأخرى
٣١٠	(د) تحمس المسلمين لعقيدة المهدي المنتظر
٣١٢	(هـ) برامج الإسماعيلية ووسائلهم الخاصة

خاتمة القول في عبيد الله المهدي

صفحة	أولاده وزوجاته
٣١٨	
٣٢٠	وفاة المهدي

ملاحق الكتاب

صفحة	ملحق ١	نهاية الإمام إسماعيل بن جعفر وإمامته
٣٢٢	ملحق ٢	في إمامة محمد بن إسماعيل
٣٢٣	ملحق ٣	ظهور المهدي
٣٢٦	ملحق ٤	انتقال الإمامة إلى المهدي والطيب بن الأمر
٣٢٧	ملحق ٥	الواجب على الأمة للأئمة
٣٢٨	ملحق ٦	في محاولة عبيد الله فتح مصر
٣٢٨	ملحق ٧	في فضل كتامة علي الفاطميين
٣٢٩	ملحق ٨	عبيد الله في الرملة
٣٣٠	ملحق ٩	عبيد الله في مصر
٣٣١	ملحق ١٠	الآمن في عهد أبي عبد الله الشيعي
٣٣١	ملحق ١١	المناظرة الأولى بين أبي عثمان سعيد بن محمد بن الحجاج وأبي العباس أخى أبي عبد الله الشيعي
٣٣٣	ملحق ١٢	المناظرة الثانية بين أبي عثمان وأبي العباس
٣٣٥	ملحق ١٣	المناظرة الثالثة بين أبي عثمان وأبي العباس
٣٣٦	ملحق ١٤	المناظرة الرابعة بين أبي عثمان وأبي العباس
٣٤٠		مصادر الكتاب
٣٤٣		

فهارس الكتاب

مقدمة	
٣٥٠	الأعلام
٣٥٩	أسماء النساء
٣٥٩	٢ — الأماكن
٣٦٤ — ٣٦٧	٣ — الكلمات التي تدل على حوادث تاريخية هامة

عبيد الله المهردي

إمام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية
في بلاد المغرب

الباب الأول

طائفة الاسماعيلية إلى أن تولى عبيد الله رئاسة الدعوة

١ — العلويون والمتشيعون إلى ظهور طائفة الاسماعيلية

كان علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، من كبار الصحابة الذين ساهموا مع النبي ﷺ ، في إقامة صرح الإسلام . وكان يتطلع بعد وفاة النبي إلى زعامة المسلمين دينياً وسياسياً ، ويرى أنه أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان . وكان بيت أمية ينفس عليه منذ ولي عثمان الحكم ؛ ولذلك أعلنوا عليه الحرب في صور مختلفة حتى زحزحوا بيته عن الخلافة ، ومن ثم أصبحت زعامة المسلمين في يد الأمويين .

وقد حز في نفوس أنصار عليّ ، وهم الشيعة ، وفي نفوس أبنائه ، إقصاء بيت الرسول عن زعامة المسلمين . ومن ثم أثاروها حروباً دامية على بني أمية وانضموا إلى أبناء عليّ ، فناصروا الحسن والحسين ، والتفوا حول زيد بن علي زين العابدين (١٢٢هـ) وابنه يحيى بن زيد (١٢٥هـ) ، وقاموا بدور كبير في إزالة سلطان الأمويين . وفي الحق أن العلويين لم يرضوا منذ مقتل عليّ سنة ٤٠ هـ عن سياسة الأمويين ، ونادوا بإمامة الحسن الذي يرى الاسماعيلية أن علياً نصّ على إمامته من بعده ثم على إمامة أخيه الحسين ، ويرون أن الحسن كان إماماً مستودعاً ، وأن الحسين هو الإمام المستقر^(١) ، بمعنى أن الحسن إمام في حياته فقط ، وأنه لا يستطيع نقل إمامته وتوريثها

(١) الإمام المستودع : هو الذي يكون إماماً في حياته ، ولا يستطيع أن يرث أبنائه الإمامة

أبناءه بعكس أخيه الحسين الذي يستطيع توريثها أبناؤه . وعلى الرغم من إخفاق الحسن في صراعه مع نبي أمية ، ونزوله لمعاوية عن الخلافة ، ثم موته بعد قليل ، ظل المخلصون له من الشيعة على ولائهم لأخيه الحسين — الإمام المستقر — ورأوا في المناداة بإمامة أبناء عليّ تحدياً للأمويين أو بالأحرى للخلافة نفسها . وقد أذكت موقعة كربلاء نيران الحماة بين صفوف الشيعة والعلويين أنفسهم ، واتسعت بذلك شقة الخلاف بين الإمامة العلوية والخلافة الأموية . يقول براون: (١) « إن فريق الشيعة أو حزب علي كان ... ينقصه الحماة وبذل النفس . بيد أن هذا كله قد تبدل منذ ذلك الحين ، وغدت ذكرى معركة كربلاء المملوطة بدماء ابن بنت النبي ، مع ما قاساه من شدة العطش وإحاطه بجحش ذوى قرباه — كل ذلك غداً منذ ذلك الحين كابياً لأن يثير عاطفة الحماة التي كانت على أشد ما تكون ، والأحزان التي تملكك النفوس — حتى عند أكثر الناس فتوراً وتراخياً — وأصبحت هذه الروح التي لا تبالى بالآلام والأخطار ، بل ولا بالموت ، ترى كل هذه التضحيات لا تساوى التفكير فيها » .

وهكذا أخفق العلويون في جولتهم الأولى ، فسم الحسن ، وقتل الحسين ، فحمل أعباء الإمامة محمد بن الحنفية — أخوهما لأبيهما — ليكون ستراً على علي زين العابدين ، فكان والحالة هذه إماماً مستودعاً . يقول الداعي الخطاب (٢) بن الحسين في تسلسل الإمامة من علي إلى أئمنائه : « وعهد علي » إلى الحسن عند حضور نقله (٣) بأن يسلم الرتبة إلى أخيه الحسين . . . فلما قضى الحسن نحبه سلم إلى أخيه الحسين ؛ فاجتمعت الرتبتان ، النبوة والإمامة في الحسين وقام بهما ، حتى (٤) أظهر الغيبة ... وولده علي بن الحسين في حد الطفولية . فأودع له أخاه محمد بن الحنفية ، واستكفله .

ولما يكون كمال الأمانة عليه أن يردّها عند الحاجة . ونظرية الاستدعاء الامامي من النظريات الجديدة في مبدأ الإمامة ، ومن النظريات ذات الخطر السياسي وتاريخ الاسماعيلية . أما الامام المستقر فهو الذي تستقر الامامة فيه ، ويستطيع نقلها إلى أبنائه . وجميع الأئمة عند الاسماعيلية من هذا الصنف إلا نفرأ قليلاً عندهم ، هم الأئمة المستودعون .

(١) Browne : Literary History of Persia, vol. 1, pp. 226 sqq.

(٢) غاية المراليد ص ٣٥ (من المنتخب)

(٣) النقلة بمعنى الوفاة والانتقال أو الظاهر بالانتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة

(٤) في الأصل حق والصواب حتى

إياه ، وأوصى إليه أن يسلم إليه وديعته عند بلوغه أشده . فقام محمد . . . بأمر الله وبث دعائه وأقام دعوته . وهذا يدل على أن الأئمة العلويين لم يكونوا مقصرين في القيام بواجبهم في نشر الدعوة لأنفسهم وجذب الناس إليهم ، غير أنهم لم يغفلوا غلو أشياعهم من المتشيعين .

والواقع أننا لم نعد نسمع كثيراً عن جماعة الحسينيين في عهد الدولة الأموية ، اللهم إلا ما ستراه من الصراع بين هؤلاء وبين أبي جعفر المنصور (١٥٨ هـ) . وأما فرع الحسينية ، أتباع الحسين وأبنائه ، فلم يكن لهم شأن يذكر بعد مقتل زيد بن علي زين العابدين^(١) وابنه يحيى اللذين تصديا للدفاع عن حقهما في الإمامة . وظل الحسينيون خاملين حتى انتعشوا في العصر العباسي الأول على يد الإسماعيلية الذين يعتبر ظهورهم تطوراً في تاريخ الدعوة التي نستطيع أن نطلق عليها اسم « الدعوة الحسينية » .

أما الحنفية — أتباع محمد بن الحنفية^(٢) — فكانت لهم الصدارة منذ مقتل الحسين سنة ٦١ هـ ، فينادى أتباعه الكيسانية — أصحاب المختار الثقفي — بإمامته بل بنبوته ورجعته ، ويغفلون فيه غلواً كبيراً . ولا يهمننا تبرؤ محمد بن الحنفية من المختار الثقفي وأتباعه الكيسانية ، إنما الذي يهمننا هو أن الكيسانية قاطبة كانوا يقولون بإمامة محمد هذا دون سواه . وإذن ، هل اغتصب محمد بن الحنفية الإمامة التي ورثها عن الحسين بن علي زين العابدين ؟ أو بالأحرى هل كان الكيسانية من التأثيرين على إمامة الحسينيين ؟ إن المراجع الإسماعيلية التي بين أيدينا تؤكد أن ابن الحنفية قد رد الوديعة (الإمامة) إلى مستحقها (علي زين العابدين)^(٣) . وبهذا نستطيع أن نقول : إن أبا هاشم بن محمد بن محمد بن الحنفية^(٤) — صاحب فرقة الآبي هاشمية التي قامت

(١) . ثار زيد بن علي على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في سنة ١٢٢ هـ لينقذ الإمامة الحسينية مما أصابها من ذبول خصوصاً بعد استبداد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية بالأمر دونه . ويسمى أتباعه الزيدية ، ويسمى البعض الرافضة لرفضهم طاعة زيد وادعائهم أنه على حب الصحابة أبي بكر وعمر . وقد لحق به ابنه يحيى الذي قتل في خراسان سنة ١٢٥ هـ .

(٢) الخطاطب بن الحسين : غاية المواليد ص ٢٥ - ٣٦ (من المنتخب)

(٣) وأبو هاشم هذا هو الذي نزل عن الإمامة لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك ، مدعياً أنه ليس هناك بين العلويين من يصلح لاقامة الدعوة العلوية .

الدولة العباسية على أكتافها - هو الذى اغتصب الإمامة من أبناء الحسين بن على .
ومهما يكن من شئ ، فإن أبا هاشم ، باغتصابه الأمر من بنى عمه الحسينيين ، ونزوله
عن الامامة للعباسيين . قد أضاع على العلويين فرصة الاستيلاء على الخلافة من
الأمويين ، كما ساعد على تفككهم . وبهذا تمكن العباسيون من قلب الدولة الأموية
والاستئثار بالخلافة دون العلويين . وظل الأبو هاشميين على إخلاصهم لرؤسائهم الدينيين
حتى صرعهم أبو جعفر المنصور ، فانفضوا بعد ذلك تحت لواء الاسماعيلية ،
على ما سئرى .

ما تقدم نرى أن العلويين عجزوا فى عهد الأمويين ، عن تحقيق مآربهم فى سيادة
العالم الاسلامى ، لانقسامهم على أنفسهم إلى حسنيين وحسينيين وحنفية ، ثم إلى
أبى هاشمية ، ولأن الدولة الأموية كانت لا تزال على قوتها . أضف إلى ذلك انتقال
حق الإمامة من أبى هاشم بن محمد بن الحنفية العلوى إلى محمد بن على بن عبد الله
العباسى ، الأمر الذى اعتبره العباسيون نزولاً من العلويين إلى العباسيين عن حقهم
فى الإمامة ، وإن كان ذلك يعتبر من الناحية العملية نزولاً من طائفة واحدة من
طوائف العلويين .

أما فى الدولة العباسية فقد أصبح الأئمة العلويون والحسنيون والحسينيون أكثر
تطامعاً إلى النفوذ والسلطان ، فحمل لواء بنى الحسن ، محمد بن عبد الله بن الحسن
ابن الحسن بن على بن أبى طالب (١٠٠ - ١٤٥ هـ) المعروف بالنفس الزكية ،
وأخوه إبراهيم ، وتبعهما خلق كثير . حتى ضاق بهم أبو جعفر المنصور ذرعاً ،
وبادلهم الاتهامات الجارحة ، كما يتضح من الكتب التى تبودلت بين أبى جعفر
والنفس الزكية . ولم يكن هذا الصراع فى الواقع إلا صراعاً بين الفاطميين
الحسنين وبين الحنفية الممثلين فى الأبى هاشمية أنصار العباسيين . وقد أمد قتل محمد
النفس الزكية وأخيه إبراهيم أولاد الحسين وأنصارهم بقوة هائلة بانضمام فلول
هؤلاء الحسينيين إلى جعفر الصادق ، ثم إلى ابنه إسماعيل . وكان بنو الحسين
يعتقدون أنهم أحق من بنى الحسن ، لأن الحسين - على ما تقدم - إمام مستقر ،
على حين أن الحسن إمام مستودع لحسب . ولذلك التفت كثيرون حول زيد بن
على الحسينى وكونوا جماعة الزيدية ، كما التفوا حول أخيه محمد الباقر وكونوا جماعة

الباقرية ، ثم حول جعفر الصادق وكونوا فريق الجعفرية ، وانضوت فلول هؤلاء جميعاً تحت لواء الاسماعيلية .

كان جعفر الصادق بنفس على الحسينيين ، فتخلى عن النفس الزكية ، ولم يعترف بزعامته ، مما ساعد العباسيين على الفتك به . والحق إن العباسيين كانوا يبغضون الحسينيين ، لأنهم أكثر جرأة وتحمساً في طلب الملك . ولذلك لم يعاملهم العباسيون معاملة لهم للحسينيين . وساعد على ذلك ما أبداه جعفر الصادق من كراهة لبني عمه ، وما صرح به في مؤتمر الهاشميين في أواخر عهد بني أمية . يقول صاحب كتاب الفخرى (١) : « فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية إلا الامام جعفر بن محمد الصادق : فإنه قال لأبيه عبد الله المحض : إن ابنك لا يناها . — يعني الخلافة — ولن يناها إلا صاحب القباء الأصفر — أي المنصور ، كما لم يتعاون فريق جعفر مع الحسينيين في صراعاتهم مع الهادي حين أوقع هذا الخليفة بهم في موقعة فخ (سنة ١٦٩ هـ) التي قيل فيها « لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأجع من فخ (٢) » . من هذا نرى أن زعامة العلويين في صدر الدولة العباسية لم تكن موحدة : فهناك الفاطميون — حسنيون وحسينيون — ينافسون كل منهم الآخر ، ولم يستطيعوا القضاء على الدولة الأموية ، وهناك الحنفية من أتباع بني هاشم الذين ارتعوا في أحضان العباسيين وساعدوهم على إقامة دولتهم ، ولكنهم تعرضوا بعد قليل لتحمل كثير من ضروب الغت والاضطهاد على أيدي هؤلاء العباسيين .

وقد أدرك إسماعيل بن جعفر — على ما سنرى — مدى الضعف الذي ساد العلويين ، فعمل على تكوين جماعة ذات طابع خاص في تفكيرها ونظامها الاجتماعي والديني والسياسي ، تلك الجماعة هي « طائفة الاسماعيلية » التي ينتمي إليها عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية .

ويحسن بنا أن نبهت أثر التشيع في الحركات الشيعية الأولى ، ثم في قيام جماعة الاسماعيلية الذين ينتسب إليهم عبيد الله . وفي الواقع إن التشيع — وهو اعتقاد حب علي وأبنائه — كان من أهم الأحداث في التاريخ الاسلامي ، والتشيع نوعان :

(١) في الآداب السلطانية ص ١٢٠

(٢) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٤٦

تشيع حسن لا يرى صاحبه من ورائه إلى غير سيادة العلويين ، وتشيع قببح يتخذة معتنقوه وسيلة لهدم العقائد ، وإثارة روح الشعوبية ، وقلب نظام الحكم في الدول تحت ستار الدعوة لعلي وأبنائه . وتعتبر حركة الاسماعيلية مزاجا من النوعين معاً : فبينما نرى بعض أئمتهم وأنصارهم على إخلاصهم للإسلام ، نرى بعضهم الآخر يتخذ انتماءه إلى جماعة الاسماعيلية وسيلة لبعث مبادئ تقوم على الإلحاد ، وتحض على الثورة ؛ لذلك قالوا « التشيع عش الزندقة » . وقد شعر الأئمة العلويون بخطر هذا التشيع القبيح فثاروا على مدعيه ، فنرى علي بن أبي طالب يخطب عبد الله بن سبأ الذي كانت آراؤه « جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة بعده (١) » . وعلى الرغم مما فعل علي مع ابن سبأ ، عدّ هذا الأستاذ الأول لجماعة الاسماعيلية وغيرهم من الغلاة .

فهاهم أولاء الكيسانية — أنصار المختار — ينادون بما نادى به ابن سبأ ، من القول بالرجعة ، وإحاطة الأئمة بالعلوم كلها مظهر منها وما بطن ، وبأن الدين طاعة رجل واحد ، هو الإمام ، وأن هذه الطاعة ترفع عنهم التكاليف الشرعية ، كما نادوا بالمهدية التي نادى بها ابن سبأ من قبل . ولذلك نال الكيسانية من ابن الحنفية ما ناله السبئية من علي بن أبي طالب (٢) . وعلى الرغم من قضاء الأمويين على حركة المختار تعدد حركته طليعة للحركات الدينية التي تتخذ الدين وسيلة لتحقيق الأغراض السياسية ، أو بعبارة أخرى كانت هذه الحركة طليعة للجماعات الاسماعيلية . ولذلك نرى جمرة التشيع تلتهب في أواخر عهد الدولة الأموية ، فيحاول بعض أنصار تعاليم المجوسية القديمة استغلال التشيع لإحياء مبادئهم . ومن هؤلاء الداعي العباسي عمار بن بديل (١١٨ هـ) ، الذي يعرف باسم « خدش » ، وكان من أشياع خرمًا زوجة مزدك ، ومن المروجين لمبادئ زوجها في الإسلام . ولم يمت مذهبه يموت ، بل بعث في صور وأشكال مختلفة ، تأثر الاسماعيلية بكثير منها (٣) .

والواقع أن التشيع اتخذ في أخريات الدولة الأموية اتجاهين مختلفين ، يرمى

(١) الشيخ محمد عبده : رسالة التوحيد ص ٦٣ .

(٢) دكتور طه شرف : الزندقة والزنادقة (مخطوط) ص ١٥٢ .

(٣) نفس المرجع والمفحة .

أولها إلى التقرب من أبي هاشم ، ومن ثم أخذ كثير من أتباعه يعملون على تقديس الخلفاء العباسيين ، ويرمى ثانیهما إلى التظاهر بالميل إلى الأئمة العلويين الحقيقيين . ومن هؤلاء المتشيعين الآخرين الاسماعيلية ، وجماعة البيانية ، أتباع بيان بن سمان (١١٩ هـ) والمغيرية ، أتباع المغيرة بن سعيد العجلي (١) (١١٩ هـ) ، وكانوا ينادون بالغلو والقول بإمامة محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم . وإلى جماعة الحنفية يرجع قيام الراوندية الذين نادوا بالوهمية أي جعفر المنصور بعد أبي هاشم ، والآبي حسلبية ، الذين نادوا بالوهمية أي مسلم الخراساني ثم حفيده فيروز ، وقالت جماعة منهم بزعامة فاطمة بنت أبي مسلم ، حتى سموا بالفاطميين ، نسبة إليها . ولا يبعد أن يكون بابك الخرمي من سلالة أبي مسلم الخراساني ، كما ذهب بعض الباحثين . وقيل إن القرامطة كانوا من بقايا المتشيعين الحنفية أو الآبي هاشمية . ومن ثم كان الآبو هاشمية خطراً على الأمويين أو لاشم على العباسيين ثانياً ، فقد ثاروا في وجه الأمويين بزعامة أبي مسلم وأزالوا دولتهم . متخذين التقرب من أهل البيت وسيلة لإحياء مذاهب الفرس القديمة ، كما اتخذوا هذا التقرب وسيلة للتخلص من الدولة الأموية العربية . وكانوا يظنون أنهم سيجدون في الدولة العباسية الدولة التي ينشدونها ، فنادوا بحلول الله في شخص أبي جعفر المنصور ؛ ولكن هذا لم ير بدا من الوقوف في وجههم والقضاء على بدعتهم ، فنادوا بالحلول في رؤسائهم أنفسهم ، ثم ثاروا على العباسيين وانضموا إلى كل ثائر . فانضوا تحت لواء سنياذ (١٣٨ هـ) وأستاذسيس (١٤٩ هـ) الذين أذكيا نار الثورة انتقاماً لآبي مسلم ، ثم انضموا إلى المقتنع الخراساني الذي ثار على الخليفة المهدي بن أبي جعفر المنصور ، ودوخ جيوشه لينتقم لآبي مسلم وللجوس من العرب . فلما أخذت هذه الثورة ، لم تلبث أن هبت من جديد على يد بابك الخرمي ، الذي كان من أخلص أتباع الراوندية ، وأصبح القضاء على هذه الثورة شغل العباسيين الشاغل في عهد المأمون والمعتمد . ولما أخذت ثورة بابك ، وجد فلول الباكية الطريق ممهداً للاندماج في صفوف الاسماعيلية . وهكذا كان الثائرون من المتشيعين ، ولا سيما أنصار محمد بن الحنفية ، إذا ما أخفقوا في حركتهم الثورية ، لم تفلوهم بدأ من الانضمام إلى الحزب السري الجديد ، وهو حزب الاسماعيلية .

هذا ما يمكن أن يقال عن تأثير التشيع في طائفة الحنفية ، أما تأثيره في الحسينيين فيتضح من مناداة بعضهم بإمامة جعفر الصادق وغلوهم فيه وتأليههم إياه . ومن هؤلاء العميرية - أتباع عمير بن بيان العجلي^(١) ، الذي ثار على الأمويين في أخريات حياتهم ، فوقف له خالد بن عبدالله القسرى (١٢٦ هـ) بالمرصاد واتبعه هو وأنصاره قتيلا وتشريداً .

على أن ثورة المتشيعين الحسينيين لم تنجب ، بل هبت من جديد في أوائل حكم العباسيين على يد الخطائية - أتباع محمد بن زينب الأسدي الأجدع المعروف بأبي الخطاب . ومن هؤلاء الخطائية ميمون القداح مؤسس الدعوة الإسماعيلية ، حتى لقد ذهب بعض إلى القول بأن الإسماعيلية والخطائية طائفة واحدة . يقول النوبختي^(٢) : وفأما الإسماعيلية فهم الخطائية - أصحاب أبي الخطاب ... وقد دخلت فرقة منهم في فرقة محمد بن إسماعيل ، ويقول النوبختي^(٣) في موضع آخر : ثم خرج من قال بمقاتلته (أبي الخطاب) من أهل الكوفة وغيرهم إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر بعد أن قتل أبو الخطاب ، فقالوا بإمامته ، وبهذا تأثر الإسماعيلية بالخطائية في عدة نواح منها : أن الخطائية كانوا كالإسماعيلية يدعون لجعفر الصادق وينلون فيه ، وأن ميمونا القداح - المؤسس الحقيقي للمذهب الإسماعيلي - كان واحداً منهم ، وأن فلول الخطائية كانوا يكونون الأساس الأول لفرقة الإسماعيلية .

وقد نال أبا الخطاب وفرقة من جعفر الصادق (١٤٨ هـ) ما نال السبئية من علي بن أبي طالب والكيسانية من محمد بن الحنفية . ذكر أبو حنيفة النعمان المغربي^(٤) قاضى الفاطميين : «أن جعفراً الصادق لما بلغه أن أبا الخطاب قال فيه ما قال من الغلو ، قال المفضل (أحد أخصاء جعفر) فدخلت عليه - صلى الله عليه وسلم - يوماً فألقيته منقبضاً مستعبراً ، فقلت له : مالك ؟ جعلت فداك ؟ فقال : أي

(١) هو ابن بيان الذي سبقت الإشارة إليه ، وقد انضم إلى الحسينيين مخالفاً أباه يوماً بعد أن أدرك خروج الدعوة من آل علي إلى آل العباس .

(٢) فرق الشيعة ص ٥٨

(٣) المصدر نفسه ص ٥٩

(٤) المجالس والمسارير (مخطوط بمكتبة جامعة مؤاد) ج ١ ص ٧٨ - ٧٩

مفضل ! زعم هذا الكافر أنى أعلم الغيب . . . اخرج إلى هؤلاء - يعنى أنصار أبي الخطاب - فقل لهم : إنا خلّاق مخلوقون ، وعباد مربوبون ،

ومهما يكن من شيء فقد تبرأ المعتدلون من الشيعة كما تبرأ العلويون أنفسهم من هذه الطائفة . يقول البغدادي (١) : « ومن أعجب الأشياء أن الخطائية زعمت أن جعفر الصادق قد أودعهم جلدا فيه علم كل ما يحتاجون إليه من الغيب ، وسموا ذلك الجلد جفرا ، وزعموا أنه لا يقرأ ما فيه إلا من كان منهم . وقد ذكر ذلك هرون بن سعد العجلي (أحد الزيدية) في شعر فقال :

ألم تر أن الرافضين تفرقوا فكلهم في جعفر كان منكرا
فطائفة قاوا : إله ومنهم طوائف سمته النبي المطهرا
برئت إلى الرحمن من كل رافض يصير بباب الكفر في الدين أعورا
إذا كف أهل الحق عن بدعة مضوا عليها وإن يمضوا إلى الحق قصّرا
ولو قيل : إن الفيل ضب لصدقوا ولو قيل : زنجي تحول أحرا
فقيح أقوام رموه بفريية كما قال في عيسى الفري من تنصرا

وسيتضح لنا مدى مساهمة الخطائية في تأسيس الدعوة الاسماعيلية عند الكلام على إمامة إسماعيل بن جعفر . وقد ساعد التشيع على خلق جماعة الاسماعيلية وتنذيتها من حين إلى حين بالنشاط والحيوية . أضف إلى ذلك أن التشيع كان قد تكون في العصر الأموي ، وأن الاسماعيلية تدجنوا ثماره في العصر العباسي ، وكان نجاحهم من أكبر الانقلابات الدينية السياسية في الاسلام .

٢ - أئمة الاسماعيلية :

نستطيع أن نقين ضعف تأثير جماعة الاني هاشمية ، أو الأخرى فريق الحنفية ، منذ أوائل العصر العباسي الأول ، حتى إننا لم نعد نسمع كثيراً عنهم اللهم إلا ما كان يتردد على بعض الألسنة من تقدّيس لمحمد بن الحنفية واعتقاده في رجعته .

(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

فقدما رأينا كثير عزة (١٠٥ هـ = ٧٣٠ م) يقول بإمامة عليّ وأبنائه الحسن والحسين وابن الحنفية ، ويشيد بالآخر منهم ولا يصدق بموته فيقول :
 ألا إن الأئمة من قریش ولالة الحق أربعة سواء
 عليّ والثلاثة من بنيہ هم الأسباط ليس بهم خفاء
 فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبتہ كربلاء
 وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يتبعها اللواء
 تغيب لا يرى عنهم زماناً برضوى عنده غسل وماء
 ونرى السيد الحبري الشاعر الأبا هاشمي المتوفى سنة ١٧٣ هـ ينادي بما نادى به
 كثير عزة ، فيستبعد موت ابن الحنفية ويشيد بآثره فيقول :

سنين وأشهرًا ويرى برضوى بشعب بين أنمار وأسد
 مقیم بين آرام وعین وحفان تروح خلال رُبد
 تراعيها السباع وليس منها ملاقين مفترسا بحد
 أمن به الردى فرتعن طورا بلاخوف لدى مرعى وورد^(١)

ومع ذلك لم نجد للحنفية - أئمتهم وعامتهم - من التأثير أو النفوذ شيئا يذكر في العصر العباسي الأول ؛ إلا أن جماعات من الكيسانية منهم ظلوا يعملون في الخفاء حتى انضموا بزعامة حمدان قرمط^(٢) إلى فريق الاسماعيلية النشيط في أواخر القرن الثالث الهجري . وهكذا ضعف الفرع العلوي الثالث ، الذي كان يتزعمه محمد بن الحنفية وأبناؤه من بعده .

أما الفرعان الفاطميان الآخران اللذان ينتميان إلى عليّ وفاطمة عن طريق الحسن والحسين فقد استطاع العباسيون - على ما رأينا - الفتح بالفرع الحسنی ، فقضى أبو جعفر المنصور على محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، وبدد الهادي شمل هذا الفريق في موقعة فخ ، ولم يعد العباسيون يخشون على العراق أو الحجاز من هؤلاء ؛ إذ فر البقية الباقية منهم إلى بلاد المغرب بزعامة إدريس بن عبد الله

(١) حسن إبراهيم : الفاطميون في مصر ص ٣٧ .

(٢) وقد يؤيد هذا الرأي دستور القرامطة الذي يفسرته إلى زعمائهم ، وينادون فيه بإمامة أحمد ابن محمد بن الحنفية وببذوقه ، ويعتقدون أن له تنزيلا شبيها بالقرآن الكريم . أنظر العنبري ج ١١ ص ٣٣٩ .

الذى كون دولة الأدارسة ، ولكنه مات مسموماً على أيدي أنصار الرشيد ، كما فر أخوه يحيى بن عبد الله إلى بلاد الديلم . واستطاع الرشيد أن يغرر به فأحضره إلى بغداد وقتله سنة ١٧٦ هـ .

خلا الجو للفرع الحسيني بضعف جماعات الخنزية والحسنية . فتلقف أئمة هذا الفرع الزعامة العلوية التي تركزت منذ أواخر حكم الأمويين وأوائل حكم العباسيين في جعفر الصادق الإمام السادس عند الإمامية الاثنا عشرية والاسماعيلية على السواء ، حيث يؤمنون جميعاً بإمامة علي بن أبي طالب ، ويعتبرونه وصي الرسول وأساسه وسوسه (١) ، ويغلو فيه بعض المتأخرين من الاسماعيلية ، فيرون أنه صاحب التأويل ومحمد ﷺ صاحب التنزيل ، وأن تأويل علي خير من تنزيل محمد . حتى إن بعض فرق الاثنا عشرية كالنصيرية مثلاً يؤلهونه .

ويرى الاسماعيلية خاصة أن علي بن أبي طالب نص على تعيين ولديه الإمامين الحسن والحسين ، وأن رتبة النبوة - النطق - انتقلت إلى الإمام الحسن بأمر من أبيه علي ، ورتبة الإمامة انتقلت بأمره أيضاً إلى ابنه الحسين ، وأنه بموت الحسن اجتمعت الرتبتان في شخص الحسين .

يقول الخطاب بن الحسين (٢) في كتابه غاية المواليد : « وقام أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) بالرتبتين حتى حضرته غيبته فأظهرها ، فنص برتبة النبوة على ولده الحسن ، وبرتبة الإمامة على ولده الحسين ، وعهد إلى الحسن عند حضور نكحته بأن يسلم الرتبة إلى أخيه الحسين ، بعد تقدم النص عليهما من جدهما بقوله :

(١) يقول الاسماعيلية : إن لكل نبي ناطق صاحباً ، يأخذ عنه دعوته ، ويحفظها على أمته ، ويكون معه ظهيراً له في حياته وخليفه له من بعد وفاته . وعندهم أن هذا صاحب إمام واسكن يسمونه « السوس » ، أو « الأساس » ، (انظر المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٩٣ . وعندهم أن شيثا سوس آدم ، وأن له شريعة باطنة ، وآدم شريعة ظاهرة ويعتبرون سام بن نوح أساس أبيه وصاحب الشريعة الباطنة على حين يعتبرون إبراهيم الخليل نبياً ناطقاً له شريعة ظاهرة وأساسه ابنه إسماعيل صاحب الشريعة الباطنة ، ومثل ذلك في هرون الأساس وأخيه موسى ناطق ، ويرون أن لعيسى شريعة ظاهرة ولاساسه شمعون الصفا شريعة باطنة ، وهكذا يرون في محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ناطقاً له شريعته الظاهرية وفي ابن عمه علي أساساً له شريعته الباطنة .

(٢) انظر المنتخب من كتب الاسماعيلية ص ٣٨

الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا ، وأبوهما خير منهما . وليس هذا وحده بل إن فريق الحسينية - وعلى رأسهم الاسماعيلية - يحاولون بكل ما استطاعوا إقصاء بني الحسن بن علي عن الإمامة ، فيبتدعون نظرية الاستقرار والاستبداد للبرهنة على بطلان دعوى الحسينيين في الإمامة ، فكأن الدوافع السياسية هي التي حملت الاسماعيلية خاصة على ابتداع تلك النظريات في الإمامة . يدلنا على ذلك ما قالوه في محمد بن الحنفية من أنه حمل الوديعة - الإمامة - فقط ليردها إلى مستحقها - عليّ زين العابدين - ويرون أنه قام بردها فعلا ؛ ولهذا لا يعدون محمد بن الحنفية إماماً من أئمتهم . والفرق بين ابن الحنفية والحسن بن علي أن انتقال الإمامة إلى من خلف الحسن كان بعد وفاته (أي الحسن) ، أما ابن الحنفية فقد رد الوديعة قبل وفاته (١) ، فهو والحالة هذه ، لا يعدو أن يكون نائباً عن الامام في حياته أو حجة له وستراً ، شأنه في ذلك شأن بني القداح فيما بعد . وهكذا نستطيع أن نقول : إن إقرار إمامة الحسين فيها بطلان دعوى أبناء الحسن في الإمامة ، كما أن إقرار إمامة علي زين العابدين - الامام الرابع - ينطوي على نفي إمامة محمد بن الحنفية أي نفي إمامة آبائهم . ونستطيع أن نلح الخلاف القائم بين الامامية والكيسانية من قول كثير عزة السابق :

ألا إن الأئمة من قریش ولاة الحق أربعة سواء

فهو في هذا القول لا يعترف بإمامة علي زين العابدين ، على حين ينفي الامامية إمامة محمد بن علي وأبنائه من بعده .

ولا يعترف الامامية كذلك بإمامة زيد بن علي زين العابدين ويقولون (٢)

(١) ويبرهن دعاة الاسماعيلية على عدم أحقية ابن الحنفية للإمامة بأمر كثيرة تنجح كلها إلى إنكار الإمامة في أبناء الحسين عن طريق علي زين العابدين : من ذلك ما يروونه من أن علياً زين العابدين حين طلب من عمه محمد تسليم وديعته قال له : « وما هو لك المودع عندي ؟ فقال : هي قارورة محتومة فيها قرطاس أبيض وهي فارغة ليس فيها غيره . فعند ذلك جمع محمد بن علي الدعاة والقباء وسلم إليه بمحضرتهم ، وأخرج القارورة وفتحها على بن الحسين بمحضور من حضره ، فلم يكن فيها غير القرطاس الأبيض ، فكانت تلك بعض آيات التي أظهرها ليقع الاقرار به والتصديق . وكان إبداع الحسين بن علي - سلام الله عليه - القارورة المارغة والقرطاس الأبيض إشارة إلى خلوه من الائمة . » [غاية المواليد (من المنتخب) ص ٣٥ - ٣٦] . والذي نقره من تلك العبارة أن الدعاية لأبناء علي كانت رائجة في ذلك الحين ، وأن الاسماعيلية في العصور المتأخرة كانوا يعملون على تقريب أسباب هذا الخلاف بين أبناء علي المختلفين .

(٢) يعتقد الاسماعيلية أن هناك دورات للأنبياء والأئمة ، وأن دورة الماعق - النبي - لا بد أن

بإمامة ابنه الآخر محمد الباقر بن علي زين العابدين . وهو عندهم الامام الخامس ، وأن أباه نص على إمامته من بعده . وهذا يفسر لنا كراهية الزيدية لبني عمهم الاسماعيلية ومقاومتهم إياهم في بلاد اليمن خاصة في جميع أطوار حياتهم .

أما الامام السادس عند الامامية فهو جعفر الصادق . ويظهر أنه كان من الحسكة السياسية بحيث كان يعمل على ألا يعرض شخصه ولا أنصاره للخطر الخارجى ؛ فرفض الخلافة من أى سلة الخلال حتى لا يصطدم مع العباسيين وأنصارهم الأئى هاشمية (من الكيسانية) الأقوياء الطامحين ، ورفض أن يعلن الثورة على العباسيين لكيلا ينال منهم ما ناله ابن عمه النفس الزكية ؛ وأعلن تبرأه من أبى الخطاب وغيره من الغلاة ، حتى لا يتعرض لسخط الرأى العام من جهة ، ويسهل على العباسيين الوصول إليه من جهة أخرى — واستطاع بفضل تلك السياسة الرشيدة أن يعمل في الخفاء ، وأن يربل شكوك العباسيين فيه ، ويمهد السبيل لأنثائه من بعده للوصول إلى الخلافة . ونعتقد أنه لولا فضج جعفر السياسى لما قامت للاسماعيلية والاثنى عشرية بعده قائمة . ولا نغالى إذا قلنا : إن جعفرا الصادق اتخذ من قيام الدولة العباسية وسيلة لبسط نفوذه وتدعيم تأثيره المذهبي ؛ فلم يكتف بالضعف الذى أصاب الفريقين العلويين الآخرين وهما فريقا الحسينيين أتباع الحسن والخنفية أتباع محمد بن الحنفية بل أظهر نفسه لفلول هؤلاء جميعاً على أنه الوارث الحقيقى لعلى وفاطمة ، فأخذوا يتسابقون في التقرب إليه وإلى أبنائه ، وكونوا طائفتى الاسماعيلية والاثنى عشرية وغيرهما . وعلى الرغم من أن جعفراً لم يدرك نتائج جهوده كلها ، فانه قد مهد السبيل لخلفائه الذين التف حولهم جميع فرق الجعفرية التى تدين له بالطاعة ، وغيرهم من الفرق الأخرى .

(١) إمامة إسماعيل بن جعفر

انقسم الإمامية بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ إلى فريقين : فريق نادى

يكون فيها سبعة أئمة أحدهم — وهو أولهم — العوس أو الأساس . ويسمى الستة الآخرون الأئمة الصمت ؛ والأئمة الصمت عند الاسماعيلية هم الحسن والحسين وعلى زين العابدين ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ثم إسماعيل بن جعفر .

بأحقية إسماعيل^(١) بن جعفر ، ويعرف هؤلاء بالاسماعيلية أو السبعية ، لأن إسماعيل في نظرهم هو الإمام السابع . ومن هؤلاء ظهر عبيد الله المهدى . وفريق آخر نادى بأحقية موسى الكاظم ، الابن الأصغر لجعفر الصادق ، وأبنائه من بعده حتى الإمام محمد الثاني عشر الذي اختفى بسر داب في مدينة سامرا سنة ٢٦٠ هـ ولا يزال أنصاره ينتظرون عودته ، ولذلك سمي الإمام المنتظر . وكانوا يعرفون بالموسوية — نسبة إلى موسى الكاظم بن جعفر — واشتهروا بعد ذلك باسم الاثنا عشرية لانتظارهم إمامهم الثاني عشر .

ويرتبط بإمامة إسماعيل نظريات كثيرة قال بها أو ابتدعها الاسماعيلية ، منها تعيين الإمام بالنص ، وأن النص الأول هو المعمول به ، لأن البداء^(٢) من الله محال فيرى أنصار إسماعيل أنه كان أكبر أبناء أبيه جعفر وأحبهم إليه وأنه نص على إمامته بعده . ولذلك يرد الاسماعيلية على الموسوية والاثنا عشرية قولهم : إن موسى أحق من أخيه إسماعيل لأن إسماعيل مات في حياة أبيه فنص هذا على إمامة موسى ، ويقولون لهم : إن التعيين الأول هو المعمول به ، وأما الثاني فباطل لأنه يعتبر بداء وقد نسيت قول الصادق عليه السلام : إن البدء والمشينة لله إلى كل شيء إلا في الإمامة^(٣) . ، ويؤكدون لهم أن جعفرا الصادق كان يقول : « لو جاءكم أحد بدماع ابني هذا (إسماعيل) فلا تشكوا أنه الإمام بعدى ، ، وأنه كان يقول فيه أيضاً : هذا هو الإمام بعدى ؛ فما أخذتموه عنه فهو عنى^(٤) . كما لا يقر الاسماعيلية بموت إسماعيل في حياة أبيه ، ويردون على الاثنا عشرية الذين يقول شاعرهم :

لما انبرى لي سائل لأجيبه موسى أحق بها أم إسماعيل ؟
قلت : الدليل معي عليك وما على ما تدعيه للإمام دليل
موسى أطيل له البقاء فحازها إرثاً ونصاً والدعاة تقول :

(١) يعرف إسماعيل بالأعرج ، وكان أكبر إخوته وأحبهم إل أبيه . وقد توفي في حياة أبيه جعفر الصادق بالعريض في المدينة المنورة ، ودفن بالبقيع في سنة ١٤٥ هـ وهو الراجح ونيل في سنة ١٣٨ هـ (انظر صحاح الأخبار ص ٤٥) .

(٢) ومعناه أن الله يبدل له فيغير ما أراد .

(٣) جعفر بن منصور : أسرار الطغاة ص ٩٥

(٤) المرجع نفسه

إن الإمام الصادق بن محمد عزى بإسماعيل وهو جديـ
وأنى الصلاة عليه يمشى راجلاً أجمع في وقته معزولاً (١) ؟

ويقول الإسماعيلية : إن جعفر الصادق إنما أشهد على موت إسماعيل لإبعاد
خطر العباسيين ، ويؤكدون أن إسماعيل مات بعد وفاة أبيه لا قبله وأنه رقى
بالبصرة في سنة ١٥١ هـ وفعل المعجزات بها بإيرائه مريضاً مرضاً مزمناً ، وأنه قام
بذلك وإعجازاً للخلائق بظهور القدرة من الله تعالى وبقاء الكلمة في عقبه الطاهرين
من بيته . لأن تم الحكمة وتتصل إلى الخلائق رحمة وتكمل الحجة وتم النعمة ، (٢)
ويعتقدون أن ما فعله إسماعيل هو نوع من الغيبة التي اشتهر الشيعة بها ، لذلك
يقولون : « إنه غيب شخصه في حياة أبيه سرّاً أعدائه ومحبة لأوليائه (٣) » . وهكذا
لم يعترف الإسماعيلية للموسوية بأحقيتهم بالامامة دونهم .

والواقع أن إسماعيل بن جعفر مات في حياة أبيه ، وأن كثيراً من الإسماعيلية
يؤمنون بذلك . ولكن الإسماعيلية جميعاً يؤمنون بأن النص لا يرجع القهقري ،
ولذلك يتخذون نظرية الاستقرار والاستيداع وسيلة للتدليل على إمامة إسماعيل
دون أبي عمه موسى ، فيقول المعتدلون منهم : إن موسى الكاظم كان إماماً مستودعاً
لإسماعيل وأبنائه ، لأنهم أئمة استقرار شأنه في ذلك شأن الحسن مع الحسين
وأبنائه . كما يقولون إن إسماعيل أوصى قبل موته أباه جعفر بتعيين وصي لابنه محمد
ابن إسماعيل ، فعين جعفر ابنه موسى الكاظم وصياً على حفيده محمد بن إسماعيل
ليكون ستراً عليه (٤) . فكان هذا مصداقاً لقوله تعالى : « وجعلها كلمة باقية في

(١) كتاب أعيان الشيعة ج ١١ ص ٢٧٥

(٢) الداعي إدريس عماد الدين : زهر المعاني (من المنتخب) ص ٤٩ . والواقع أن إسماعيل
مات في حياة أبيه جعفر وأن موته كان سنة ١٤٥ هـ على الأرجح . ويرى الكثير من الإسماعيلية أنه مات
في سنة ١٣٨ ، ويرى آخرون أن ذلك كان في سنة ١٤٣ هـ . وهذا يرى أن ما ذهب إليه علماء الإسماعيلية
من أنه مات بعد سنة ١٤٨ ضرب من ضروب القوي .

(٣) جعفر بن منصور : أسرار النطق ص ٨١ (من المنتخب)

(٤) جعفر بن منصور : أسرار النطق (من المنتخب) ص ٨١ . ويقول الداعي إدريس : « وإن
الصادق عليه السلام أقام موسى حجاجاً على محمد بن إسماعيل وعلى من بعده له باباً الذي هو ميمون الصقر
عليه والكفيل » ، (زهر المعاني ص ٤٩) .

عقبه . . والحق أن هذا يتفق مع حرص الصادق الذي اشتهر به^(١) . فقد كان يخشى العباسيين ، ولذلك أشهد الناس على وفاة ابنه إسماعيل حتى لا يشير شكوك العباسيين ، بل إن الاثنا عشرية يذهبون إلى القول بأن جعفرأ د لما حضرته النقلة ، استخلف المنصور على أهله وولده ، كل ذلك صيانة لهم وستراً على ولي الله صلوات الله عليه ، (٢) .

ويقول الداعي إدريس في كتابه زهر المعاني : « إن موسى الكاظم لم يجعله الصادق عليه السلام إماماً إلا ستراً على ولي الأمر (أى محمد بن إسماعيل) لينكتم أمره عن الأضداد ، ولئلا يطلع على ما خص به أهل العداوة والعناد » . ويقول : « والموسوية قالت بإمامة موسى بن جعفر ، وكان أكثر اجتماع شيعة الصادق عليه السلام على موسى وعلى القول بإمامته . وادعى موسى الامامة لنفسه . قيل إن ذلك تقية منه على الامام محمد بن إسماعيل ، وإذ لو ملك الأمر لرده إلى أهله وأحله محله (٣) » . من هذا كله يتضح مبلغ محاولة الاسماعيلية إثبات أحقية إمامهم إسماعيل الذي يعتقد بعضهم فيه ما يعتقد المسلم في نبيه محمد صلى الله عليه وسلم (٤) .

ولكن هل قامت الدعوة الإسماعيلية في عهد إسماعيل ؟ الواقع أنها لم تتكون إلا في عهد ابنه محمد بن إسماعيل^(٥) وأبنائه من بعده . ونحن نشك كثيراً في تكوين فرق الاسماعيلية في حياة إسماعيل ، أو بالأحرى في حياة أبيه جعفر الصادق ، اللهم إلا إذا افترضنا اندماج جعفر مع أنصار إسماعيل وابنه من الغلاة ، وافترضنا أنه تبرأ منهم تقية ، وهو ما لم يوافق عليه أحد . وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نقول على وجه التحقيق إن إسماعيل كان يدعو إلى نفسه في حياة أبيه جعفر ، فإن

(١) الأئمة عن جعفر قوله : « التقية ديني ودين آباءي » من لا تقية له فلا دين له ، المنتخب ص ٩٢ .

(٢) جعفر بن منصور : أسرار الطغاة ص ٨١ .

(٣) الدكتور محمد كامل حسين : المزيد في الدين (رسالة) ص ١٣٥ .

(٤) الداعي إدريس : زهر المعاني ص ٤٧ (من المنتخب)

(٥) De Sacy : Recherches sur l'initiation à la Secte Ismaelienne, (J.A., 1824) p. 302.

هناك من الحوادث ما يجعلنا نميل إلى القول بأن إسماعيل كان على صلة بمؤسسى فرقة ؛ من ذلك اتهام الاثنا عشرية وغيرهم من السنيين لإياه بشرب الخمر (١) الذى يبيحه الغلاة . ولا يبعد أن يكون قد فعل ذلك — إن صح — لاتصاله بمؤسسى فرقة كالخطابية والمباركية وسواهم ، أو بعبارة أخرى لا يبعد أن يكون إسماعيل قد أخذ يقول بالغلو الذى يعتبر من أهم مقومات المذهب الإسماعيلي . يؤيد ذلك حادثنان : الأول قول أحد خاصّة جعفر الصادق : « كنت مع جعفر بن محمد صلوات الله عليهما ، فى باب الخليفة أبى جعفر بالخيرة حين أتى ببسام ، (أحد الغلاة) وإسماعيل بن جعفر بن محمد ، فأدخلا على أبى جعفر ، فأخرج بسام مقتولا ، وأخرج إسماعيل بن جعفر بن محمد ، ورفع جعفر رأسه لإياه وقال : أفعلتها يا فاسق ! أبشر بالنار . » (٢) .

والثانية : ما أورده الكاشى أن الصادق عليه السلام قال للمفضل (٣) : يا كافر يا مشرك ! ما لك ولابنى — يعنى إسماعيل — وكان منقطعاً إليه يقول فيه مع الخطابية ، ثم رجع بعده ، وفى رواية أخرى أأنت المفضل ؟ وقال له : يا كافر يا مشرك ! ما تريد إلى ابنى ؟ تريد أن تقتله ؟ (٤) . ومعنى ذلك أن إسماعيل كان على اتصال بجماعة الغلاة الذين قامت الدعوة الإسماعيلية فيما بعد على أكتافهم ، وخاصة بأبى الخطاب وأنصاره ، وهذا ما حدا بالاستاذ ماسينيون إلى القول بأن الكنية التى يكنى بها أبو الخطاب ، وهى « أبو إسماعيل » ، إنما تشير إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأن الخطاب هو الأب الروحى لإسماعيل بن جعفر (٥) . وهكذا كان أبو الخطاب على اتصال دائم بإسماعيل بن جعفر فى حياة أبيه ، وقد كانا يعملان معا على تنظيم مذهب اتخذ أساسا للمذهب الإسماعيلي فيما بعد ، كما كانا يعملان على

(١) يعتقد بعض الإسماعيلية فى إباحة شرب الخمر وارتكاب المحظورات على أبهى الرؤساء بدعى أنه لا جناح عليهم ، وأن تكاليف الشريعة إنما جعلت للامة وحدهم .

(٢) انظر أعيان الشيعة ج ١١ ص ٢٧٥

(٣) هو المفضل بن عمر الجعفى أحد أنصار أبى الخطاب

(٤) أعيان الشيعة ج ١١ ص ٢٧٥ - ٢٧٦

(٥) Bernard Lewis : The Origins of Ismailism, p. 42. (٥)

تكوين فرقة شيعية ثورية ، تمكنت فيما بعد من جذب جميع الفرق الشيعية الأخرى إليها . بحيث أخذ الجميع يتسابقون في الاعتراف بإمامة إسماعيل وأبنائه من بعده . وإذا صح ذلك فكيف نفسر لإقرار إسماعيل أباه جعفرًا على تبرئه من أبي الخطاب ؟ وهل كان ذلك تقيّة (١) منه ، أم أن ذلك يرجع إلى عقيدة راسخة في نفس إسماعيل ؟ ويظهر أن إسماعيل كان يحارى أباه خوفاً من العباسيين . هذا إذا صح أنه أقر أباه في انتفاضه على أبي الخطاب ، لأن الرواية تذهب إلى أن إسماعيل كان لا يزال طفلاً في ذلك الحين . ونحن نعلم أن انتفاض جعفر الصادق على أبي الخطاب (٢) كان بعد قيام الدولة العباسية ، وأن إسماعيل لم يكن في ذلك الوقت طفلاً ، بل كان رجلاً كامل الرجولة مما يبعث على الشك في صحة هذا القول ؛ ويوحى إلينا في الوقت نفسه بأن إسماعيل قد بدأ ينظر إلى الإمامة وزعامة العالم الإسلامي نظرة عملية .

من هذا نستطيع أن نذهب إلى القول بأن بعض الأئمة العلويين قد غيروا ، منذ أيام إسماعيل ، السياسة التي سار عليها علي بن أبي طالب مع ابن سبأ ، ومحمد بن الحنفية مع المختار بن أبي عبيد-الثقفي الكيساني ، وجعفر الصادق مع أبي الخطاب . وإن هذه السياسة الجديدة كانت تعنى باستغلال الفرص الملائمة لمصلحة الدعوة العلوية . ولذلك أصبحت سياسة هذا النفر من الأئمة العلويين سياسة تقوم على المنفعة وحدها ، وهذه السياسة لا بد أنها لم تعجب المعتدلين من الشيعة أو الأئمة الآخرين . يتضح ذلك من موقف جعفر الصادق من ابنه إسماعيل وأنصاره . وعلى عكس ذلك

() أى أن يظهر خلاف ما يعان نخوما .

(٢) ذكر الداعي جعفر بن منصور أنه : جاء عن بعض أصحابه (إسماعيل) ، وكان من دعوة أبي الخطاب ، أنه قال : رأيت إسماعيل عند منصرفه من الكتاب ، فأجلسته في حجرى ، وثبتت رأسه ، وقلت : ما أعجب أركم ؟ فقال : بأى الأمور تعجب يا فلان ؟ قلت : يقول لنا أبوك بالأمس أبو الخطاب معدن سرنا وعيبة (وعاء) علنا ، واليوم يلعبه ويأمرنا بالبرادة منه ، فقال : يا فلان ، وسماه ، إن الله حل وعز لما دعا السموات والأرض وذلك قوله : : انتبها طوعا أو كرها فاتتا : أتينا طائمين ، ، فكانتا مطيبتين . وكذلك انطقاء والأوصياء والأئمة كانوا طائمين في إجابتهم ، فلذلك صاروا معصومين ، وسائر الأنباغ لهم مستقر ومستودع . . . وإن أبا الخطاب ممن استودعه الله علينا ، فلذلك قال بولايتنا ، فلما أهدى دينه قبض الله وديعته ، فنبأنا أنه . فمن أى هذه الأمور أنت تعجب ؟ .

أسرار النطقاء ص ٩٥ - ٩٦ .

وجدت هذه الحركة الاندفاعية الجديدة رواجاً كبيراً بين غلاة أنصاره ، فحمل لواءها أخيراً ميمون القداح وأبناؤه ، وكانوا من أخلص تلاميذ هذه المدرسة ، وتركزت عصارة هذه الأفكار الجديدة في جماعة الإسماعيلية .

والخلاصة أن جعفر الصادق عهد إلى ابنه إسماعيل بالإمامة من بعده ، ولكنه نزل عن هذا التعيين الأول ، ومنحه ابنه الأصغر موسى الكاظم ؛ وذلك إما لوفاء إسماعيل في حياة أبيه ، أو لانتهاكه بشرب الخمر ، لكي يبعد الشكوك عن نفسه وعن جماعته ، بعد أن اتضح للعباسيين أن إسماعيل كان على صلة ببعض الغلاة ، أو أن جعفر فعل ذلك ذراً للرماد في العيون ، حتى يستطيع الإمام المستقر الحقيقي ، وهو محمد بن إسماعيل ، النهوض بأعباء الدعوة سرا .

انقسام العلويين بعد جعفر الصادق

على أن موت جعفر الصادق أوجد حالة خطيرة من الاضطراب بين أتباعه وأبنائه ؛ فهناك جماعة ظلوا على وفائهم لجعفر الصادق ، ونادوا بمهديته وانتظاره وقالوا : إنه لم يمت ، وإليه سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، ويسمى هؤلاء « الجمعوية » ، إلا أن هذا الفريق ضعف وانمحق على مر الزمن .

ومن هؤلاء الأنصار جماعة اعتقدوا لإمامة عبد الله بن جعفر المعروف بالأفطح ، وفيهم يقول الداعي لإدريس (١) عماد الدين : « اعتقدت فرقة أخرى لإمامة الأفطح (الصواب الأفطح) عبد الله بن جعفر . فمات في عصر أبيه وهو منقطع الولد ، فبطل مالفقوه من الترهات . »

والواقع أن هذا الفريق قد قضى عليه لأمور منها : منافسة الفرق القوية الأخرى له ، ولا سيما جماعة الاثنا عشرية والإسماعيلية ؛ ومنها أن الأفطح مات بعد حياة أبيه ، لا كما ذهب إليه إدريس ، ولم يعرف أن جعفر الصادق نزل له عن الإمامة . أضف إلى ذلك أنه مات ولم يعقب ولداً ذكرًا بما أضعف مركز المتأدين بإمامته . ونستطيع أن ندرك من حركة الأفطحية كيف اتخذوا الالتئام إلى أهل

(١) ذكر المغانى (من المنتخب من كتب الإسماعيلية) ص ٥٥

البيت وسيلة للتمتع بالنفوذ والجاه . ولا غرو فإن الأفظحية كانوا يدركون تمام الإدراك عدم أحقية الأطلح الذي تشيعوا له لهذا الغرض فحسب .

وهناك جماعة قالوا بإمامة محمد بن جعفر الصادق ، ويسمون « الحمدية » ، ويدعى هؤلاء أن محمد بن جعفر إمامهم ، وأنه ثار على العباسيين وحاربهم في مكة . ولا يعترف الإسماعيلية له بالإمامة ، لأن جعفر لم ينص عليه . ولأنه حارب العباسيين في الشهر الحرام وفي البلد الحرام ؛ ثم لأنه اتبع هو وأنصاره طريقة العلويين التي كان نصيبها الإخفاق ، فلم يتخذوا لأنفسهم دار هجرة يعتصمون بها ، ويجاهدون عدوهم منها ، ثم يفتحون بعد ذلك دار هجرة ، (١) . هذا إلى أن العباسيين عبثوا به ، وجعلوه يقر على نفسه وعلى دعوته بالخطأ ، كما تبرأ هو من دعوته ، وأقر على نفسه بالضلال . « والشيعه بأسرها مجتمعون على أن الإمام الذي يقوم بمكة لا يذلل له رأيه » ، (٢) .

وقد تكونت جماعة قوية أخرى تنادى — على ما رأينا — بإمامة إسماعيل بن جعفر ، وهم الإسماعيلية ، وانضوى أكثر الشيعة تحت لواء موسى الكاظم ، وسماوا — على ما رأينا — الموسوية (٣) ثم الاثنا عشرية . على أن الأبطحية والمحمدية لم يكن لهم من الشهرة ما كان للإسماعيلية أو الموسوية .

ولا يعزب عن أذهانتنا أن الاضطراب المذهبي الذي أعقب موت جعفر الصادق قد ساعد على نجاح فريق الإسماعيلية . فقد أخذ ابنه محمد يدعو إلى نفسه في الخفاء ، واستغل اشتغال العباسيين بتجميع الطوائف العلوية الأخرى التي تكلمنا عليها من قبل .

(ب) إمامة محمد بن إسماعيل

مات إسماعيل حول سنة ١٤٥ هـ ، ولابنه محمد من العمر أربع عشرة سنة . وقد

(١) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٨٤

(٢) المصدر نفسه

(٣) Defrémery : Essai sur l'Histoire des Ismaéliens

de la Perse, p. 12.

ولاه أبوه عهده ونص على إمامته في حياة جده جعفر الصادق . أى قبل سنة ١٤٥ هـ ،
فعل ذلك لأن الإمامة — على ما يقولون — لا ترجع القهقري . ويرى بعض
الإسماعيلية أن جعفرا الصادق لما عين موسى الكاظم ليكون سترا على محمد بن إسماعيل
استبد موسى بالامر دون محمد بعد موت الصادق (١) . ويرى بعض آخر أن
جعفرا الصادق عهد إلى ميمون القداح - وكان من أخلص رجالهم - برعاية محمد بن
إسماعيل . وأن ذلك كان في طفولة محمد لا عند موت أبيه (٢) .

ويبدو أن محمد بن إسماعيل كان يعمل على نشر الدعوة لنفسه وهو بالحجاز .
وقد اشتهر أمره بعد وفاة جده جعفر الصادق ، واستطاع أن يموه على العباسيين
طوال عهد المهدي (١٥٨—١٦٩ هـ) والهادي (١٦٩—١٧٠ هـ) وجزءا من
عهد الرشيد (١٧٠—١٩٣ هـ) ، وساعده على ذلك إمعان أنصاره في التخفي
واشتغال المهدي والهادي بحرب الزنادقة والعلويين الثوار . وكان محمد بن إسماعيل
قد تعلم من جماعة العباسيين السرية (الآبي هاشمية) التي استطاعت بفضل إمعانها في
التخفي أن تقلب العرش الأموي ؛ ولذلك فرق دعاة السيارة في جزائر الأرض (٣) ،
وأمر أهل الجزائر بإقامة الدعة باسمه ، فعمرت الأرض ، وانتشر الامر ، وأقبلوا
في السياحة لنصب دار هجرة لهم ، (٤) .

غير أن محمد بن إسماعيل أدرك استحالة بقاءه في المدينة بعد اشتهار أمره في
عصر الرشيد الذي يعتبر عهده العصر الذهبي للعباسيين ، والذي استطاع بنشاطه
المتصل أن يخمد الثورات ويقضى على إدريس بن عبد الله وأخيه يحيى ، كما استطاع
في الوقت نفسه أن يرقب حركات محمد بن إسماعيل ويعمل على اقتناصه . ولكن محمد
ابن إسماعيل أدرك خطر الرشيد على دعوته ، فأعد للامر عدته ، فاتخذ سردابا له في
داره بالمدينة ، حتى إذا ما شعر بدنو الخطر فر هاربا . وتتفق المصادر السنية
والإسماعيلية في القول بأن محمد بن إسماعيل استطاع أن يتوغل في شرق المملكة

(١) الداعي لإدريس : زهر المعاني ص ٤٩ ، ٥١

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧

(٣) الجزيرة عند الإسماعيلية هي الأقليم الرمي من إقليم الدعوة .

(٤) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٦٠

الإسلامية . فيرى بعض (١) . أنه قصد فرغانة واستقر بها ، ويرى بعض آخر أن استقراره كان بنيسابور (٢) حيث تزوج هناك ، وأوجب ابنه عبد الله الرضى الذى عهد إليه بالإمامة من بعده (٣) ، على حين ترك ابنه إسماعيل وجعفر فى المدينة ، ولم يكن لهما من الإمامة شيء .

ويرى رشيد الدين (٤) أن محمد بن إسماعيل فر من المدينة إلى العراق فالرى ، ومنها إلى دوماوند ، وهو جبل قريب من الرى ، واستقر هناك بقرية تدعى سملا ، أطلق عليها فيما بعد محمد آباد . (٥) نسبة إليه . وإن فرار الإمام محمد من المدينة لم يكن خوفا من العباسيين . وإنما كان لنشر الدعوة وإنفاذ أبنائه ودعائه إلى كافة أنحاء العالم الاسلامى ؛ لأنه كان من السهل على من يقيم خارج بلاد الحجاز أن يتصل بالبلاد الأخرى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن هرب محمد بن إسماعيل قد حدث بعد موت جعفر الصادق فى سنة ١٤٨ هـ . وكان قد أقام موسى الكاظم (+ ١٨٣ هـ) وصيا على محمد بن إسماعيل . ولعل موسى حاول الاستئثار بالإمامة دون محمد الذى خشى إفشاء سره على يد الموسوية ، وأدرك استحالة رواج الدعوة إليه إذا بقي بالحجاز ؛ ولذلك أثر الفرار منها إلى بلاد يسهل عليه التردد عليها من حين إلى حين . ولذلك نراه لا يفتر عن الانتقال ؛ فطورا نراه فى فرغانة والرى ، وطورا آخر فى سورية ، مما يدلنا على أنه كان يخاف بأس الرشيد ، ويؤيد بطلان رأى القائل بأنه كان على وفاق مع هذا الخليفة ، وإنه كان لا يترك السعى إلى السلطان من نبي العباس بعنه الإمام موسى الكاظم عليه السلام ، وهو مع ذلك يبره . وقد آل أمر سعيد به أن قبض عليه الرشيد وحبسه . . . حتى مات وحظى بعده ابن أخيه محمد بن إسماعيل هذا عند الرشيد ، ومات ببغداد (٦) .

(١) Ivanow : The Rise of the Fatimids, p. 30.

(٢) الداعى إدريس : زهر المعاني ص ٥٤

(٣) نفهم من ذلك أن مولد الإمام المستور الثانى - عبد الله - كان بعد فرار أبيه من المدينة فى

عهد الرشيد ، أى بعد سنة ١٧٠ هـ بزمان طويل .

(٤) جامع التواريخ : المجلة الأسبوعية الملكية سنة ١٩٣١ ص ٢٢٢

(٥) يقول الاسماعيلية إن موسى الكاظم ادعى الأمر له ولولده من بعده . المنتخب ص ٥١

(٦) عبد الله بن سراج : صحاح الأخبار ص ٤٥ - ٤٦ . ويتعارض هذا مع مراجعنا الاسماعيلية

التي تذهب إلى القول بأن محمد بن إسماعيل مات فى فرغانة أو فى نيسابور .

هذا عن فرار محمد بن إسماعيل من المدينة . أما عن مركزه في الدعوة ، فإنه يعتبر أول الأئمة المستورين الذين يقتنون بظهور سعيد وقيام الدولة الفاطمية في المغرب سنة ٥٢٩٦ هـ . وكان يسمى قبل فراره « الإمام محمد » ، أما بعد ذلك فقد أصبح يطلق عليه « الإمام المكتوم أو المستور » ، وهو بذلك أول من أوجد دور الستر الأول عند الإسماعيلية .

ويعتبر الإسماعيلية محمد بن إسماعيل الناطق السابع ، وأن إمامته كانت بداية دور جديد في تاريخ الإسماعيلية ، بل يذهبون إلى القول بأنه أتى بدين جديد ، نسخ به الشريعة التي سبقتها ، حتى لقد فضله الإسماعيلية على أبيه إسماعيل خاتم الأئمة الصمت . فهو في نظرهم قد جمع بين درجتى النطق والإمامة . ورفع عنهم التكليف الظاهرية للشريعة بمبادئه بالنأويل ، واهتمامه بالمعنى الباطن وغضه من شأن المعنى الظاهر ، ولذلك قيل فيه : « وإنما خص محمد بن إسماعيل بذلك ، لانتظامه في سلك مقامات دور الستر ؛ لأنك إذا عدت آدم ووصيه وأئمة دوره ، كان خاتمهم الناطق ، وهو نوح عليه السلام ... وإذا عدت عيسى ووصيه وأئمة دوره ، كان محمد ﷺ متسلما لمراتبهم ، وهو الناطق الخاتم للنطقاء ، وكان وصيه عليه السلام بالفضل منفردا به . وإذا عدت الأئمة في دوره كان محمد بن إسماعيل سابعهم^(١) . وللسابع قوة على من تقدمه ، فلذلك صار ناطقا وخاتما للأسبوع ، وقائما وهو ناسخ شريعة صاحب الدور السادس ، ببيان معانيها وإظهار باطنها المبطن فيها^(٢) » . ويقول فيه المعز لدين الله : « وعظمت بقيامه ظاهر شريعة محمد ﷺ^(٣) » وتلا به الأرض عدلا كما ملئت جورا وخيظا لما كان لمعانيها مبيئا ، ولأسرارها كاشفا ومجليا ، فأزال عن أتباعه وأشياعه اعتقاد الظاهر على ما فيه من تعطيل وتشبيه للبدع الحق بمخلوقاته^(٤) .

(١) نعلم أن إسماعيل هو الامام السابع ، ويظهر أن الداعي إدريس يريد أن يقول : إن الامام الحق بعد جعفر الصادق (الامام السادس) هو محمد بن إسماعيل ، وأما أبوه فكان واسطة اتصال بين جعفر والوالد إدريس ومحمد الابن .

(٢) الداعي إدريس : زهر المعاني ص ٥٩

(٣) المصدر نفسه حيث يقول أيضا هو « مترجم القرآن ومفسره ، ومظهر بيانه ومنوره ، وقائم يوم القيامة » .

(٤) ويقول الداعي إدريس (زهر المعاني ص ٤٧) عن ميمون القداح « هو ميمون بن غيلان

كان محمد بن إسماعيل يعتمد في نشر هذه الدعوة على حبيته ميمون القداح الذي يذكر الإسماعيلية أنه من نسل سلمان الفارسي ، وسنرى أن أسرة القداح سوف تلعب دورا هاما في تاريخ الإسماعيلية ، وأن محمدا لم يمت حتى كان قد وضع مع حبيته ميمون أسس الدعوة الإسماعيلية . ولا نعرف بالضبط سنة وفاة ميمون . على أن هذه الوفاة لابد أن تكون قد حدثت بعد سنة ١٨٣ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها موسى الكاظم ، لأن ميمونا عاش بعد الكاظم على ما ذهب إليه صاحب صحاح الأخبار .

ترك محمد بن إسماعيل كثيرا من الأولاد ، ومن هؤلاء عبد الله الذي ولاه أبوه عهده . أما إسماعيل وجعفر فقد رأينا أنه لم يكن لهما من الأمر شيء . ومن أولاد محمد ، علي بن الليث وأحمد والحسين . وقد تمكن العباسيون من الفتك بابنه علي ؛ ومن ثم هرب ابنه أحمد بن محمد إلى خوارزم ، ولا نعرف ما حدث له هناك . كما عين محمد بن إسماعيل ابنه الحسن ليعمل باسم ابنه وولي عهده عبد الله الرضى ، فظل مخلصا لأخيه لولا أن بعض الدعاة حاولوا إقامة الدعوة باسمه ، وإن كان ذلك على كره منه . ويقال إنه قصد خوارزم للاتصال بأخيه أحمد بن محمد بن إسماعيل ، فقبض عليه وقتل هو وجميع أقاربه ومن معه من أهل بيته ، حتى إنه لم يبق منهم إلا أحمد بن محمد بن إسماعيل ، وعبد الله الرضى . أما أحمد فلم نعرف عنه شيئا كما تقدم ، وأما عبد الله فقد انتقلت إليه الإمامة بعد أبيه .

(ح) إمامة عبد الله الرضى بن محمد بن إسماعيل

ولد عبد الله بن محمد الملقب بالرضى والناصر أو العطار في نيسابور ؛ ويعتبر أول الخلفاء (١) عند الإسماعيلية . ويذكر صاحب كتاب دستور المنجمين (٢) أنه عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل . وقد ولد في عهد الرشيد أو بعده . وأحاطه أبوه

== ابن بيدر بن مهران بن سلمان الفارسي ، كفيل محمد بن إسماعيل ومستودع أمره ... وميمون من أولاد سلمان ، وسلمان من أولاد إسحاق بن يعقوب أهل الاستيلاء والقائمين بالبلاغ والابلاغ ، .

() الخليفة الإسماعيلي هو الامام العصاة الأول ، فهو شبيه بالحسن بعد علي

De Goeje : Memoires, vol. ii. p. 203. (٢)

بفريق من دعاة الخلاصين ، كما غلا هو وأنصاره في إخفاء أمر ابنه عبد الله هذا حتى لا يقع في قبضة العباسيين . وهكذا نصب « محمد بن إسماعيل » له حجابا ، وأمر كل واحد من الحجب والحجج أن يتسمى باسم الإمام . فمن أخذ العهد على مستجيب سمي له أحد أولئك الحجب ، حتى يمضى الوهم إليه سترا على صاحب الأمر (١) ، وهذا ما جعل التحقق من شخصية الأئمة المستورين متعذرا على الناس سنيين كانوا أم شيعيين ، وأصبح من الصعب التفريق بين الحجج والأئمة لاتفاق أكثرهم في التسمية . أضف إلى ذلك أن رؤساء الدعاة في جزر الدعوة الرئيسة وبحارها ، كانوا يختلفون فيما بينهم ، في ذكر أسماء الأئمة حتى كان ذلك من أهم العوامل التي حفظت الأئمة المستورين وحالت دون التعرض لأشخاصهم .

اتخذ الإمام عبد الله الرضى من عبد الله بن ميمون القداح حجة له وحجابا . ولا ندرى هل كان لكل من الإمام والحجة اسم آخر غير اسمه الذي اشتهر به ؛ فإن محمد بن إسماعيل كان يسمى الميمون ، كما كان حجته يسمى ميمون القداح . وتسمى الإمام عبد الله الرضى باسم حجة عبد الله القداح . ويظهر أن لكل منهما اسما بل أسماء أخرى . والمهم عندنا أن اتفاق اسمي الحجة والإمام ينبغي أن لا يجعلنا نخاطب بين شخصيهما كما ذهب إليه ماور (٢) ، أو أن ننفي وجود واحد منهما كما نفاه بعض السفين والإسماعيلية (٣) . يقول الداعي إدريس في عبد الله هذا (٤) : إنه « كتم نفسه ، وستر حجته وحدوده ، فكان حجته وحجاب به عبد الله بن ميمون - رضوان الله عليه . »

ويدلنا على إمعان عبد الله في التخفي ، ما ذكره هذا الداعي نفسه : « وكان استتاره كظلمة الليل الشديد ، وذلك لما غلب الباطل على الحق ، واشددة دولة

(١) زهر المعاني ص ٥٤ . وبزيد عل ذلك : « وجرت بذلك السنة والعهدة في الأئمة المستورين الثلاثة . فمن ذلك أن الدعاة في أوضاعهم يسمون هؤلاء الأئمة بأجاء مختلفة ما اتفق منها في ذلك اثنان ،

(٢) Polemics on the Origin of the Ismailism, pp. 70-1

(٣) حيث يفلو السفين فينبغون وجود الأئمة المستورين ويقلو بعض الاسماعيلية فينبغ وجود بني القداح من الحجج

(٤) زهر المعاني ص ٥٩

الظلمة من آل العباس ، وعظم الريب والوسواس . وكان لشدة استتار الإمام عليه السلام إذا أخذ أحد من حدود دينه العهد على مستجيبين لدعوته يقول له : وإنك سمعا وطاعة لولى العصر ، ولا يقوه باسمه ؛ وإذا ترشح في العلم ، وعلت فيه درجته وارتفعت منزلته ، كتب له اسم الحجب . ولا يكشف له اسم إمامه ولا يبينه بإشارة ولا عبارة في كلامه إلا بحد قد بلغ الإطلاق ، واستحق معرفة إمامه باستيجاب واستحقاق . وإذن كانت هنالك دعوة سرية إسماعيلية منظمة في أيام المأمون ، وكان استتار الأئمة قد بلغ غايته . كما كانت بلاد خوزستان مكاناً رئيساً لنشاط الدعوة في عهد الإمام عبد الله هذا ، حيث تزوج في نهاوند ، واستقر بالأهواز ؛ إلا أنه كان كثير الترحال ، فنراه يقصد مازندران (طبرستان) ، ثم يعود إلى الأهواز .

أدرك الإمام عبد الله هذه النهضة العلمية الكبيرة التي راجت في عهد الرشيد وبلغت ذروتها في عهد المأمون . وتأثر بها ذلك الإمام وأثر فيها ، لكنه لجأ إلى الاستتار ، فلم يقم بما قام به ابنه العلامة أحمد بن عبد الله ، الذي قيل إنه واضع تلك الرسائل الذائعة الصيت التي تعرف برسائل إخوان الصفا . أما الإمام عبد الله فلم يظهر علمه لأحد ولا أطلع عليه ولا عرفه إلا حملة العرش (كبار حدود دعوته) القائمون بأمر الله ، أمناء خليفته ، وفضلاء حججه المنصوبون في دعوته ، (١)

ويعرف الإمام عبد الله الرضى عند الإسماعيلية بالإمام عبد الله الأكبر ، ويعتبر أول الأئمة المستورين الذين استقروا بسلمية ؛ وذلك أن العباسيين تتبعوه في عهد المأمون ، فقتلوا ابنه وقتلوا بعامة أسرته بما اضطره إلى الهرب مع ابنه أحمد - ولى عهده في الإمامة ، وانتقل هنا وهناك ، فقصد مازندران فالأهواز ، ثم اتجها إلى سامرا ومنها قصد سلمية من أعمال حمص . فادعى عبد الله للهاشميين هنالك أنه واحد منهم ، وظل في سلمية موضع الاحترام والتبجيل لتقواه وجوده ، كما لم يصرح باسمه ولا باسم ابنه أحمد . ولكن متى حدث ذلك ؟ مما ورد في كتاب عيون الأخبار (٢)

(١) زهر المعاني ص ٥٩

Ivanow : The Rise of the Fatimids, pp. 33-34 (٢)

نستطيع أن نقول إن ذلك حدث بعد أن عهد المأمون إلى علي الرضا بالخلافة من بعده ، أى قبل سنة ٢٠٦ هـ .

وإذن لم يكن خروج عبد الله من الأهواز مع ابنه أحمد لنشر الدعوة فقط ، وإنما كان فرارا من الاضطهاد الذى حاق بأئمة الإسماعيلية وأمرائهم : ومن ثم كان هربه مفاجأة لكثير من دعاة الذين لم يستطيعوا العثور عليه إلا بعد مشقة (١) . وكان موته بسلمية ، ويعتقد بعض الإسماعيلية خطأ أن الخلفاء الفاطميين أحضروا جثته من سلمية إلى القاهرة (٢) . ولكن هل كان حجته عبد الله بن ميمون القداح معه ؟ يبدو أن عبد الله لم يكن يفارق إمامه ، لأنه حجته ونائبه ، ورتبة الحجية تلى رتبة الإمام فى حدود الدعوة ، ولأن الحجية والإمام كانا يتخذان معاً من دار هجرتهم فى خوزستان وبخاصة فى الأهواز مستقرا . ولذلك لم يصب من كان بالأهواز منهم بسوء ، أما إخوة الإمام عبد الله وأبناءؤه الآخرون الذين كانوا موزعين بين نهاوند والرى ونيسابور وخوارزم فقد فتك بهم العباسيون ، إلا أنه لا يبعد أن يكون عبد الله القداح قد بقى فى الأهواز يقيم الدعوة لإمامة من هنالك ، ليحوطه بسياج من التخفى والاستتار . ومهما يكن من شئ فإن موت عبد الله الرضى قد حدث فى أواخر عهد المأمون أو فى أثناء حكمه ببغداد على الأقل .

(٥) إمامة أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل

تولى أحمد بن عبد الله إمامة الإسماعيلية بعد وفاة أبيه عبد الله ، وكان ذلك بسلمية ، واتخذ عبد الله بن ميمون حجة له ، كما اتخذته أبوه من قبل . وعاصر هذا الإمام الخليفة المأمون ، وساهم لحشد كبير فى النشاط الثقافى وقتئذ ، فألف كتابه المعروف باسم رسائل إخوان الصفا رغبة منه فى المحافظة على الدين الصحيح ، على ما ذهب علماء الإسماعيلية ، وحتى لا تطغى الفلسفة اليونانية التى راجت فى عهد المأمون على التفكير الإسلامى . بل لقد رعى الإسماعيلية المأمون العباسى بالميل إلى

(١) Ivanow : The Rise of the Fatimids, p. 29.

(٢) ومن أشهر أبناء عبد الله ابنه أحمد ثم إبراهيم . أما أحمد فهو خليفته ، وأما إبراهيم فلم تعرف عنه شيئاً كثيراً إلا أن أئمة الإسماعيلية عند فرار المهدي وأنهم قتلوا على يد الحسين بن زكرويه .

الإلحاد ، وقالوا في سبب تأليف الرسائل : إن المأمون ، أراد أن يظهر علم الهيئة ، ويجعل معرفتها الدين ، وأن للهيئة المبدأ والمعاد ، وعلى معرفتها الحساب والثواب والعقاب ، ليرى الخلق أن الذي جاء به محمد ﷺ لا أصل له ، وأن الصحابة لما لم يتيقنوا ذلك عملوا على عليه السلام ما عملوا ، وأنهم في ذلك مصطيون ، وأن لا ذنب عليهم ولا عيب ينسب إليهم في قتل ذرية النبوة قضاء بما طُل من دماء قریش ، فلما علم ولي الحق ذلك صنف الرسائل (١) .

كذلك ذهب الإسماعيلية إلى أن تقرب المأمون إلى العلويين لم يكن عن عهيدة خالصة ، بل كان وسيلة للايقاع بصاحب الزمان الإمام المستور أحمد بن عبد الله ، وأن كثيرين من كبار الدعاة العلماء ذهبوا ضحية هذه السياسة ، لاعتقاد المأمون أنهم من الأئمة (٢) . ولا يهمننا أن نبحت عن سبب إخلاص المأمون للعلويين أو نفاقه معهم ، إنما يهمننا أن نقول إن هناك دعوة إسماعيلية سرية منظمة ، انتشرت بصورة أثارت مخاوف المأمون ، فعمل على استئصالها ، وأن أكثرية القائمين بهذه الدعوة كانوا من العلماء ؛ فإمامهم عالم كبير ومؤلف ذائع الصيت ، وحجتهم عبد الله بن ميمون القداح من أبرز علماء عصره ، ودعاتهم بمن نبغوا في العلم في عصرهم . وهكذا ساهم الإسماعيلية في النشاط العلمي في عصر المأمون .

وليس من شك في أن الإمام أحمد بن عبد الله شاهد الثورات التي قامت في وجه المأمون ، واشترك حجه عبد الله في إحدى هذه الثورات . وليس من شك أيضا في أنه أدرك ثورة بابك الخرمي وأنصاره الخرمية على العباسيين في أواخر عهد هذا الخليفة . ولا يبعد أن يكون زعماء الإسماعيلية قد انتهزوا تلك الفرصة وعملوا على جذب فلول هؤلاء الثوار إليهم ، حتى أطلق بعضهم على جماعة الإسماعيلية اسم الخرمية . وصفوة القول أن سلبية قد اتخذها الأئمة الإسماعيلية دار هجرة منذ عهد المأمون ، وأصبحت المركز الرئيس للدعوة ، فكان ينتشر منها الدعاة في الأقاليم

(١) ذكر المائى ص ٦٠ - ٦١

(٢) Ivanow ; The Rise of the Fatimids, pp. 36-7

ويذهبون إلى أن المأمون قتل عليا الرضا لأنه لم يكن كعلماء الإسماعيلية ودعاتهم في المعرفة .

المختلفة لث الدعوة باسم الامام أحمد بن عبد الله : إلا أنهم كانوا يخفون اسمه عن الناس .

ولم تذكر المراجع الاسماعيلية والسنية تاريخ وفاة أحمد بن عبد الله ؛ إلا أنها تذهب إلى القول بأنه تزوج وهو بسلمية ، وأنجب فيها ابنة وخليفته الامام الحسين^(١) ، فكان أحمد ثاني الخلفاء ، وابنه الحسين ثالثهم . ويرى البعض أنه أنجب ابناً ثانياً هو محمد الملقب سعيد الخير^(٢) .

(هـ) إمامة الحسين بن أحمد

ويكنى الحسين المقتدى^(٣) أحياناً والزكي^(٤) أحياناً أخرى . وكان أبعد شهرة من أبيه : فمن الناحية العلوية عمل على تثقيف أشياعه « وبث العلوم الشيعية وأظهرها » ، وشرح الرسائل في كتاب أسماه « الجامعة »^(٥) .

وأما من ناحية رواج الدعوة فقد انتشرت في كثير من بقاع العالم الإسلامي في عهد الحسين . ويرجع هذا إلى أن أمور الدعوة كانت قد مهدت من قبل ، ووضت رياستها في يد حجه المسمى أحمد الحكيم ، وهو الذي ذهبنا إلى أنه أحمد أبا الشلعلع ابن عبد الله القداح . ويمتاز أحمد بالمقدرة الفائقة ، ولذلك انتشرت الدعوة في عهده بشكل أثار مخاوف العباسيين وأنعش قلوب الاسماعيلية حتى اعتقدوا قرب ظهور المهدي . ويمتاز عهد الإمام الحسين بانتشار الدعوة الاسماعيلية في اليمن على يد تابعه ابن حوشب ، وفي بلاد المغرب على يد الداعيين الحلواني وأبي سفيان ، وبين القرامطة على أيدي أبناء القداح ، وفي بلاد فارس وخراسان على أيدي أبناء القداح أيضاً^(٦) .

Ivanow : The Rise of the Fatimids, pp. 35-36, (١)

Ibid., p. 40, (٢)

(٣) الداعي عماد الدين : ذكر المعاني ص ٦٣

Ivanow : The Rise, p. 36, (٤)

Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 30 (٥)

(٦) الداعي إدريس : عيون الأخبار في ٣٦-٧٠ pp. The Rise of the Fatimids,

وقد استطاع الإمام الحسين أن يبلغ ذلك النجاح ، لأن الدولة العباسية قد أخذت الضعف يدب في جميع أجزائها ، ولأن الخلفاء لم يعد لهم ذلك النفوذ الذي كانوا يتمتعون به في العصر العباسي الأول . ولذلك أحدثت بهم الثورات ، حتى إنهم لم يستطيعوا التفرغ للقضاء على الإمام الحسين وعلى دعوته .

وقد نتساءل كيف استطاع الإمام الحسين البقاء في سلبية آمننا مطمئنا دون أن تناله يد العباسيين والسنيين ؟ الواقع أن جود الحسين وكرمه وثروته الضخمة ، وبذله الأموال الطائلة ، كان لكل هذا أثر يذكر في تهدئة أعدائه وكم أفواههم . هذا إلى ادعائه أنه هاشمي ، وتفانيه في إظهار حبه للهاشميين بسلبية ، وإمعانه في التخفي ، وتفاني أنصاره في طاعته - كل ذلك قد ساعد على إقرار الدعوة في سلبية خاصة وفي كافة أنحاء العالم الاسلامي عامة . واليك هذا الوصف الرائع الذي أمدنا به محمد اليماني عن سلبية :

« وكان (الحسين) يعاشر قوما من أهل سلبية هاشميين من ولد عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم . وكان يظهر لهم أنه عباسي . . . وكانت الأموال والذخائر تحمل من كل بلد من قبل الدعاة إليه إلى سلبية . وكان الامام قد حفر سردابا في الأرض من الصحراء إلى جوف داره بسلبية طوله اثنا عشر ميلا . وكانت الأموال والذخائر تحمل على الجمال ، فيفتح لها باب السرداب في الليل ، وتنزل فيه بأحمالها عليها ، حتى تحط في داخل الدار وتخرج في الليل ، ويغمى على باب السرداب بالتراب فلا يدري به أحد . وكانت الأموال عظيمة ، حتى يقال : إنه ما كسب المهدي - قدس الله روحه - بعد أن فتح الله له إلا نحو ما خلف بسلبية ، (١) . بهذه الوسائل استطاع الأئمة المستورون وحججهم أن يلقوا شيئا غير قليل من النجاح .

وكان أبو محمد عبيد الله المهدي حجة للإمام الحسين في أخريات حياته ، لأنه من سلالة القداح - على ما سيأتي - ولأنه اتخذ مستودعا لنقل الإمامة من الحسين إلى ولده أبي القاسم الذي ولي الخلافة بعد عبيد الله المهدي وتلقب القائم . وصفوة القول أن

(١) محمد بن محمد اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص ١٠٨

الائمة المستورين اتخذوا سلبية منذ أوائل القرن الثالث مركزا رئيسا لدعوتهم . واتخذوا من ضعف الدولة العباسية ، واضطراب بلاد الشام خاصة فرصة سانحة لتحقيق أغراضهم . وعلى الرغم من تولية ابن طولون مصر ، وعمله على تنظيم شئون بلاد الشام ، فقد عرف عنه أنه كان يعطف على الشيعة ، حتى لقد نسب البلوى — مؤرخ سيرة ابن طولون — إلى الإسماعيلية . ولستطيع أن نقول إن اتخذ سلبية مركزا للائمة الإسماعيلية وحججهم قد حول الشرق الأدنى وبلاد المغرب إلى معسكرات إسماعيلية . ولا غرو فإن قرب سلبية من العراق وبلاد العرب ، وخاصة بلاد البحرين واليمن ، قد ساعد الإسماعيلية على المنسادة بقرب ظهور المهدي ؛ وتسابق القرامطة وابن حوشب — داعي اليمن — وأبو عبد الله الشيعي ، داعي بلاد المغرب في سبيل تكوين دولة إسماعيلية ؛ وتم لهم ذلك في بلاد المغرب على ما سنرى . وهكذا استطاع هؤلاء الاثمة وحججهم أن يديروا دفعة الدعوة لإدارة محكمة دون أن ينالهم أذى أو تلحق بهم سيوف العباسيين ، ولما تولى عبيد الله المهدي أمر الدعوة ، كان هؤلاء الاثمة قد مهدوا له السبيل ، وأزالوا ما اعترضه من العقبات ؛ وقد تم نجاحه المنقطع النظير على أيدي الاثمة الذين سبقوه .

٣ — نواب الاثمة الإسماعيلية من بيت القداح^(١)

(١) ميمون القداح :

كان ميمون القداح أول من اتخذ الاثمة المستورون حجة ونايبا لهم . وقد رأينا أن جعفرا الصادق جعله حجابا وسترا على حفيده محمد بن إسماعيل^(٢) أول الاثمة المستورين . وتذكر المراجع السنية المعتدلة ، والمصادر الاثنا عشرية أنه كان راوية للإمام محمد الباقر وابنه جعفر الصادق ، وأنه كان مولى لها^(٣) ، كما ينسب أحيانا إلى عتميل بن أبي طالب .

(١) القداحة تطيب العين من الماء النازل بها ، وقد برع ميمون وابنه عبد الله في هذه المهنة . ويبدو أنه اتخذ القداحة وسيلة لجذب الاتباع .

(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦

(٣) De Goeje : Mémoires sur les Carmathes du (٣)

ويذكر الكاشي في كتابه « معرفة الرجال » أن ميمونا يسمى ميمونا القداح المكي مولى محمد الباقر وابنه جعفر الصادق ، وتعلو المراجع السنية ، فتذهب إلى القول بأن ميمونا كان ثوريا ديصاني المذهب ، شعوبيا خطرا يعمل على هدم الإسلام ويؤلف الكتب في ذلك ، حتى إن كتابه « الميزان » إنما وضعه في نصرة الزندقة^(١) ، وأنه كان خُرميا يدين بعقائد مزدك ، وتقرن هذه المراجع اسمه باسم أبي الخطاب المتشيع الغالى .

أما المراجع الاسماعيلية ، وخصوصاً الظاهرية منها ، فلم تكن تذكر عنه شيئاً كما هو الحال مع القرامطة مع أنهم من أهم فروع الاسماعيلية . غير أن كتب الحقائق الاسماعيلية تناولت ميمونا وابنه في شيء من الإيضاح . فأكدت ارتباطه بجعفر الصادق وإخلاصه له حتى جعله حجاباً على حفيده وحجة له ، وأرجعت نسبه إلى سلمان الفارسي ، مخالفة في ذلك المراجع السنية التي تنسبه إلى ديسان . وتكاد تجمع مراجعهم على أن ميمونا كان من أشياع جعفر الصادق ، كما كان حجة حفيده محمد ابن اسماعيل ، وأنه لاقى كثيراً من المحن في سبيل مولاه ونجاح مذهبه الجديد^(٢) . وعلى الرغم من الاختلاف الذي قام بين السفين والاثنا عشرية والاسماعيلية ، فإننا نلاحظ أموراً أهمها :

أولاً : أن ميمونا القداح كان معاصراً لجعفر الصادق ، وكان مخلصاً لأبناء اسماعيل .

ثانياً : أن بعضاً يجعله مكيًا ، وبعضاً آخر يجعله أهوازيًا . وهذا صحيح إلى حد ما . فإن ميمونا كان يقيم في بادىء أمره بمكة ؛ فلما فر إمامه وسيد محمد بن اسماعيل من الحجاز إلى الأهواز فر معه ، فسمى مكيًا لبقائه بمكة حيناً ، وأهوازيًا لبقائه بالأهواز حيناً آخر .

ثالثاً : ولا يبعد أن يكون ميمون محدثاً وراوية . غير أننا نستبعد أن يؤلف كتابه « الميزان » ، في نصرة الزندقة ؛ ونستطيع أن نقول إنه من الممكن أن يكون

(١) الزيرى : نهاية الأرب ج ٢٦ الورقة ٢٥ .

(٢) أنظر ما ذكرناه عن إمامة محمد بن اسماعيل ص ٣٦ - ٤٠ .

نقد ألف هذا الكتاب في نصرة المذهب الإسماعيلي ، الذي يعتقد كثير من السنيين أن مبادئه إلحادية محضة .

رابعا : لا نستطيع أن نتفق مع الذين ذهبوا إلى أن ميمونا كان أول من أسس المذهب الباطني في الإسلام ؛ ومع ذلك فليس من شك في أنه أول من ساهم في إقامة المذهب الإسماعيلي ، وهو مذهب باطني كما نعلم .

خامسا : على أننا لا نتفق مع من ذهبوا إلى القول بأن ميمونا كان ديصانيا ثنويا ، ونعتقد أن هذه رواية رماه بها أعداء المذهب الإسماعيلي^(١) .

ولذلك نرى ميمونا يذهب إلى فلسطين ، وينصرف إلى النسك ابتغاء جذب الأشياع إلى مذهبه ؛ ولا بد أن يكون قد رحل إلى تلك البلاد مع إمامه المستقر محمد بن إسماعيل ، الذي تذهب المراجع إلى القول بأنه قصد سورية في أخريات حياته ، ثم قصد ميمون بعد ذلك طبرستان مع محمد بن إسماعيل أيضا ، واستطاع أن يضم إلى صفوفه جماعة من المخلصين لإسماعيل بن جعفر وابنه محمد . ويصح أن نسمي تلك الجماعة التي كونها ميمون « الميمونية » نسبة إليه . أو الإسماعيلية الأوائل

(١) إن تحديد مولد ميمون ووفاته من المسائل التي يكتنفها الغموض والابهام ، إذ أنه على الرغم من أنه عامر جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ هـ كما عاصره جده محمد بن إسماعيل ، لا نستطيع تحديد الزمن الذي توفي فيه . على أن النصوص التي بين أيدينا توضح في جلاء أنه عاش في عهد الرشيد ، ومات بعد وفاة موسى الكاظم سنة ١٨٣ هـ . يتضح ذلك من فرار ميمون من مكة إلى الأهواز التي اتخذها وطنًا ثانياً له . وقد رأينا أن ذلك قد حدث في عهد الرشيد . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ذهب رشيد الدين Blochet : Le Missianisme, pp. 89-90 إلى أن جعفر الصادق ألحق ميمونا القداح بجده محمد بن إسماعيل ، وأنه ذهب معه إلى طبرستان ، مدعياً أن هذا هو الأب الحقيقي لولده عبد الله . ونعتقد أن هذه الرواية إن كانت صحيحة فأنها تفتقر دليلاً على أن وفاة ميمون القداح كانت بعد وفاة محمد بن إسماعيل ، لأنه لا يمكن أن ينسب ابنه عبد الله إلى الإمام محمد بن إسماعيل في حياته ، أي أن هذا الانتساب لا يصح أن يوجد في حياة المنتسب إليه . وهو محمد بن إسماعيل ، لأن ميمونا غير محمد بن إسماعيل ، وعبد الله القداح عمير عبد الله الأكبر من محمد بن إسماعيل . وهذا إلى أن بعض المصادر الاثنا عشرية تذكر أن محمد بن إسماعيل قد حظى عند الرشيد بعد موت عمه موسى الكاظم ، أي بعد سنة ١٨٣ هـ ، فأننا نستطيع أن نقول إن ميمونا القداح مات في أواخر القرن الثاني الهجري لا في

أوائله كما ذهب إليه إيفانوف Ivanow وبيرنارد لويس Bernard Lewis

وهؤلاء كانوا يتكفونون — على ما يبدو — من فلول الخطائية ، والمباركية ^(١) وغيرهم من الجمعفرية والمخلصين للمذهب الإسماعيلي الجديد ^(٢) . ويقول ابن الأثير ^(٣) في هذه الجماعة التي كونها ميمون حوله : « وتفرقت هذه الطائفة في البلاد وتعلموا الشعبذة ... والنجوم والكيمياء . فهم يحتالون على كل قوم بما ينفق ^(٤) عليهم ، وعلى العامة بإظهار الزهد » . وإذن كون ميمون جماعة دأبها التقية والتأثير في قلوب الناس ، وهما أهم مميزات المذهب الإسماعيلي .

وفي سبيل تكوين مذهب جديد عمل ميمون على الاتصال بالشخصيات البارزة في ذلك الحين . وينسبون إليه أنه لما قبض العباسيون عليه أخريات عهد أبي جعفر المنصور ، كون — وهو في السجن بالكوفة — مبادئ المذهب الإسماعيلي الجديد ، بالاتفاق مع أحد كبار عصره ، وأنه كان في الوقت نفسه من كبار أحرار الرأي ومن تلامذة الفلسفة اليونانية ، شأنه في ذلك شأن كثير من المتشيعين ، واستغل على ما ذكره أوليرى والتعاليم الأرسططاليسية ، وتعاليم الأفلاطونية الحديثة ، ووضعها في قالب إسلامي جديد ، وضع ذلك كله فيما أسماه المعنى الباطن للقرآن (التأويل) ^(٥) ، ولم يكن كتابه الميزان في نصره الزندقة إلا وسيلة لتحقيق هذه السياسة الجديدة .

وأما ما ذهب إليه مامور ^(٦) من أن ميمونا القداح هو محمد بن إسماعيل نفسه فقول مردود ، لاعتراف الإسماعيلية أنفسهم في كتبهم السرية خاصة أن محمد بن إسماعيل غير ميمون ، وأن هذا حجة وذاك إمام ، وأن ميمونا من نسل سلمان الفارسي ومحمد بن إسماعيل من نسل علي وفاطمة إلى غير ذلك .

(١) المباركية أتباع المبارك مولد إسماعيل وابنه محمد بن إسماعيل . ويقال إنه اتصل بعبد الله القداح أيضا .

(٢) Ivanow : The Alleged Founder of Ismailism, p. 105.

(٣) ج ٨ ص .

(٤) أي بما يروج عندهم ويتفق مع مبراهيم .

(٥) ولا غرو فان محمد بن إسماعيل ، إمام ميمون ، وبعد من أعظم أساتذة التأويل بين الإسماعيلية خاصة .

(٦) Polemics, pp. 70—1

وهكذا أوجد ميمون القداح حركة سرية عملية منظمة ، ترمى إلى إحاطة الأئمة من أبناء إسماعيل بستر كشيء من التخفي والتستر ، والمناداة بأحقيتهم بالإمامة ، فلم تعجب هذه المبادئ الكثر من السنيين . حقا يعتبر عبد الله بن ميمون القداح المؤسس الحقيقي لهذه الحركة الابدفاعية النفعية ، واسكن ميمون هو الذى ألقى بذورها . وقد تعهد أبناء ميمون هذه الحركة وساهموا الى حد كبير فى رفع منارها ، واستطاعوا على مر الزمن أن يحولوها من المبادئ النظرية إلى أشياء عملية . وبفضل هذه الأسرة وتعاون أفرادها مع أئمتهم ، تكونت الدولة الفاطمية ، حتى إننا نستطيع أن نسمى — فى غير غلو أو إسراف — تلك الفترة المعروفة بدور الستر الأول^(١) ، الدور القداحى .

(ب) عبد الله بن ميمون

يعتبر عبد الله بن ميمون من أعظم حجج الأئمة الإسماعيلية فى دورهم الأول ؛ ويلقب بالقداح ، لأنه كان — كأبيه — يشتغل بالقداحة . وقد أحاط بتاريخه كثير من الغموض والمبالغات ، حتى لقد اعتقد بعض أنه لا وجود له إلا فى خيال بعض المؤرخين ، ولكننا سنرى أنه شخص تاريخى له مكاتبة عند الإسماعيلية .

يذكر معظم المراجع السنية أن عبد الله ديصانى المذهب كأبيه ، وأنه شعوبى^(٢) من غلاة الشيعة ، وأنه لما مات أبوه ميمون ادعى الانتساب^(٣) إلى على من طريق إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأنه لم يشتغل بالقداحة إلا لجذب الأشياخ^(٤) ، وتحقيقا لسياسة المجوس فى هدم الإسلام ، وأنه اتخذ علم الفلك (النجامة) وسيلة للتغريب بالمسيحيين^(٥) . وكان مغرضا فى تشييعه^(٦) لارتداده عن العلويين وعن الإسلام

(١) وتبدأ باستتار محمد بن إسماعيل بعد سنة ١٤٨ وتنتهى بقيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ هـ .

(٢) المنتظم لابن الجوزى ، المنشور فى

Revista degli Studi Orientali (1930.) p. 264.

(٣) الجوينى : جهان كوشا ، ورشد الدين : تاريخ المغول فى كتاب

Lewis : The Origins of Ismailism, p. 60.

(٤) النويرى : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٦ ، ورقة ٢٢ ، ٢٣

(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٧

(٦) Sayyed Ameer Ali : The Spirit of Islam, p. 326.

بعد ذلك (١) ، ولاغتصابه الإمامة من أبناء محمد بن إسماعيل وادعائه الإمامة لنفسه (٢). ويعتبره الذهبي محدثا ومولى لجعفر الصادق . ويعتقد الكثير من السنين أنه قام بدور هام في تاريخ الإسماعيلية منذ منتصف القرن الثالث ؛ فيرى ابن النديم (٣) والنويري (٤) وغيرهما أنه اتصل بأحد الشعوبيين بعد منتصف القرن الثالث الهجري ، ويقول بعض إنه كان معاصرا لجعفر الصادق (٥) .

أما مراجع الاثنا عشرية فتجعل من عبد الله راوية لجعفر الصادق ، كما كان أبوه من قبل . فيقول الطوسي (٦) : إنه كان محدثا . ويذكر لنا الأشخاص الذين روى عنه ، كذلك ذكر الكاشي في كتابه « معرفة الرجال » ، أن عبد الله كان راوية لمحمد الباقر وجعفر الصادق ، ويسميه « ابن ميمون القداح المكي » . وكذلك يجعلون منه مؤلفا ، ويذكرون له من الكتب كتاب « مبعث النبوة » وكتاب « صفات الجنة والنار » (٧). ويكاد يجمع هؤلاء على أن عبد الله كان معاصرا لمحمد الباقر وابنه جعفر الصادق في أوائل القرن الثاني الهجري ، وأنه كان محدثا ، حتى لقد ذكر بعض أنه كان محدثا اثنا عشريا ، وأنه ظل على وفائه للإمام موسى الكاظم . على أن هناك مرجعا اثنا عشريا آخر يتفق مع ما أورده السنين فيقول : إن عبد الله اغتصب الإمامة من أبناء محمد بن إسماعيل . ثم دعا لابنه لا لنفسه (٨) . ولكنه مع ذلك لم يرمه بالإلحاد أو الزندقة أو الشعوبية أو غير ذلك مما رماه به السنين .

على أن المراجع الإسماعيلية وخاصة الباطنية منها ، تحوط عبد الله بكثير من

(١) أبو العلاء المعري : رسالة الغفران ص ١٥٦ - ١٥٧

(٢) نظام الملك : سياسة نامه ج ٢ ص ٢٦٨

(٣) فهرست ص ٢١٧

(٤) نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٢٢ ، ٢٣

(٥) أبو العلاء : رسالة الغفران ص ١٣

(٦) فهرست كتب الشيعة ص ٩٧

(٧) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp. 22-23

(٨) تبصرة العوام ص ١٨٦

مظاهر الإجلال ، فقد رأينا الداعي إدريس في كتابه زهر المعاني يذكر أن عبد الله كان حجة للامامين عبد الله بن محمد بن إسماعيل وأحمد بن عبد الله . بل يعتقد بعض الدعاة أن عبد الله كان حجة محمد بن إسماعيل — وهو غير معقول بالطبع — ويرى الاسماعيلية فوق ذلك أن عبد الله من سلالة سلمان الفارسي (١) ، وكذلك نرى في دستور المنجمين (٢) أن عبد الله كان حجة الإمام محمد بن إسماعيل ؛ ويتفق بعض المراجع الاسماعيلية مع مراجع الاثنا عشرية في أن عبد الله من أصحاب محمد الباقر وجعفر الصادق . ويتفق مؤلف كلامي پير (٣) الإسماعيلي مع مراجع الإسماعيلية القديمة في أن عبد الله كان حجة الأئمة في دور الستة ، ويعتبره دعاة الدرزية دأساس ، الأئمة الإسماعيلية ، أى كالإمام المساعد في حياة كل نبي ناطق .

بما ذكره الإسماعيلية نرى أن عبد الله كان كأبيه شخصا محترما في نظرهم ، وأنه خلف أباه ميمونا في رئاسة الدعوة . وليس معنى ذلك أن الأئمة لم يكن لهم معه وجود أو عمل ؛ وإنما نغنى بذلك أن رئاسة الدعوة العملية كانت في يد عبد الله بن ميمون القداح ، الذى كان المساعد الايمن للإمام المستور ، والعنصر المحرك للدعوة . وبما ساعده على الظهور ما كان يحوط الامام المستور من مظاهر الإمعان في التخفي . وبما ورد في هذه المراجع جميعها نستطيع أن نقف على أمور كثيرة أهمها :

أولا : إن عبد الله بن ميمون القداح كان شخصية ممتازة لها مكانتها في نفوس العلويين حتى أسلوا إليه قيادهم . وأما ما ذهب إليه السنيون من أنه كان يحرض دعائه على العلويين فيقول لأحدهم : « ولا ترحم علويا ، فلو تمكن علوى كتمكن غيره من الأنبياء للقينا منه جهدا ، وغير بما يدعيه من حقوق جده على هؤلاء الخبير بما هو أكثر مما غيره جده . وإياك والإغضاء عن تجده من ولد على : يعنى اقتله إذا تمكنت من قتله (٤) » . فإن دل ذلك على شيء . فإنما يدل على إمعان عبد الله في إمعان دعائه في التقية التى أتقنها الشيعة عامة والاسماعيلية منهم خاصة . هذا إلى أن مارماه به السنيون من تحريضه الدعاة على العلويين قد يحدث في مراتب الدعوة العليا ، حيث

(١) أنظر ما كتبناه عن الامام عبد الله بن محمد بن إسماعيل .

(٢) De Goeje : Memoires sur les Carmathes, vol. ii, p. 202

(٣) نشره إيفانو ص ٦٨ .

(٤) النورى : نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٨

يعطلون فيها الأئمة عن العمل ، ويخرج فيها المستجيب عن حظيرة الإسلام ، بل عن مذاهب الشيعة ذاتها ؛ كما أننا لا نستطيع أن نصدق ما ذهب إليه أبو العلاء المعري من أن عبد الله ارتد عن المذهب الإسماعيلي ، وأنه كان يقول (١) :

هات اسقني الخمر يا قنبر فليس عندي أنتى أنشر
أما ترى الشيعة في فتنة يغرها من دينها جعفر
قد كنت مغرورا به برهة ثم بدا لي خبر يستر
ومما ينسب إليه قوله :

مشيت إلى جعفر حقة فألفيته خادعا يخلب
بحر العلاء إلى نفسه وكل إلى حبله يجذب
فلو كان أمركم صادقا لما ظل مقتولكم يسحب
ولا غض منكم عتيق ولا سما عمر فوقكم يخطب
لأن ذلك لو صح لما تخلف الإسماعيلية عن التصدي له وإثباته في كتبهم .

ثانيا : لم تذكر المراجع الإسماعيلية أن عبد الله انتهى إلى بني عقيل بن أبي طالب . وهذا يشير الشك فيما ذكره أخو محسن حين يقول : إن عبد الله القداح كان يقول لبني عقيل ، أنا من ولد عقيل بن أبي طالب ، داع إلى محمد بن إسماعيل (٢) . لأن ذلك القول لم تؤيده المصادر الأصلية . ويبدو لنا أن عبد الله لجأ إلى بني عقيل فحموه من العباسيين ، لأنه كان يدعو إلى بني عمهم ، فاعتقد بعض أنه انتهى إليهم . ولو فرضنا صحة هذا الزعم فإن ذلك لا يعدو أن يكون لوئاً من ألوان التمويه الذي برع فيه عامة دعاة الإسماعيلية .

ثالثا : وكذلك لا نستطيع أن نتفق مع القائلين بأن عبد الله كان ثنويا أو خرميا ، لأن شهرته كمحدث ، وتعشق الأئمة الإسماعيلية له وتعلقهم به ، وامتداح مؤلفي الإسماعيلية أخلاقه ، كل هذا يمنعنا من أن نجاري القائلين بثويته . أما إذا كان القائلون بذلك قد قصدوا أنه كان ينادى بمبادئ قريبة الشبه من مبادئ المجوس

(١) أبو العلاء : رسالة الغفران ص ١٥٦ - ١٥٧

(٢) النوري : نهاية الأرب ج ٢٦ الورقة ٢٢

والثنوية فإن هذا لا يبدو بعيد التصديق ، لأن نظريتي العقل الكلي Raison Universelle والنفس الكلية Ame Universelle وحلول النفس الكلية في الإمام والعقل الكلي في النبي ، تشبهان في كثير من النواحي نظريتي إله الخير وإله الشر عند الثنوية .

رابعا : وهنا نسأل : هل كان عبد الله بن ميمون يعاصر محمدا الباقر وجمعفرا الصادق في أوائل القرن الثاني الهجري ؟ أو أنه عاش في القرن الثالث حتى قابل دندان الشعوبى بعد سنة ٢٦٥ هـ ثم انتقل بعد ذلك إلى سلبية ؟ . واذن كيف يمكن التوفيق بين القول بأن عبد الله توفي منتصف القرن الثاني الهجري ، وبين القول بأنه توفي في سنة ٢٧٠ هـ ؟

على الرغم من قلة الوثائق التي تحت أيدينا نستطيع أن نقول : إن عبد الله مات في النصف الثاني من القرن الثالث أو حول منتصفه على الأقل . يدلنا على ذلك أمور منها :

أولا : أن عبد الله القداح ، على ما ذكرته المراجع الإسماعيلية ، كان حجة أو حجابا لعبد الله بن محمد بن إسماعيل ، الذي عاصر الرشيد وخلفاءه ، كما كان حجة وحجابا لأحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل الذي عاصر المأمون وخلفاءه كذلك . واذن فقول إيفانو وبرنارد لويس ومن لف لفهما إن عبد الله كان يعيش في القرن الثاني فقط لا يتفق وما ذهب إليه كثير من الإسماعيلية .

ثانياً : بما ذكره أبو المعالي في كتابه بيان الأديان ، نستطيع أن نقول إن ميمونا القداح وزملاءه ألحقوا عبد الله بمحمد بن إسماعيل بعد وفاته في الوقت الذي كان فيه عبد الله حدثاً (١) ، وأن ذلك الإلحاق كان في أواخر القرن الثاني بالطبع ، لأن محمد ابن إسماعيل مات بعد وفاة عمه موسى سنة ١٨٣ هـ — على ما رأينا . ومعنى هذا أن عبد الله كان في أوائل القرن الثالث في دور الشباب ، وبهذا لا نستبعد عليه أن يشترك في الثورات التي قامت في وجه المأمون ، كما لا نستبعد عليه أن يتصل وقد بلغ الشيخوخة بمحمد بن الحسين (دندان) في سنة ٢٦٥ أو بعدها .

ثالثاً : يذكر النيسابورى أن الامام عبد الله الأكبر فر إلى سلبية ، وأن

من دعاة أبا محمد زكرويه بن مهرويه صاحب قرامطة الشمال (١) ، الذين ثاروا على العباسيين في الشام في أواخر حكم الطولونيين ، وأن زكرويه نفسه قتل في سنة ٢٩٤ هـ . على ما تذكره المراجع السنية . وإذا كنا قد سلطنا ، أن عبد الله القداح كان حجة عبد الله الأكبر ابن محمد بن اسماعيل ، بل وحجة ابنه كذلك ، أفليس من المعقول أن يعاصر عبد الله القداح الحجة زكرويه داعي الامام عبد الله الأكبر ؟ ثم كيف توافق بعد هذا برنارد لويس على أن زكرويه بن مهرويه - أبا محمد الكوفي - يعاصر من عاصر عبد الله القداح في القرن الثاني ، على حين أن أبناءه قد ثاروا على العباسيين بعد ذلك بقرن أو يزيد (٢) ، وعلى حين أنه هو نفسه لم يمت إلا في سنة ٢٩٤ ؟

وبهذا نرى أن عبد الله القداح لا بد أن يكون مولده في أخريات حياة أبيه ميمون ، أي في أواخر القرن الثاني لا في أوائله (٣) ، وأن الحياة قد امتدت به وأصبح من المعمرين حيث مات في سنة ٢٧٠ هـ ، وقد طوى في حياته نحو قرن من الزمان ، وعاصر الثورات الكثيرة في عهد المأمون والمعتصم ، ورأى بعينه ضعف هيئة الخلافة العباسية على يد الأتراك ، فأحكم أمور الدعوة ، ووضع لها أسسا متينة كانت سبب نجاح الإسماعيلية وبقاء دعوتهم إلى اليوم .

(ح) أثر عبد الله بن ميمون في نهضة المذهب الإسماعيلي

استغل عبد الله بن ميمون القداح حالة التفكك الذي اعترى الشيعة بانقسامهم على أنفسهم إلى حنفية وكيسانية وحسنية وحسينية ، وتسلط العباسيين بهم ، وتمزيقهم إياهم أيدي سبا ، فعمل مع أئمة الإسماعيليين ، على جمع شمل فلول الشيعة في جماعة ثورية جريئة . كما انتهز فرصة وجود مؤلفي جعفر الصادق وانقسامهم على أنفسهم ، إلى جماعات كثيرة ، وحاول أن يجمع هؤلاء كلهم تحت رايته ؛ فضم جميع فرق الجعفرية ، وأهمها الخطائية ، إلى جماعته واستطاع أن يكون من هذه الفرق المبعثرة والمزيج المضطرب جماعة تخلص لإسماعيل بن جعفر .

(١) ويقصد بهم أتباع زكرويه الذين ساروا في العراق الغربي وبادية السامرة ثم في مدن الشام .

(٢) النيسابوري : استتار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦ م) ص ٩٣

(٣) أما ذكر اسمه مقررا باسم أبيه في عهد الصادق فقد يكون المقصود به أخا ثانيا له .

كما عمل عبد الله على أن يضم العناصر الثورية إلى جماعته ، وكان يتوصل إليها بشتى الطرق . ومن هؤلاء ذلك الشعوبى محمد بن الحسين ويكنى دندان . فقد استطاع عبد الله أن يصل إلى قلبه عن طريق الشعوبية وتأثير النجوم والسحر والطب في نفسه . ومن الوثيقة التي أوردتها النويرى عن مقابلة دندان هذا لعبد الله بن ميمون القداح . نرى أن عبد الله كان يروج الدعوة قبل ذلك الوقت ، بدليل قوله لدندان في نحو سنة ٢٦٥ هـ : « إن لى أصحابا وأتباعا أبهم فى البلاد ، فيظهرون التقشف والتصوف والتشيع ، ويدعون إلى ما نريده من إحكام الأمر^(١) . كما أنه حين قبل منه هبته المالية الضخمة التى لم تقل عن مليون دينار ، فرق المال ، فى كور الأهواز وسواد الكوفة ، وبطالقان خراسان وسلمية من أرض حمص^(٢) . أسنا نفهم من ذلك كله أن الدعوة فى سنة ٢٦٥ هـ كانت منتشرة فى سلمية وحمص وطاقان فارس ، وما إليها ؟ وهذا يتفق تماما مع ما ذكرته المراجع الإسماعيلية من أن الدعوة كانت رائجة فى تلك البلاد منذ عهد محمد بن اسماعيل . وأهم من هذا كله ما يذكره النيسابورى من أن الذى ذهب إلى سلمية أولا هو عبد الله الأكبر وذلك قبل سنة ٢٦٥ هـ ؛ أى أنه فى الوقت الذى تقابل فيه عبد الله القداح مع دندان كانت الدعوة رائجة فى سلمية على يد الأئمة وحججهم ودعاتهم . وإذا ليس عبد الله القداح هو أول من حط رحاله من الإسماعيلية فى تلك البلدة الشامية .

وقد شمر عبد الله عن ساعد الجذ فى نشر هذا المذهب وهو بالأهواز حتى سنة ٢٦٥ هـ حتى اشتهر أمره ، ففر إلى عسكر مكرم - إحدى ضواحي مدينة الأهواز - فهاجمه المعتزلة ومعتدلو الشيعة وجنود الخلافة العباسية^(٣) . ومن ثم لجأ إلى بنى عقيل ابن أبى طالب بالبصرة فأكرموا وفادته . إلا أن العباسيين لم يتركوه آمنا هنالك ؛ فلم يبدأ من الفرار إلى سلمية حيث استقر بها مع إمامه المستور حتى مات . ولا بد أن يكون فراره من الأهواز ثم وصوله إلى سلمية بعد سنة ٢٦٥ هـ ، كما أن فراره إلى سلمية دون سواها دليل آخر على رواج الدعوة بها قبل ذلك .

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٢٣

(٢) النويرى : ١٠٠ آية الأرب (مخطوط) ج ٢٦ ص ٢٣

(٣) لكن لماذا هاجمته الفرق الإسلامية كالمعتزلة ... الخ ؟ ألا يدل ذلك على أنسرب بعض المبادئ التى كان عبد الله يقوم بنشرها ، فعدتها هذه الفرق كفرا وزندقة ؟ .

(٥) أثر عبد الله بن ميمون في نشر الدعوة

ويذهب بعض المؤرخين السنيين إلى القول بأن عبد الله بن ميمون بذل جهوده في وضع مشروع ديني سياسي خطير ، وكان غرضه الأول هدم الإسلام وإقامه دولة إسماعيلية ؛ « فعمل أبواباً عظيمة من المكر والحيلة والخديعة على بطلان الإسلام . وكان عارفاً عالماً بجميع الشرائع والسنن وجميع المذاهب كلها . . . ويدعى أنه على صدق هو وأهل مذهبه ، وغيرهم ضال مغفل . وكان عبد الله يريد بهذا أن يجعل المخدوعين آلة يستمد من أموالهم بالمكر والخديعة ؛ وأما في الظاهر فإنه يدعو إلى الإمام من آل البيت ، محمد بن جعفر ليجمع الناس بهذه الحيلة ، (١) . وعلى الرغم من غلو أخى محسن في اتهام عبد الله القداح بشي التهم ، يؤكد لنا أنه لم يخرج على سادته الأئمة الإسماعيليين ، وأن مشروعه كان قائماً على الخداع . ولكن يصل إلى تحقيق أغراض المذهب الإسماعيلي سلك طرائق لم تعجب السنيين الذين اعتبروها إلحاداً وكفراً ، وخاصة حين قال بنبوة محمد بن إسماعيل سابع النطقاء ، ونادى بالتأويل ، وقال كعامة الإسماعيلية : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ، صاحب التنزيل وعلى بن أبي طالب صاحب التأويل . والتأويل لباب التنزيل . وعلى الرغم من دفاع الإسماعيلية بأن التأويل لم يعطل شريعة محمد ، بل إنه نوع من الشروح ومعرفة الباطن ، فإن السنيين يعتبرون هذا خروجاً عن الإسلام . يقول ميور (٢) : « كان عبد الله يدعو إلى نظام يقصد من ورائه أن يجمع جميع الأديان في دين عام ، ويسميه الدين السابع ، أو دين محمد بن إسماعيل ، .

والواقع أن مشروع عبد الله القداح كان فذاً في نوعه ؛ فقد استغل فيه العناصر المختلفة ، واعتمد على عنصرى الشعوبية والتشيع ، وعلى التأويل وفكرة الجماعة السرية . « تلك التي تستطيع أن تلعب بأقوى العواطف الإنسانية ، وتؤثر في الضعف البشرى ؛ وتضم بين صفوفها جميع المتذمرين من كل نوع ، في صورة مؤامرة ترمى إلى

(١) المفريدى : انماظ الخنفا ص ١٢

(٢) The Caliphate, p. 558.

هدم النظام القائم^(١)، والذي لاشك فيه أن عبد الله عمل على الاستفادة من التجارب الماضية، فلم يهتم بتكوين جماعة من صنف واحد، بل رأى أن يكون مذهبه موافقا لجميع الناس، فيتمشقه الشيعي والمجوسي والسني والقبطي واليهودي. لأنه يعمل لإسعاد الجميع وتخليصهم مما يؤلمهم^(٢). وساعده على ذلك أن العصر العباسي الثاني كان موافقا لآخرها بالفرص: فالدولة العباسية ضعيفة، والرعايا حانقون، والظرائف المختلفة ناثرة، والنهضة العلمية واثجة؛ فاستغل عبد الله ذلك كله، واستطاع أن ينال قسما كبيرا من النجاح في ناحيتي المذهب: النظرية والعملية.

ويمتاز مشروع عبد الله القداح بأمر كبير، أهمها:

التدرج: كانت الدعوة الإسماعيلية التي وضع أساسها عبد الله بن ميمون القداح، تعتمد على التدرج والسير في خطوات متتدة تلائم عقول المدعوين. ولذلك ألف دعائه الكتب في التدرج مثل كتاب «البلاغات السبعة» — الذي ألفه أحد دعاة عبد الله، وهي: كتاب البلاغ الأول للعامة، وكتاب البلاغ الثاني لمن يفوق هؤلاء قليلا، وكتاب البلاغ الثالث لمن دخل في المذهب سنة، وكتاب البلاغ الرابع لمن دخل في المذهب سنتين، وكتاب البلاغ الخامس لمن دخل في المذهب ثلاث سنين، وكتاب البلاغ السادس لمن دخل في المذهب أربع سنين، وكتاب البلاغ السابع، وفيه تنمة المذهب والكشف الأكبر^(٣). وهذا ما جعل المدعوين متعطشين دائما إلى التطلع لما فوق الدرجة التي وصل إليها كل منهم، مما كان يبعث القوة والنشاط في الدعوة نفسها. ولا غرو فقد كان عبد الله من كبار علماء النفس، فوجه غريزة حب الاستطلاع توجيهاً غريباً.

(١) Nicholson: Lit. Hist. of the Arabs, p. 271.

(٢) وقد صدق دي مور فيما ذهب إليه من أن عبد الله «كان يحنال في اجتذاب بعض باظهار الشعبية والتخريق، وفي اجتذاب بعض باظهار الزهد والعبادة والعلم. كان عليه أبيض اللون لأنه كان يزعم أن دينه دين البور الخالص الذي سترج القموس إليه بعد مطافها على هذه الأرض. وكان يدعو إلى احتقار الجسد والاستهانة بالماديات، وإلى اشتراك جميع أعضاء الجمعية المتأخين في الخيرات، وإلى تضحية النفس في سبيل الجماعة، وإلى أن يكون الإنسان مالياً لرفيقه عطياً له حتى الموت، لأن تفاوت طبقات الجماعة يفضي بهذا». تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٩٧

(٣) ابن النديم: الفهرست ص ٢٦٨

السرية : وكذلك لحجاً عبد الله في مشروعه إلى السرية ، كيلا يتعرض لخطر العباسيين والعلماء السنيين ، والشعب السني كذلك . فكان العهد الذي يأخذه الدعاة على المستجيبين قائماً على ألا يفشى أحد منهم سرا ، وإلا أصبح خارجاً على الملة والجماعة ، واستيحت أمواله ودماره . ولم نذهب بعيداً وقد استغل الإسماعيلية . أتمتهم وحججهم ودعاتهم مبدأ السرية هذا ؟ فنادوا بالامام المستور للوصول إلى قلوب العامة يملئونها بالأمل في الخلاص مما هم فيه بظهور المهدي أو الامام المستور حين تسمح له الفرصة . هذا بالإضافة إلى أن عبد الله قد أدرك ماسوف يحيط به من الأخطار إذا ما حاول تحقيق أغراضه السياسية والدينية ، فكان حتماً عليه أن يلجأ إلى السرية يستمد منها العون ليصل إلى ما تصل إليه نفسه (١) .

وهكذا أدت تلك الوسائل إلى نتائج مذهشة تلخص في أن جمهوراً عظيماً من الناس كانوا يعتقدون مذاهب مختلفة ويعملون جميعاً في اتحاد وثيق لتحقيق غاية لا يدركها سوى عدد قليل منهم (٢) .

الاعتماد على الفلسفة : ولانتشار فلسفة اليونان في الشرق وقتئذ ، عمل عبد الله القداح على استغلال مبادئ الأفلاطونية الحديثة ، ليصل إلى تعليم الاتباع كثيراً من المبادئ الإسماعيلية . فنظرية العقل السكلي والنفس السكلية ، وحلولها في الناطق (النبي) والاساس (الإمام) مأخوذة كلها عن أصل يوناني . ونظرية خلق النفس السكلية من العقل الأول نظرية يونانية كذلك (٣) . وكان لهذه التعاليم أثر بالغ في نفوس السنيين الذين آمنوا في رضى عبد الله القداح بالإلحاد ، ورمى مشروعه بالزندقة . وهكذا كان المستجيبون مختلفين في المذاهب والمشارب ، منهم الفيلسوف والداعي والجندي والتاجر وغير ذلك .

إعداد الدعاة : كما أدرك عبد الله القداح أهمية تنظيم الدعاة إلى مذهبه الجديد ، ولذلك كرس جهوده في سبيل إعداد جماعة من الدعاة الذين مروا على فتون الإلقاء والتأثير في النفوس ، وإجادة فنون التخفي . فتراهم تجاراً ومتصوفين تارة ، وزراعاً

(١) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 3.

(٢) Dozy : Essai sur l'Hist. de l'Islamisme, p. 262

(٣) O'Leary : A Short Hist. of the Fatimid Khalifate, p. 13.

وصناعاتها تارة أخرى . واشترط في دعائه أن يكونوا على شيء كبير من الذكاء . ليسهل عليهم تفهم حال المدعويين . وكان يحتم عليهم التظاهر بالعلم والمعرفة كي يجذبوا القلوب إليهم ، ويحتم عليهم اللجوء إلى التأويل إذا ما أخرجوا . كما كان يختارهم من ذوى الأصوات الحسنة لزيادة التأثير في تلاميذهم . وعلى الجملة كان هؤلاء الدعاة — كما يقول رشيد الدين (١) — فصحاء ذوى جاذبية في الحديث ، يمتازون بالبلاغة والذكاء والتعقل ، وقد عين عبد الله للدعاة مساعدين يعملون على زعزعة عقائد الناس . فإذا كان عمل الداعي أخذا العهد على المستجيبين ، ونشر الدعوة الإسماعيلية بينهم ، فإن عبد الله أوجد بجانبه المأذون المكسر لمجادلة الأضداد وإظهار ما في عقائدهم من ضعف ، وترغيب المدعويين إلى الدخول في المذهب الإسماعيلي (٢) ، مما يوحى إلينا بأن عبد الله أوجد هيئات علمية منظمة ، وخصص جماعة منهم لتدريب الدعاة ، وجماعة لتلقيهم فنون الجدل ، وآخرين لتدريبهم على فنون التخفي وغير ذلك . وعلى الرغم من خلو مراجعنا الإسماعيلية من كل ما يتعلق بمشروع عبد الله ، فإن نتائج أعماله والطرق التي كان يسلكها الدعاة بين القرامطة وفي فارس واليمن وسواها . تؤكد جميع ما ذكرناه . كما اتخذ عبد الله من الدعاة في الأقاليم المختلفة جواسيس ينفذونه بكل ما يحدث فيها ، مستعينين بحمام الزاجل . ولذلك خفي أمره وأمرهم على الحكومات القائمة . بل لقد كان لعبد الله ودعائه في بغداد نفسها أبراج الحمام الزاجل . فظهروا بسبب ذلك أمام العالم بالقسرة على الإتيان بالمعجزات ومعرفة الغيب وإجادة فنون الشعوذة (٣)

الاستعانة بالتأويل : وترجع محاولة عبد الله استخدام التأويل إلى رغبته في إحاطة جماعته وأئمة بهالة من التقديس والإجلال . وبعبارة أخرى ، رغب عبد الله في ربط جماعته بعضهم ببعض برباط لا ينفصم ، فجعل الاتباع يؤمنون بأن الأئمة وحججهم هم وحدهم الذين يستطيعون فهم حقائق الأشياء وبواطنها ، كما أنهم

(١) J. R. A. S. (1930), p. 518.

(٢) محمد بن نوح : الأزهار ج ٢ ص ١٢٥ (من رسالة الدكتور محمد كامل حسين)

(٣) De Goeje : Memoires sur les Carmathes, vol. II. p. 23.

يستطيعون بهذه الوسيلة تفسير القرآن حسبما يريدون ، مدعين أن ذلك من عمل الامام المستور ، وأنه لا يفهمه إلا طبقة الدعاة والحجج ، فيزداد التفاف الناس حولهم كما كان عبد الله يقول بأن فهم التأويل مقصور على عقول الخاصة ، وأن الشريعة الاسلامية وتكاليدها وقف على ضعاف العقول . ومن هذا نرى أن التأويل نوع من الفلسفة المذهبية ، أريد به بعث الأمل والحيوة في نفوس طائفة الاسماعيلية . وهذا ما جعل دوزي يقول (١) : « قرر عبد الله أن يكون حكام فرقة من خاصة المستجيبين ، كما قرر بقاء عامة الاسماعيلية على ولائهم لحكامهم ، وذلك بفضل دين قاس وواجبات شرعية قاسية كذلك » . ويعتقد بعض أن موجد التأويل بين الاسماعيلية هو محمد بن اسماعيل ، حتى سموه صاحب التأويل كعلي بن أبي طالب ؛ على أن ذلك لم يمنع عبد الله من أن يوجه التأويل الوجهة التي يريد .

المناداة بنظرية الإمام المستور : كما نادى عبد الله القداح بنظرية الإمام المستور ، بدعوى أن هذا الإمام مصدر العلم والعرفان ، وأن الوصول إليه لا يكون إلا عن طريق حجة عبد الله القداح . وإنما قال عبد الله بذلك ليضع في يديه وفي أيدي سلالته قوة لا تحد . كما أخذ يملأ قلوب أشياعه بالأمل بقرب ظهور الإمام المستور أو المنقذ من ولد علي ، فعل كل هذا لإثارة الناس على حكوماتهم . وفي الحق أن عبد الله القداح أراد أن يتمتع بالتقديس الذي يتمتع به الأئمة ، وهذا هو السبب الذي جعله يقول : إنه بالنسبة لمحمد بن إسماعيل وابنه عبد الله ، كهرون بالنسبة لموسى عليهما السلام (٢) .

كما تمكن من قوله بنظرية الإمام المستور من أن يجذب هو وأبناؤه كثيرين من الشيعة الاثنا عشرية إلى المذهب الإسماعيلي ، لأن هؤلاء سيملون انتظار إمامهم الذي غاب ولم يعد ، ويرمون أنفسهم بين أحضان الإسماعيلية ، لأن إمام هؤلاء حتى يترقب الفرصة للظهور ، وسيكون نجاح تلك الفكرة عظيم الأثر في عهد أبنائه . على أن عبد الله أخذ ينادى بالمبدأ الإسماعيلي القائل : إن الإمام يدعو لنفسه إن كان

Essai sur l'Hist. de L'Islamisme, p. 267. (١)

Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 273. (٢)

ظاهراً ، فإن اختفى ترك الأمر لنوابه ، وبذلك خلق عبد الله مبدأى الستر والظهور .
حباً في الزعامة وتشديد المذهب الإسماعيلي (١) .

هكذا وضع عبد الله بن ميمون القداح مشروعه : ملأه بالعناصر المختلفة ،
فظهر في ثوب الملحد ، لأنه أراد أن يجعل من المذهب الإسماعيلي ديناً سابغاً بدل
الاسلام ، الدين السادس عندهم ، وأن يجعل من إمامه محمد بن إسماعيل نبياً سابغاً
بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أتباعه طبقة ممتازة لا قعياً بأوامر الشريعة .
وظهر بثوب الشعوبى باستغلاله العناصر المناهضة للعباسيين ودينهم ، كما ظهر بثوب
الفيلسوف العالم ، واستغل الفلسفة والتأويل لأغراضه السياسية ، كما ظهر بثوب
المتشيع المخلص لاختلاصه لأئمة العلويين لإخلاصاً لا حد له ، وإشادته بمحمد بن
إسماعيل ، وبمظهر المتشيع تشيعاً قبيحاً بمبادئه - في درجات الدعوة العليا - بالثورة
حتى على الأئمة أنفسهم ، ومحاولته تركيز جميع أعمال الدعوة في يديه وأيدي أبنائه ،
بما جعله يبدو في رأى بعض شخصاً مادياً نفيعاً . وهكذا نجح عبد الله - من الناحية
النظرية - في وضع أساس مذهبه ودعوته .

نجح عبد الله في نشر الدعوة الإسماعيلية في كثير من البلاد الإسلامية ؛ إلا
أنه وإن لم يحن كل ثمارها ، فقد رأى بعينه ما بلغته من نجاح في جهات كثيرة :
فقد أرسل ، وهو بالاهواز (أى قبل سنة ٣٦٥ هـ) الحسين الأهوازي ، الذى
يعتقد بعض أنه ابنه ، إلى سواد الكوفة ، حيث التقى بمحمدان قرمط (٢) . ومعنى
ذلك أن عبد الله القداح هو الذى وضع أساس الدعوة الإسماعيلية بين القرامطة
وهو فى الاهواز ، مما يبعث على الاعتقاد بأن شهرة عبد الله فى نشر الدعوة إنما
وضحت للعباسيين فى ذلك الحين ، فطاردوه ، ولكنه استطاع أن يفر منهم ، ويتخذ
طريقه إلى سلبية .

(١) الدكتور طه أحمد شرف : تاريخ الإسماعيلية العباسية ج ١ ص ٤١

(٢) وعلى الرغم مما يذكره بعض المراجع من أن الحسين الأهوازي صحب عبد الله فى هربه من
الاهواز إلى البصرة فسلمية . لا يمنعنا هذا من القول بأن عبد الله فى أثناء إقامته بالاهواز قد أوسله
إلى سواد الكوفة ، خصوصاً إذا علمنا أن الامام عبد الله الأكبر بن محمد بن إسماعيل وابنه أحمد وحفيد
الحسين ، كانوا قد اعتزلوا من سلبية مركزاً أساسياً قبل ذلك الوقت بكثير .

ويذهب نظام الملك (١) إلى القول بأن غلام جعفر الصادق الذي يدعى «المبارك» ، هو الملقب «قرمط» ، وأن عبد الله نجح في التفرير به . ومن الواضح أن ماركا هذا غير حمدان قرمط مؤسس الدعوة الإسماعيلية بين القرامطة ؛ إلا أن عبد الله القداح استطاع أن يجذب المباركية ، أتباع المبارك (٢) إلى جماعته ؛ كما استطاع في الوقت نفسه أن يعمد الدعوة في فارس وخراسان ، بإرساله الداعي «خلف» إلى بلاد الري وطبرستان ، وإرساله ابنته الثالث «علي» إلى الطالقان . ومن هذا نرى أن تسمية أتباع عبد الله بالمباركية أو القرامطة أو الخطائية ، تسميه ناقصة ، وإنما التسمية الصحيحة هي «الإسماعيلية» ، لأن عبد الله استطاع أن يوحد بين هؤلاء وأولئك .

والأمر الذي يلفت النظر حقا أن الكوفة وسوادها كانت في عهد عبد الله القداح مركزا لنشاط الداعي المبارك وأتباعه ؛ فكأنه كان يعمد الطريق لحمدان قرمط ولقرامطة السواد ؛ كما كانت الأهواز وقوهستان مركزا لنشاط عبد الله نفسه . ولم يكشف هذا بذلك ، بل أخذ يوفد دعاته إلى البلاد النائية في أنحاء فارس وخراسان . ونستطيع أن نقول إن عبد الله قسم العالم الإسلامي إلى مناطق رئيسة . وجعل على كل منها واحدا من أبنائه أو أحد كبار دعاته المشهورين . وخلاصة القول أن الدولة الفاطمية قامت على يد أحد أحفاد عبد الله في بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ ، كما قامت دولة القرامطة في البحرين على أيدي دعاته ودعاة أبنائه ، كما لاقت الدعوة الإسماعيلية شيئا غير قليل من النجاح في اليمن وغيرها . ومن ذلك نرى أن عبد الله القداح هو المؤسس الحقيقي للمذهب الإسماعيلي .

(١) Siasset Nameh, vol. II, p. 265.

(٢) يقول الأشعري (ج ١ ص ٢٦) إن المباركية يلقبون محمد بن إسماعيل الإمام ، فهم إسماعيلية إذن ، غير أنهم يفترون عن إمامية عصرهم في اعتقادهم أنه مات وأن الإمامة وولده من بعده ، على حين يرى إسماعيلية عصرهم أنه لم يموت ولا يموت حتى يدلك . والواقع أن الرأي الأول هو السائد بين الإسماعيلية .

(هـ) خلفاء عبد الله بن ميمون

١ — عرفتهم بالائمة

اعتاد أئمة الإسماعيلية ، منذ أيام جعفر الصادق ، أن يعينوا نوابا عنهم . أى حججا لهم - كما رأينا - واعتاد الأئمة أيضا أن يكون هؤلاء الحجج من سلالة ميمون القداح ، الذين يرجعون - كما يعتقد الإسماعيلية - إلى سليمان الفارسي فلوط عليه السلام ، وأن ينتهم في الإسلام وقبله كان بيت الأئمة المستودعين . ومن ثم كان لزاما على الأئمة الإسماعيليين أن يتخذوا حججهم من بين هؤلاء النواب . يتضح ذلك من تنصيب ميمون القداح وابنه عبد الله حجتي لمحمد بن إسماعيل وأبنائه حتى الإمام أحمد بن عبد الله - على ما رأينا . وهذا يجعلنا نعتقد أن الإمام الحسين بن أحمد ، قد اتخذ حجته من بين أفراد ذلك البيت . وقد يوضح هذا ما ذكره الداعي الخطاب بن الحسين في كلامه على الأئمة المستورين ، منذ أيام محمد ابن إسماعيل إلى قرب ظهور المهدي فيقول : فأودع إسماعيل ، حجته المنصوبة بين يديه مقامه لولده ، وأقامه سترًا عليه وقدمه بين يديه ، واستكفله إياه إلى بلوغه أشده - سلام الله عليه ! فلما بلغ أشده تسلم وديعته . ثم جرى الأمر في عقبه خلفا عن سلف ، حتى انتهى الأمر به إلى علي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ^(١) . وقد رأينا قصر وظيفة « الحجة » على بيت القداح ، وخلفاء عن سلف ، في عهد الأئمة المستورين الثلاثة الأوائل ، مما يوحى إلينا بأن الذي خلف عبد الله القداح في رتبة « حجة » الإمام ، هو أحد أبنائه لا أحد العلويين .

ويذهب الداعي إدريس ^(٢) إلى أنه « كان حجة ثالث الخلفاء » ^(٣) (أى الحسين بن عبد الله محمد بن إسماعيل) أحمد الملقب بالحكيم من ولد مولانا الحسين بن علي بن أبي طالب صلعم ؛ تسلم مرتبته من عبد الله بن الميمون - قدس

(١) غاية المراليد (من المنتخب) ص ٣٦

(٢) زهر المعاني (من المنتخب) ص ٦٤

(٣) يقصد بالأئمة الخلفاء الذين ولوا محمد بن إسماعيل وهم : عبد الله الأكبر ، الخليفة الأول ، وأحمد بن عبد الله الخليفة الثاني ، والحسين بن أحمد الخليفة الثالث .

الله روحه - وهو أحمد الحكيم ، الحجة الجليل قدرها ، العظيم خطرهما ، وأرفع الحجب وأسماها ، وألطفها وأعلاها . ونرى أن عبارة « من ولد مولانا الحسين » يجب أن تكون وصفاً لثالث الخلفاء ، لا لكلمة « الحكيم » التي تشير إلى أحمد . ونستطيع أن نقول ، إن المقصود بأحمد الحكيم ، أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح . والدليل على ذلك سلسلة النسب التي يذكرها الدرزية في رسائلهم حيث يعدون المهدي سعيد الخير بن أحمد بن عبد الله القداح . وسعيد الخير هذا هو حجة الإمام من نسل علي بن أبي طالب ، مع أن الدرزية لإسماعيلية ، مغرقون في عقائد المذهب الإسماعيلي ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن سعيد الخير كان حجة للحسين بن أحمد أو لعلي بن الحسين الذي يسميه الدرزية « المعل » ، وأن عمه أحمد بن عبد الله القداح كان حجة للإمام الحسين كذلك . وبالإضافة إلى هذا كله ، لا نعرف شيئاً عن هذا الحجة المسمى أحمد الحكيم الذي يرجع نسبه إلى الحسين بن علي ، وإنما أفاضت المراجع في القول عن أحمد بن عبد الله هذا .

٢ — تخصيص أبناء عبد الله بهم ميمون

اشتهر لعبد الله أبناء ثلاثة ، قام كل منهم بدور هام في تقوية الدعوة الإسماعيلية ، وهؤلاء هم أحمد والحسين وعلي . أما أحمد فتذهب المراجع السنية إلى أنه ولد بسلمية ، وهو قول مردود ؛ لأن عبد الله القداح لم ينتقل إلى سلمية إلا بعد سنة ٢٦٥ هـ . وتولى أحمد هذا رئاسة الدعوة بعد سنة ٢٧٠ هـ . ويظهر أن ذلك الخطأ التاريخي راجع إلى أن كثيراً من المراجع يذهب إلى أن الحسين بن عبد الله أنجب في سنة ٢٦٠ هـ ولداً بسلمية ، هو سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، الذي عرف بعد ذلك باسم المهدي ؛ فخلط بعض المؤرخين بين أحمد وبين سعيد هذا (١) .

(١) يفرق بعض بين أحمد بن عبد الله ، وبين محمد بن عبد الله المعروف بأبي الضميلة ، مع أن أحمد هو نفسه محمد أبو الضميلة على ما ورد في رسائل الدرزية . وقد ذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن محمداً أبا الضميلة كان وصياً على سعيد بن الحسين ، على حين أن عبد الله القداح توفي سنة ٢٧٠ هـ ، وتولى بعده ابنه أحمد ، واستمر حتى ٢٨٠ هـ . فلما توفي في ذلك الوقت أقيمت مقابله حجة الدعوة في يد سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، الذي كان قد بلغ العشرين من عمره ، والذي كان عمه أحمد

وقد نقل عبد الله بن ميمون القداح الدعوة في أخريات حياته من دور التأسيس والتكوين وخلق المبادئ النظرية إلى دور العمل ، واعتمد على أبنائه في ترويج هذه الدعوة للأئمة المستورين المستقرين بسلبية ، لجعل على غربي العالم الإسلامي أكبر أبنائه وأحبهم لديه ، وهو الحسين ، وجعل مقره سلبية مع الأئمة المستورين . ومن ثم كان الإسماعيلية وقتئذ ينظرون إلى القائم بالدعوة من أبناء القداح هنالك نظرة تفوق نظرتهم لأقرانه . ولا غرو فهو في صحبة الإمام المستور ، صاحب الزمان . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان من سنة الإسماعيلية أن يتسمى دعايتهم وحججهم بأسماء الأئمة . ولذلك أثر عبد الله أن يكون ابنه الحسين في صحبة الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، ليحيط لإمامه بستر كشيء من السرية والغموض ؛ وهذا وحده هو السبب الذي حدا بالمؤرخين السنيين إلى أن يخلطوا بين الحسين بن عبد الله القداح ، وبين الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله الأكبر ، فنسبوا إلى هذا تارة وإلى ذلك تارة أخرى التزوج من المرأة اليهودية ، وتنصيبه ابنها في رئاسة الدعوة وإمامتها^(١) ، وهو قول لا يستند إلى أساس تاريخي صحيح .

ابن عبد الله وصيا عليه قبل سنة ٢٨٠ هـ . وهذا يدلنا على أن عمدا أبا الشلمع الوصي على سعيد هو نفسه أحمد بن عبد الله .

أما الحسين بن عبد الله ، فقد كان أكبر أبناء أبيه منا ، وكان أبوه يعتمد عليه ، ويسمى دائما في أن يحله محله في رئاسة الدعوة أى ليصبح حجة الامام مثله ، ولذلك جعله في صحبة الامام المستور (أحمد بن عبد الله ثم الحسين بن أحمد) في سلبية . وأما ما ذهب إليه ابن الأثير (ج ٨ ص ١٣) من أن الحسين هذا هو ابن أحمد بن عبد الله ، وأنه تولى رئاسة المذهب الإسماعيلي بسلبية ، فقول مردود لأن أحمد هو الذي تولى رتبة الحجة بعد أبيه دون الحسين ، ولأن عامة المراجع تكاد تتفق على أن عبد الله القداح كان له ابن يدعى الحسين تولى في حياة أبيه بعد سنة ٢٦٠ هـ ، ظل محله أخوه أحمد (الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسية ج ١ ص ٤٨) . يؤيد ذلك ما ذكره ابن النديم (الفهرست ص ٢٦٥) حين يقول في عبيد الله : « ثم قام بالدعوة بعد ذلك سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح » ، وإذن فالحسين هو ابن عبد الله وليس حفيده .

(١) ينقض ذلك الادعاء نفسه بنفسه ، لأن الحسين ، سواء أكان هو الامام أم الداعي فانه لا يستطيع أن يقوم بذلك ؛ إذ لا يصح للحسين الامام الذي يرغب في تزعم العالم الإسلامي أن يتترك آثاره وأبنائه ويهب الامامة لابن يهودي . كما لا يمكن الحسين الداعي أن يفعل ذلك مع وجود أخويه أحمد وعلى وسواهما . ثم إنه يترب على ذلك ان يكون هذا الابن اليهودي ، الذي أصبح المهدي صغيرا جدا

على أن الحسين بن عبد الله مات في حياة أبيه ، ولا نعرف على وجه التحقيق هل حدث ذلك قبل فراره من الأهواز أو في خلاله أو بعدة ، وإنما الذي نعرفه على وجه التحقيق أن عبد الله عهد بمعسكر سلبية الرئيس إلى ابنه أحمد بعد موت الحسين (١) ، وأنه اتخذ من مدن العراق - وخاصة الكوفة وبغداد - مركزاً أساسياً لبث الدعوة . وفي الحق أن المعسكر الأوسط لم يكن أقل شأنًا من المعسكر الغربي وهو سلبية ، فإن أحمد كان يعمل في معسكره بمدن العراق ، على حين كان عبد الله بن ميمون القداح - يعمل في إقليم الأهواز ؛ فراه تارة في ساباط أبي نوح . من قرى الأهواز ، وراه تارة أخرى في عسكر مُسكَرَم - إحدى ضواحي هذه المدينة - أو في مدينة الأهواز نفسها . غير أنه بعد وفاة ابنه الحسين وفراره هو نفسه من الأهواز ، اضطر أن يركز قواه في سلبية ، واستمر بها حتى مات بعد سنة ٢٧٠ هـ . ومعنى هذا أن أحمد بقي في معسكره بالعراق حتى وفاة أبيه ، ثم انتقل بعد ذلك إلى سلبية . فكان سعيد بن الحسين كان في وصاية جده في تلك المدة (أى من سنة ٢٦٠ إلى سنة ٢٧٠ هـ تقريباً) ، ثم أصبح بعد موت جده تحت وصاية عمه أبي الشالع (أحمد بن عبد الله) .

ولا يبعد أن يكون عبد الله القداح ، قد قصد سلبية بعد موت ابنه الحسين ، وخلوها من المحرك الأول للدعاة بها ، وخوفه على الإمام المستور من بقائه بسلبية وحيداً ؛ بمعنى أن خروجه من الأهواز لم يكن خوفاً من العباسيين والفرق الإسلامية فقط ، بل كان للمحافظة على سلامة النظام الذي وضع أساسه لحفظ كيان الدعوة الإسماعيلية .

أما المعسكر الثالث من معسكرات الدعوة فكان في الطالقان (٢) بخراسان . وقد

== وقت هربه من سلبية إلى بلاد المغرب ، مع أنه كان رجلاً كاملاً الرجولة ، ومعه القائم الذي يعتبره بعضهم ابناً له ، والذي ستراه يقود الجيوش بعد عشر سنوات تقريباً .

(١) وكان قد عهد إلى أحمد بن عبد الله برياسة الدعوة في قلب المملكة الإسلامية ، وخاصة العراق .

(٢) تطلق كلمة « طالقان » ، على بلدين إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ ، والأخرى بلدة ركوة بين قزوين وأهر .

أقام فيه عبدالله ابنا ثالثا كان على اتصال دائم بالقرامطة في سواد الكوفة . يقول ابن النديم ^(١) : « وأقام قرمط بكواذى (قرب بغداد) ، ونصب له عبدالله بن ميمون رجلا من ولده يكاتبه من الطالقان ، . وسنرى الدور الخطير الذى سوف يمثله ذلك القداحى فى تنظيم الدعوة الإسماعيلية بين القرامطة ؛ إذ أنه ما كاد يعلم بانتفاض حمدان قرمط وصهره عبدان على ابن أخيه سعيد بن الحسين وإمامه الحسين بن أحمد . حتى تأمر على زكرويه بن مهرويه ، الداعى القرمطى النشيط ، على قتل عبدان . وإن نهاية قداح الطالقان بجهولة تماما ، وإن كان النويرى يرى أنه صاحب النافذة المشهور الذى قتل على أبواب دمشق سنة ٢٩٠ هـ ، وسنرى بطلان هذا رأى .

٣ — مدى نشاط أبناء عبد الله بن ميمون

الواقع أن نشاط أبناء القداح يبدأ فى حياة أبيهم ، وينتهى بتقليد حفيده سعيد ابن الحسين سنة ٢٨٠ هـ رتبة حجة الإمام . أما متى بدأ نشاطهم بالضبط فإننا لا نعرفه ، . ولكننا لا نستطيع أن نقول ، إنه بدأ قبل مقابلة عبد الله بن ميمون القداح دندان كاتب عبد العزيز بن أبى دلف فى سنة ٢٦٥ هـ ، وإن أبناء القداح هؤلاء استطاعوا فى ذلك الوقت أن ينشروا المذهب الإسماعيلى بين القرامطة ؛ إلا أنهم ضاعفوا جهودهم بعد هذه المقابلة ، وبعد أن أخذ أبوه من دندان الهبة المالية الضخمة التى ساعدتهم على مضاعفة العمل . كما ساعد على نجاحهم ثورة صاحب الرنج (٢٥٥-٢٧٠ هـ) ، وانهماك العباسيين فى الصراع معه . وقد نشرت الدعوة الإسماعيلية على أيدي أبناء عبد الله بن ميمون فى خراسان وفارس ، وبين القرامطة ، وفى بلاد اليمن وبلاد المغرب . ولولا قيام الدولة الطولونية فى مصر والشام ، اظهرت آثار ذلك النشاط السريع ، لأنه على الرغم مما عرف عن ميل أحمد بن طولون إلى الشيعة عامة ، استطاع إقرار الأمور فى بلاده . ولذلك ضاعف عبد الله بن ميمون القداح وأبناؤه والأئمة الإسماعيلية جهودهم فى نشر الدعوة فى البلاد البعيدة عن مركزى القوة السنية ، فى بغداد بالعراق ، وفى القطائع بمصر .

(١) الفهرست ص ٢٦٥

وعما يدلنا على انهماك أبناء القداح في نشر الدعوة الإسماعيلية ما يعزونه إلى أحمد ابن عبد الله من أنه هو الذي أرسل الحسين الأهوازي إلى القرامطة . فيرى أخو محسن : « أنه لما صار الأمر إلى أحمد بن عبد الله بن ميمون بن ديصان بعد أبيه ... بعث وهو بسلبية الحسين الأهوازي داعية إلى العراق ، فلقى حمدان بن الأشعث قرمط بسواد الكوفة ،^(١) . غير أننا لانستطيع أن نصدق كل ما أورده أخو محسن . لأن أحمد بن عبد الله لم يتول رئاسة الدعوة إلا بعد قيام المذهب الإسماعيلي بين القرامطة في أوائل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، كما أن عبد الله لم يمت إلا بعد أن استقر هذا المذهب بين القرامطة في السواد . وإذن فإن إرسال أول داع للقيام بنشر هذه الدعوة للمذهب الإسماعيلي بين القرامطة كان على يد عبد الله ابن ميمون القداح .

ويعتقد بعض المؤرخين أن الحسين الأهوازي الداعي الإسماعيلي الأول الذي قام بنشر المذهب الإسماعيلي بين القرامطة . هو الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح . وإذن فخرج الحسين إلى سواد الكوفة إنما كان بأمر أبيه عبد الله القداح ، وهذا لا يحول دون مساعدة أحمد بن عبد الله لأخيه الحسين ، مما يؤكد نشر الدعوة الإسماعيلية بين القرامطة في حياة عبد الله بن ميمون . أما قول ابن عذارى عن عبد الله هذا : « إنه صحب قرمطا ودعاه إلى مذهبه فطارعه على ذلك » ، فإنه يؤيد ما ذهبنا إليه من أن عبد الله هو أول من أرسل الدعاة لنشر المذهب الإسماعيلي بين القرامطة . ولكن ابن عذارى قد جانب الصواب باعتباره أن عبد الله بن ميمون القداح هو الذي قام بالدعوة بنفسه بين القرامطة ، ثم لحاطه بين عبد الله هذا وبين الحسين الأهوازي الذي كان أول من دعا للمذهب الإسماعيلي بين القرامطة .

ولكن متى حدثت هذه الحركة من جانب القداحية ؟ يخيل إلينا أنها لم تكن قبل قيام ثورة صاحب الزنج بكثير ؛ لأن الدعوة الإسماعيلية في ذلك الحين لم تكن قد نظمت من الناحية العملية التنظيم الكافي . ولا بد أن يكون ذلك قد تم بعد قيام تلك الثورة ، وليس في أوائل العصر العباسي الأول ، أو في سنة ٢٧٨ هـ كما ذهب إليه بعض . وإذا نستطيع أن نقول إن هذه الحركة أخذت طريقها إلى القرامطة في

(١) الزيرى : نهاية الأرب (مخطوط) ٣٢ ورقة ٥٥

الوقت الذى قامت فيه ثورة الزنج ، لأنهم ينسبون إلى الحسين الأهوازى أو إلى حمدان قرمط ، أنه اتصل بصاحب الزنج وحاول الاتفاق معه على أن يمهده بمائة ألف ضارب بسيف . ولا نستطيع أن نتصور رفض صاحب الزنج هذا العرض المفيد إلا إذا افترضنا أنه كان من القوة بمكان عظيم . ولا يمكن أن يكون كذلك إلا فى أخريات عهده ، أى قبيل سنة ٢٧٠ هـ ، وذلك فى عهد إمامة الحسين بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل .

كما أن انتشار الدعوة فى بلاد اليمن إنما حدث على يد أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح فى عهد أبيه ، أو بعبارة أخرى ، أن أحمد بن عبد الله لم يكن حين نظم الدعوة فى بلاد اليمن حجة الإمام المستور ، بل كان نائباً عن أبيه الحجة . ومهما يكن من شيء فقد تم على يد أحمد بن عبد الله إرسال الحسين بن حوشب^(١) مع ابن فضل الجندى إلى بلاد اليمن فى سنة ٢٦٧ هـ . وقد رأينا كيف استطاع الإمام الحسين ابن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل أن يحوله من مذهب الإمامية الاثنا عشرية إلى مذهب الإمامية السبعية أو الإسماعيلية . وترى المراجع السنية أن الذى حول أبا القاسم بن حوشب إلى المذهب الإسماعيلى هو أحمد بن عبد الله ؛ لكننا نرى أن الإمام الحسين هذا هو الذى قام بذلك ، لأن ابن حوشب حين يصف مقابله للإمام يذكر أنه تقابل مع شخص مسن ، ولم يكن أحمد بن عبد الله كذلك . أما الذى تم على يديه إرسال ابن حوشب إلى بلاد اليمن هو وزميلة ابن فضل ، فهو أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح . ويهمنى هنا أن نقف على هذه الأمور :

إن ابن حوشب وابن فضل كانا من الإمامية الاثنا عشرية ، مما يدل على أن الاثنا عشرية كانوا دائماً منهلًا تنهل منه الدعوة الإسماعيلية ، حتى إن كبار دعايتها ورجالها كانوا من الاثنا عشرية . ولا غرو فإنه من السهل على المرء أن ينتقل من مذهب شيعى إلى مذهب شيعى آخر . ثم إن الشخصيات الجريئة التى كانت لها مطامع تستطيع أن تحقق آمالها كاملة فى ظل إمام حتى يترقب الفرصة للظهور ؛ وعلى عكس ذلك يقفون مكتوفى الأيدي مع إمام منتظر لا يعرفون عنه شيئاً .

(١) يسميه المنصورى : رستم بن الحسين بن حوشب بن زاذان النجار ، كما يسميه صاحب كتاب « استنار الامام » ، أبا القاسم الحسن بن فرح .

وإن ابن فضل وصل إلى الكوفة في أوائل سنة ٢٦٧هـ ، وكان وصوله معروفاً لأحمد بن عبد الله بن ميمون القداح . فما السبب في ذلك ؟ يظهر أن أحمد بن عبد الله والأئمة المستورين كانت لهم باليمن عيون . ومن البلاد التي نشروا فيها عيونهم وعدن لاهه ، في بلاد اليمن . ويلوح أنها كانت مركزاً أساسياً للإسماعيلية قبل أن يفد إليها ابن حوشب . وكان لأحمد بن عبد الله وأئمة بها طيور تأتيه بأخبارها ، ولا يبعد أن يكون أحمد بن عبد الله قد عرف بوصول أحمد بن فضل عن طريق هذه الطيور . ومعنى ذلك أن المذهب الإسماعيلي كان منتشراً في بلاد اليمن بجانب انتشار المذاهب الشيعية الأخرى . ومن ثم أخذ أحمد بن عبد الله بن ميمون يعد ابن حوشب - قبل مجيء ابن فضل الجدني - للذهاب إلى بلاد اليمن ويقول له : « يا أبا القاسم ، إن الدين يمان ، والحكمة يمانية ، وكل أمر يكون مبدؤه من قبل اليمن فإنه يكون ثابتاً لثبوت نجم اليمن » (١) .

وقد اختلف المؤرخون في الشخص الذي عهد لابن حوشب وابن فضل بالسفر إلى اليمن : فمن قائل ، إنه الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح ، وهذا غير مقبول كما تقدم . ومن قائل إنه ميمون القداح نفسه ، وهو قول لا يحتاج في بطلانه إلى رد ، لأن ميمونا القداح كان حجة محمد بن إسماعيل ، فلا يعقل أن يكون حجة لحفيد ابنه الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل . ومن قائل إنه الإمام الحسين هذا . وليس هناك ما يمنعنا من تصديق هذا القول ، إذ أنه لا يتناقض مع وجود أحمد بن عبد الله بن ميمون في رئاسة الدعوة من الناحية العملية . وإذا كان الإمام الحسين قد شارك في إرسال هذه السفارة فإن هذا يدل على أن الأئمة لم يظلوا ساكتين في دور هجرتهم . وإن جذب ابن فضل اليمنى - أو اقتناصه إلى الدعوة الإسماعيلية كما كانوا يقولون - قد حدث في الكوفة بالقرب من مشاهد أهل البيت عقب أداء فريضة الحج بمكة ، مما يدلنا على أن الأئمة الإسماعيلية وحججهم ودعاتهم كانوا يترقبون المستجيبين عند تلك المشاهد ، ثم اقتناصهم هنالك . ونحن لا نوافق ابن خلدون فيما ذهب إليه من أن إرسال ابن حوشب مع ابن فضل كان من سلبية ، لأن ابن حوشب يصف لنا رحلته وخروجه من الكوفة إلى القادسية فحكمة .

(١) الباقى : كشف اسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٦ - ٢٣

وكان وفد السفارة إلى اليمن يتكئون من ابن حوشب وابن فضل دون سواهما :
أما القول بأن عبيد الله المهدي خرج معهما ، فإنه يبدو بعيد التصديق ، إذ لم نجد
دليلا واحدا يؤيد ذلك . يقول ابن البطريق^(١) : « لما ترعرع عبيد الله سيره أبوه إلى
اليمن في سنة ثمان وستين ومائتين ، والمهدي يومئذ طفل عمره ثمان سنوات » .

كما أن سلوك أحمد بن عبد الله القداح والإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد
ابن إسماعيل يدل على ذلك نادر المثال ، وعلى مقدرة في إدراك مافي نفوس الرجال ،
والإمام تام بحالة البلاد الإسلامية ؛ فقد أخذ أحمد بن عبد الله الموائيق على ابن فضل ،
لما كان يخشاه من طموحه ، وقال له : « الله الله بصاحبك ! وقّره ، واعرف له حقه ،
ولا تخالفه فيما يراه لك ، إنه أعرف منك ، وإنك إن خالفته لم ترشد »^(٢) . كما أمر
ابن حوشب بالاستتار والاعتماد على التأويل في نشر المذهب الإسماعيلي ، واتخاذ
التشيع وسيلة لتحقيق أغراضه ، وأمره أن يقول بقرب ظهور المهدي^(٣) وقال لهما :
« أبعثكما إلى اليمن تدعوان إلى ولدي هذا ، فسيكون له ولذريته عز وسلطان »^(٤) ،
لأن أهل النجوم والحساب (كانوا) يذكرون ظهور المهدي بالله ، ويبدشرون
بدولته^(٥) . ولا غرو فقد كانت الأحوال مهيأة لهم في بلاد اليمن لانتشار التشيع بها ،
وضعف حكامها ، ووهن ذلك الرباط الذي كان يربطها بالعباسيين . وهكذا استطاع
سفيرا الإسماعيلية إلى اليمن — ابن حوشب وابن فضل — أن يثالا قسما كبيرا من
التجاح ، وأن يملكا معظم البلاد الجبلية فيها . ولم يمض عامان حتى احتل ابن حوشب
جبل مسور من أعمال صنعاء ، واتخذ له منه دار هجرة ، وتسمى منذ سنة ٣٧٠ هـ
« منصور اليمن » . ويرجع الفضل إلى تلك الحركة في إقامة دولة الصليحيين بعد قرنين
تقريبا . ولذلك فإنه لما أرسل ابن حوشب إلى أحمد بن عبد الله بعد ذلك ، وقد
أصبح حجة الإمام ، يخبره بما فتح من البلاد ، ويتحفه بالكثير من تحف اليمن ، قال
أحمد لابن أخيه سعيد : « هذه دولتك قد أقبلت ، ولكن لا أحب ظهورها إلا من .

(١) صلة التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٠٦

(٢) الحمادي اليماني : كشف أسرار الباطنية ص ٢٣

(٣) Quatremère : Memoires (J.A., 1836) p. 148.

(٤) الداعي لإدريس : زهر المعاني (من المنتخب) ص ٦٥

(٥) الحمادي اليماني : كشف أسرار الباطنية ص ٢٣

المغرب^(١) . ولا يقل نجاح ابن فضل في بلاد اليمن عن نجاح زميله ابن حوشب .
وما يدل على مدى نشاط أحمد بن عبد الله القداح ورجاحة عقله ، ما قام به في
سبيل نشر الدعوة في بلاد المغرب ؛ إذ يلوح لنا أنه هو الذي أرسل الداعيين الحلوانى
وأبا سفيان إلى تلك البلاد ، وانتهمز — هو وإمامه الحسين بن أحمد — بعد بلاد
المغرب عن بغداد ، وانتشار التشيع بها ، وأرسلهما لنشر الدعوة وتمهيد الأمور
للهدى فيها ، أو بعبارة أدق لإعداد العدة لإقامة دولة إسماعيلية هنالك . وليس
صحيحاً ما يدعيه بعض من أن الذي أرسل هذين الداعيين إلى إفريقية (تونس
الآن) هو جعفر الصادق في سنة ١٤٥ هـ ، لأن أبا عبد الله الشيعي تقابل في سنة
٢٧٨ هـ في مكة ، مع حجاج كتامة ومنهم من أخذ على الحلوانى وأبي سفيان ،
فهل يعقل أن يعاصر هؤلاء جعفر الصادق في منتصف القرن الثاني ، وابن حفيده
الإمام الحسين في أواخر القرن الثالث ؟ الواقع أن ما ذكره صاحب كتاب
« دستور المنجمين » ، وسواه ، إنما قيل حبا في الأئمة بنسبة قيام الدولة الفاطمية إلى
جهود الإمام جعفر الصادق . على أن كثيراً من مؤيدي الفاطميين ينسبون ذلك إلى
سلف عبيد الله : فقد ورد في كتاب عقد الحمان^(٢) ، « واعلم أن الدعاة بالمغرب كانوا
يدعون إلى محمد الحبيب - والد عبيد الله - وكان يسمى الهادي ، وكان بسلمية » .
فهذا القول ينطبق على الإمام الحسين بن أحمد وحجته أحمد بن عبد الله القداح .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أشار بعض أعلام المؤرخين إلى أن ابن
حوشب هو الذي أرسل الدعاة قبل أبي عبد الله إلى المغرب . فيقول العمري :
« كان قد أرسل ابن حوشب قبل ذلك دعاة إلى أرض المغرب ، فأجاب أهل كتامة » ؛
ولم نعرف أن هناك دعاة أرسلوا إلى المغرب قبل أبي عبد الله سوى الحلوانى وأبي
سفيان . أضف إلى ذلك أن النصوص التي تذكر أن جعفر الصادق هو الذي
أرسلهما يتناقض بعضها مع بعض . من ذلك ما عزي إلى جعفر الصادق أنه قال لهذين
الداعيين : « قولوا لكل شيء باطن ، واذهبوا فالمغرب أرض بور فاحرقوها وأكرهاها^(٣) » .

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٤٢ .

(٢) اليمنى . عقد الحمان ج ١٨ ورقة ١٥٣ .

(٣) أكرى الأرض : جعلها صالحة للزراعة . ويقصد هنا إعداد المغرب للدعوة الإسماعيلية .

حتى يأتي صاحب البذر^(١) ، فإن فكرة الباطن ، وفكرة صاحب البذر لم تكن قد نبتت في عهد جعفر الصادق . وليس هذا وحده . بل يكاد المؤرخون يجمعون على أن ابن حوشب لما علم بموت هذين الداعيين أعد أبا عبد الله لنشر الدعوة بعدهما وقال له : « إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان . وقد ماتا ، وليس لها غيرك » .^(٢)

من هذا كله نستطيع أن نقول ، إن إرسال الحلواني وأبي سفيان كان على يد ابن حوشب في عهد أحمد بن عبد الله القداح ، وإن ذلك لابد أن يكون بأمر الإمام الحسين وحجته أحمد بن عبد الله القداح ؛ لأنه لا يعقل أن ينفرد ابن حوشب بأمر دونهما . كما نستطيع أن نفهم اجتهاد هؤلاء جميعا في نشر الدعوة الإسماعيلية في البلاد الثانية ؛ فقد أدركوا مجاحها في بلاد اليمن ، ومن ثم عملوا على أن يضعوها موضع التجربة كذلك في إفريقية . كما نرى أيضا أن إرسالها يجب أن يكون بعد سنة ٢٧٠ هـ ، حيث نجح ابن حوشب في أداء مهمته وتسمى « بمنصور اليمن » . ومن ثم خلق ابن حوشب من اليمن مستودعا هاما من مستودعات الدعوة الإسماعيلية .

كما دل إيفاد أبي عبد الله الشيعي إلى المغرب على كثير من المهارة السياسية التي كان يتحلى بها رؤساء الدعوة في سلبية ، حججا كانوا أم أئمة . ولكن من الذي أرسل أبا عبد الله إلى تلك البلاد ؟ يبدو أن الذي أرسل الحلواني وأبا سفيان هو نفسه الذي أرسل أبا عبد الله إلى المغرب ، كما أن إرساله إلى المغرب لم يكن من سلبية مباشرة ، بل كان عن طريق اليمن . وبما يلتفت النظير في سفارة أبي عبد الله أن رئيسي الدعوة (الإمام والحجة) قد اختارا بلاد اليمن لتكون مدرسة لتعليم دعاة المغرب ؛ فقد رأينا ابن حوشب يرسل الحلواني وأبا سفيان وينصح لهما بأن يبتعد كل منهما عن صاحبه ، وأن يقولوا : لكل ظاهر باطن ، ويحتميا بالتأويل ، ويمهدا بعملهما لظهور المهدي ودولته . وها هو ابن حوشب يمثل الدور نفسه مع أبي عبد الله الشيعي . فما الذي حمل رؤساء الدعوة على إرسال أبي عبد الله إلى ابن حوشب دون

(١) صاحب البذر : يشير إل من يقوم على يديه الدولة الإسماعيلية المنشودة ، أي كأنهما تكانا يهدان السيل لأن عبد الله الداعي .

(٢) المنصوري : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٥ ورقة ١٤٥

توجيهه إلى المغرب مباشرة ؟ يظهر أن رؤساء الدعوة بسلمية كانوا يثقون في ابن حوشب ثقة لا حد لها حتى لقبوه المنصور ، وشبهوه بفجر الدعوة الذي مهد لشمسها بالظهور ، فقالوا فيه : « كان (ابن حوشب) بمثابة الفجر المتنفس ، وبه كشف الله عز وجل عن الأولياء الغمة ، وأثار حنادس الظلمة » (١) .

كما ينسبون إلى أحمد بن عبد الله القداح أنه قال لأبي عبد الله حين أرسله إلى ابن حوشب : « امثل سيرته ، وانتظر إلى مخرج أفعاله فاعمل بها ، ثم اذهب إلى المغرب » (٢) . ولا يبعد أن يكون رؤساء الدعوة قد استعانوا بابن حوشب في تعليم دعاة المغرب ، للتشابه العظيم بين اليمين وتلك البلاد ، فإن كلا منهما بعيد عن مركز الخلافة العباسية ؛ كما انتشر التشيع في كل منهما انتشارا كبيرا ، وفيهما سادت الفوضى ، ومن ثم رأى رؤساء الدعوة بسلمية أن يستفيدوا من خبرة داعي اليمين في تثقيف دعاة المغرب .^٥

وشيء آخر جدير بالملاحظة ، هو أن أبا عبد الله الداعي كان قد أخذ العهد على نفسه ، وأقر بارتباطه بالإسماعيلية دون أن يرى إمامه أو حجته أحمد بن عبد الله القداح ، أو يعرف شخصيهما ، وإنما أخذ هذه الدعوة عن أحد المقرئين إليهما ، وهو الداعي أبو علي ، الذي أسندت إليه الدعوة بمصر بعد ذلك . وأن أبا عبد الله قد أوفد من سلمية إلى بلاد اليمين جنوبا (سنة ٢٧٨ هـ) ، فبقى فيها عاما واحدا ثم توجه إلى بلاد الحجاز ، وحط رحاله في المغرب في أوائل سنة ٢٨٠ هـ . ومعنى ذلك أن أبا عبد الله خرج وهو يدين بطاعة الإمام الحسين الإسماعيلي وحجته أحمد بن عبد الله القداح ، واستقر ببلاد المغرب وهو يدعو إلى هذا الإمام تحت رئاسة حجته سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح ، وهو عبيد الله المهدي . فلما استودع الإمام حجته سعيدا الإمامة ليسكون سيرا على ابنه القائم ، أخذ أبو عبد الله يدعو إليه وحده . ولا نستطيع أن نوافق القائمين بأن عبد الله القداح هو الذي أرسل ابنه إلى المغرب ، لأن عبد الله لم يقم بشيء من هذا . يقول صاحب أنباء الزمان : « بعث عبد الله بن ميمون القداح ، وهو مولى جعفر بن محمد الصادق ، إلى إفريقية الدعوة » .

(١) الخطاب بن الحسين : غابة المواليد (من المنتخب) ص ٣٦

(٢) المنصورى : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٥ ورقة ١٤٥

ولده سعيدا . وقد غير اسمه وقال : أنا عبيد الله بن الحسين بن محمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، (١) . وإن هذه العبارة لتدل دلالة قاطعة على مدى جمل قائلها بالحقائق التاريخية الصحيحة .

من هذا نرى أن أحمد بن عبد الله رأى بعينه نجاح الدعوة الإسماعيلية العظيم ؛ فقد امتدت في عهده حتى شملت بلدانا مختلفة : فهؤلاء القرامطة ينتشرون في سواد الكوفة وجنوبي فارس ؛ وهذه الدعوة الإسماعيلية تنتشر في بلاد اليمن على يد ابن حوشب وزميله ابن فضل الجندى ، كما تروج في بلاد المغرب على يد داعييه الحلواني وأبي سفيان . وهكذا جنى أحمد كثيرا من ثمار ما غرسه أبوه عبيد الله القداح ، وسيجنى سعيد ابن أخيه ثمار ما غرسه هو . وهكذا نجحت الدعوة الإسماعيلية التي أقامها ميمون القداح ، ونعم سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح بذلك النجاح .

٤- انتقال زعامة الإسماعيلية إلى عبيد الله

(١) عبيد الله المحجة :

يسمى عبيد الله أبا محمد سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، ويسميه بعضهم سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ؛ فيعتبره أصحاب التسمية الأولى من سلالة ميمون القداح ، ويعتبره أصحاب التسمية الثانية من سلالة إسماعيل ابن جعفر الصادق . وسنرى أن التسمية الأولى هي الصحيحة .

آلت زعامة الدعوة الإسماعيلية من الناحية العملية إلى سعيد هذا منذ مات أحمد ابن عبد الله القداح في سنة ٢٨٠ هـ ؛ فآلت إليه تبعا لذلك رتبة حجة الإمام المستور . وقد علمنا أن سعيدا هذا ولد في سنة ٢٥٩ هـ ، أو على الأرجح في سنة ٢٦٠ هـ ، وأنه كان تحت وصاية عمه أحمد أبي الشالعل بن عبد الله القداح . فلما مات هذا في سنة ٢٨٠ هـ كان عمر سعيد عشرين سنة أو يزيد ؛ فلم يكن في حاجة إلى وصاية ، بل تقلد أمور الدعوة كحجة للإمام . ولا بدع في ذلك ، فإن وظيفة الحجة أصبحت وظيفة تقليدية في بيت ميمون القداح منذ عين جعفر الصادق ميمونا فيها ، واستمرت

(١) كتاب أنباء الزمان ص ٢٥

هذه الوظيفة مقصورة على هذا البيت أكثر من قرن ، وقام هؤلاء الحجج بوظيفتهم في رئاسة الدعوة خير قيام ، حتى أثاروا إعجاب الأئمة العلويين وتقديرهم .

وإذن عهد إلى سعيد الحجة هذا تنظيم الدعاية ، وترويج المذهب الإسماعيلي في كافة أرجاء العالم الإسلامي ؛ فقد ورث عن عمه أحمد بن عبدالله تراثا ضخما : كان عليه أن يحفظ شخص الإمام العلوي الحسين بن أحمد في سلبية ، ويحيطه بذلك الستار الكشيف من التخفي ، كما فعل آباؤه القدامى مع الأئمة العلويين المستورين منذ أيام محمد بن إسماعيل . وكان عليه أن يتعهد الدعوة في بلاد اليمن والمغرب ، ويتصل بزعماء الدعوة هناك باسم الإمام . وكانت بلاد اليمن والمغرب أشد اتصالا بالإمام نفسه من اتصال قرامطة السواد به . لذلك نرى كثيرا من المراجع الإسماعيلية تشيد بدعاة هذه البلاد ، كما كان عليه — كرئيس للدعوة — أن يتصل بقرامطة السواد ، أي سواد الكوفة وهي الأراضي الزراعية فيها ، وأن يدعوهم في صراحة إلى الإمام ، ويعلن لهم أنه حجته . ولهذا سنراهم ينتفضون عليه حين يخلع ثوب الحجة ويرتدى ثوب الإمام . ويبدو أن ارتباط رئاسة الدعوة في سلبية بالبلاد الشرقية كان أكثر غموضا ؛ ومع ذلك كانت الدعوة التي مهد لها عبدالله بن ميمون القداح في خراسان وفارس قد أثمرت ، وأصبح على رأسها جماعة من الدعاة العلماء الذين سئناوهم بالبحث في الكلام على جهود عبید الله الخليفة في تلك البلاد . وإذن لمن كان سعيد هذا حجة ونائبا ؟ يرى أصحاب كثير من المراجع الإسماعيلية — وهي عمدتنا هنا — أن سعيدا كان حجة للإمام الحسين بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل .

(ب) عبید الله الإمام

أما انتقال إمامة الدعوة الإسماعيلية إلى سعيد هذا ، فإنه يكون فصلا شائكا في تاريخ الإسماعيلية خاصة ، وفي تاريخ المسلمين عامة ، لما اكتشفه من شكوك وأحاطه من غموض ؛ إذ كيف يتحول الحجة إلى إمام ؟ وكيف يصبح أحد سلالة القداح إماما إسماعيليا يتمتع بزبقي النطق والإمامة اللتين كان يتمتع بهما الأئمة العلويون ؟ وهل استبد سعيد بالأمر دون الأئمة الحقيقيين ، فدعا لنفسه دونهم ؟ أو هل نستطيع أن نعتبر الخلفاء الفاطميين من سلالة القداح ، فنوافق منافسهم حين يرمونهم بذلك ؟

وإذا كانوا من القداحية ، فلماذا يدافع عنهم دعائهم ، وينسبونهم إلى عليّ وفاطمة ؟
الحق أننا نستطيع فهم هذا الموضوع إذا أوضحنا الظروف التي أحاطت بتزول
الإمام الحسين بن أحمد . لسعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، وأوضحنا المبادئ
الإسماعيلية التي ساعدت على هذا التحول ، وشرحنا في الوقت نفسه ما أحاط بهذا
النزول من اختلاف بين أنصار المذهب الإسماعيلي .

ومن أظهر المبادئ الإسماعيلية التي كانت لها دخل كبير في هذا التحول ، مبدأ
« التبنّي الروحاني » ، فإن الإسماعيلية يؤمنون بهذا المبدأ إيماناً قوياً ، فزاهم يقولون
كثيراً : إن فلاناً ابن فلان ، يقصدون بذلك بنوته الروحانية لا الجسدية . كما
يقولون إن فلاناً أبو فلان ويقصدون الناحية الروحانية . وهذا ما حدا بالعالم
ماسينيو إلى القول بأن تلقيب أبي الخطاب ، أحد زعماء الإسماعيلية الأوائل ، بلقب
أبي إسماعيل ، يقصد منه الأب الروحاني لإسماعيل بن جعفر الصادق . وخير دليل على
صحة هذا ، ما نراه في رسائل إخوان الصفا ، التي ذهب بعضهم إلى القول بأنها من
تصنيف أحد الأئمة المستورين ، حيث يذكرون فيها كثيراً الابن الروحاني والأب
الروحاني ، بل قد يروون أحاديث لتقرير هذا المبدأ ، فيقولون إن الرسول قال في
سلمان الفارسي « سلمان منا أهل البيت » وغير ذلك . حتى لقد قال نصير الدين
الطوسي (١) في بنوة سلمان هذا لعلّ بن أبي طالب إنها بنوة روحانية ، كما قال إنه
يوجد بجانب البنوة الروحانية أو الجسدية بنوة مشتركة جسدية وروحانية معا ،
وضرب لكل منها أمثلة تكشف لنا عن اتجاه الإسماعيلية السياسي . فيرى الطوسي
أن المستعلي (٢) بن المستنصر ابن جisman فقط له . وإنما لجأ إلى ذلك لينفي عنه دعواه
الإمامة ، ويرى أيضاً أن الحسين بن علي بن أبي طالب ابن لعلّ من الناحيتين

(١) لجأ هذا العالم إلى النزادية الإسماعيلية في الموت - جنوبي بحر قزوين - في أحرى حياتهم
خوفاً على نفسه من الخليفة العباسي المستنصر ووزيره ابن الملقى . ومدح الإسماعيلية ، وأشاد بزعمائهم
في كتابه « أخلاق تاهري » ، وساعد هولاكو في الاستيلاء على قلاع الدعوة في المشرق ، ومات
في سنة ٦٧٢ هـ .

(٢) هو حفيد بدر الجمالي ، ثار عليه أخوه نزار ، فانتصر عليه بمساعدة خاله الأفضل شاهنشاه
في سنة ٤٨٨ هـ ، فنادت جماعة بإمامة نزار وسما النزادية ، ومن نسلهم أخا خان الخالي ، ونادت جماعة
أخرى بإمامة المستعلي وسما المستعلية . ومن أنصارهم اليوم جماعة البهرة في اليمن والهند خاصة .

الروحانية والجسمانية معا ، وفي هذا إقرار من الإسماعيلية للحسين بالإمامة .

وإذا صح ذلك فإنه لا يبعد أن يقول الإسماعيلية بنبوة أبناء القداح — من الناحية الروحانية ، للأئمة المستورين ، خصوصا لأنهم يرجعون نسبهم إلى سليمان الفارسي — كما رأينا في الكلام على الأئمة العلويين من طائفة الإسماعيلية — وأنه إذا كان سليمان ابنا روحانيا لعلي بن أبي طالب ، فليس هناك ما يمنع أحفاده من الأئمة الإسماعيلية من تبني أحقاد سليمان الفارسي ! ثم لم نذهب بعيدا ؟ ألم تر ما قاله رشيد الدين في كتابه جامع التواريخ عن انتساب عبدالله القداح إلى محمد بن إسماعيل ، حيث ادعى ميمون أنه ابن روحاني للإمام محمد هذا ، وأنه الوارث الحقيقي لمحمد ابن إسماعيل في إمامته ، وأن الإسماعيلية لم يعارضوه في دعواه هذه ؟ ومعنى هذا أن الإسماعيلية يوافقون على مبدأ انتقال الإمامة من الأئمة الحقيقيين إلى تلامذتهم . ومن حسن الحظ أننا عثرنا على كثير من النصوص التي تؤيد ما ذهبنا إليه من انتقال الإمامة من شخص إلى آخر عن طريق النبوة التعليمية أو الروحانية . من ذلك ما ذهب إليه الداعي لإدريس عماد الدين في كتابه زهر المعاني^(١) من أن الإمام الحسين الإسماعيلي استودع سعيد الخير الإمامة ليردها إلى ابنه القائم . وأن سعيدا هو المهدي ، الذي كان شمس الله الطالعة ، وآيته الساطعة ، والحجاب الأعظم ، والباب الأشرف الأكرم ، حامل أمانة الله ووديعته ، ومسلسلها إلى القائم بأمر الله ، ولده المنتسب إليه بتعليمه وإفادته ؛ وهو خليفته ، القائم منه كعلي جده — أمير المؤمنين — من محمد رسول الله الأمين . ألسنا نرى أن القائم بأمر الله لم يكن ابنا جسمانيا لسعيد الخير — المهدي — ثم ألا يعتبره هذا المؤلف الإسماعيلي المشهور ابنا لعمه ينتسب إليه بالتعليم والإفادة ، مع أن العم غير الأب كما نعلم ؟

ولم يكن هذا التبني الروحاني جديدا في تاريخ الشيعة ، بل إنه من الممكن جدا عند الشيعة أن تنتقل الإمامة من شخص إلى آخر بطريق التفويض ، سواء أكان المنقول إليه قريبا للنقل أم غير قريب . من ذلك ما رأيناه في تفويض الإمام الحسين بن علي أخاه محمد بن الحنفية في أمر الإمامة ؛ إذ أودعه إياها إلى حين يشب

(١) ص ٩٧ (من المنتخب) .

ابنه على زين العابدين ، ولذلك سمي محمد بن الحنفية حينئذ إماما بالتفويض . وأهم من ذلك انتقال الإمامة من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إلى العباسيين . فالعباسيون - تمشيا مع هذه النظرية - أئمة عن طريق التفويض ؛ وبذلك يكون قيام الدولة العباسية قد استند إلى نظرية إسماعيلية هي الإمامة بالتفويض . وإذا صدقنا ذلك عن العباسيين فلم لا نصده عن أبناء القداح ، حجج الأئمة المستورين ؟ وإذن لا نستبعد صحة ما ورد في النصوص الإسماعيلية بل السنية ، التي تنسب عبيد الله المهدي إلى ميمون القداح ، وتؤكد أن عبيد الله كان حجة ثم استودع الإمامة حينما سيكون سترا وحجابا على الإمام الحقيقي القائم بأمر الله . ولا غرو فقد أكد لنا ذلك ما أورده رشيد الدين ، وما ورد أيضا في كتب الباطن عند الإسماعيلية وخاصة كتب الدرزية .

على أن هناك مبدأ إسماعيليا آخر ، لا يقل أثره عن مبدأ التنبؤ الروحاني ، ذلك هو مبدأ الاستيداع الإمامي الذي اتخذته الإسماعيلية وسيلة لتأييد مذهبهم ، فإنهم يعتقدون أن هناك أئمة استيداع إنما يقومون بحمل الوديعة دون نقلها إلى سواهم ، وأنهم يتمتعون بها طول حياتهم . وكان لنظرية الاستيداع الإمامي أثرها في تاريخ الشيعة عامة ، والإسماعيلية منهم خاصة ؛ فإن هؤلاء يعتقدون أن الحسن بن علي بن أبي طالب كان إماما مستودعا ، حمل الوديعة لينقلها من بعده إلى أخيه الحسين . ولا نغلو إذا قلنا إن نظرية الاستيداع الإمامي تنطبق على محمد بن الحنفية ، الذي حمل الوديعة (الإمامة) من أخيه الحسين ، لينقلها إلى مستحقها على زين العابدين . وليس هذا وحده بل يرى الإسماعيلية أن موسى الكاظم كان إماما مستودعا ، حمل الإمامة من أخيه إسماعيل ، ثم أعطاها محمد بن إسماعيل .

وكذلك كان لنظرية الاستيداع الإمامي أثرها في تاريخ الإسماعيلية . ونعتقد أن ميمونا القداح وسلالته من بعده ، كانوا أئمة استيداع ؛ فكان سعيد بن الحسين إماما مستودعا ، حمل الوديعة من الامام الحسين ، ليحفظها ثم ينقلها إلى ابنه القائم . وبهذا نستطيع أن نقول إن إمامة أبناء القداح ليست بعيدة الاحتمال أو التصديق ، ما دامت مبادئ الإسماعيلية تؤكد ذلك ويجيزه .

وهناك بعض الأدلة التي تؤيد انتساب عبيد الله إلى ميمون القداح ، منها :

أولاً : وهو مما نسرله ، أن كثيراً من كتب الباطن الاسماعيلية أو كتب الحقائق ، كما يسمونها ، قد ظهرت في مكتبات العالم ، فكتشفت لنا هذا الغموض ، وأتارت الطريق للباحث غير المتحيز ؛ فذكرت في وضوح أن المهدي لم يكن ابن الامام المستور الحسين بن أحمد ، كما لم يكن الخليفة القائم بأمر الله ابن المهدي ، وإنما كان ابن الامام المستور الحسين بن أحمد ، وأن المهدي حمل الودعة من الامام الحسين وردها عند وفاته إلى ابنه القائم ؛ فكان هذا الخليفة (القائم) أول خليفة فاطمي من سلالة عليّ الحقيقيين . ومعنى ذلك أن السنين الذين ينكرون نسب الفاطميين إلى علي وفاطمة ، كانوا على حق حين ذهبوا إلى القول بأن عبيد الله من سلالة القداح ؛ ولكنهم لم يكونوا على حق في قولهم : إن جميع الفاطميين من سلالة القداح . وليسنا مغالين فيما ذهبنا إليه ؛ فهذا كتاب غاية المواليد ، الذي يعد من كتب الحقائق عند الاسماعيلية يقول : « إنه لما ظهر النور باليمن وبلاد المغرب ، سار ولى الله في أرضه على بن الحسين صلوات الله عليه ! يريد بلاد المغرب ، حتى كان في بعض الطريق ، فأظهر الغيبة (١) ، واستخلف حجته سعيداً (٢) الملقب بالمهدي سلام الله عليه ! فثبت قواعد الدعوة وجرى عليهم من ضدهما (عدوهما) بسجاسة من العمال بالمغرب ماجري ، ووقى الله وليه — سلام الله عليه ! كيد ، لما كان من زحف أبي عبد الله عليه وظفره ، واستخراجه ولى الله سلام الله عليه من سجنه . فلما حضرت المهدي النقلة سلم الودعة إلى مستقرها ، وتسلمها محمد بن علي القائم بأمر الله تعالى ، وجرت الامامة في عقبه (٣) . »

وقد يعترض بعض فيرى أن المهدي قد يكون ابن الإمام الحسين ، وأن عبارة غاية المواليد لا تؤكد أنه من سلالة ميمون القداح ، بل هو حجة فقط ، والحجة قد يكون علويًا وقد يكون قداحيًا . على أننا نرى أن وظيفة الحجّة للإمام المستور قد أصبحت وظيفة تقليدية تقريباً في بيت القداح منذ عهد محمد بن إسماعيل وميمون القداح ، كما أن رسائل الدرزية الاسماعيلية تؤيد أن عبيد الله من سلالة القداح وتذكر أن اسمه سعيد .

(١) أي حضرته الوفاة بدليل خروج المهدي مع القائم فقط من مسلية .

(٢) في نسخة لابن سعيد الخير .

(٣) غاية المواليد (من المنتخب) ص ٣٧ .

وليس الخطاب بن الحسين ، صاحب غاية المواليد ، هو الذى ذهب هذا المذهب ، بل إن الداعى إدريس عماد الدين البنى ، المؤلف الاسماعيلى المشهور ، يؤكد هذه الحقيقة ، وهى أن القائم ليس ابنا حقيقيا للمهدى - كما رأينا - ويرى أن المهدي كان إماما مستودعا للقائم ، ولكنه يقول إن المهدي . سعيد الخير ، كان أخا الامام المستور الحسين بن أحمد . إلا أن سلسلة النسب عند الدرزية تؤكد أن سعيدا من نسل القداح . هذا بالاضافة إلى أنه أقر على نفسه حين انتقض حمدان قرمط عليه بأنه من ولد القداح ، وأنهم جميعا أئمة . وقد أدى هذا الاقرار إلى انفصال قرامطة السواد عن الدعوة الاسماعيلية . وإذن فسعيد الخير عند الداعى إدريس هو سعيد المهدي عند الداعى الخطاب ، وهو سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح عندنا . يقول الداعى إدريس (١) : « ثم إن الامام صاحب الزمان تقدم للهجرة إلى المغرب والمهدي في كنفه ، فأظهر النقلة في سفره ، وأوصى الى أخيه سعيد الخير ، واستكفله واستودعه لولده ، وكفله سعيد الخير ، وتسمى بالامامة بأمر الناص عليه ، ستر على ولي الله وإخفاء لمقامه عن أهل دعوته ، حتى يكون أوان ظهوره وطلوع نوره ، وأمر الحدود بذلك ، وأن يكونه بالشمس الطالعة ، ستر على ولي الله ولده القائم من بعده . » ويقول هذا الداعى في موضع آخر : « ولما توطدت قوانين الدعوة الهادية — سلام الله على وليها ! بالمهدية ، وظهر أهل الكهف من كهف التقيّة ، وآن الأجل ، وانقضى المهل ، سلم الإمام المهدي إلى ولده (٢) القائم رتبته ، وأدى إليه وديعته وأمانته ، وأظهر الغيبة ، وانتقل لجوار ربه والقُدوم عليه . »

من هاتين العبارتين نرى أن المهدي لا يمت إلى الأئمة الإسماعيليين بصلة القرابة . وثمة شيء آخر ، هو أن الدرزية — وهم طائفة من طوائف الإسماعيلية — يرون أن المهدي من معدن غير معدن من سبقة من الأئمة المستورين ، ومن لحقه من الخلفاء الفاطميين ، أو بالأحرى من فرع غير الفرع الذى ينتمى إليه الخليفة القائم ، فيجعلون المهدي في رتبة الرسل ، والقائم وأباه في رتبة الآلهة . وقد ورد في كتابهم « النقط

(١) دهر المعاني (من المنتخب) ص ٦٦ ، ٧١

(٢) لو قصد بكلمة « ولده » ، ابنه الحقيقى لا التعاليمى ، لتعارضت هذه الكلمة مع عبارة « أدى إليه وديعته » ، لأن أداا. الوديعة لا يكون من إمام مستقر إلى إمام مستقر آخر .

والدوائر، (١) : ولما ظهر الناطق سعيد المهدى ، وأعطاه المِعل (أى الإمام المستور) الوديعه الذى (كذا) هو القائم تعالى يريه ، وهو فى ظاهر الأمر طفل ، حاشاه من الأبوة والبنوة . فلما ظهر القائم وأخذ الإمامة الظاهرة ، وهى السلطة ، والخلافة الباطنة ، وهى دين التأويل ، والإمامة المجازية التى تظاهر الرب بها . وهى بالحقيقة لقائم الحق - صلى الله عليه وسلم ! قيل إن المهدى مات .

وليس هذا كل شيء . بل إن رسالة تقسيم العلوم للدرزية تؤكد انتساب عبيد الله إلى ميمون القداح ، كما تؤكد أن ميمونا القداح وأبناءه من بعده كانوا أئمة استيداع حلوا من محمد بن إسماعيل - ناطقهم السابع - محل الإمام على بن أبى طالب من الرسول صلى الله عليه وسلم . وتسمى المهدى سعيدا ؛ وتنفى ارتباطه نسبيا وقرابة من الأئمة الفاطميين ، مما يؤكد بطلان ما ذهب إليه النيسابورى فى كتابه واستتار الإمام، (٢) ، والداعى إدريس فى كتابه دهر المعاني، (٣) أن سعيدا الخير ، أخو الإمام الحسين المستور . ومهما يكن من شيء فقد ورد فى رسالة تقسيم العلوم مانصه : « وقام محمد صلى الله عليه وسلم ، وأساسه على بن أبى طالب ... وظهر ناطق غيره وهو محمد بن إسماعيل ، وإلى خلفاء المستودعين . وهو إلى أحمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله ابن ميمون القداح . وهو من ولده سعيد بن أبى الشلعلع المهدى . » . وورد فى موضع آخر : « أن عبيد الله هو ابن أحمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح ، وأن مولانا المعلن أمره بالبقاء فى خدمة مولانا القائم (٤) . » . وهذا يؤكد نفى انتساب عبيد الله إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

ثانياً :- انتقاض حمدان قرمط على سعيد بن الحسين :

سنرى أن قرامطة السواد ، وعلى رأسهم حمدان قرمط زعيمهم الأول ، وصهره عبدان القرمطى المؤلف الإسماعيلى . ينتقضون على سعيد بن الحسين بن عبد الله

(١) (طبعة سيلد) ص ٧٤

(٢) ص ١٥ (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد سنة ١٩٣٦)

(٣) ص ٧٠

(٤) De Sacy : Exposé, vol. I. pp. 72—3.

القداح ؛ لأنه - في نظرهم - دعا إلى نفسه دون الأئمة المستورين ، وذلك أن عبد الله القداح وابنه أحمد كانا يعترفان في صراحة بأنهما حجتان للأئمة المستورين The Concealed Imams . وأما سعيد فقد غيّر هذا النظام ودعا إلى نفسه ، حتى إنه لما وردت كتبه إلى حمدان قرمط ، « أنكر ما فيها وتبين فيها ألفاظا قد تغيرت ليس هو على النظام الأول (١) » . والحق أن هذا التغيير في سلوك سعيد بن الحسين ، راجع إلى ما كان من نزول الإمام الحسين عن الإمامة له عن طريق الایداع - على ما رأينا - فلم يكن سعيد قد استبد بالامر دون الأئمة المستورين ، ولكن قرامطة السواد عز عليهم أن يتقمص الحجة رتبة الإمام . ولذلك سار حمدان واتصل بسعيد في سلبية ، « وسأله عن الحجة وعن الإمام بعده ، الذي يدعو إليه ، فقال : (سعيد) ومن الإمام ؟ قال حمدان : محمد بن اسماعيل بن جعفر ، صاحب الزمان الذي كان أبوك (يريد أحمد بن عبد الله القداح) يدعو إليه وكان حجته . فأنكر ذلك عليه وقال : محمد بن اسماعيل لأصل له ، ولم يكن الإمام غير أبي ، وهو من ولد ميمون بن ديصان وأنا أقوم مقامه (٢) » .

أليس في هذا الانتقاض الدليل على أن سعيد بن الحسين من سلالة القداح ؟ الواقع أن هذه العبارة تبين في وضوح فكرة الامام والحجة ، وكيف أن الحجج لم يكونوا حتى ذلك الوقت من سلالة محمد بن اسماعيل ، بل إنها تبين شيئا آخر هو أن الامام المستور لم يكن معروفا للقرامطة ، على حين أن الذي كان يتراسل معهم ويتصل بهم ، هو الحجة الذي كان يقر في مكاتباته معهم بأنه نائب عن الامام لا إمام . ونستطيع أن نحدد زمن ذلك الانقلاب الذي حدث بين القرامطة ورؤساء الدعوة في سلبية فنقول ، إنه كان قبيل هرب المهدي من سلبية ، حيث لم يستطع البقاء في مخبئه ودار هجرته ، لأنه انضم إلى العباسيين في عدائهم له عدو إسماعيلي خطير هو القرامطة ، الذين أصبحوا فيما بعد خطرا على شخصه وعلى مذهبه ودعوته . أضف إلى ذلك أن انتقاض حمدان قرمط قد أحدث هزة عنيفة بين القرامطة ،

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧٠

(٢) نفس المصدر والجزء والورقة

وظهر بسبب ذلك فرع قرمطى آخر ، هم قرامطة الشمال أتباع زكرويه بن مهرويه الذى قتل حمدان قرمط ، ذلك الفرع الذى ساعد على زوال دولة الطولونيين ، كما ساعد فى الوقت نفسه على خروج سعيد بن الحسين من سلبية . فقد أدرك سعيد استحالة بقائه فى سورية مع قرامطة السواد الحانقين عليه ، ومع قرامطة الشمال الذين عز عليهم أن يخرجهم سعيد من رئاسة الدعوة بالكوفة ، تخاف انتقاضهم عليه . ولذلك آثر العافية فى الحرب ، والفرار إلى اليمن أو المغرب ، كما سيأتى . ومعنى ذلك أن انتقاض حمدان قرمط — الإسماعيل المتطرف — على رئاسة الدعوة التى تنتمى إلى بيت القداح قد أدى فى النهاية إلى فرار المهدي من الشام إلى أقصى شمال المغرب حيث ألقى عصا تسياره فى سلجاسة .

ثالثا : تصريح الحسن الأعصم ^(١) القرمطى بأن الفاطميين من أبناء ميمون القداح ، مع أن القرامطة كالدرزية فرقة هامة من فرق الإسماعيلية . ولم يتعرض المعز لدين الله فى رده المشهور على الحسن الأعصم لهذه الطعنة . حقيقة إن العباسيين والبويهيين هم الذين أثاروا الحسن الأعصم على سادته الفاطميين ، حتى جعلوه يخطب على منابر الشام للعباسيين ويذم الفاطميين ، وصحیح أيضا أن الحسن الأعصم حنق على المعز لتدخله فى شئون بلاده الداخلية ، وحجزه عنه الضريبة السنوية التى كان الإخشيديون فى الشام يدفعونها إليه . ولكن هذا كله لا ينهض دليلا على أن الحسن الأعصم رماهم بالباطل ، لأن المعز ، وهو على ما كان عليه من البلاغة والعلم ، كان يستطيع أن يدحض ما قاله الحسن الأعصم . وهكذا كان الحسن يقول من فوق منابر دمشق : « هؤلاء (أى الفاطميون) من ولد القداح ، كذابون مخرقون ، أعداء الإسلام ، ونحن أعلم بهم ، ومن عندنا خرج جدكم القداح » ^(٢) .

وليس فيما ذهب إليه الحسن الأعصم لبس أو غموض ، إلا أننا نرى خطأه .

(١) هو الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجنابي ، تولى زعامة القرامطة سنة ٣٥٩ هـ بعد أن قتل أبوه بأبناء أبي طاهر الجنابي صنيعة الفاطميين وحليفهم . ثار على المعز لدين الله وعلى ابنه العزيز ، وكاد يفتح مصر نفسها . ولم تحمد ثورته إلا بعد انتصار العزيز عليه فى سنة ٣٦٦ هـ وموته هو فى سنة ٣٦٧ هـ ، حيث عاد القرامطة إلى حظيرة الفاطميين من جديد .

(٢) أبو المحاسن : الهجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

من ناحيتين : الأولى ، أن الفاطميين جميعا ليسوا من أبناء القداح ، وأن المهدي وحده هو الذى ينتمى إليهم حقا ، والثانية : أنه يجعل القرامطة أصلا والفاطميين فرعاً لهم حين يقول : « ومن عندنا خرج جدهم القداح » . فلم يكن القداح — ميمونا كان أو عبد الله — قرمطياً ، بل كان أحد مؤسسى المذهب الإسماعيلى ، وعن أبنائه أخذ القرامطة . وكان الأولى به أن يعكس الآية فيقول : وعليه تخرج أجدادنا القرامطة . وعلى الرغم من ذلك كله إن إنكار الحسن الأعصم نسب الفاطميين إلى على وفاطمة ، وإلحاقهم بالقداح فيه شيء من الصحة ، لأنه يتفق والحقائق التاريخية التى أوردناها من قبل عن عبيد الله المهدي .

هذا أهم ما يمكن أن يقال فى تأييد فكرة قداحية المهدي . ولكن هل اتفق الإسماعيلية جميعاً على تلك الحقيقة ، وهى أن مهديهم لا يمت إلى على وفاطمة بصلة القرابة ؟ الواقع أن كتب الظاهر جميعها تكاد تخلو من هذا ، بل تؤكد أن المهدي من سلالة الرسول ، وأنه علوى لحما ودما . ونرى فى كتاب « افتتاح الدعوة الزاهرة » لآبى حنيفة النعمان المغربى ، وفى غيره من الكتب الظاهرية ما يؤكد ذلك . ولعل السر فى هذا يرجع إلى اعتقاد الإسماعيلية — الذين برعوا فى استخدام التقية — أن هذه الكتب سيطلع عليها العامة والخاصة منهم ، ومن غيرهم . لذلك آثروا لبقاء جوهر مذهبهم ومبادئهم فى طى المكتبان ، ولم يشاموا أن يتكلموا عن الاستقرار والاستيداع الإمامى ، أو يوضحوا لنا كيف تم انتقال الأمر من الأئمة المستورين إلى حججهم . أضف إلى ذلك أن كثيراً من المراجع الإسماعيلية الظاهرية (١) تختلف فيما بينها فى ذكر أسماء الأئمة ، وخصوصاً سلف عبيد الله ، فيسميه بعض محمد الحبيب ، ويسميه بعض آخر الحسين أو علياً إلى غير ذلك ، مما يدلنا على أن مؤلفى كتب الظاهر إنما كانوا يؤلفون حسب مقتضياتهم السياسية ؛ فإن الدعوة فى مراتبها الأولى كانت تنحصر منجى الظاهر ، ويختلف الدعاة أنفسهم فى

(١) تنقسم مراجع الإسماعيلية قسمين : ظاهرة exoteric وهى المراجع التى فى متناول الجميع سواء أكانوا من كبار الإسماعيلية أم من عامتهم . بل قد يباح للمبشرين أحياناً أن يطلعوا عليها . والمراجع الباطنية ، أو السرية esoteric وتسمى أحياناً كتب الحقيقة ، وهى تتناول أمور المذهب الإسماعيلى ؛ ولذلك لا يباح الاطلاع عليها إلا لخاصة أتباع المذهب الإسماعيلى .

ذكر أسماء أئمتهم ، ويخاطب السني بما لا يخاطب به الشيعي . واليهودي بما لا يخاطب به المسيحي ، والمجوسي بما لا يخاطب به المسلم ، وهكذا .

ولذلك فإن كتب الظاهر كانت تخاطب الناس في حدود هذه النظم الظاهرية . أما كتب الباطن فكانت على تقيض ذلك ؛ إذ يعتقد الإسماعيلية أنها من كتب الحقائق التي لا يطلع عليها إلا خاصتهم . ولذلك أخفوها ، وعدوا لإباحة الاطلاع عليها — لغیر خاصتهم — جريمة وكفرا (١) . ولولا تسرب بعض هذه المراجع وتداولها بين الناس ، لما استطعنا أن نعرف شيئا عن حقائق المذهب الإسماعيلي وأسراره .

ورب معترض يقول : لقد ثار أبو عبد الله الداعي وأخوه أبو العباس وكبار كتامة وقتئذ على المهدي . ألم يكن من المعقول حينئذ أن يرموه بأنه خارجي لا يمت إلى العلويين بصلة ؟ على أننا لم نرهم يعترضون عليه في شيء من جهة النسب ، وإنما كرهوا منه استبداده بالامر ، فهو هو على الناس أنه ليس المهدي . الواقع أن أبا عبد الله لو كان يعلم هو وأنصاره أن القائم بأمر الله هو الإمام الحقيقي لنادوا به إماما في ثورتهم على المهدي ، لكننا نعلم أن فرقة الإسماعيلية جماعة سرية ، وأن نقل الإمامة من شخص إلى آخر ، أو استبداعها ، في إمام لنقلها إلى إمام ، إنما هو أمر محوط بالأسرار والكتمان لا يطلع عليه إلا خواصهم . فليس من الضروري . إذن أن يعلم أبو عبد الله هذا السر ، خصوصا أنه كان داعيا لم يصل إلى مراتب الدعوة العليا ، التي قيل إنها كانت سبعا في زمن عبد الله بن ميمون القداح ثم بلغت تسعا . ويبين لنا سرية هذا الأمر ما ورد على لسان أحد دعايتهم حين يقول : « فلم يطلع أحد عليه ولا وقف على سر الله فيه إلا الخالصاء الأبرار ، المصطفون الأخيار . العارفون لسر الله في أوليائه ، المطلعون على معرفة ما أظهر لهم من أصفياته . » (٢)

ورب معترض يقول أيضا : إن أبناء القداح اشتهروا بالطموح ، وقد امتلأت

(١) حدثنا الأستاذ ما سنيون عن الدكتور حسين الحمداني البهروى فقال : إن هذا الدكتور أخبرني أن أباه أهانه إهانة بالغة ، وطرده . فمأش عيشة فقر مدقع ، لأنه نشر بعض كتبهم ، وكتب مقالات لم يسلك فيها مسلك البهرة في التقية . ولم تمنقر حياة هذا الإسماعيلي إلا بعد وفاة أبيه .

(٢) الداعي عماد الدين : زهر المعاني (من المنتخب) ص ٦٦ .

بطون الكتب بذلك ، فلا يعقل أن يتركوا الخلافة بعد أن ظفروا بها ، أو بالأحرى ، كان من المحال عليهم أن يهدوا الأمر لغيرهم . ومن دراستنا لأفراد هذا البيت نستطيع أن نقول إنهم ظلوا جميعا على إخلاصهم لبیت إسماعيل ، ولو شعر الأئمة المستورون بميلهم إلى الزعامة والجاه ، أو إلى الاستبداد بالأمور دونهم ، لما أبقوا عليهم يوما واحدا . وما أحسن ما قاله الداعي إدريس الإسماعيلي (١) : « وأشار المهدي بالله إلى محمد القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، ونشر لأهل دعوته فضله المبين ، وأدى إليه أمانته ، وسلم إليه رتبته ، وأعطاه وديعته التي استودعها الله إياه ، لم يجعل لسائر أولاده فيها نصيبا ، بل أقر الحق في مقره ، وجعله في مستقره » .

وأما كيفية انتقال الإمامة إلى سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، فيمكن أن نقول : انه لما بدا للأئمة المستورين في سلبية خطر الخليفة المعتضد العباسي (٢٧٩هـ — ٢٨٩هـ) عليهم ، حيث أخذ يوالى البحث عنهم ، تحتم على الامام الحسين أن يحفظ الإمامة من الضياع ، فعهد بها إلى حبيته سعيد . والواقع أن هذا نوع من الحيلة لحفظ الإمامة والدعوة ، وليست هذه سنة جديدة جرى عليها الإسماعيلية ؛ فقد لجأ جعفر الصادق إلى المحافظة على محمد بن إسماعيل ، كما لجأ إليها الأئمة المستورون في الدور القداحي ، أو دور الستر .

ويختلف العلماء من الإسماعيلية في الإمام الذي نزل للمهدي عن الإمامة : فيرى أكثرهم أنه الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل (٢) ، ويرى غيرهم أنه علي ابن الحسين (٣) . إلا أننا نستطيع أن نقول إن مجرى الحوادث — على ما أوضحنا في كلامنا على الأئمة — يجعلنا نعتقد أن الإمام هو الحسين لا ابنه علي ، خصوصا أن هذا الزمن القصير لا يتسع لأن يلي الإمامة فيه إمامان هما الإمام الحسين ثم ابنه الامام علي ، الذي ولد له الإمام أبو القاسم وهو القائم بأمر الله فيما بعد . ونحن نعلم أنه كان قد تزوج قبل خروجه (٤) من سلبية سنة ٢٨٨هـ ، وهذا لا يمكن أن يتحقق في هذه الفترة القصيرة .

(١) زهر المعاني ص ٧٠

(٢) المرجع نفسه ص ٦٥

(٣) الخطاب : غاية المواليد ص ٣٦

(٤) الباني : سيرة جعفر الحاجب (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ١٠٨

على أن هناك خلافا آخر أشد من هذا ، ذلك أن مؤلفات الاسماعيلية غاصة كلها أو معظمها بذكر سعيد الخير على أنه المهدي . وقد رأينا كتب الدرزية ، وهي من الكتب السرية عند الاسماعيلية ، تسمى المهدي سعيد الخير كذلك . إلا أن هناك بعض العلماء من الاسماعيلية الآخرين يفرقون بين سعيد الخير وبين المهدي نفسه فيقولون : إن سعيدا آخر المهدي ، وإن الإمام الحسين استودعه الإمامة ، فحاول انتزاعها من أخيه ، لولا وفاة أبنائه جميعهم ، وإدراكه آخر الأمر أن الإمامة ليست من حقه ، فرد الوديعة إلى مستقرها . يقول النيسابوري^(١) ، وكان معاصرا للمعز والعزیز : « ولد لأحمد بن عبد الله ، الإمام الحسين ، وهو والد المهدي وسعيد الخير ، وأقام الحسين إلى أن ولد له المهدي ع م . فلما أتته نفلته استودع له أخاه سعيد الخير ، إذ كان ولده يومئذ في حال الطفولة . واستبد سعيد بالإمامة ونص بها على ولده ، فهلك الولد ، ثم نص على ولده الثاني فهلك . وكان له عشرة أولاد ، فلم يزل ينص على كل واحد منهم إلى أن هلكوا بأجمعهم ، فعلم حينئذ سعيد الخير أن الحق لا يفارق أهله ، فتاب وأناب إلى الله . تبارك وتعالى ! وجمع دعائه وأعلمهم أنه مستودع للمهدي — صلوات الله وسلامه عليه ! وسلم إليه الإمامة ، واعترف له بالوديعة . وتنصل إليه مما تقدم منه قبل ذلك ، وصارت الإمامة إلى المهدي ع م . فقال الشاعر :

الله أعطاك التي لا فَوْقَهَا وكم أرادوا منعها وعَوْقَهَا

عنك ويأبى الله إلا سَوْقَهَا إليك حتى طَوَّقَكَ طَوْقَهَا ،

فكيف يمكننا إذن أن نوفق بين هذا ، وبين ما نعرفه من أن عبيد الله المهدي هو نفسه سعيد . وقد يسأل البعض : هل سعيد الخير هذا هو الذي ثار عليه حمدان قرمط ؟ وقد ذكرنا من قبل أن الذي قابله حمدان — داعي حمدان وصهره — ادعى الانتساب إلى ميمون القداح ، ولم يذكر انتسابه إلى الحسين بن أحمد العلوي . وإذن نفترض افتراضا آخر ، وإن لم يقل به أحد من قبل ، وهو أنه لا يبعد أن يكون سعيد الخير هذا ، وهو الذي ذهبنا إلى أنه المهدي ، قد حاول الاستبداد بالأمر دون القائم ، إلا أنه عدل عن ذلك فيما بعد ، بسبب موت أبنائه جميعا ، وإدراكه آخر الأمر أنه افتأت على حق القائم بأمر الله ، صاحب الحق الشرعي ، وخصوصا أننا

رأيناه في سجن لباسه وليس معه سوى القائم . وإن صح هذا الافتراض استطعنا أن نذهب إلى القول بأن سعيد الخير — المهدي — قد حاول ذلك وهو بسلبية ، أى قبل سنة ٢٨٨ هـ ، حين فر منها مع القائم ولم يكن معهما الا حفنة من الدعاة . وإذا كان الاسماعيلية المواليون له يقولون : « ان له أبناء كثيرين ، لم يجعل لواحد منهم في الامامة نصيباً ^(١) » ، حتى إننا لم نسمع عن واحد منهم بعد ذلك ، فإن هذا يقوى الشك عندنا في أن سعيد الخير هو المهدي لا أخوه .

وهكذا أصبح سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح إماماً : وكان تربيته على عرش الإمامة في وقت ازدهرت فيه الدعوة أيما ازدهار ، حتى كثر التنبؤ بظهور المنتقد من أهل البيت . ولم يكن هذا المنتقد سوى سعيد هذا . على أن مهمته كانت شاقة عنيفة ؛ إذ كان عليه أن يفر من اضطهاد الأعداء وتجسسهم عليه ، كما كان عليه أن يربط بين بحار الدعوة — أى أقاليمها الرئيسية — برباط متين ، وأن يوجه الدعوة الاسماعيلية توجيهاً عملياً ، حتى يستطيع إقامة الدولة الاسماعيلية الفاطمية المنشودة . وقد استطاع سعيد أن يضطلع بهذا كله ، على ما سنفصله بعد .

(١) الداعي عماد : زهر المعاني (من المنتخب) ص ٧٠

الباب الثاني

عبيد الله

منذ تولى زعامة الدعوة الاسماعيلية حتى قيام الدولة الفاطمية.

١ — موقف عبيد الله من أنصار الدعوة الاسماعيلية

أصبح سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح حجة الامام المستور ، وهو الحسين ابن أحمد ، وعلى الرغم من أنه كان الرئيس الفعلي للدعوة الاسماعيلية ، كان وجود الامام بجانب الحجة يحد من نفوذ هذا الأخير كرئيس ديني سياسي لجماعة نائرة تسعى لقلب النظام القائم من جميع نواحيه . غير أنه بنزول الحسين عن الامامة لسعيد وإيداعه إياها ليسلمها لابنه القائم بعد وفاته . اجتمعت الرياستان الروحية والزمنية في يد هذا الزعيم الشاب ، أو بعبارة أخرى تركزت في شخصه وظيفتان كبيرتان من أسمى وظائف الدعوة الاسماعيلية وهما : رتبة الامام والحجة . فأصبح سعيد بذلك المهيمن على شؤون الدعوة قاطبة . ومن ثم عمل على أن يربط أنصار الدعوة بشخصه وخصوصا القرامطة . أنصار حمدان قرمط ، والحواشب أنصار ابن حوشب في اليمن ، والمغاربة أنصار أبي عبد الله الداعي ، « فمنهم من آمن به ، ومنهم من صد عنه » ، ولكنه استطاع أن يحارب بمن أطاعه من عصاه .

(١) موقف عبيد الله من القرامطة

١ — من القرامطة في سواد الكوفة

تكونت جماعة القرامطة كفرقة من فرق الإسماعيلية ، قبل أن يتربع سعيد على عرش الحجابة ثم الإمامة بأكثر من ربع قرن . وكان الداعي الحسين الأهوازي -

على ما رأينا — أول داع إسماعيلي فيهم . وقد استطاع في عهد عبد الله بن ميمون القداح أن يبعث الدعوة في سواد الكوفة ، ويستميل اليه حمدان قرمط الذي تنسب إليه هذه الفرقة ومعه جماعة كبيرة . وبما ساعده على ذلك أن حمدان كان على رأس جماعة يؤمنون بنظرية المهدي ، حتى اعتقد بعض أنهم بقايا الكيسانية القائلين بإمامة محمد بن الحنفية وأبنائه من بعده . وكانت سلبية تغذى القرامطة بالمبادئ والدعاة من حين إلى حين . كما استطاع هؤلاء القرامطة أن ينشئوا لهم في سواد الكوفة دار هجرة (سنة ٢٧٧ هـ) كانت مثالا احتذاء الإسماعيلية الآخرون ، وخاصة في بلاد المغرب واليمن ثم البحرين ، كما استطاعوا بعد قليل أيضا أن يزعموا العباسيين . ولو انضم هؤلاء إلى صاحب الزنج في ثورته (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) لقضوا على الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري .

ولما أصبح سعيد بن الحسين ، الحجة ، واستقل بالإمامة ، كانت الدعوة الإسماعيلية بين القرامطة منتشرة فقط في سواد الكوفة وفي جزء من جنوب فارس الغرب . وكان من أثر تولية سعيد الإمامة أن تغير تنظيم الدعوة بين القرامطة ؛ وشار حمدان قرمط عليه . وكان لثورته نتائج بعيدة المدى ؛ منها إلقاء بذور الدعوة الإسماعيلية في بلاد البحرين على الخليج الفارسي غربا ، على يد أبي سعيد الجنابي رئيس الجنابية ، وتكوين جماعة قرمطية أخرى عملت على أن تتربع على عرش الدعوة القرمطية لتحل محل قرامطة السواد ، وهؤلاء هم قرامطة زكرويه بن مهرويه أو قرامطة الشمال .

وتعتبر ثورة حمدان قرمط أول امتحان لمقدرة سعيد كزعيم ديني ؛ فقد عز على حمدان زعيم القرامطة ، أن يرى على عرش الإمامة داعيا لا يمت إلى العاويين بنسب . كما عز عليه أن يفاجأ بهذا الانقلاب دون سابق معرفة بذلك . ويدعى المؤرخون السنيون أن بنى القداح ادعوا الانتساب إلى عقيل بن أبي طالب ، وأنهم ظلوا على ذلك الادعاء ، حتى تولى سعيد رئاسة الدعوة ، فخرج على تقاليد أسرته ، وادعى الانتساب إلى علي بن أبي طالب عن طريق محمد بن إسماعيل (١) . والحق أن ادعاء أسرة القداح النسب إلى عقيل بن أبي طالب كان - إذا صح - نوعا من التقية ،

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٧٠

شأنهم في ذلك شأن أئمتهم المستورين ، الذين ادعوا في سلفية أنهم من بني هاشم العباسيين ، واستطاعوا بفضل ذلك أن يمدوا الدعوة حتى أحرزوا كثيرا من النجاح .
وأما ادعاء سعيد النسب الى محمد بن اسماعيل ، فلم يكن بسبب طموحه ، كما ذهب اليه الشريف أخو محسن^(١) ، بل كان تلبية لنداء واجبه الديني ، كما كان تلبية لنداء إمامه المستور ، وحفظا لكيان جماعته . ويظهر أن حمدان قرمط لم يستطع أن يستسخ هذا الانقلاب ، كما لم يستطع أن يفهم نظرية الاستقرار والاستيداع ، أو على الأقل لم يقم سعيد القداح بإيضاح هذه النظرية للقرامطة . ولا عجب في ذلك ، فإن رئيسهم حمدان قرمط كان بقارا لا يستطيع فهم هذه النظريات . على أننا نرى أن سفيره الى سعيد كان عبد الله الداعي العالم النشيط . وهل يرجع ذلك الى أن سعيدا كان يريد إبعاد حمدان وعبدان عن زعامة الدعوة بالعراق ، وأن يعين بدلها شخصا يثق به ؟ أو بعبارة أخرى ، هل كان سعيد يريد أن يولى على عرش الدعوة بالعراق شخصا يؤمن بالحركة الانقلابية الجديدة التي أحدثها الإمام الحسين بتولية سعيد بن الحسين الإمامة ؟ الواقع أن سعيدا قد ولى على العراق داعيا جديدا - كما سنرى - ومنحه السلطة المطلقة هنالك^(٢) . إلا أن هذا التغيير قد يكون نتيجة لانتقاض حمدان لا سببا له . فهل يرجع ذلك الانتقاض إلى أن حمدان قرمط من الكيسانية ، وأنه قد أصبح يحن إلى مبادئهم ، فانتزعت فرصة انتقال الإمامة من بيت على إلى بيت القداح ، فانتقض على الدعوة الإسماعيلية ؟ ولكن هذا الافتراض ، رغم وجاهته ، يقف في وجهه بقاء القرامطة في السواد على إخلاصهم لمحمد بن إسماعيل حتى عهد أبي طاهر الجنابي (٣٠٥ - ٣٣٢ هـ) . ومهما يكن من شيء فقد دل انتقاض حمدان قرمط على سعيد الخير على أن هناك شيئا من عدم الاستقرار في الدعوة الإسماعيلية ، كما دل في الوقت نفسه على أنه كان هناك بعض زعماء من القرامطة يخشى بأسهم .

اختفى حمدان من ميدان الدعوة الإسماعيلية ، ولا نعلم عنه بعد ذلك شيئا ، فهل قتل ؟ وإذا كان كذلك فمن الذي قتله ؟ وإن اختفاه بعد ذلك الانتقاض وفي ذلك

(١) من العلويين العلماء الذين نبغوا في القرن الرابع الهجري

(٢) الديسابورى : استتار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ٩٦ .

الوقت بالذات يدل على أن سعيداً ، أو على الأقل أنصاره ، قد تخلصوا منه (١) ، أو هل عاد حمدان قرمط إلى حظيرة الإسلام على المذاهب السنية ؟ لو أنه فعل ذلك لما سكك المؤرخون السنيون . وبين لنا هذا الحديث الذي دار بين حمدان وبين علي بن عبد الله القداح (أو ابنه) عقيدة القرامطة بعد انتفاضهم ، إذ عرفه «عبدان» أنهم قد قطعوا الدعوة ، وأنهم لا يعودون فيها ، وأن أباه كان قد غرهم وادعى نسبه من عقيل بن أبي طالب كذبا ، ودعا إلى المهدي ، فمكنا نعمل ذلك . فلما تبيننا أنه لا أصل لذلك ، وعرفنا أن أباك من ولد ميمون بن ديصان ، وأنه صاحب الأمر تبنا إلى الله بما تحملنا ، وحسبنا ما كفرنا أبوك ، فتريد أن تردنا كفارا ؟ انصرف عنا إلى موضعك (٢) .

على أن ارتداد القرامطة عن المذهب لم يكن عاما ، لأن زعماءهم لم يستطيعوا اقتلاع مبادئ هذا المذهب من البلاد البعيدة ، ولم يمكنهم قطعها من غير ديارهم ، لأنها كانت قد امتدت في سائر الأقطار وامتد شرها (٣) . ولكن ألم يكن سعيد يتوقع حركة كهذه يقوم بها القرامطة ؟ وإذا كان كذلك فما الجهود التي بذلها في هذه السبيل ؟ يبدو أن سعيداً كان يتوقع ثورة القرامطة عليه ، ولذا أوجد في معسكر حمدان وعبدان جماعة من دعاة الهزيمة بمن يوافقونه ويخالفونهم . يتضح ذلك من مخالفة الداعي ابن مليح لرئيسه حمدان حين حاول إرساله إلى سلبية ليتعرف أمر سعيد . ولو كان ابن مليح على رأى أستاذه حمدان لأجاب طلبه .

ولم يكن هذا كل ما كان يعمل عليه سعيد ، فقد عين في رئاسة دعوته داعيا جديداً يثق به . حقا لم تذكر المراجع الاسماعيلية كلمة واحدة عن حمدان قرمط ، وكأنهم بذلك يتجاهلون الدور الخطير الذي قام به في نشر الدعوة الاسماعيلية بين القرامطة ، ولكنهم يذكرون أن أول عمل قام به المهدي حين أصبح إماماً أنه ولى داعيا جديداً ،

(١) كان ذلك في سنة ٢٨٦ هـ أو قبلها بقليل ؛ لأن ذكرويه اختفى منذ هذه السنة تحت ضغط أتباع حمدان وعبدان .

(٢) النبري : نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧٠ . مما يدلنا على أن السليبيين كانوا يعتقدون بتكفير

بيت القداح ويرونهم بأنهم ثنية ، على عكس ما يعتقد الاسماعيلية .

(٣) نفس المصدر والجزء والورقة

ولا بد أن يكون هذا التعمين الجديد قد تم بعد انتقاض حمدان قرط عليه ، ليستطيع مواجهة موقفه الجديد . ولذلك نرى هذا الداعي يتدخل في شئون الدعوة بالعراق ، فيعزل من يشاء ويولى من يشاء ، مما يدل على أن رد المهدي على حمدان وأنصاره كان سريعا وحازما . يقول النيسابوري (١) : « فأول ما عمل المهدي ع م بعث في طلب أبي الحسين بن الأسود الى مدينة حماة ، وكان رجلا عاقلا فقال : يا أبا الحسين ! قد قدمتك على جميع الدعاة ، فمن قدمت فهو المقدم ، ومن أخرت فهو المؤخر . . . وكان الدعاة يأتون الى أبي الحسين ويؤدون إليه زكاتهم وهداياهم ، فيوجه بها أبو الحسين إلى المهدي . . . وكان أول ما قام به أبو الحسين أن عزل أبناء زكرويه عن سواد الكوفة . مما يدل على أن تعيينه قد تم بعد حادث انتقاض حمدان .

ولم يكن ما فعله المهدي كافيا لاقرار أمور الدعوة في بلاد العراق ، لا سيما إذا علمنا أنه كان هناك في الطالقان زعيم قداحي آخر ، هاله انتقاض حمدان على الدعوة أو على قريبه سعيد ، فقدم العراق وحاول اجتذاب حمدان وعبدان وإعادتهما إلى حظيرة هذه الدعوة . غير أن رد عبدان عليه كان ينطوي على الغلظة والشدّة ، مما جعل ذلك القداحي يتآمر مع زكرويه على قتل عبدان . ويقلده رئاسة الدعوة بسواد الكوفة متخطيا زعامة قريبه سعيد . فكان قداح الطالقان جعل بذلك من نفسه الرئيس الأعلى للدعوة ، كما جعل من زكرويه نائبا عنه في العراق (٢) . ومعنى ذلك أن سعيدا واجه خطرا مزدوجا من قرامطة حمدان وعبدان ، ثم من قرامطة عمه علي بن عبد الله بن ميمون القداح وزكرويه بن مهرويه . ولا ندرى أكان قداح الطالقان قد اعتزم الثورة على ابن أخيه سعيد ، أم أنه رأى أن يقوم بهذا العمل السريع إنفاذا للموقف الخطير الذي أصبح فيه زعماء سلبية . إلا أننا نستطيع أن ندرك من إقصاء يدت زكرويه عن رئاسة الدعوة بالكوفة ، ثم من تشكك المهدي في إخلاص أبناء زكرويه ، بأن ما حدث على يد علي بن عبد الله بن ميمون القداح كان على غير هوى المهدي .

(١) استنار الامام (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد سنة ١٩٣٦) ص ٩٦

(٢) شرح زكرويه لأنصاره موقف هذا القداحي منه ، ، عرفهم أنه ابن الحجة ، وأن الحجة توى وأن أبيه هذا يقوم مقامه . فأجلوه وعظموه ، ، للزيري : ج ٢٣ ص ٧٠

ولهذا نرى أن ثورة حمدان قرمط كانت بعيدة الأثر ، فقد فككت وحدة القرامطة ، وأدت إلى تكوين فرع قرمطي جديد بزعامة زكرويه ، وعلى بن عبد الله ابن ميمون قداح الطالقان . على أن موقف ذلك الفرع من عبيد الله المهدى الإمام ، لم يتضح تمام الوضوح ، على الرغم من وجود جماعة أخرى من أنصار حمدان قرمط ظلت على ولائها لمحمد بن إسماعيل والدعوة الإسماعيلية . وقد بقي هؤلاء مستقلين عن قرامطة زكرويه في الشمال وقرامطة أبي سعيد الجبائي في البحرين . وقد أدى هذا الفريق واجبه كفرع من فروع الإسماعيلية ، فناروا على العباسيين بسواد الكوفة في سنة ٢٨٧ هـ ، كما ناروا في سنة ٢٨٩ بزعامة أبي الفوارس أخلص دعاة حمدان وصهره عبدان ، وكانوا في هاتين الثورتين عنيفين كل العنف ، كما كانوا مستقلين عن القرامطة الآخرين .

ويدلنا رد الداعي أبي الفوارس على الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) على إغراق هذه الجماعة في حب العلويين ، كما يدلنا في الوقت نفسه على الجرأة والإقدام اللذين امتاز بهما قرامطة السواد . فانظر إلى هذا الحديث الذي دار بين أبي الفوارس والخليفة المعتضد العباسي ؛ قال المعتضد : « هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه تحل في أجسادكم ، وتعصمكم من الزل ، وتوفقكم لصالح العمل ؟ فقال له : يا هذا ! إن حلت روح إلهي فما ينفعك ؟ فلا تسلم عما لا ينفعك ، وسل عما ينفعك . فقال (المعتضد) : فما يخصني ؟ قال : أقول : إن رسول الله ﷺ مات وأبوكم العباس حي ، فهل طلب الخلافة ؟ أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك ؟ ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر ، وهو يرى موضع العباس ولم يوص إليه ، ولا أدخله فيهم ؛ فبماذا تستحقون اسم الخلافة ، وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها (١) ؟ » .

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل إننا نشاهد في سنة ٢٩٥ هـ ، أي قبل قيام الدولة الفاطمية بسنة واحدة ، ثورة خطيرة تقوم في سواد الكوفة على يد خليفة أبي الفوارس — ويدعى أبا حاتم البوراني — رئيس البورانية الإسماعيلية . وهذا يدلنا على أنه كانت هناك جماعة من قرامطة السواد ، ظلت على ولائها لمحمد بن إسماعيل ، وأنها كانت من أخلص الناس لحمدان قرمط . فهل نفهم من هذا

(١) المنصوري : رتبة الفكرة ج ٥ ص ١٢٨

أنهم لم يعودوا إلى حظيرة سعيد الخير الإمام ؟ الواقع أنهم أفادوا سعيدا فائدة جمة حين شغلوا جيوش العباسيين عنه من سنة ٢٨٧ إلى سنة ٢٨٩ هـ ، حتى استطاع الإفلات من سلبية آمنة ، كما شغلهم هم وغيرهم من القرامطة في سنة ٢٩٥ هـ . وبذلك لم يستطع العباسيون إنقاذ الأغلبية الذين تعرضوا لهجمات الإسماعيلية العنيفة بقيادة أبي عبد الله الداعي من قرامطة الشمال .

والآن ننتقل إلى الكلام على موقف قرامطة زكرويه بن مهرويه من سعيد الخير . كان أبو محمد زكرويه بن مهرويه من كبار دعاة حمدان قرمط ، وكان يخضع مباشرة لصهره حمدان الرئيس الثاني للدعوة الإسماعيلية بين قرامطة السواد . فلم يكن زكرويه أول داعٍ إسماعيلي بين القرامطة — كما زعم المقرئ (١) . ويبدو أن زكرويه كان من تلامذة مدرسة القرامطة الأولى ، حتى عده النيسابوري (٢) الإسماعيلي من دعاة عبد الله الأكبر ، أى من دعاة عبد الله القداح الحجة ؛ ولذلك فإن حمدان لما انتقض على سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، وجد على بن عبد الله ، الذى كان بالطالقان ، فيه الرجل الذى يعول عليه ، فأحله محل حمدان قرمط في رئاسة الدعوة بالسواد ، على ما تقدم .

وهنا نقف قليلا لنرى سعيدا الخير حائرا في سلبية أمام حالة التقليل التى أوجدها انتفاض حمدان عليه . لذلك لم يقر عمه عليا ، قداح الطالقان ، على ما فعل ، كما لم يرض عن تعيين زكرويه أو أبنائه على الكوفة ، بدليل ما قام به داعي دعائه أبو الحسين من عزل أبناء زكرويه عن الكوفة . ولكن كيف نفسر قول النيسابوري (٣) : « لما مات أبو محمد - زكرويه - داعي الكوفة ، وكان قد خلف ثلاثة أولاد ، وهم أبو القاسم (صاحب الناقة) وأبو مهزول (صاحب الشامه) وأبو العباس ؛ وكان معهم زوج أختهم فقتلوه ، وقالوا له : أنت مبغض لنا ومخالف على مولانا . وصاحت أختهم وقالت : قتلتم زوجي ! فقالوا : نعم ! لأنه منافق . فخلع أبو الحسين (داعي الدعاء) أبا القاسم بن أبي محمد عن دعوة الكوفة ، فغضب أبو القاسم وإخوته

(١) اتعاظ الخنقا ص ١٠٧

(٢) استنار الامام ص ٩٣

(٣) المصدر نفسه ص ٩٦

غضباً شديداً ، وكتبوا إلى المهدي صلوات الله عليه يقولون : لم نزع أبو الحسين منا دعوة الكوفة بلا ذنب ولا خيانة ؟ فلم يرد عليهم المهدي جواباً . واجتمع الإخوة الثلاثة ، وتحالفوا وتعاهدوا على أنهم ينحدرون إلى سلبية فيقتلون ابن البصري ، هذا الذي كلف أبا الحسين أن يفعل بنا هذا الفعل ولا تتركه ، وقالوا : حتى ينقطع ذكر علي بن أبي طالب من الدنيا ، ونقتل بعده أبا الحسين ، وإلا وشينا بذلك إلى عمال الشام ، ؟

من ذلك نرى أن أبناء زكرويه قاموا بعمل يستحقون عليه ثناء المهدي ، ولكنهم قوبلوا بعكس ما كانوا يؤملون : قتلوا زوج أختهم لأنه مخالف للمهدي ، ولا نعرف أنه كان هناك بين القرامطة مخالف غير حمدان وعبدان . ولما كانت المراجع السنية الكثيرة التي بين أيدينا تؤكد أن قتل عبدان كان على يد زكرويه وأنصاره ، فلا يبعد أن يكون عبدان زوجاً لابنة زكرويه . ثم لماذا لم يقابل المهدي هذا العمل بالتقدير وإنما قابله بعزل فاعليه ؟ يبدو أن المهدي أقدم على ذلك ، لأن زكرويه وأبناءه لم يفعلوه بأمره بل بأمر سواه ، فاعتبرهم منتقضين عليه كحمدان وعبدان سواء بسواء . ثم ما المقصود بعبارة ابن البصري ؟ يظهر من سياق هذه العبارة أنه المهدي . وبهذا يتفق الإسماعيلية مع الطبري وعريب بن سعد وسواهما (١) في إطلاق اسم ابن البصري على المهدي . كما نفهم من منطوق تلك العبارة مدى الاضطراب الذي أصاب هذه الدعوة في العراق ، والعلاقة السيئة التي قامت بين إسماعيلي هذه البلاد ورياسة الدعوة في سلبية . وهنا نلاحظ أن النيسابوري يذكر في شيء من التأكيذ أن زكرويه لم يكن حياً في ذلك الوقت أي في سنة ٢٨٦ هـ ، مع أنه حارب العباسيين ، ودوخ جيوشهم في العراق وفي البادية حتى قتل في سنة ٢٩٤ هـ . ويبدو أن النيسابوري اعتقد موت زكرويه في الوقت الذي اختفى فيه .

وإذا كانت هذه هي آراء الإسماعيلية في الاتجاهات الجديدة بعد موت عبدان واختفاء حمدان وانتقاضه على سلبية ، فإن السنيين يذهبون إلى القول بأن زكرويه لما قتل عبدان ، تبعه قرامطة السواد (وهم أنصار حمدان وعبدان) ، فاضطر إلى الاختفاء في مطمورة (حفيرة في الأرض) بإحدى قرى سواد الكوفة ، وأمعن .

في التخفي منذ سنة ٣٨٦ هـ^(١). ويرى ابن خلدون أن استخفاه كان راجعا إلى تتبع جيوش العباسيين له ، وإخفاقه في اجتذاب أحياء كلب إلى دعوته الجديدة^(٢). والواقع أن هذين السببين معا هما اللذان حملاه على الاستخفاء . ويصح أن نضيف سببا ثلثا ، هو رغبته في أن يقوم بتمثيل دور الأئمة المستورين ؛ فيعمل وهو في مخبئه ، حتى يستطيع بذلك أن يحتفظ لدعوته الجديدة بالحوية والقوة ما دام الرأس المفكر فيها لم يمسه أحد بسوء . أضف إلى ذلك خوفه من أن يناله ما نال حمدان على يد رؤساء الدعوة بسلبية . وبهذا نرى أن ذكرويه قد ثار على قرامطة السواد ، وأغضب رؤساءه في سلبية ، ونخالفه القوم إلا أهل دعوته^(٣) .

وجه ذكرويه نشاطه نحو الشام ، فلم يتجه جنوبا خوفا من نشاط أبي سعيد ، كما لم يستطع الإبقاء على دعوته في بلاد السواد ، حتى لا يعترضه الفرع القرمطي الرئيس ، وهم أتباع حمدان الذين ظلوا على ولائهم له وللدعوة الأساسية . ومن ثم وجه أبناءه ولاسيما أبا القاسم يحيى (صاحب الناقية) وأبا مهزول (صاحب الشامية) إلى بادية السماوة وبلاد الشام . ولا غرو فقد كانت بادية السماوة في قبضة جماعة من الأعراب الذين اعتنقوا المذهب الإسماعيلي ، كما كانت بلاد الشام نفسها في حالة من الضعف لا تستطيع معها مقاومة أو فضالا . ولم يكن للعباسيين نفوذ أو سلطان في هذه البلاد ، لأنها كانت في قبضة الطولونيين الذين دب إليهم الضعف واعتراهم الوهن أيضا في عهد هارون بن خمارويه . أضف إلى ذلك أن أهالي تلك البلاد كانت لهم دراية وإلمام بالمذهب الإسماعيلي ، منذ اتخذ الأئمة المستورون سلبية موطنًا ودار هجرة . فلا يبعد أن تكون الدعوة الإسماعيلية قد أخذت تتسرب من سلبية إلى بعض مدن الشام ، وأنه قد أصبح لها أنصار وأتباع في كثير من المدن الشامية وباديتها^(٤) .

فهل كان اتجاه أبناء ذكرويه إلى بلاد الشام دليلا على رغبتهم الخاصة في الاتصال برئيسهم الأكبر في سلبية ؟ لقد حاولوا الاتصال بالمهدي غير مرة ، واعتذروا له عما فرط منهم ، وأعلنوا أنهم يريدون أن يكونوا دولة الفاطميين المنشودة في

(٢) التبريزي : نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧٠ ، ٧١

(٢) البرج ٤ ص ٥٦

(٣) المقرئ : أقطاب الخفاص ١١٥

(٤) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية في الحياة السياسية ج ١ ورقة ١٠٢

بلاد الشام نفسها . هذا ما حاول الأستاذ إيثانو^(١) الذهاب إليه ؛ ولكن المراجع الإسماعيلية تنفي ذلك ، وتذهب إلى الإسراف في لعن أبناء زكرويه . ودليل آخر هو أن سعيدا الخير إنما خرج من سلبية خوفا من أبناء زكرويه ، وأنه لم يستمع لاعتذاراتهم المتتالية ، مما يدلنا على عدم ثقته فيهم . كما أن الحسين بن زكرويه عمل على التخلص من جميع أقارب سعيد الخير ، حتى إنه لم يُبق له منهم عينا تطرف . ولو كان من أنصاره لما فعل ذلك .

والذي نلاحظه في حركة أبناء زكرويه ، أنهم كانوا على قدر كبير من الذكاء ؛ فقد استغلوا حالة الانحلال السياسي في تلك البلاد ، وتأثير المذهب الإسماعيلي فيها ، فنادوا بإمامة محمد بن إسماعيل وانتموا إليه . ومن قائل إنهم ادعوا نبوته ، ومن قائل إنهم زعموا أن أباهم حجة الإمام المستور ، وإنهم فروا من وجهه العباسيين ، ولجئوا إلى قبائل بني كلب الذين اعتنق كثير منهم هذا المذهب ، وتفاؤوا في طاعتهم ، واعتقدوا أنهم يعاونون بذلك أبناء الرسول ، وسموا أنفسهم الفاطميين . ولا بد أنهم كانوا قبل ذلك مواليين لرياسة المذهب ، وأهم أسندوا رياستهم إلى « يحيى بن زكرويه » ، وهو أبو القاسم بن أبي محمد ، الذي استغل هذه الظروف المواتية ، وأدعى أن النصر حليفهم ، وأن ناقته مأمورة ، إن تبعوها ظفروا وإلا أخفقوا . ومن ثم سمي « صاحب الناقة » ، وسماه أنصاره « الشيخ » ، فتمكن من قلوب أنصاره في بادية السماوة منذ سنة ٢٨٩ هـ . يقول الطبري^(٢) : « وإن يحيى تسمى بمحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وزعم أن أباه المعروف بأبي محمود داعية له ، وأن له بالسواد والمشرق والمغرب مائة ألف تابع ، فأنحازوا له وتسموا الفاطميين ودانوا له » . ونحن نشك كثيرا فيما ذكره الطبري ؛ لأن محمد بن إسماعيل أنجب عبد الله الرضا ، وهو عبد الله الأكبر ، الذي اعتبره الإسماعيلية الإمام الثاني من الأئمة المستورين . إلا أن عبارة الطبري تشير في الوقت نفسه إلى فكرة الحجة والإمام ، وتبين أنه لو صدق أبناء زكرويه ، لكان أبوه حجة قد حل من أئمة الدعوة العلوية محل أبناء الفداح ، وفي ذلك معنى الثورة الصريحة على سعيد الخير . وإذا كان يحيى قد أعلن هذا وهو ببادية السماوة في سنة ٢٨٩ هـ ، فقد اشتهر منه سعيد رائحة الشر ، ومن ثم

Ivanow : The Rise of the Fatimids, p. 91 (١)

(٢) تاريخ الأمم والملوك ١١٣ ص ٢٧٧ - ٢٧٨

غادر قصوره وأهله بسلبية، واتجه جنوباً مع إمامه المستقر أبي القاسم (القائم بأمر الله) وبعض المقرين إليه من الدعاة .

ويتفق مؤلفو الإسماعيلية معنا في اعتقادهم أن محيي أبناء زكرويه إلى بلاد الشام كان السبب المباشر لحرب سعيد الخير من سلبية ؛ فقد رأيتهم يتآمرون فيما بينهم على قتله وقتل كبير دعائه أبي الحسين . ولا يبعد أن يكون ما ذهب إليه الطبري صحيحاً من ناحية أنهم ادعوا أن أباهم داع لمحمد بن إسماعيل ، وأنهم لا يعترفون بإمامة غيره ، أي بإمامة سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح ؛ بل لقد اعتبروه خارجاً على المذهب نفسه . يدلنا على ذلك تلك العبارة القيمة التي أوردها النيسابوري للإسماعيلي في كتابه استنار الإمام^(١) ، حين يتكلم على علاقة أبناء أبي محمد زكرويه مع المهدي فيقول : ولما اتصل خبر مجيئهم بدعاة بغداد . . . وجماعة من الشيعة ، كتبوا إلى المهدي (ع م) أن بني أبي محمد قد عزموا على قتلك ، وقتل أهلك . فإني كنت قاعداً فقم ، فإنهم زحفوا إليك ، وهم عازمون على قتلك ، فإن لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، وشوا بك إلى د هارون بن ، أحمد بن طولون . وهم يقولون إنك مخالف للمذهب ، ويشهرون أمرك . فاعمل على خلاص نفسك ، ولا تقم ساعة واحدة ، ، وذلك بما دعاه إلى الفرار . ولم يكن هؤلاء القرامطة إذن يرمون من وراء حركتهم هذه إلى تكوين دولة تخضع لسعيد الخير ، وإنما كانوا يريدون قتله وقتل أهل بيته ؛ فلما لم يتمكنوا منه قضوا على جميع أسرته .

ولا يهمننا أن نتتبع هنا حروب أبناء زكرويه في بلاد الشام ، وإنما يهمننا جلاء بعض المسائل الغامضة لتوضيح العلاقة بين المهدي وقرامطة الشمال . ومن هذه المسائل :

أولاً : أن المراجع الإسماعيلية تذكر أن سعيداً القداح خرج من سلبية قبل وصول أبناء زكرويه إلى الشام في أواخر سنة ٢٨٩ هـ بسنة واحدة ، وأنه قضى هذه المدة أو ما يقرب منها وهو يختلف إلى مدن سورية وفلسطين ، ولا سيما الرملة التي بقي بها حتى تمت هزيمة يحيى بن زكرويه وأخيه الحسين بن زكرويه في أوائل سنة ٢٩١ هـ . ومعنى ذلك أن المهدي خرج من سلبية في سنة ٢٨٨ هـ ، واستمر بالرملة . فهل كان

(١) مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦ ، ص ٩٦ - ٩٧ .

سعيد يقف تلك الوقفة الطويلة رجاء نجاح أبناء زكرويه في احتلال الشام ، ثم يعود هو إليهم ؟ أو أنه أراد أن يجلس على عرش أقامه منافسوه من أبناء زكرويه ؟ إننا نشك كثيرا في ذلك ، لأن الحسين بن زكرويه اتصل به في سنة ٢٨٩ هـ وهو في مدينة الرملة ، وحاول إغراءه ليعود إلى سلمية ، في الوقت الذي كان أخوه يحيى ابن زكرويه (أبو القاسم) على حصار دمشق . فإذا قال ابن زكرويه : وبماذا أجب المهدي ؟ قال ابن زكرويه للمهدي : « يامولانا ! أخرجنا من بلدنا أنا وإخوتي . ندور عليك . فالحمد لله الذي جمع بيننا وبينك . أخى (يقصد أخاه يحيى المسمى أبا القاسم) قدم بالعسكر ، وحصر دمشق وتركته على أخذها . فارجع فقد استقام لك الأمر ، فما جئنا من بلدنا إلا لترضى عنا ، ولا تسكن ساخطا علينا . وهذا من فعل أبي الحسين الذي أفلقنا وأفلقك ، فإن كنت لا تمضى أنت ، فكتب كتابا إلى أخى ليرضى عنى ، فإنه ساخط على (١) » .

ولو أن الحسين بن زكرويه كان موضع ثقة المهدي ، أو أنهما كانا على وفاق ، لأجابه على الفور وانتقل معه إلى دمشق . وإنما الذي فعله المهدي ، أنه كتب إلى أخيه يحيى بن زكرويه كتابا قال فيه : « ارض عنه ، ولا تؤذه بشيء » ، وأنا قادم في إثر كتابي (٢) » ، كما أرسل إلى داعي دعائه أبي الحسين كتابا آخر يطلب فيه أن يمنحه بعض المال . ومع ذلك لم يعبأ المهدي ولا داعي دعائه بهؤلاء .

ويظهر أن ما فعله الحسين (أبو مهزول) بن زكرويه كان خدعة حربية ، رعى من ورائها إلى الحصول على شخص المهدي والتخلص منه بعد ذلك ، أو أنه كان يرمى إلى الحصول على رسالة منه يستغلها في إثارة حماسة أتباعه من القرامطة . ولا يبعد أن بنى زكرويه لما رأوا احتدام الصراع بينهم وبين طنج بن جف — أبي محمد الإخشيد صاحب مصر — وكان على دمشق من قبل هارون بن خمارويه ، وأن المصريين سوف يمدونه بالمبال والرجال ، رأوا أن يستغلوا شخص المهدي وماله ، فإنهم قبل الذهاب معهم إلى دمشق قالوا : إنه نائهم وحببتهم ، واتخذوه نكاة للحصول على كل ما تصبو إليه نفوسهم ، وإلا أخذوا منه مالا يستعينون به .

(١) التيسابورى : استنار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ٩٨

(٢) المصدر نفسه .

على الفتح ؛ فإن لم يكن هذا ولا ذاك ، أخذوا منه رسالة تدل على رضائه عنهم للتأثير في الذين لا يزالون على حب المهدي ، حتى لا يكونوا من عوامل هزيمتهم . وإذا صح ما ذهبنا إليه ، دل على مهارة أبناء زكرويه . وقد أفاد يحيى بن زكرويه (أبو القاسم) وأخوه الحسين (أبو مهزول) من تلك الرسالة ؛ إذ وافق أنصار يحيى ، وكان عامتهم من إسماعيلية المهدي وصنائع أبي الحسين داعي دعائه ، على تولية الحسين عهد أخيه . ولم يلبث أن قتل يحيى على أبواب دمشق على أيدي الجنود المصريين ، وعلى رأسهم بدر الخمامي قائد أحمد بن طولون ، وذلك في أوائل سنة ٢٩٠ هـ ، وتسلم الحسين (أبو مهزول) زمام الأمور بين قرامطة الشمال .

أما المراجع السنية فتذهب إلى القول بأن أبناء زكرويه نادوا بالاشتراكية وحملوا د موالى بنى العليص (وهم فرع من قبيلة كلب) على صريحهم (رؤسائهم) ، فقتلوا جماعة منهم واستنلوهم (١) . وقد انتصروا هم ومن انضم إليهم من الكلبيين على والى الرصافة في سنة ٢٨٩ هـ (٢) . ومن ثم توغلوا في بلاد الشام نفسها ، فلم يستطع طنج بن جف والى الشام أن يصد هم ، فهزموا جيوشه في مواقع متكررة ، حتى ضربوا الحصار على دمشق في العام نفسه سبعة أشهر ، إلى أن قتل على أبوابها يحيى ابن زكرويه . وهكذا لم يتعرض المؤرخون السنيون للعلاقة القائمة بين المهدي وهؤلاء القرامطة ، ولم يذكروا أين كان يختفى المهدي وقتئذ ، كما لم يذكروا الدور الذي قام به الحسين بن زكرويه مع المهدي . وكل ما قالوه إن يحيى بن زكرويه ضرب نقودا كتب على أحد وجهيها : « قل جاء الحق وزهق الباطل » ، وعلى الوجه الآخر : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » ، مما يدلنا على أن يحيى كان ينادى بأحقية العلويين ، وأن دعوته نالت كثيرا من النجاح حتى تفرمط أكثر من حول دمشق من الغوطة وغيرها وعاضدوها (٣) .

وقد أخطأ كثير من العلماء السنيين فقالوا : إن يحيى بن زكرويه الذي قتل على أبواب دمشق ، هو على قداح الطالقان ، الذي اتفق مع زكرويه على قتل عبد الله

(١) الطبري : الأمم والملوك ج ١١ ص ٢٧٧

(٢) وصاية هشام : غربي الرقة ، بينهما أدبة فراسخ على طرف البرية .

(٣) المسعودي : تنبيه والأشراف ص ٣٢٢ . والغوطة هي الكورة المحيطة بدمشق .

والذهاب مع أبنائه إلى بلاد الشام^(١) .

ثانيا : وأنه بعد اضطلاع الحسين بأمور الدعوة القرمطية ، حاول اتخاذ حمص محل دمشق . وقد نجح في ذلك نجاحا يذكر ؛ لأنه نظم جيوشه ، وعين أقاربه والمخلصين في حبه عليها : فجعل ابن عم له قائدا من قواده ، ولقبه المدثر وولاه عهده ، وعهد إلى قريب آخر بقتل أسرى المسلمين ، لئلا يكونوا عبئا عليه ، وغالى في التظاهر — على ما يقوله السنيون — بالإخلاص للمذهب الإسماعيلي ، فسمى أحمد ابن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وسعى ابن عمه المدثر عبد الله بن عيسى بن محمد بن إسماعيل . وبما يلفت النظر حقا ، سرعة استيلائه على حمص ، إذ استطاع قتل حاميتها المصرية ، واتخذها قاعدة لنشاطه وقوته ؛ بل تذهب المراجع الإسماعيلية إلى القول بأن أهلها كتبوا له إلى أبي مهزول : أن أقدم علينا ، ودع دمشق ، فإننا في طاعتك . فقدم حمص ، وخلي عن دمشق^(٢) . ذلك أن أهل حمص كانوا أكثر استعدادا لتقبل المذهب الإسماعيلي . ولا غرو فإن سلمية — المقر الرئيس للأئمة الإسماعيلية - المستورين — أقرب منها إلى دمشق . ومن ثم خطب على منابرهما ، وتلقب بلقب

(١) ولا يمكننا أن نوافق على هذا للأسباب الآتية :

(أ) إن الديري ، وهو الذي ذكر ذلك ، ذكر في موضع آخر أن زكرويه أكد بأنه أرسل ابنه يحيى والحسين إلى بلاد الشام فقتلا هنالك (المقرري : اتعاظ الخفاص ص ١١٥) .

(ب) وإن علي بن عبد الله القداح (قداح الطائقان) كان من الذكاء بحيث لم يلق بنفسه في معامع الجروب ، وكانت الطريقة المأوفة عند زعماء القضاة أن يعالوا في الخفاء إلى أن تحين الفرصة للظهور . ولا تنصور أن يفعل هذا من تمكن يدهائه من القضاء على زعماء من ذوي الشأن ، كعبدان قرمط وصبره عبدان ، ومن تمكن في نفس الوقت من النجاح في تكوين حزب قوى جديد برئاسة زكرويه . استطاع أن يقف في وجه الطولونيين والباسيين معا .

(جـ) إذا كان من الثابت أن يكون يحيى هذا قد دعا إلى نفسه وانتمى إلى محمد بن إسماعيل ، وأن أحام الحسين قد دعا إلى نفسه أيضا ، وانتمى إلى محمد بن إسماعيل ، وأفرغ مرة أنه أخو يحيى ، فكيف يعقل أن يصدق أنصاره القرامطة ذلك ، إذا لم يكن معروفا لديهم أن يحيى اقتتل على أبواب دمشق هو أخوه بالطبع . أضف إلى ذلك أن المراجع الإسماعيلية المأصرة تؤكد أن المتوكل بيد الجنود المصرية على أبواب دمشق هو يحيى بن زكرويه ، وليس قداح الطائقان . وهكذا انتهى هذا الدور باخفاء أبناء زكرويه في استمالة المهدي ، وعجزهم عن الاستيلاء على دمشق ، لاتخاذها قاعدة لمك جديد .

(٢) النيسابوري : استتار الامام ص ٩٩

أمير المؤمنين . وفي هذا التلقيب دليل آخر على ثورته على النظام الإسماعيلي وعلى المهدي نفسه . كما جعل يكتب عماله بذلك ، واستطاع أن يكون في الشام حكومة قرمطية نائرة عاصمتها حمص ، وسمى أنصاره «المؤمنين» ، وسمى المسلمين «الكافرين» . والواقع أن هذه سنة الإسماعيلية الذين يسمون أنفسهم «الموحدين» وغيرهم الكافرين والفاسقين .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان الحسين يكتب لأنصاره : «من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدي ، المنصور بالله ، والناصر لدين الله ، القائم بأمر الله ، الحاكم بحكم الله ، الداعي إلى كتاب الله ، الذاب عن حريم الله ، المختار من ولد رسول الله (١)» .

كما يخيل إلينا أن الحسين بن زكرويه كان كأخيه قد اعتمد اعتمادا كلياً على الإسماعيلية الذين كانوا قد استجابوا لسعيد الخير ؛ فإن أخاه أبا القاسم يحيى بن زكرويه تمكن من جذب قلوب جماعة من قبائل كلب ، لأنهم كانوا يدينون بالمذهب الإسماعيلي . وهكذا « وقع اختياره عليهم دون القبائل ، وكانت الدعاة تدعو فيهم ، وكانوا من دعوة أبي الحسين (٢) ، داعي دعاة سعيد الخير . كما نراه يعتمد عليهم ويجهلهم ، حتى إنه لما قبض على الداعي أبي الحسين وضيق عليه (في سنة ٢٩٠ هـ) وشهره هو وابنه ، وأركبهما جملاً ، وكبأهما بالحديد ، وأتاه مشايخ القاصيين فقالوا له : إن هذا الرجل الشيخ ، نحن من دعوته ، فلا تحدث فيه حدثاً . فقال لهم : ما يناله منا مكروه (٣) . » وكذلك « كان الرجال الذين أخرجهم في العسكر لحرب محمد بن سليمان الكاتب القائد العباسي ، محبين للمهدي ، وكانوا من دعوة أبي الحسين (٤) . » من هذا كله نرى أن أنصار قرامطة الشمال كانوا من أتباع المهدي ، ومن استجابوا لسلبية لا للكوفة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى إن علاقة هذا الفرع العدائية الهجومية ضد المهدي لم تكن قد بدأت بعد .

وأما موقف الحسين بن زكرويه العدائي من المهدي فيبدأ مذ تآقت نفسه إلى

(١) العيني : عقد الجدان (مخطوط) ج ١٨ ورقة ١٠٦

(٢) أنيسابوري : استتار الامام (مجلة كاية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ٩٧

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٠

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٣

أخذ سلبية ، ومنذ قتل داعي دعاة المهدي (أبا الحسين) في منتصف سنة ٢٩٠ هـ . ذلك أنه ترك حمص في رعاية أنصاره ، ويمم شطر سلبية . وليس من شك في أن الحسين كان ينوي الشر في اتجاهه هذا ، ويخشى بقاء أبي الحسين داعي الدعاة . ولذلك كان يهيمه ألا يفلت هذا منه ؛ فلما هرب تتبعه حتى أدركه ، ولم يستمع لنصائح أتباع أبي الحسين . ومن الغريب أن الحسين ، بعد أن قتل داعي المهدي ومثل بالهاشميين العباسيين في سلبية ، أرسل إلى المهدي يستميله للحضور إليها ، ويخبره في الوقت نفسه أنه قتل وأضداده ، ومن كانوا سبياً في تشتيت أهله وأقاربه . وهكذا وبعت إلى المهدي كتاباً سراً يقول له فيه : إني قتلت أعداءك الذين عملوا على خروجك ، ودفع ابن عمك ، وولده إلى العراق في الأول ؛ فأقدم ولا تتأخر^(١) .

لو أن هناك ثقة متبادلة وحبا متبادلا بين الفريقين ، لما تأخر الحسين في أن يمدد لدولة المهدي . ويمثل الدور الذي سوف يمثله أبو عبد الله الشيعي . ونحن نقر ما قاله النيسابوري : « وكان ذلك مكيدة منه ليطمئن المهدي إليه حتى يرجع » . ثم بماذا نفسر ذلك الرد اللين الذي بعث به المهدي إليه ؟ أكان يخشاه فيظهر له الود على حين كان يخافه حتى لا يفشى للناس سره وهو بالرملة ؟ أم أنه اضطر إلى البقاء بالرملة هذه المدة الطويلة لا يظهر حقيقته عليه حتى لا يعيبه بقصوره ولا بأهله ؟ يدل على هذا أنه حين رآه يعيب بهؤلاء جميعاً غادر بلاد الشام . ومهما قيل في نفور المهدي من الحسين هذا ، فإنه لم يظهر له وهو بالرملة شيئاً يثيره ؛ ولذلك رد على كتابه بتلك العبارة التي يتظاهر فيها بحبه له وثقته به ، وفيه يقول : « قد أحسنت فيما عملته ، ولو لم تفعل هذا ما كنت من شيعتنا وأوليائنا ؛ وأنا قادم على إثر كتابي هذا إن شاء الله »^(٢) .

ويم نستطيع أن نفسر أيضاً قوله : إنه قادم إليه من فوره ، على حين أن الحسين ظل ينتظره أربعة أشهر كاملة ؟ وبماذا نفسر اعتقاد الإسماعيلية أن المهدي أنقذ حياته بامتناعه عن الذهاب إلى سلبية حيث يقولون : « لما قرأ الفاسق كتاب المهدي

(١) النيسابوري : استنار الامام ص ١٠٢

(٢) المصدر نفسه

فرح به وأطمعه فيه ، وأبى الله أن يتم للفاسق أمله ، وأن لا يبلغ المهدي ما هو أهله (١) ، والذي نعتقده أن الحسين لم يكتف بقتل داعي دعاة المهدي ، بل كان يطمع في قتل المهدي نفسه ، وأن دعاة المهدي في بغداد كانوا على حق في تصويرهم أبناء زكرويه ، ووصفهم بالغدر والميل للفتك بالمهدي . لذلك لما طال انتظار الحسين وصول المهدي دون جدوى ، وأدرك أن الجيوش العباسية قادمة إليه ، عمل على التخلص من الدعاة المخلصين للمهدي ، فأخرجهم في عسكره لحرب محمد بن سليمان ؛ ولم يبق بجانبه إلا نفر يسير منهم ، لا يخشى بأسهم ، ثم انقض على سلبية وعلى قصور المهدي ، فقتل أهله وأسبابه وحاشيته . ومن هؤلاء جارية المهدي وابنه منها ، وأبى إليه بجميع من في ذلك القصر من صغير وكبير من الرجال والنساء ، فقتلهم كلهم ... وكانوا ثمانين وثمانين نفساً (٢) .

وكان من أثر سياسة الحسين الخرقاء أن حلت به الهزيمة أمام جيوش محمد بن سليمان ، قائد العباسيين في موقعة « تمنع » ، على ما يقوله السنيون ، أو « السيل » (٣) على ما يقوله الإسماعيليون . وذلك أن الحسين وجه كل جهوده للقضاء على العلويين بسلبية ، ولم يحفل بمقابلة محمد بن سليمان الكاتب ؛ فلم يخرج للقائه ، وترك قواده يلاقون قضاهم المحتوم ، مع أنه كان يجدر به أن يكون في طليعة جيشه . أضف إلى ذلك أن كثيراً من رجاله الموالين للمهدي ، قد شكروا في تصرفاته فحذروه — وهم بالجيش — سوء عاقبة الإقدام على ما يضر المهدي وأسرته . وما يدل على ارتياب الدعاة فيه ، هذه العبارة التي وردت على لسان أحد هؤلاء الدعاة حين دخل أبو الحسين قصر المهدي : « قال الدعاة الذين كانوا في عسكر الفاسق لأبي محمد الداعي : أنت مدل على هذا الرجل ، فأعرف ما يريد بهذا القصر ، وعرفه أن صاحب هذا القصر له في رقابنا بيعة ، وأبو الحسين دعانا لصاحب هذا القصر . ودخل إليه أبو محمد ... فقال له : يا هذا الرجل ! إني رسول الجماعة إليك . إنهم يقولون لك إن صاحب هذا القصر له في رقابنا بيعة ، فلا تحدث فيه حدثاً ولا تؤذهم بشيء (٤) » .

(١) النيسابوري - استنار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ٢

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٥

(٣) وتقع على مقربة من حماة

(٤) النيسابوري : استنار الامام ص ١٠٤

ثالثا : أننا لا يهمنا أن نتبع حركات الحسين حتى قبض العباسيون عليه وفكروا به ، ولا أن نبحث أثر هذه الموقعة في إضعاف الطولونيين ، ولا أثر حركة أبناء زكرويه في بلاد الشام عامة ، كما لا يهمنا أن نذكر الجهود التي بذلها أخوه الثالث وبعض أنصاره بعد ذلك ، لأن هذا كله لا يدخل في نطاق هذا البحث . إنما يهمنا أن نقول إن الحسين كان حربا على المهدي وهو بالشام ، كما كان حربا عليه بعد القبض عليه . وكأنه قد آله ، بعد أن قبض العباسيون عليه ، أن يفات المهدي بحشاشته ، فوشى به ، وأمد العباسيين بجميع المعلومات التي تساعدهم على القبض عليه . ولذلك أجاب الحسين العباسيين حين سألوه عن الشخص الذي يدعو إليه بقوله : « ما أنا من أهل الرياسة ، ولا من أهل القرامطة ؛ إنما أمرني بالخروج رجل هو فلان بن فلان ، من مدينة سلمية ، يعنى المهدي ع م . وهو من صفته كذا وكذا ، بصفته وحليته ، وكتبت صفته على ما وصف » (١) .

وفي الحق أن هزيمة الحسين حملت المهدي على مغادرة الرملة ، بعد أن مكث بها عامين . وفي أوائل سنة ٢٩١ هـ ترك بلاد الشام التي درجت فيها الدعوة الإسماعيلية منذ قرن تقريبا ، وآوت جميع أئمة الاستنار . ومن ثم زال عهد زعامة سلمية ، وقضى المهدي بعد ذلك خمس سنوات مغتربا متألما . فإنه لما فر من الرملة قصد المغرب ، وألقى به في غياهب سجون سجناسية ، حتى حمله أبو عبد الله من السجن إلى العرش في سنة ٢٩٦ هـ .

وهكذا لقي سعيد الخير من قرامطة السواد ومن قرامطة الشمال ما آله وأقضى عليه مضجعه ؛ فغادر مسقط رأسه سلمية ، ولم يستطع أن يستمرى سياسة هؤلاء في بلاد الشام ، ولكنه لم يستطع أن يحتج عليها ، وظل قابعا مترددا في مدينة الرملة ، حتى حلت الهزيمة بصاحب الشامة ، وعبت بأهل المهدي وأقاربه ، فكان ذلك آخر عهده بالشرق . وبهذا نرى أن قرامطة الشمال لم يقوموا - كما ادعى برنارد لويس - بوحى من الأئمة أنفسهم ، لكنهم يمهّدوا السبيل ويزيلوا من أمامهم العقبات (٢) ، بل قاموا يطلبون الأمر لأنفسهم ، فكان نصيبهم الإخفاق (٣) .

(١) النيسابوري - استنار الامام من ١٠٦

(٢) Bernard Lewis : The Origins of Ismailism, p. 74.

(٣) Lamemense : Islam Beliefs and Institutions, p. 159.

٣ — من قرامطة البحرين :

وأما موقف سعيد الخير من أبي سعيد الجنابي ^(١) (٣٠١ هـ) مؤسس دولة القرامطة بالبحرين ، فلا نعرف عنه كثيرا قبل قيام الدولة الماطمية . غير أننا لا ننكر أن قيام دولة القرامطة في البحرين على يد أبي سعيد ، يرجع إلى حد كبير إلى حركة حمدان قرمط وانتقاضه على سلمية ومن بها . فقد كان أبو سعيد من أخلص الناس لحمدان قرمط ، ومن كبار دعائه في جنوب فارس الغربي ؛ وقد صادف هناك شيئا غير قليل من النجاح . إلا أن مصاعب كبيرة اعترضته ، ففقد بعض على ما جمعه من المال ، واتخذ من الخزان والعدد ، وأفلت بحشاشته . فلم يزل في خفية حتى كتب إليه حمدان قرمط من كراذى (بالقرب من بغداد) بالشخص إلى ما قبله ؛ ولم يكن رآه . فلما عاينه رأى فيه نافذا فيما يكلفه ، ورأى أن ما دار عليه ليس من سوء سياسته ، لكن وجوه ^(٢) وقعت كالضرورة ^(٣) .

وفي الوقت الذي دعا فيه حمدان أباسعيد الجنابي . حدث الانتقاض على سلمية : فمن قائل إن حمدان قرمط عين أباسعيد على الدعوة في القطيف وبلاد البحرين ، فظل هذا على إخلاصه له ، حتى سمي أتباعه — على ما ذهب إليه دى ساسي ^(٤) — القرامطة .

(١) نسبة إلى جنابة على الخليلج الفارسي شرقا .

(٢) أمور أو ظروف فوق مقدوره .

(٣) ابن حنبل : المسالك والممالك ص ٢١٠ .

(٤) نرى أنب الداعي أبا زكريا الهامى ، قد يكون على المذهب الاسماعيلى على عقيدة حمدان وعبدان . فلما انتفضا على الدعوة وأرسلا أبا سعيد بمبادئ وعقائد إسماعيلية جديدة ، قتل زكريا الهامى ، لأنه لم يعد على رأيه . ولا بد — إن صح ذلك الافتراض — أن يكون أبو سعيد قد اتفق مع حمدان على ذلك قبل مجيئه إلى القطيف ، وإلا اعتبر غاربا عليه ، كما لا يعد أن يكون حمدان وعبدان قد طلبا إلى زكريا — داعيها على القطيف — الخروج على الدعوة الأولى التي يرأسها أبناء القداح . فلما لم يجيبهما إلى ما طلباه منه أرسلا إليه أبا سعيد فقتل به .

ولا يعد أن يكون قداح الطالقان قد عمل هو وزكرويه بن مبرويه على إرسال أبي سعيد إلى بلاد القطيف ، فقتل هذا أبا زكريا الهامى لبقائه على طاعة عبدان وحمدان . وقد يؤيد ذلك ، يحيى شخص . يدعى يحيى بن المهدي إلى القطيف بعد ذلك ، واتصاله بأبي سعيد ، وإخلاص هذا له . ومن المحتمل جدا —

نسبة إليه ، ومن قائل إن الذى أرسله إلى إقليم البحرين هو قداح الطالقان - على بن عبد الله القداح . وإلا كيف نفسر قتله أبا زكريا الصامى داعية عبدان في بلاد القطيف (١) ؟

وسواء أكان أبو سعيد قرمطيا يدين بالطاعة لحمدان أو لذكرويه ، فإن تعيينه على القطيف والبحرين ، قد تأثر لحد كبير بالعلاقة الرئيسية بين سلبية من جهة وبين سيده حمدان قرمط من جهة أخرى . وما يسترعى النظر حقا ، أن أبا سعيد كان يعمل وهو أشبه بملك مستقل ، حتى إن ابن فضل الجدنى حين ثار على ابن حوشب وعلى عبيد الله المهدي ، ادعى أنه فعل ما فعله أبو سعيد فقال : « إنما هذه الدنيا شاة ، ومن ظفر بها افترسها ، ولى بأبى سعيد الجبابى أسوة ، لأنه خلع ميمونا وابنه (٢) ودعا إلى نفسه ، وأنا أدعو إلى نفسى (٣) » . من ذلك نرى أن أبا سعيد لم يقيّد في سياسته بزعماء الدعوة الإسماعيلية ، وذلك يعلل فتور العلاقة بينه وبين الدولة الفاطمية الناشئة ، لأنه لم ينفذ مطالبها على النحو الذى كانت تؤمله منه .

(ب) موقف عبيد الله من أنصار الدعوة

في اليمن والمغرب وفارس

لم تكن رئاسة الدعوة بسلبية تهتم بنشر الدعوة بين القرامطة وحدهم ، بل كان اهتمامها بنشرها في بلاد اليمن والمغرب وفارس لا يقل شأنًا عن ذلك ، حتى إنها وضعت في زياطة تلك الأقاليم الرئيسة ، أو على حد تعبير الإسماعيلية «بحار الدعوة» ، دعاة من الأفاذا الذين خلّدوا أسماءهم في عالم الدعوة .

== أ. يكون يحيى بن المهدي هذا على ما ذكره بعض هو على قداح الطالقان . وما يؤيد هذا الرأي محاولة ذكرويه في أخريات حياته الاتصال بأبى سعيد الجبابى ، ولو لم يكونا على وفاق لما حاول ذلك أو فكر فيه .

De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes, vol. i, pp. (١)
cxxx, vi-vii.

(٢) يقصد أحمد بن عبد الله القداح وابن أخيه سعيد الخير .

(٣) الحمادى الجابى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٣

١ — في بلاد اليمن

في بلاد اليمن ضاعف ابن حوشب وابن فضل جهودهما في نشر الدعوة الإسلامية . وفتح البلاد لسنية ، وضما إلى بلاد الدعوة . وقد نجحا في ذلك نجاحا كبيرا . حتى لقب ابن حوشب «منصور اليمن» . واستطاع ابن فضل أن يستولى على أقاليم كثيرة أهمها إقليم صنعاء . ومما لا شك فيه أن ابن حوشب كان يدعو إلى الإمام الحسين بن أحمد . فلما ولى عهده أو نقل الإمامة — مؤقتا — إلى سعيد الخير ، عن طريق الاستبداع الإمامي . لم ينتقض عليه كما انتقض حمدان قرمط من قبل ، ولم يثر عليه كما ثار ذكرويه وأبناؤه ، بل إنه لما كتب له الإمام . . . بالعهد لعين الله ، وأذن له بالحرب . قام بدعوته وبثها في اليمن ، وجيش الجيوش ، وفتح المذائق . . . وفرق الدعوة في اليمن وعمان واليمنامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب ، (١) ، وكان يرسل — فوق ذلك — الإمام وولى عهده ، حتى إن الحسين حين أدرك نجاح ابن حوشب قال لسعيد الخير : « هذه دولتك قد أقبلت ، ولكن لا أحب ظهورها إلا من المغرب » (٢) .

وبفضل جهود ابن حوشب انتشرت الدعوة على ما رأينا في بلاد المغرب على يد داعيه الخلواني وأبي سفيان أولا ، ثم على يد أبي عبد الله الداعي ثانيا . كما تعاون ابن حوشب مع سننية في نشر الدعوة بمصر ، فتكون بها — تبعا لذلك — جماعة من الإسماعيلية كانوا من حاشية النوشري ، وإلى مصر بعد سقوط الطولونيين ، فساعدوا المهدي على الإفلات ، وهو في طريقه إلى المغرب . ولا يخفى أن كثيرا من المصريين كانوا على عقيدة الإسماعيلية في الوقت الذي مر سعيد الخير بمصر ، حتى إنه لجأ — على ما سنرى — إلى الاختفاء في دور كثير منهم . وقد حدث كل هذا بفضل تعاون ابن فضل مع سلبية في ذلك الوقت .

وكان عبيد الله حين فراره من سلبية يقصد بلاد اليمن ، حيث كان يقيم ابن حوشب

(١) ابن خلدون : المغرب ج ٤ ص ٣٠

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٤٢

الذى أطلق عليه الإسماعيلية ، فجر الدعوة المنتفس^(١) . ومما زاد في عظمة مركز ابن حوشب أن « باب أبواب المهدي » ، أى كبير دعائه ، كان أستاذا لابن حوشب . يقول جعفر الحاجب ، وكان في صحبة المهدي حين فراره من سلمية : « وأمرنا المهدي بالأخذ في أهبة السفر والخروج معه ، وأظهر لنا أنه يريد اليمن^(٢) ، ويؤكد أبو حنيفة النعمان المغربي^(٣) قاضى قضاة الفاطميين في المغرب ، وداعيتهم الأكبر ، أن المهدي لما وصل إلى مصر في سنة ٢٩١ هـ ، كان يأمل أن يقصد اليمن ، وأن الذين صحبوه كانوا جميعا على هذا الاعتقاد .

ولكن إذا كان في نية سعيد الخير أن يقصد اليمن . فما الذى منعه من تنفيذ تلك النية ؟ من المحتمل جدا أن يكون رسل العباسيين وجواسيسهم قد سبقوا إلى تلك البلاد ، أو أن بعض أخبار هرب المهدي إلى اليمن قد عرفه العباسيون . كما لا يبعد أن يكون لما ذكره ابن عياش ، الذى نزل المهدي في داره بمصر أثر في امتناع المهدي عن قصد اليمن . فقد قال ابن عياش للنوشرى عامل العباسيين على مصر ، حين سأله عن حقيقة المهدي المختفى عنده : « أما الرجل النازل على فؤاد لا وصل إليه شيء إلا ما يصل إلى » ، لأنه رجل هاشمى شريف تاجر ، من وجوه التجار ، معروف بالفضل والعلم واليسار . والذى أتى الرسول في طلبه . قد أعطيت خبره أنه توجه إلى اليمن قبل ورود هذا الرسول بمدة طويلة^(٤) . ومما يجعلنا نميل إلى الأخذ بهذا الرأي أن المهدي عدل عن قصد اليمن بعد وصوله إلى مصر .

على أن هناك من يقول : إن جماعة من الدعاة الذين يضمرون الكراهة والبغضاء للمهدي ، قد فسدوا اليمن ، فأفسدوا عقول كثير من أهلها ، وعلى الأخص الزعيم الثانى ابن فضل . مما جعل المهدي لا يرحب بفكرة إقامة الدولة الفاطمية المنشودة في بلاد تضم أمثال هؤلاء المتأمرين . وهذا يدلنا على بعد نظر المهدي ؛ فقد كان للثورة التى أشعلها ابن فضل على ابن حوشب بعد ذلك ، أثرها في إضعاف الدعوة .

(١) الخطاب : غاية المواليد ص ٣١

(٢) الهامى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠

(٣) افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٠ (من المنتخب)

(٤) الهامى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٣

الإسماعيلية في تلك البلاد ، بل في قلب مشروعات الفاطميين في بلاد المشرق رأساً على عقب . يقول أبو حنيفة النعمان المغربي (١) : « وكان تقدم بعض دعائه فقصد اليمن قبله وفسد أمره . فأتى إلى أبي القاسم ، صاحب دعوة اليمن ، فأراد أن يستزله فوجده ثابتاً في أمره ، فانصرف عنه إلى علي بن الفضل صاحبه ، وكان في ناحية من اليمن ، فاستماله ، فأفسده ، فكان يقال في ذلك الوقت : أتى عراق إلى عراق يطلب أن يسخر منه فلم يمكنه ذلك ، فأتى اليماني فسخر منه ، فانسلك علي بن الفضل من أمره وأمر أوليائه . . . فخارب أبا القاسم . . . واتصل ما كان من ذلك بالإمام ، ففكره دخول اليمن على هذه الحال . »

وعلى الرغم من عدم صحة كل ما أورده النعمان ، وخاصة أن ابن الفضل لم يقيم في وجهه علي بن حوشب إلا بعد قيام الدولة الفاطمية بأربع سنوات تقريباً ، تبين عبارته في وضوح أن هناك من حدا حدو حمدان قرمط وأنصاره . بل حدا حدو زكرويه وأبنائه ، في الانتقال على سعيد بن الحسين ، مما يجعلنا نميل إلى القول بأن تقليد سعيد الخير الإمامة قد أوجد حركات انقلابية بين الإسماعيلية ، وأن هذه الحركات لم تقتصر على القرامطة وحدهم ، بل شملت بعض دعاة اليمن (٢) .

(١) افتتاح الدعوة الزاهرة (من المنتخب) ص ٤١

(٢) لا ندرى إذا كان النعمان يقصد بالعراق الخائن « فيروز » ، الذي كان « داعي الدعوة وأجل الناس عند الامام وأعظمهم منزلة » والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده وهو باب الأبواب إلى الأئمة ، والذي انتفض على سعيد الخير حين علم أنه يقصد المغرب دون اليمن ، لأنه عز عليه أن يترك بلاد الشرق الأدنى ويقصد بلاد المغرب المفقرة ، كما عز عليه أن تضعف زعامته أمام سطوة أبي عبد الله الداعي في تلك البلاد . ولا غرو فانت فيروز لم يكن على صلة وثيقة بأبي عبد الله الداعي ، مع أنه سيكون صاحب الزعامة المطلقة على تليذه ابن حوشب داعي دعوة اليمن ، وعلى صهره أبي علي داعي دعوة مصر . فإذا كان النعمان يقصد ذلك الداعي فقد أخطأ ، لأنه فر من مصر إلى اليمن ، واستمر ردحا من الزمن معرض تقدير ابن حوشب ، حتى أتى إليه الخير من المهدي وأبى علي إلى ابن حوشب إنما كان بعد خروج المهدي فيروز . ولعلنا نشك في أن وصوله رسائل المهدي وأبى علي إلى ابن حوشب إنما كان بعد خروج المهدي من مصر . يقول جعفر الحاجب : « خرج المهدي ع م من مصر وحالفه فيروز قبل خروجه من مصر ومضى إلى اليمن ، . أضف إلى ذلك أن ثورة علي بن الفضل على ابن حوشب كانت بعد سنة ٢٩٩ هـ . على ما سيأتي - أي أنها كانت ثورة على العرش الفاطمي ، ولم تكن إذا في الوقت الذي خرج فيه المهدي من مصر (٢٩٨ هـ) ، بل كانت بعد ذلك بنحو ثمانين سنة أو أكثر . »

ومن المسائل الشائقة في تاريخ الدعوة الإسماعيلية في اليمن ، اعتبار الأئمة الإسماعيلية تلك البلاد أما كن استراتيجية هامة للنهضة بالدعوة بعد قيام الدولة الفاطمية المنشودة في بلاد المغرب ، لأنه يسهل على الدولة الشيعية التي تقوم في بلاد المغرب ، أن تتحرك شرقا إذا ما أرادت أن تغزو العالم الإسلامي^(١) ، وترث بغداد ، على حين أنه قد يتعذر عليها أن تفعل ذلك إذا قامت في بلاد اليمن ؛ إذ يصعب على الجيوش اليمنية ، مهما كان عددها وإعدادها ، أن تخترق بلاد العرب من الجنوب إلى الشمال ، وأن تمر ببلاد من أوعر بلاد العالم وأكثرها فقرا في طرق مواصلاتها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن مراجعنا الإسماعيلية أوضحت أن هناك أفكارا كانت تحول في أذهان كبار الدعاة والأئمة ، تتلخص في أنه إذا قامت الدولة الفاطمية في المغرب وتحركت بجيوشها نحو المشرق لفتح مصر وغزو العالم الإسلامي ، فإن اليمن تمددها بالنجدة ، وتتلاقى جيوشها مع الجيوش المغربية في تلك البلاد ، وبعبارة أخرى يقوم إسماعيلية اليمن بمساعدة الفاطميين في الوقت الذي تقوم فيه القرامطة ، فتلتقي في مصر الجيوش الفاطمية المغربية بالجيوش الإسماعيلية القرمطية واليمنية . يتضح لنا ذلك مما ذكره اليماني في كلامه عن فرار فيروز إلى ابن حوشب ، وتبريره بقاءه في اليمن ، بادعائه « أن الإمام بعث به مشرفا عليه إلى أن يقدم من المغرب بالعساكر إلى مصر ، ويكتب إليه ليستقبله بعساكر أهل اليمن » .

== وعلى أية حال لم يصب النعماني كما لم يصب جعفر الحاجب في سيرته حين يدعى أن ابن حوشب قاتل ابن فضل وانتصر عليه ، وأن ذلك كان بسبب فيروز ، لأننا سنرى ما يخالف ذلك عند كلامنا على علاقة الخليفة المهدي بابن فضل . واذن نستطيع أن نقول أن المهدي لم يشأ أن يقصد بلاد اليمن في سنة ٢٩١ هـ ، وعلى الرغم من نجاح الداعيين - ابن حوشب وابن فضل - هناك ، لم تستطع الدعوة أن تغزو تلك البلاد ، كما أنها لم تستطع أن تتغلب على المذاهب السائدة فيها . أصبأ إلى ذلك أن كلا من ابن حوشب وابن فضل كان يعمل مستقلا عن زميله في كثير من الأحيان ، وأن ابن فضل لم يشعر في ذلك الوقت بالتبعية لابن حوشب . ومن ثم كان من الصعب على المهدي أن يقصد بلادا لم تتوحد زعامتها تحت راية إسماعيلية واحدة ، تمتطيع أن تهبه الملك والسلطان كما فعل أبو عبد الله الشيعي (اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠ ، ١١٥) .

(١) اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥

هذه فكرة جريئة ، ولا بد أنها جالت بخاطر المهدي ، فرددها فيروز داعي دعائه وباب أبوابه .

٢ — في المغرب

راجت الدعوة الإسماعيلية في المغرب رواجاً عظيماً على أيدي دعاة ابن حوشب كالحلواني وأبي سفيان ، وتسمنت الدعوة هناك غاربها على يد داعيه وتابعه أبي عبد الله الشيعي . وكان نجاحه سريعاً ؛ فقد خرج إلى المغرب ، وهو يدين بالطاعة للإمام الحسين بن أحمد العلوي وحجته أحمد الحكيم بن عبد الله القداح ، ووصل إلى المغرب وهو يدين بالطاعة للإمام الحسين وحجته الجديد سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، وهو سعيد الخير . ولسنا بصدد بحث عوامل نجاحه السريع ، ولا بصدد شرح صراعه مع منافسيه من زعماء البربر وملوك الأغالبة ، وإنما يهمنا أن نبين الرابطة التي كانت بينه وبين سعيد الخير منذ توليته عرش الإمامة إلى حين توليته عرش الخلافة .

كان لفكرة المهدي أثرها في بلاد سادها الجهل ، وملاها تعسف الحكام السنيين ألماً وضجراً . وكانت الأحاديث تسكر في بلاد المغرب بقرب ظهور المهدي ، وأن الشمس ستشرق من مغربها ، أي أن دولة العلويين المنشودة ستقوم من بلاد المغرب . ولم يكن إرسال الحلواني وأبي سفيان إلا للتمهيد لهذه الفكرة ، وحرث الأرض لصاحب البذر ، الذي يبذر بدور الدولة ويمهد لإقامتها . لذلك كان أبو عبد الله يتغنى للكتاميين بقوله : «أنا صاحب البذر ، الذي ذكره لكم أبو سفيان والحلواني» . وفي الحق أن نجاح أبي عبد الله في بلاد المغرب يرجع لحدا كبير إلى حسن علاقته بالمهدي وإشاداته بفضله . ولم يكن التفاف المغاربة حوله إلا لأنه كان يخبرهم بأنه البشير للمهدي ، وأنه ملا قلوبهم بالأمل في امتلاك الأرض جميعها إذا مارفعوا السيف في وجه أعداء المهدي . وقد وضع للكتاميين من الأحاديث والتنبؤات ما أثار حماسهم ؛ فمن قوله لهم في فج الأخيار : «هذا فج الأخيار ، وما سمي إلا بكم» . ولقد جاء في الآثار ، أن للمهدي هجرة تنبؤ عن الأوطان ، ينصره فيه الأخيار ، من أهل ذلك الزمان ؛ قوم اشتق اسمهم من الكتان ؛ فأنتم كتامة ، وبخروجكم من هذا

الفج سعى فج الأختيار» . والواقع أن أبا عبد الله كان يستغل اسم المهدي في نشر دعوته ، وكان في الوقت نفسه يخاص له الإخلاص كله .

ومما لا مرأ فيه أن تأميم سعيد بن الحسين على يد إمامه الحسين بن أحمد العلوي ، لم يثر في نفس أبي عبد الله من الحنق ما أثاره بين القرامطة . فظل على ولائه لسلبية ، وأخذ يرسل رسله وهداياه إلى الإمام الحسين المستقر أولا ، ثم إلى الإمام المستودع سعيد الخير ثانيا ، مما جعل الأول يتنبأ للثاني بقرب قيام دولته في المغرب ، فيقول له : هذه دولتك قد أقبلت . ولكن لا أحب ظهورها إلا من المغرب . ويقول أيضا : إنك ستهاجر بعدى هجرة بعيدة تنبؤ بها عن الأوطان ، وتلاقى محنا شديدة ، مشيرا بذلك إلى رحلته إلى بلاد المغرب ؛ ولذلك آثر الإمام المستودع — سعيد الخير — بلاد المغرب على اليمن ، لحسن العلاقة التي كانت قائمة بينه وبين أبي عبد الله داعي بلاد المغرب ، حتى إننا نراه في سفره يصحب رسل أبي عبد الله ، فكان — كما يقول أبو حنيفة النعمان المغربي^(١) — معه بعض السكتاميين الذين كانوا ينفذون إليه . ويقول جعفر الحاجب في رحلة المهدي : إنه كان مع المهدي جماعة من السكتاميين الذين كانوا ينفذون إلينا إلى سلبية^(٢) . كل هذا يجعلنا نقول في كثير من الاطمئنان : إن اتجاه المهدي إلى بلاد المغرب كان بوحى من أبي عبد الله الشيعي . يقول المقرئ^(٣) : « وسير أبو عبد الله إلى عبيد الله بن محمد^(٤) رجالا من كتامة ليخبروه بما فتح الله له ، وأنه ينتظره ، فوافوا عبيد الله بسلبية من أرض حمص . ويقول النيسابوري^(٥) : « ومع ذلك كانت كتب أبي عبد الله تترى تطلبه حيثما نزل ، فكسب إليه أن أقدم فقد استقامت لك العساكر . »

ولإذا صح ذلك ، فما هي الدوافع التي دفعت بأبي عبد الله إلى طلب المهدي ليقم بجواره ، مع أن ذلك قد يحدث من نفوذه ؟ الواقع أن أبا عبد الله كان يعتقد أن ظهور

(١) افتتاح الدعوة الزاهرة (من المنتخب) ص ٤٢ .

(٢) الجاني (سيرة جعفر الحاجب) ص ١١٦ .

(٣) الخطوط : ج ٢ ص ١١

(٤) يقصد محمد الحبيب الذي يقال إنه هو الحسين بن أحمد العلوي .

(٥) كتاب استنار الامام ص ١٠٦ .

المهدي بين ظهري أنصاره يشهد عزائمهم . خصوصا أنه كان قد انتهى من صراعه مع المغاربة ، في السنة التي خرج فيها المهدي من سلبية وبدأ صراعه مع دولة الأغلبة . أي أنه بدأ حربه مع دولة منظمة ، لها جيشها الثابت الدائم . وهذا يحتاج إلى مؤازرة معنوية . قد يجدها في وجود المهدي بجانبه . لذلك كان يؤكد لأنصاره أن المهدي سيفاجئهم بالظهور بينهم . ويبدو أن كثيرا من أنصار أبي عبد الله قد جزعوا من سجن المهدي في سجناسه ، وخافوا على حياته ؛ إلا أن أبا عبد الله كان يؤكد لهم ولجميع أصحابه ، « الذين استجابوا لدعوته ، أن الله سبحانه يحفظ المهدي ويقه ، ويدفع عنه ، حتى يظهره ويعز نصره » . وكان من أثر ذلك أن « قويت بصائرهم ، وخلصت نباتهم » (١) .

على أن اتجاه المهدي إلى بلاد المغرب ، وتحقيق أبي عبد الله من وجوده في شمال إفريقية ، جعله يحزم بقرب ظهوره ، ويستغل ذلك في الخط من شأن أعدائه الأغلبة . فكان الدعاية إلى المهدي وهو في سجنه بسجناسه ، أثره الفعال في التغاف الناس حوله . ولهذا كان من أهم ما كان يذيعه بين الناس : « المهدي يخرج في هذه الأيام ، ويملك الأرض ، فيأطوب لمن هاجر إلى وأطاعني (٢) » . كما جعل « يغري الناس بأبي مضر زيادة الله ويعيبيه » (٣) ، ويذكر كرامات المهدي وما يفتح الله له (٤) . وهكذا كان الاتصال السري بين أبي عبد الله وإمامه في سلبية أو في طريقه إلى المغرب أو في سجنه بسجناسه ، أثره الكبير في التغاف الناس حوله ، ثم في نجاحه بعد ذلك .

وعلى الرغم من سجن المهدي بسجناسه في أقصى بلاد المغرب . كان أبو عبد الله على اتصال دائم به ، حتى إنه لما انتصر على زيادة الله في حربه الأولى معه ، بشره بذلك . يقول ابن خلدون : (٥) « وكتب الشيعي بالفتح إلى المهدي ، مع رجال من

(١) النعمان : شرح الأخبار (من المنتخب) ص ٣٣

(٢) المنصوري : زبدة الفكرة ج ٥ ورقة ١٥٥

(٣) المصدر نفسه

(٤) المقرئزي : الخطوط ج ٢ ص ١١

(٥) العبر ج ٤ ص ٣٥

كثامة أخفوا أنفسهم حتى وصلوا إليه ، وعرفوه بالخبر . ويقول المنصوري (١) :
« وعظم أمر أبي عبد الله ، واستقرت دولته ، وكتب . . . كتابا إلى المهدي وهو
في سجن سجلاسة يبشره ، وسير الكتاب مع بعض ثقاته ، فدخل السجن في زى
قصاب يبيع اللحم ، فاجتمع به وعرفه ذلك . وهذه الأمثلة تدل على ما كان هنالك
من اتصال بين رئاسة الدعوة في منفاهما وبين رجالها ، كما تدل في الوقت نفسه على
الطرق المحكمة التي كان يذهبها الدعاة في سبيل الاتصال برؤساء الدعوة .

ومع أن أبا عبد الله كان يجب أن يقيم إمامه في شمال إفريقيا ، ليتخذ من قربه
منه ، مع أنه كان مسجوناً ، وسيلة للتأثير في أنصاره ، إلا أنه كان يشفق عليه ،
ويخاف على حياته ؛ حتى إنه لما قضى على آخر جيوش الأغلبية ، وفر زيادة الله إلى
المشرق ، لم يشأ أن يتسرع في ذكر اسمه ، وإعلان خلافته ، خوفاً على حياته . لذلك
أمر « بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الحسين وفاطمة (٢) » .
وضرب السكة منقوشاً على أحد وجهيها « بلغت حجة الله » ، وعلى وجهها الآخر
« تفرق أعداء الله » . وكتب على السلاح « عدة في سبيل الله » ، ونقش على خاتمه الذي
يختتم به « فتوكل على الله إنك على الحق المبين (٣) » ، وعلى خاتمه الذي يستخدمه في
الطبع على السجلات « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » . وإذا
ركب نودى في الخيل « يا خيل الله اركبي » ، وكتب على أنفاذ الخيل « الملك لله » ، وعلى
أعلامه أى بنوده « سبهم الجمع ويولون الدبر (٤) » . كما أن الخطباء لما طلبوا منه أن
يذكر لهم اسم من يخطبون له . لم يذكر اسم أحد ، ولم يعين أحداً (٥) .

وقد يسأل بعض : هل كان أبو عبد الله يجهل اسم المهدي حتى لا ينادى باسمه ؟
أو أن المهدي أمره بذلك ، حتى لا يتسرب شيء عن شخصيته ، فيكون في ذلك نهايته ؟
أما أن أبا عبد الله لم يكن يعرف اسم المهدي ، فهذا غير معقول ، بعد أن رأيناه

(١) زبدة الفكرة ج ٥ ورقة ١٥٨

(٢) ابن خلدون : الدبر ج ٤ ص ٣٦

(٣) سورة النحل آية ٧٩

(٤) سورة القدر آية ٤٥

(٥) البهائي : سيرة جعفر الخاحب ص ١٢٣

من تبادل القواد والرسائل بينهما . حقيقة أن أبا عبد الله لم يكن قد رأى المهدي مطلقاً ، ولكن عدم رؤيته إياه ليس معناه أنه يجهل اسمه أو حقيقة ، كما لا يبعد أن يكون عبيد الله هو الذي أمره بذلك .

لم يكن أبو عبد الله يعمل على تكوين ملك لنفسه أولاً ، بل إنه أظهر منتهى الإخلاص في خدمة سادته من الأئمة ، حتى انتهى به الأمر إلى تكوين دولة لهم في سنة ٢٩٦ هـ . ولم يكن كأبي سعيد الجنابي يعمل مستقلاً أو شبه مستقل ، أو كهلى بن الفضل الذي أسكرته نشوة الانتصار والتلك ، فخرج عن مألوف جماعته ، ونادى بالثورة على الفاطميين والإسلام جميعاً . بل لم يكن أبو عبد الله كالقرامطة الذين ملأ الحقد نفوسهم حين رأوا حجة ، إمامهم يحل محل الإمام ، فانتفضوا على الإمامة الجديدة ، وحاربوها في غير هوادة ، وإنما كان أبو عبد الله يعمل - منذ وطئت قدماه بلاد المغرب - في إخلاص للفاطميين ، ويعرض نفسه وصحته للفناء في سبيل إمامه ومذهبه . كان يعمل لتشييد ملك ، وإقامة دولة ، وخلق خلافة ، لكنه لم يكن يطمع في رياستها ، فلما دنت له القلوف سلبها إلى مستحقها وهو المهدي ؛ لذلك كان حتماً عليه أن يبذل ما في طاقته لإحضار المهدي من سجلماسة سليماً معافى . وإن أشد أيام أبي عبد الله وأحلكها كانت تلك الأيام التي قضاها بعد أن أزال دولة الأغلبة ، وأسس دولة إسماعيلية قوية في رجب سنة ٢٩٦ هـ ، كان هو نائب رئيسها . وكان يعنيه أن يرى المهدي فوق عرشه ، وإلا انتفض عليه جميع من حملوا السيف معه . ومن ثم أخذ يعمل على تنظيم هذا الملك الجديد ، واستمر ينظمه وعينه تروى إلى ذلك الرجل الذي كان محبوباً بسجلماسة لثلاثة أشهر (١) .

خرج أبو عبد الله بجيش ضخم من إفريقية (تونس) قاصداً بلاد المغرب الأقصى إلى سجلماسة ، فخافته جميع القبائل المغربية . وهو في طريقه إلى تلك المدينة ، فسلبت قيادتها إليه . وكان أبو عبد الله يستطیع أن يسحق بجيشه الكبير ملك بني مدرار ، ويستولى في زمن قصير على حاضرتهم سجلماسة ؛ ولكنه رأى ألا يلجأ إلى السيف إلا إذا أعجزته الحيلة ، فأرسل إلى الياسع بن مدرار يستلينه ويطمئنه ،

(١) الخفاف : سيرة جعفر الخاضع (من المنتخب) ص ١٢٣ . دخل أبو عبد الله وقادة في

رجب سنة ٢٩٦ هـ ، وخرج منها إلى سجلماسة في شوال من السنة نفسها .

ويقسم له أغلظ الأيمان أنه لم يأت لحربه ، وإنما فعل ذلك ليحفظ على المهدي حياته . يقول أبو حنيفة النعمان (١) : « وأرسل أبو عبد الله رسلا من الخدم إلى اليسع بن مدرار ، وكتب إليه كتابا يؤمنه من جانبه ، ويتلطف له فيه ، ويذكر أنه إنما قدم لحاجة ، ولم يقدم للحرب ، ووعده الجليل من نفسه ، والبر والإكرام ، وأكد ذلك له وبالغ فيه . فلما وصلت الرسل بكتابه إليه رمى به بعد أن علم ما فيه ، وأمر بقتلهم فقتلوا ، كما أن أبا عبد الله لم يذكر لليسع أية إشارة عن اسم المهدي ، حتى لا يثير حفيظته وحنقه عليه ، وإنما لجأ إلى الملاينة والتورية ، فكتب من جديد لليسع بخبر المهدي ، « وأنه إليه جاء ، ويسأله ترك التعرض له ، ويعده بالجميل » (٢) . بل لقد أرسل الداعي إلى اليسع ثلاث مرات ، وتناسى جفاه وقتله رسله . كل ذلك ليحكم الحصار حول سجلماسة ، ولا يثير كراهية صاحبها اليسع .

وقد لجأ أبو عبد الله إلى السيف حين أعجزته الحيل وأخفقت السياسة . ومن حسن الحظ أن المهدي لم يكن هو الشخص الوحيد الذي يدعو له أبو عبد الله بسجلماسة ، حتى إن اليسع أمسك عن الفتك به . وعلى أية حال ، فقد أحاط أبو عبد الله بسجلماسة ، وحاربه اليسع ساعة ، ثم حال الليل دون احتلال الجيش الإسماعيلي هذه المدينة ، « وبات أبو عبد الله ومن معه تلك الليلة في غم عظيم ، لا يعلمون ما صنع بالمهدي (٣) » ، على حين كان اليسع ومن معه من أقاربه قد أفلتوا بحشاشاتهم .

على أن جعفر الحاجب ، الذي شاهد كل هذه الحوادث في سجلماسة ، يقول إن اليسع أخرج المهدي ، وتمكن من الإفلات ، في الوقت الذي كان فيه أبو عبد الله وأنصاره مشغولين باستقبال المهدي . ثم أحضر القائم ، وكان مسجوناً في منزل غير منزل المهدي ، كما أحضرت حاشية المهدي ، الذين شاركوه في بأسائه وضرائه ، ومنهم جعفر الحاجب ؛ وتبعوا اليسع ، وقبضوا عليه وقتل .

وهكذا سر الناس سرورا عظيما ، حتى كادت تطيش عقولهم ، وحف المؤمنون بالمهدي والقائم ، والدعاة يمشون حولها ، وأبو عبد الله يمشي بين يدي المهدي ويقول :

(١) افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٤

(٢) شرح الأخبار ص ٣٣

(٣) النعمان : افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٥

« هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون ، ويحمد الله ويشكره ، ويبكى من شدة الفرح ، (١) . وهكذا تكملت أعمال أبي عبد الله الشيعي بالنصر والظفر ، وأقام دولة الفاطميين المنشودة ، وانتهى في اليوم نفسه ذلك الدور المعروف بدور الستر ، أو بدور الأئمة المستورين ، ودخل تاريخ الإسماعيلية في طور جديد هو دور الظهور ، أي ظهور الأئمة الإسماعيلية ، الذين بدءوا يحجرون باسم الخلفاء الأئمة . ووصل المهدي - كما سنرى - إلى إفريقيا في أوائل سنة ٣٩٧ هـ ، ولم يبق أحد من العرب والعجم من وجوه الناس وغيرهم إلا استقبلوا المهدي عم ، يوم دخوله إفريقيا (٢) . »

٣ - في فارس

اتخذت الدعوة الإسماعيلية طريقها إلى فارس منذ هرب محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، ومعه حجة ميمون القداح ، من الحجاز إلى شرق المماليكة الإسلامية . وكان للجهود الجبارة التي بذلها عبد الله بن ميمون القداح حجة الإمامين المستقرين : عبد الله الرضا وابنه أحمد ، أثر كبير في تلك البلاد . واشتهر من دعواته هناك داع يسمى « خلفاء » ، استطاع أن يكون في بلاد الري جماعة من الإسماعيلية سميت « الخلفية » نسبة إليه . وكان يشرف عليها بنفسه تارة ، ويشرف عليها ابنه أحمد بن خلف تارة أخرى . وبفضل هذه الجهود الأولى انتشرت الدعوة الإسماعيلية في الري وطبرستان وأذربيجان ، وانضم إليها بعض الوجوه الممتازين في العلم والأدب خاصة . فمن هؤلاء الداعي غياث ، الذي استعان بأدبه ، وألف كتابا أسماه « البيان » ، نحا فيه منحى الإسماعيلية جميعا في التأويل ، فأوّل - كالإسماعيلية - معاني الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها من التكليفات الشرعية ، كما كانت له مواقف حاسمة في مناظرة العلماء السنيين . وقد تمكن الداعي غياث بفضل بيانه من الوصول إلى قلوب سامعيه ، فانتحل كثير مذهبهم ، وأقبلوا على دعوته جماعات . وكان يطلق على أشياعه اسم « الخلفية » أحيانا ، و « الغياثية » أحيانا أخرى (٣) .

(١) النعمان : افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٥

(٢) البيان : سيرة جعفر الحاجب ص ١٣١

(٣) نظام الملك : سياسة نامه ج ٢ ص ٧٢

ذاع صيت الداعي غياث في الوقت الذي أسندت فيه رياسة الدعوة وإمامتها إلى سعيد الخير ، وهو عبید الله . وبينما كان صاحب الشامة (الحسين بن زكويه) يفتك بأفراد بيت المهدي في سلبية ، كان الداعي غياث يدعو له في المشرق ويحاول أن يجذب إلى إمامه كبار الأمراء والحكام ، فاستقر بمرور الزمن بخراسان ، وتمكن من جذب الأمير الحسين بن علي المروزي إلى المذهب الإسماعيلي ، وكان لهذا الأمير نفوذ لا يحد في خراسان ، وخصوصا في بلاد الطالقان وهرات والغور . وكانت الدعوة الإسماعيلية بفارس تمتاز بأمور ثلاثة :

الأول : ميل الفرس إلى الدعوة الإسماعيلية لما كان بينهم وبين العلويين الحسينيين من علاقة طيبة ، لما بينهم من صلة النسب من جهة ، ولرغبة كثير من الفرس في الانتقام من الأمويين والعباسيين من بعدهم من جهة أخرى ، ثم لأنه يسهل على كثير منهم أن يحققوا مآربهم الشعوبية عن طريق التقرب من أهل بيت علي ، بعد أن عجزوا عن طريق العباسيين .

الثاني : أن القائمين بالدعوة الإسماعيلية في تلك البلاد كانوا من العلماء ، فلم يكن كبير الدعاة هنالك يبيع نشر الدعوة إلا لمن كان ضليعا في العلم والمعرفة ، وذلك بسبب انتشار الثقافة بين الفرس . ومن ثم اتخذ الداعي غياث من الفيلسوف أبي حاتم معروف النيسابوري نائبا عنه في نشر الدعوة الإسماعيلية . وكان أبو حاتم هذا من العلماء الفلاسفة ، كما كان شاعرا ، عالما بتاريخ العرب وفلسفة اليونان . ولذلك كان تأثيره في العامة عظيما كتأثير أستاذه غياث .

الثالث : رواج نظرية المهدي في تلك البلاد . ولاغرو ، فقد شغلت هذه النظرية أذهان الفرس ، وآمنوا بها إيمانا جعلهم ينضوون تحت لواء الإسماعيلية بسهولة تامة ، ليحققوا من ورائها آمالا كبارا كانت تجيش في صدورهم . غير أن الدعاة هناك كانوا يسرفون في الإيمان بها ، حتى كانوا يحددون موعد ظهور المهدي . ولا بدع . فقد كانت الإمامة تنو ببعصرها إلى الناحية الغربية من المملكة الإسلامية ، لا إلى الناحية الشرقية . وقد أخطأ الداعي معروف ، كما أخطأ زعيمه غياث ، في تحديد كل منهما موعدا لظهور المهدي ؛ فلما لم تتحقق نبوءتهما انفض كثير من حولهما ، واشتد السنيون عليهما ، واتخذوا من ذلك ذريعة للنكاية بالإسماعيلية في الرى

وخراسان ، واتهموا غياثا وتلميذه بالكذب ، بل لقد انضم إلى السنين في هذا جماعة من الشيعة الذين كانوا يخلصون لعل وأبنائه جميعا . فكان من أثر ذلك أن «فرغياث»^(١) . ولابد أن يكون ذلك قد حدث قبل سنة ٢٩٦ هـ ، أى قبل ظهور المهدي . غير أنه من حسن حظ الداعي أبي حاتم معروف النيسابوري ، أن مات آخر سلالة الداعي الأول خاف ، وترك هذا أمور الخلفية إلى أبي حاتم ، فذاع صيته في عالم الدعوة ، وعمر طويلا ، حتى إنه عاصر المهدي حين كان حجة وإماما مستورا ، كما عاصره حين أصبح خليفة .

وبما هو جدير بالملاحظة أن هؤلاء العلماء الدعاة كانوا يناصرون نظرية المهدي . قبل قيام الدولة الفاطمية ، وينادون بقرب ظهور المهدي الذي سيملا الأرض عدلا . كما ملئت جورا وظلما ، لجذب الناس إلى الالتفاف حول منقذهم المنتظر وحول دعائه . فلما قامت الدولة الفاطمية ، وظهر المهدي ، باسم الخليفة الفاطمي ، عمل هؤلاء العلماء على إحاطة الأئمة الخلفاء بهالة من التقديس ، حتى لقد وصلوا بهم إلى درجة العبادة . وعلى أية حال كان لهذه النهضة المذهبية في فارس في عهد عبيد الله أثر بعيد ، حتى لقد أصبحت هذه البلاد بعد قرنين مستودعا هاما لجماعة النزارية ، أتباع نزار بن المستنصر ، الذين أنشأهم الحسن الصباح ، ومن سلالتهم أغا خان اليوم .

٣ — رحلة عبيد الله إلى بلاد المغرب

لم تعد سلمية منذ أن ولي الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) مكانا صالحا لإيواء الأئمة المستورين ، كما لم يعد الإمام الإسماعيلي المستودع المستور ، يتمتع بما كان يتمتع به أئمة الاستقرار قبله ؛ فثار القرامطة في وجهه . هذا بالإضافة إلى أن رواج الدعوة الإسماعيلية راجا كبيرا في كل من اليمن وبلاد المغرب ، قد آذن بقرب زوال عهد سيادة سلمية ، إذ كان لابد للإمام المستور من أن يظهر ، ولدور السر من أن ينتهي ، وللمذهب الإسماعيلي من أن ينهض على أئمة خلفاء . لكل

(١) طه شرف . تاريخ الإسماعيلية العباسية ١ - ورقة ١٦٠

هذه الأمور بدأت رحلة المهدي — سعيد الخير — في سنة ٢٨٧ هـ . وانتهت بإخراجه من سجن سجناسية ، وتربعه على عرش الخلافة الإسماعيلية في أوائل سنة ٢٩٧ هـ .

ويمكننا تقسيم رحلة عبيد الله من سلمية إلى رقادة إلى مراحل أربع :

(١) من سلمية إلى الرملة :

وفي هذه المرحلة تتناول أسباب هجرة المهدي من سلمية . وقد أشرنا إلى تلك الأسباب عند كلامنا على علاقة المهدي بالقرامطة في دور الإمامة ، وخصوصا قرامطة الشمال وقرامطة السواد ، وعند كلامنا على أبي عبد الله الشيعي ، وموقف المهدي منه . والحق أن ثورة القرامطة على سعيد بن الحسين ، وإغراء أبي عبد الله إياه بالذهاب إلى بلاد المغرب — كان ذلك كله من أسباب هجرته . أضف إلى ذلك تنبه الدولة العباسية إلى خطورة مركز سلمية في القرن الثالث الهجري ؛ فقد أدرك كل من المعتضد (٢٧٩—٢٨٩ هـ) والمستكفي (٢٨٩—٢٩٥ هـ) أن الدعوة لإمام إسماعيلي مستورة قد بلغت ذروتها : فهاهي ذي بلاد السواد تروج بأتباعه على الرغم من أنها كانت تقع تحت سمعه وبصره ، وهاهو ذا ابن حوشب وزميله ابن فضل يستوليان على أحسن بقاع الين ويبشران بقرب ظهور المهدي من واد إسماعيل ، وها هو ذا أبو عبد الله الشيعي ينشر الدعوة لذلك الإمام الإسماعيلي المستور ، ثم يأخذ بتلايب دولة الأغلبة المتداعية . وليس هذا وحده ، بل لقد أدرك العباسيون أن حركة كهذه قد اختمرت في فارس وخصوصا في الري وطبرستان وخراسان ، أدركوا هذا كله ، كما أدركوا أن نشاط الإسماعيليين يزداد في سلمية في حزم وتؤدة . فلم يكن بد إذن من أن يعمل العباسيون على القضاء على هذه الحركة قبل أن يستفحل خطرها . وبما ساعد العباسيين أن أحد ولاية سلمية من قبلهم قد ثارت شكوكه حول ذي مقام كبير في هذه المدينة ، واعتقد أنه هو الذي تروج الدعوة باسمه في كافة أنحاء العالم الإسلامي . وكان ذلك الوالي صادق الفراسة ، لأن هذا الكبير لم يكن سوى المهدي نفسه الذي تزعم مركزه بعد انتفاض حمدان عليه ، ومحاولة أبناء زكرويه الفتك به . لذلك أدرك الإمام الإسماعيلي استحالة بقاءه في سلمية ، وعزم على الهرب .

منها . وسرعان ما عمل دعاة المهدي ببغداد على عزل والي سلبية^(١) ، ولفتوا نظره إلى الخطر المزدوج من العباسيين ومن أبناء زكرويه ، وبعثوا إليه بهذه الأخبار ، وعلى أجنحة الطيور ... فسبقت كتب الدعوة إلى سلبية قبل التركي^(٢) ، أي والي . وكان بقصور المهدي عدد كبير من الأهل والأقارب والأتباع ، فلم يستطع أن يصحبهم في فراره ، واختار جماعة ممن برعوا في فنون الحيلة والتخفي ، وترك داعي دعائه أبا الحسين لتنظيم شؤون الدعوة في سلبية ، وأخذ معه ولي العهد ، أبا القاسم الإمام المستقر ، وفيروز باب أبوابه ، وجعفر الحاجب ، الذي كتب سيرته محمد اليماني ، وأبا العباس محمد بن أحمد بن زكريا أخا أبي عبد الله الشيعي . واثني آخرين . أما نساء قصر المهدي ، فلم يأخذ منهن سوى أمه وابنتيه وابنتي أخيه ، وقهرمانته . وترك قصوره تموج بأهله^(٣) . وقد قيل إنه لم يأخذ سوى أبي القاسم واثني آخرين ، أحدهما جعفر الحاجب^(٤) .

وكان خروج عبيد الله المهدي من سلبية وقت العصر ، كما كانت وجهته مدينة حمص . وقد استعان ببعض أتباعه من زعماء العرب ، فرافقوه ليلا حتى حط رحاله بحمص في اليوم التالي ، ومنها قصد طرابلس الشام . ويرى النيسابوري^(٥) أنه قصد الرملة بعد أن بقى في طرابلس يوما واحدا دون أن يمر بدمشق . ويبدو أن جعفرا الحاجب أصدق من النيسابوري ، لأنه كان في حاشية المهدي ، فيذكر أنهم حطوا رحالهم بدمشق ، ثم قصدوا طبرية ، إلا أنهم اضطروا إلى مغادرتها فورا ، ويمموا شطر الرملة ، واستقروا بها من رجب سنة ٢٨٩ هـ إلى منتصف سنة ٢٩١ هـ .

(١) كان والي سلبية هذا تركيا ، هاله وجرد رجل هاشمي في سلبية ، وقد سمع بأذنيه تهاوس الناس عليه ، وتحقق منهم ، أن هذا فعلة في كل من يلى البلد (سلبية) حتى يردم له خولا وعبيدا ، لأنه يرى له بأس عظيم . ويقال إنه يملك المشرق والمغرب ، وله في كل بلد داي ، وأمواله أكثر من أموال الخليفة ، (سيرة جعفر الحاجب ص ١٠٩) . ولما بدا جشع هذا والي ، أمر المهدي دعائه في بغداد بالعمل على عزله من سلبية ، فلما عزل أسر بتشككه هذا للحليفة المتعبد .

(٢) اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠

(٣) المصدر نفسه ص ١١٠ ، ١١١

(٤) النيسابوري : استنار الامام ص ٩٧

(٥) المصدر نفسه

كانت رحلة المهدي سرية ؛ فإنه لم يستقر هو وأصحابه في بلدا أكثر من يوم واحد ، وربما كانوا لا يمكثون ساعة واحدة ، كما كانت الحال في طبرية . وكانت هذه الرحلة منظمة تنظيما دقيقا ؛ فبينما يصحب رجل النساء بعض خواص المهدي ، إذا بجماعة آخرين يشرفون على الأمتعة ، ويسير غيرهم في ركابه دون أن يظهروا اتصالهم به (١) . ومن أهم ما يسترعى النظر حقا في هذه الرحلة نظام الجوسوسية الإسماعيلية الدقيق ؛ فقد كان المهدي يعرف في دقة تامة ، الخطر الذي يتعرض له عن طريق حمام الزاجل ، فيعرف أخبار العباسيين وأخبار أتباعه في سلبية ، يعرف هذا كله بفضل دعائه المقيمين (٢) . من ذلك أنه عرف بعد مغادرته دمشق أن رسول الخليفة العباسي سيصل إليها بعد حين ، ووجد الداعي المقيم في طبرية ينتظره على الطريق ليقول له : « يامولانا ! إن كتاب الداعي المقيم بدمشق وصل إليه على جناح طائر ، يعرفه فيه أن الرسول ورد من بغداد إلى عامل دمشق في طلبنا اليوم الذي خرجنا فيه ، ويسألنا ألا ننزل بطبرية لكيلا يدركنا » (٣) .

وهذا نوع دقيق من أنواع الاتصال بين رئاسة الدعوة وبين الأنصار ، مما يجعلنا نعتقد أن رئاسة الدعوة ، سواء في سلبية أو في أثناء رحلة المهدي ، كانت تتصل بالأتباع بشبكة مبرومة الحلقات متصلة الأطراف ، من البريد الجوي عن طريق حمام الزاجل ، الذي برع في استخدامه دعاة الإسماعيلية المقيمون ، كما نعتقد أن جماعة الإسماعيلية كانت في ذلك الحين منظمة تمام التنظيم ، حتى أصبحت مثلا أعلى للجاسوسية المنظمة في العصور الوسطى . ولسنا نغلو إذا قلنا إن الجمعيات السرية اليوم وهيئات الجاسوسية في كافة أنحاء العالم ، تلاميذ لتلك الجاسوسية الإسماعيلية .

ويخيل إلينا أن خطوات هذه الرحلة كانت قد درست دراسة وافية ؛ فلم نجد

(١) الهامى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١١

(٢) الداعي المقيم هو الذى يتعين عليه البقاء في بلدا ، وإليه يرجع الفضل في تنظيم الاتصال بينه وبين رئاسة الدعوة ، بل بينه وبين غيره من الدعاة المقيمين في المدن الأخرى ، وأخذ العهد على المدعويين . أما الداعي السيار فهو المتنقل .

(٣) الهامى : سيرة جعفر الحاجب ص ١٢٢

ثمة صعوبة اعترضت المهدي في طريقه إلى المغرب إلا تغلب عليها . بفضل هذه الخطوة المحكمة . وها هي ذى الدولة العباسية قد عرفت أنه كان يقيم بسلبية وأنه فر منها ميمما شطر الجنوب ، فتتبعته في دمشق وطبرية والرملة . ومع ذلك لم تستطع أن تنال منه غرضا ؛ كل ذلك كان راجعا إلى هذه الجاسوسية المنظمة ، وإلى إخلاص دعاة له . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كان المهدي وغيره من أئمة الإسماعيلية . وحججهم ودعائهم يعملون على جذب بعض الحكام إليهم . فبينما نرى بعض الحكام الذين دخلوا في خدمة العباسيين ، يتظاهرون بأنهم يدينون بالعقائد السنية ، إذا بهم يدينون في الباطن بعقائد المذهب الإسماعيلي ، وينتصرون لقضية الإسماعيلية ، ويشايعون المهدي المنتظر ، ويعملون على نجاح دعوته . وكان عامل مدينة الرملة من قبل الطولونيين من أحسن الأمثلة التي تؤيد هذا الرأي ؛ فقد كان إسماعيليا يتستر على المهدي وعلى حاشيته . وفيه يقول جعفر ، وهو من الذين صحبهم المهدي في رحلته كما تقدم : « كان مأخوذا عليه ، فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدي . ع م كيف يخدمه ، ورفع المهدي فوق رأسه ، وقبل يديه ورجليه (١) » . ولذلك لما وردت إليه رسالة والي دمشق وفيها وصف دقيق للمهدي ، كتب هذا الوالى إليه يقول : « بأنه ما رأى هذا الرجل ، ولا هذه الصفة ، ولا علم بجوازه ، إن كان قد جاز . وإن لم يكن قد جاز ، فنحن نترصده على كل طريق إن شاء الله (٢) » . وكان من أثر ما أظهره هذا العامل من إخلاص ومحبة أن جدد المهدي بيعته .

وبما يسترعى النظر في هذه المرحلة الأولى من رحلة المهدي ، اهتمام الإسماعيلية - أئمتهم وعامتهم - بعلم النجوم ، الذي كان له أثر بعيد في نفوس كثير من الخلفاء الفاطميين . فقد أكد المهدي إسماعيلية غير مرة أنه سيكون صاحب دولة ، معتمدا في ذلك على بعض الظواهر الفلكية ؛ ومع أن هذه أمور قد يلجأ إليها بعض الزعماء لتشجيع الآشباع وإثارة حماسهم ، فإنها كانت تقابل من المهدي ومن أتباعه على أنها حقائق ثابتة . ولا غرو ، فقد بشر المهدي تابعه ، عامل الرملة ، بأنه سيقضى على العباسيين ، واستغل بعض الظواهر الفلكية ، فقال : إنها أمارات على قيام دولته . ويذكر جعفر

(١) التمازي : - سورة جعفر الحاجب ص ١١٢

(٢) المصدر نفسه ص ١١٢

الحاجب أن عامل الرملة تألم أشد الألم ، حين قرأ رسالة العباسيين بالقبض على المهدي ، وبكى : « فقال له المهدي : طب نفسا وقر عينا ، فولدى نفسى بيده ، لا وصلوا إلى أبدا ، ولنملكن أنا وولدى (أى النائم الإمام المستقر ، والابن التعليمي للمهدي) نواصى بنى العباس ، ولتدوسنّ خيولى بطونهم . فلا تخش على شيتنا مما ترى ... وسقطت فى تلك الليلة نجوم ؛ ففرج المهدي والقائم والعامل والجماعة إلى سطح دار العامل ينظرون وقد انقلبت المدينة بصراخ الناس ، والابتهاال إلى الله عز وجل . . . فرأيت المهدي ع م قد شد يده على يد العامل وقال : هذه النجوم إحدى دلائلى . ومن بعض علاماتى (١) . »

(ب) منه الرملة إلى القسطنطينية

خرج عبيد الله من الرملة (٢) بعد انتصار محمد بن سليمان الكاتب على الحسين بن

(١) النجاشي : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٤

(٢) الواقع أننا نرى أنفسنا أمام نصوص قيمة متعارضة ؛ فان جعفر الحاجب ، وقد شاهد بعينه تلك الحوادث ، يؤكد أن قاهلة الحب لم تمكك بالرملة سوى يوم وليلة من سنة ٢٨٩ هـ ، على حين يؤكد النيسابورى الاسماعيلي أن المهدي استمر سقتين (من رجب سنة ٢٨٩ إلى منتصف سنة ٢٩١ هـ) وأنه لم يغادر الرملة بقلسطين إلا بعد لحاق الهزيمة بابي مهزول الحسين بن ذكرويه في أوائل ص ٢٩١ هـ . إذن كيف يوفق بين ما ذكره جعفر الحاجب من أنهم خرجوا من الرملة في رجب سنة ٢٨٩ هـ ، وما ذكره النيسابورى من أن خروجهم من الرملة كان بعد نحو عشرين ؟ والذي يدون لنا أن جعفر الحاجب لم يشأ أن يذكر بقاء مولاه فى الرملة هذه المدة الطويلة ، حتى لا يعيط اللانام من اتصاله بالقرامطة ، لأن الاتصال بالقرامطة ، والتقرب إليهم - ولو ظاهريا - كان من الأمور غير المرغوب فيها عند الأتقياء خاصة . أما النيسابورى فقد ذكر ما ذكره على حقيقته ، وبرأ فى الوقت نفسه مولاه المهدي من الاتصال بالقرامطة .

وقد نسأل بعد ذلك : هل كان محمد بن سليمان أو عيسى النوشرى - اللذان تقابل منهما المهدي فى مصر - على حكم مصر سنة ٢٨٩ هـ كلا ؟ بل كان الطولونيون لا يزالون يحكمون مصر فى ذلك الوقت ، ولم يتول محمد بن سليمان أو عيسى النوشرى تلك البلاد إلا بعد أن قضى محمد بن سليمان على القرامطة أولا ثم على الطولونيين فى مصر ثانيا . وكان قضاءه على الطولونيين وتحريره مدينة القطائع فى سنة ٢٩٢ هـ . وإذا كان ما ذكره النيسابورى فى كتابه استنار الامام (ص ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠) ، صحيحا ، وما ذكره جعفر الحاجب (سيرة جعفر ص ١١٢ ، ١١٣) على العكس من ذلك .

زكرويه القرمطى ، المعروف عند الإسماعيلية بأبى موزول ، وبعد أن تحقق المهدي من أن القرامطة أفنوا أسرته وأدله في سلبية ، وأن بقاءه في الشام قد أصبح أمرا محفوفا بالمخاطر . وليس من شك في أن المهدي كان وهو بالرملة ، على اتصال دائم بدعائه في الأقاليم المختلفة ، وخصوصا بتلك الأقاليم التي مر بها . وليس من شك أيضا في أن وجهة المهدي لم تكن معروفة لاتباعه على وجه التحقيق ؛ فقد كانوا جميعا يعتقدون أنهم سيلقون عصا تسيارهم في بلاد اليمن ، عند داعيهم المخلص ابن حوشب ، ومن ثم خرج المهدي في رحلة من الرملة ميمما شطرا مصر في منتصف سنة ٢٩١ هـ . وتمتاز تلك المرحلة من رحلة المهدي بأمور منها :

أن المهدي وجد له في مصر أشياء كثيرة ؛ فها هو داعيه المقيم ، أبو علي ، صهر باب أوابه فيروز يستقبله بها ، ويختار له من ينزل عنده من الأشياء ذوى المكاة . وقد وقع اختيار الداعي على ابن عياش ، لما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند ولاية مصر ، وما كان من إخلاصه للمذهب الإسماعيلي وأنصاره . وقد استطاع ابن عياش أن يموه على والى مصر وقتئذ (وهو محمد بن سليمان الكاتب ، أو عيسى النوشري) ، ويحول دون القبض على المهدي . وليس من شك في أن المهدي كان على اتصال وثيق بداعيه أبى على الذى وضع له برنامج الإقامة في تلك البلاد ، والذي كان موضع ثقته . ولا غرو فإن أكثر دعاة المهدي من قبله . ومن ثم تقدم إليه المهدي ع م قبل دخوله مصر بأن لا ينزله عنده ، ولا عند من يشار إليه بشيء من أمرنا ، وأن ينزله عند من يثق به ، فأنزله عند ابن عياش (١) .

كما كان أنصار المهدي بمصر يساعدونه على التستر بشقى الطرق ؛ ولذلك أقام مستترا في زى التجار ، فأتت الكتب من بغداد إلى صاحب مصر بصفته ، والأمر بطلبه والقبض عليه ، وإلى العامل بها . وكان بعض أهل خاصة ذلك العامل وليا مؤمنا (أى إسماعيليا أو على الأقل يعطف على الإسماعيلية ، ونظنه ابن عياش) : فأسرع إلى المهدي ع م بالخبر ، وأمره بالتستر ، ولطف في أمره إلى أن خرج من مصر (٢) .

(١) البنى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٣

(٢) النعمان : افتتاح الدعة الزاهرة ص ٤١ (من المنتخب)

وقد بذلت الخلافة العباسية في هذه المرحلة جهودا كبيرة للقبض على المهدي ، ولكنها لم تستطع ، لما اتخذته من كافة وسائل الحيلة والحذر ، وما قدمه له أنصاره من معونة . وهكذا فانه لما جاءت أوامر بغداد إلى والي مصر بالقبض على المهدي ، وأرسلت أوصافه اليه ، تمكن أنصاره من إيهام الوالي أن عبيد الله لم يعد أن يكون رجلا هاشميا يحترف التجارة ، وأن الشخص المقصود قد فر إلى اليمن . ولم يكن الوالي وفيًا للعباسيين ، فنظر إلى الأمر من ناحيته الشككية وحدها . وأمر بالقبض على بعض غلبان المهدي وقرره ، وضربهم ضربا خفيفا . وإنما فعل ذلك ، خوفا من أصحاب الأخبار . وقد خصص العباسيون عشرة آلاف دينار لمن يدل على المهدي ، مما جعل مركزه في مصر محفوقا بالآخطار .

يؤيد ذلك القول هاتان الحكايتان اللتان ذكرهما أحد أحفاد أبي علي الداعي المقيم بمصر ، وقد نقلهما المقرئ في كتابه المقفى الكبير عن المسبحي قال : « وأخبرني ... ابن محمد بن أبي علي الداعي ، أن الإمام المهدي صلى يوما الصبح في الجامع العتيق بمصر تحت اللوح الأخضر ، ومعه أبو علي الداعي . فلما خرجا من الباب ضرب رجل بيده على كم الإمام وقال له : قد حصلت لي عشرة آلاف دينار ، فقال له : وكيف ذلك ؟ : قال : لأنك الرجل المطلوب ، فضحك المهدي ، ثم ضرب بيده إلى الرجل الذي ضرب بيده إلى كفه ، ودخل معه إلى صدر الجامع وقال له : عليك عهد الله وغليظ ميثاقه أنتي إذا جمعت بينك وبين الرجل الذي تطلبه ، كان لي عليك ولصديقي هذا خمسة آلاف دينار . ثم أخذ بيده ، وأتى به إلى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخله من جانبها وفارقه ، فخرج من الجانب الآخر ، ولم يلتقيا إلى هذه الساعة » (١) .

هذا ، ويقص علينا المسبحي حكاية أخرى نقلها عن هذا الداعي (٢) نفسه ننقلها للقارئ أيضا قال : « وكنت يوما قائما على الجسر بمصر مع الإمام المهدي ، إلى أن سمعت الجرس والنداء عليه : ألا برئت الذمة من رجل أوى رجلا صفته كذا وكذا ، ونعته كذا — ووصف صفة المهدي — ومن أتى به فله عشرة آلاف .

(١) حسن إبراهيم : الفاطميون في مصر (نقلا عن المقرئ : المقفى الكبير ورقة ٢١٨)

(٢) يقصد أبا علي ، داعي المهدي المقيم بمصر .

ديتار حللا طيبا ، فقال المهدي : يا أبا علي ! المقام بعد هذا عجز ؛ ثم ركب الجسر وسرت معه ، وسأله أن أرحل معه إلى بلاد المغرب ، فقال : علي من أدع ، من لي ههنا ؟ فبكيت ، فأشدني شعر امرئ القيس :

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأبقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك إنما محاول ملكا أو نموت فتُعدرا ،

وقد رأينا أن المهدي فكر — وهو بمصر — في قصد بلاد المغرب ، وذكرنا ذلك في شيء من الإسهاب . ويهمننا هنا أن نقول إن المهدي فقد رجلا من خيرة أعوانه ، خرج من معسكره لينضم إلى صفوف أعدائه ، فألمه ذلك أشد الألم ، وعز عليه أن يكون النفاق نهاية داعي دعائه وباب أبوابه فيروز . وقد عبر المهدي عن ألمه لداعيه المقيم بمصر وهو أبو علي ، حين طلب هذا منه أن يصحبه إلى بلاد المغرب فقال له : « إني لأعجب من رجلين مؤمنين : أحدهما تغمه فرقتنا ، والآخر تغمه صحبتنا (١) » . وقد قرر المهدي الرحيل من مصر بعد أن بث العباسيون العيون

(١) وهناك مسألة يجب حلها ، وهي : في عهد من ؟ من ولاية مصر كانت هذه الحوادث ؟ يخطئ كثير من العلماء بين كل من الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) والمكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) ، ويرون أن هذه الحوادث كانت في عهد المعتضد . والصواب أنها كانت في عهد المكتفي ، الذي قضى على قرامطة الشمال في بلاد الشام . والذي لا شك فيه أن مرور المهدي بمصر لم يكن في عهد الطولونيين ، بل كان في الفترة التي تلت سقوط دولتهم مباشرة ، وذلك على يد محمد بن سليمان . ونحن نعلم أن هارون بن تمارويه قتل في صفر سنة ٢٩٢ هـ ، وأن محمد بن سليمان بقي في مصر منذ ذلك الوقت حتى اليوم السابع من شهر جمادى الآخرة من السنة نفسها ، بعد أن أقام فيها أربعة أشهر تقريبا ، وأن الذي خلفه في ولاية مصر هو عيسى النوشري . إلا أن هذا الوالي لم يبق في الحكم أكثر من ثلاثة أشهر ، حيث اغتصب به الأمر ابن الخليلج — أحد قواد الطولونيين — الذي ول مصر ثمانية أشهر ، استرد عيسى النوشري نفذه بعدها .

وتختلف المراجع السنية في شخص الوالي الذي قابله المهدي في مصر : فيري المقرئ (يخطئ ج ١ ص ٢٢٧) أن محمد بن سليمان ألقى القبض على المهدي ، ولكنه أطلق سراحه بعد إرضائه بالمال . ويرى ابن الأثير (ج ٨ ص ١٣) أن عيسى النوشري هو الذي ألقى القبض على المهدي . وتكاد تنحصر أقوال المؤرخين في محمد بن سليمان وعيسى النوشري ، مما يجعلنا نجزم بأن المهدي لم يمر بمصر في عهد ابن الخليلج ، وبالأول في عهد ولاية عيسى النوشري الثانية (من سنة ٢٩٣ إلى سنة ٢٩٧ هـ) ، وخصوصا أننا رأينا المهدي يخرج من الرملة في منتصف سنة ٢٩١ هـ ، وأن محمد بن سليمان يشهد مهرجان

عليه ، حتى كادت تصيبه سهامهم ، وبعد أن قبض على بعض أتباعه وضربوا بالسياط ، وبعد أن أيقن المهدي بما أصابه أبو عبيد الله الشيعي من نجاح في بلاد المغرب (١) .

(ح) من الفسطاط إلى طرابلس

أخذت رسل أبي عبد الله الشيعي تفد على عبيد الله منذ خرج من سلمية . وقد تأكد أبو عبد الله من زوال دولة الأغالة ، بعد أن مات عاهلهم إبراهيم بن الأغلب . في سنة ٢٨٩ هـ ، وتولى بعده ابنه أبو العباس الذي اضطربت أمور الأغالة في عهده ، وتأكد المهدي أن دولته قائمة ؛ فخرج من مصر وقصد بلاد كتامة ، بمكان يسمى الطاحونة في طريقه إلى طرابلس .

وقد عانى المهدي وصحبه في هذه المرحلة صعبا با جمّة ، بدأت بهجوم عيسى النوشري عليه قبل أن يغادر حدود مصر . وذلك أن العباسيين لم يكتفوا بما قام به محمد بن سليمان للقبض على المهدي ، بل اتهموه بالرشوة ، ونهب مال مصر ، وولوا عيسى النوشري مصر . ولما كان كثير من حاشية هذا الوالي يدينون بعقائد المذهب الإسماعيلي ، فقد حذروا عبيد الله مما قد يحيق به من خطر العباسيين ؛ فتزيا بزى التجار ، وخرج من الفسطاط . إلا أن النوشري لحق به ، وقبض عليه ؛ لكنه أطلقه لما كان يظهره من تقوى وورع ، أو لأنه رشاه بمال كثير .

وتعزو بعض المصادر نجاح عبيد الله في الإفلات من النوشري إلى حادث طريف .

== التنبيل صاحب الشامة في بغداد ، ثم يعود بعد ذلك إلى مصر للانضمام على الدولة العالونية . من ذلك نرى أن محمد بن سليمان هو الذي رشاه المهدي ، وغرر به أنصاره ، وأنه لم يقبض عليه ، كما ذهب إليه المقرئ وغيره من المؤرخين ، وإنما الذي قام به هو تمذيب بعض أتباعه خوفا من أصحاب الأخبار . على ما ذكرنا . وأن النوشري هو الذي قبض عليه بعد خروجه من مصر . على ما سئى . وتخلص منه المهدي بالمال أو بالخدعة . ونكون بهذا قد اتفقنا مع مصادرنا الإسماعيلية التي تذهب إلى القول بأن والى مصر كان يعطف عليه ، ومع مصادرنا السنية كذلك . واللامسة أنه إذا كان عبيد الله قد دخل مصر في عهد ولاية محمد بن سليمان فقد خرج منها في عهد النوشري .

انظر كتاب در القاطيون في مصر ، ص ٧٨ - ٧٩

(١) اليافى : سيرة جعفر الخاحب ص ١١٤ - ١١٥

يتلخص في أن أبا القاسم ، ولى عهد المهدي ، كان قد نسي كلبا له في الدار التي كان النوشري قد حبس المهدي ورفاقه فيها . ولما كان أبو القاسم يعتز بهذا الكلب ، اضطرب المهدي ومن معه إلى العودة للبحث عنه ؛ فلما رأى النوشري ذلك ، وكان قد عزم على اللحاق بالمهدي من جديد ، قال لأصحابه : « قبحكم الله ! أردتم أن تحملوني على قتل هذا حتى آخذه ، فلو كان يطلب ما يقال ، أو كان مرييا لكان يطوى المراحل ويخفي نفسه ، ولا كان رجوع في طلب كلب ، وتركه ^(١) » . والحق أن أبا القاسم كان جد مغرم بكلاب الصيد ، حتى إنه بعد خروج المهدي من دمشق سنة ٢٨٩ هـ اشترى كلبه سلوقية ، وأجبر رجال القافلة على البقاء حتى تم له شراؤها ، وكادت قافلة المهدي تقع في قبضة العباسيين بسبب ذلك ، مما جعل المهدي يحذر من معه مغبة التواني والإبطاء بسبب المساومة في شراء هذه « الجرورة السلوقية البيضاء » ، ويقول لهم : « اليوم يرد الرسول إلى دمشق في طلبنا » ^(٢) .

ولم تقف متاعب عبيد الله عند هذا الحد ، فقد هجم على القافلة التي كان فيها وهي في طريقها إلى طرابلس جماعة من البربر عند الصاحونه ^(٣) ونهبوها ، ونهبوا بعض متاع المهدي . « وكانت عنده كتب وملاحم ^(٤) لآبائه ^(٥) » ، فكان أسفه عليها أشد من أسفه على غيرها مما ضاع له ^(٦) . ويدلنا على ذلك أن أبا القاسم (القائم) حين استردها في غزوته الأولى على مصر (٣٠٠ - ٣٠١ هـ) قال المهدي : « لو لم تكن هذه الغزوة إلا لرد هذه الكتب لكان ذلك فتحا عظيما ، وسر باسترجاعها سرورا عجيبا » ، ويسمى الإسماعيلية هذا اليوم الذي طورد فيه المهدي وقافلته « يوم السلب » . ولم يقف رفاق المهدي مكتوفي الأيدي أمام هجوم البربر على المهدي ؛ فقد قاوموهم مقاومة شديدة جرح فيها أبو العباس أخو أبي عبد الله . وسنرى كيف يكون انتقام

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٣

(٢) البهائي : سيرة جعفر الحاجب ص ١١١

(٣) الطاحونة : موضع في برقة بين مصر وطرابلس

(٤) الملاحم : التلويح عن الحوادث المستقبلية .

(٥) ابن الأثير : ج ٨ ص ١٤

(٦) البهائي : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥

حباشة ، قائم المهدى على مصر ، من هؤلاء البربر بعد ذلك . وقد حدث ذلك كله قبل وصول المهدى إلى طرابلس .

وكانت الصعاب التي لقيها عبيد الله في طرابلس تفوق تلك التي عاناها في مصر ، لأنها قلبت برنامجها الذي كان قد أعدته رأسا على عقب . ذلك أنه لما وصل إلى طرابلس ، بعث إلى داعيه أبي عبد الله الشيعي يبشره بقرب ظهوره ، ويخبره أنه في طريقه إليه . ومن هؤلاء الرسل الذين حملوا بشرى وصول المهدى إلى المغرب ، أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي وجماعة من الكتاميين الذين اعتمد عليهم أبو عبد الله في نشر الدعوة الإسماعيلية وتأسيس الدولة الفاطمية في المغرب . غير أن زيادة الله الأغلب قبض على أبي العباس بالقيروان ، وعذبه عذباً أن يقر على المهدى فلم يقر . وليس هذا فقط ، بل إن زيادة الله أرسل إلى عامله بطرابلس يأمره أمرا لا هوادة فيه بالقبض على المهدى أو التاجر . ولكن عبيد الله وصل هذا الوالي وأمدّه بأموال كثيرة ، فأرسل إلى زيادة الله يخبره بأن هذا التاجر قد أدلت منه وأنه لم يدركه .

ويجدر بنا أن نقرر هنا أن عبيد الله أصبح أكثر تعرضا للقبض عليه . فقد وقع الحسين بن زكرويه القرمطي — صاحب الشامة — في قبضة العباسيين سنة ٢٩١ هـ ، لأن هذا القرمطي كان يعرف عبيد الله ، ويعرف مكان اختبائه في الرملة . فلما نقل هذا القرمطي أخبار أبي عبد الله إلى العباسيين ، ضاعف هؤلاء جهودهم في استقصاء أخباره ومطاردته والقبض عليه ، وأيقنوا أن التاجر ، الذي أفلت من مصر في عهد ولاية النوشري لم يكن غير عبيد الله ، وأنه لم يتصد بلاد اليمن كما زعم بعض . ومن ثم تتبعوه أنى سار ، وكادوا يقبضون عليه ، لولا ما أوتي من ذكاء وحيلة وبعد نظر ، وما كان ينفقه من أموال اشترى بها ضيائر ولاية العباسيين وعمالهم . وهكذا كان قصد المهدى إلى أبي عبد الله يبلد كتماناً ، ولكن بلغه أن السكتب وصلت إلى زيادة الله — صاحب المغرب — بطلب المهدى وصفته ، وأنه أفلت منهم بمصر (١) . وقد أخبر عنه من كان في صحبته من التجار ، فذكروا أنه تخلف عنهم بطرابلس ، وأن أبا العباس كان من رفقاته . وبهذا أصبح المهدى

معروفا للخاص والعام في طرابلس والقيروان ، وأنه الشخص المطلوب من العباسيين ، وأنه إن بقي في طرابلس فسوف يقبض عليه ، وإن ذهب إلى القيروان تحقق الأغلبة أنه صاحب أبي عبد الله وقبضوا عليه وقتلوه .

إزاء هذه الصعاب قرر عبيد الله أن يفلت بحشاشته ، وألا يتجه إلى كتامة من طرابلس ، حتى لا يثير شكوك الأغلبة . ومن حسن حظه أنه كان قد أرسل وهو بمصر ، جعفرا الحاجب إلى سلبية ؛ فأحضر له مالا ونيرا كان قد طمره فيها ، واستطاع هذا الداعي المخلص أن يصل بهذا المال إلى طرابلس ؛ فتشجع المهدي وقرر عدم المسير إلى القيروان ، وقصد قسطنطينية رأسا (١) .

(٥) مهم طرابلس إلى سجلماسة

لم يغادر عبيد الله مدينة طرابلس ، إلا بعد أن أدرك خطورة مركزه ، ولم يقصد القيروان لأنها كانت تحت سماع الأغلبة وبصرهم ، بل قصد قسطنطينية ، وكان يرجو أن يلحق منها بأبي عبد الله الشيعي . غير أنه عدل عن رأيه حين أدرك تشمير زيادة الله الأغلب في البحث عنه والقبض عليه . والواقع أن عبيد الله لم يغير رأيه . ويعدل عن الاتجاه نحو كتامة ويقصد سجلماسة إلا بعد أن ألقى عصا تسياره بتوزر . « أحد بلاد قسطنطينية . ولا بد أنه لم يغير اتجاهه إلا بعد أن وصلته أخبار تحذره المسير في هذا الطريق ؛ لذلك نراه يلح على رئيس القافلة بأن يسير من توزر إلى سجلماسة على غير موعد ، ويتفوه لأنصاره بعبارات نفهم منها أن رسل زيادة الله سوف تلحق به في « توزر » إذا لم يبرحها . ومن ثم أقبلت عبيد الله من هذه القافلة قبل وصول رسل زيادة الله إلى توزر - يوم واحد . وكانت رحلة عبيد الله من توزر إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى شاقة حقا ؛ فقد فقد الاتصال المباشر الذي كان ينشده بأبي عبد الله الشيعي . هذا إلى أن البلاد التي قصدها بلاد صحراوية قسحة . ولخوفه من زيادة الله ، وتحذير دعائه له ، أرشى الأدلاء فكانوا يواصلون السير ليلا ونهارا ، حتى كلت قوى رجال قافلته التي استطاعت أن تقطع في ليلة واحدة ما لم تكن تستطيع قطعه في ليال عدة . والواقع أن رسل زيادة الله الأغلب وصلوا إلى توزر بعد أن

(١) قسطنطينية : في إقليم تونس ، وهي كورة كبيرة من مدنها توزر .

خرجت القافلة التي كان بها عبيد الله في طريقها إلى سجلماسة ، وأنهم لم يستطيعوا اللحاق به . يقول ابن الأثير^(١) : «ولما سار (عبيدالله) من قسطنطينية وصل الرسل في طلبه ، فلم يوجد ، ووصل إلى سجلماسة فأقام بها ، وفي كل ذلك العيون في طريقه» .

أسباب نجاح عبيد الله في فراره

وقد نسأل عن الأسباب التي سهلت على عبيد الله سبيل الفرار وقطع هذه المسافات الشاسعة في بلاد الأعداء دون أن تناله أيديهم . الحق أن هذا النجاح يرجع إلى أسباب كثيرة ، نذكر منها :

أولاً : الاضطراب الذي ساد البلاد التي مر بها ؛ فقد خرج من سلبية ببلاد الشام تاركاً القرامطة يأخذون بتلاييب الطولونيين والعباسيين في هذه البلاد ، مما سهل عليه الفرار إلى الرملة . أضف إلى ذلك أن الدولة الطولونية كانت في دور الاحتضار حين بدأ عبيدالله رحلته ، كما زاد الاضطراب في مصر نفسها عقب زوال هذه الدولة ؛ ويرجع ذلك إلى كثرة تعيين الولاة بها . وضعف شأنها ، حتى إن أحد الثوار استطاع أن يحكمها ثمانية أشهر ، وهذا يدلنا على أن جميع الظروف في مصر والشام كانت مهيأة لحرب عبيد الله . على أن حالة إفريقية (بلاد تونس الحالية) كانت أسوأ منها في مصر والشام ، لأن دولة الأغابة قد هزمت ، ودب الضعف في صفوف أمرائها . واستطاع أبو عبد الله الشيعي أن يوجه إليهم أعنف الضربات ، فأفقرت خزائنها من المال وبلادهم من الرجال ، ونشر بينهم الفوضى والاضطراب . وفي وسط هذه الأحوال السيئة كان عبيدالله يقوم برحلته .

ثانياً : انتشار التشيع في البلاد التي مر بها عبيدالله ؛ فقد كان لتركيز المذهب الإسماعيلي جهوده غربى المملكة الإسلامية خاصة أثره في تكوين جماعات أو بيئات تعطف عليه في بلاد الشام ومصر وطرابلس وتونس . وقد انتشرت في القرن الثالث تنبؤات عن قرب ظهور المهدي ؛ ولذلك نرى الذين يعاونون المهدي على الحرب من سلبية إلى حمص ، من العرب الذين يؤمنون بحب العلويين ، كما نرى المهدي يجد في

دمشق والرملة ومصر عددا غير قليل يخلصون لدعوته ، ويساعدونه على الفرار . ولا غرو ، فقد كان لجهود داعي دعائه فيروز ، و « داعيه على طريق مصر » وهو أبو الحسين - وداعي مصر المقيم وهو أبو علي - أثر كبير في نشر المذهب الإسماعيلي بين الناس ، حتى إن حاشية عيسى النوشري - والى العباسيين على مصر - كانت من الإسماعيلية أو على الأقل من يعطفون عليهم . كما كان لا انتشار التشيع بين وزراء الأغالبة أثر كبير في تهاون القائمين بالبحث عن المهدي ، حتى استطاع أن يفلت منهم أخيرا .

ثالثا : الجاسوسية المنظمة ؛ وهي أهم العوامل التي ساعدت عبيد الله على الفرار ؛ فقد كان يهيمه أن يظل خبره سرا مكتوما ، وأن يعرف دعائه الذين سيمر بهم جميع حركاته صغيرها وكبيرها . وقد أجاد هو وأنصاره استخدام حمام الزاجل في مراسلاتهم ، كما كان دعائهم السيارة من أكبر عوامل التجسس التي ساعدت عبيد الله على الإفلات من الشام ومصر خاصة . وقد رأينا عبيد الله يعمل وهو في طريقه - من داعيه المقيم في دمشق - أن يرسل العباسيين تبحث عنه في دمشق ، وأنهم سائرون في إثره . كما رأينا داعيه المقيم بطبرية يستحثه على الفرار منها إلى الرملة ، لأن الأعداء يلاحقونه ، ووجد في مصر وفي بلاد المغرب كل عون من جاسوسيته المنظمة التي كانت تفوق في إتقانها حد الوصف . ونستطيع أن نتصور ما كان يحدث للمهدي من اضطراب في أثناء هربه لو لم تساعد هذه الجاسوسية .

رابعا : المال ؛ وكان لكثرة ما أنفقه المهدي من الأموال أثر كبير فيما أصاب من نجاح . حقا كانت سلمية تنص بالأموال التي تأتيه من أشياعه الكثيرين عن طريق دعائه في كافة أرجاء العالم الإسلامي ؛ فكان يأتيه خمس صاحب الزمان ، والجزى ، والتبرعات وسواها من فارس والعراق واليمن والمغرب وغيرها . فامتلات خزائنه بالمال ، حتى لقد قالوا : إن ما كان له بسلمية كان يفوق بكثير ما حصل عليه في عهد خلافته . وقد استغل المهدي هذا المال أحسن استغلال ؛ فجعل ينفق وهو في طريقه إلى المغرب ذات اليمن وذات اليسار ، حتى كم الأفواه ، فلم يستطع أن ينال العباسيون منه غرضا . ألم يسكت عبيد الله بماله الكثير محمد بن سليمان وإلى مصر ، ويفعل مثل ذلك مع خليفته عيسى النوشري ، الأمر الذي

ساعده على الفرار من الشرق الأوسط إلى بلاد المغرب ؟ وقد رأينا كذلك كيف
كم فاه والى طرابلس المال فتركه يأخذ طريقه إلى سجلماسة . وهكذا كان كلما حل
بلدا أفضل على العامل عليه ، ووصله وأهدى إليه ؛ فمنهم من لم يعرفه وأكرمه
لذلك ، ومنهم من عرفه وترك التعرض له لما كان منه إليه ، ومنهم من عرفه ذلك
وحذره ، (١) . ولما كان المهدي يعرف أثر المال في النفوس ، تظاهر بمظهر التجار
من ذوى اليسار ، وأكثر من شراء السلع حتى يجبك مؤامراته على الأغلبية ، كما
حبكها على العباسيين وولاتهم في مصر والشام . ولم يكتف بما حمله معه من الأموال ،
بل بعث في طلب أحمال أخرى غيرها أرسلت إليه من سلبية ، وكانت خير عون له
وهو في طريقه من طرابلس إلى سجلماسة ، وبعد استقراره بها .

خامسا : طرق التخفي : كان لطرق التخفي التي نهجها عبيد الله ورفاقه أثرها
البالغ في وصوله سالما من المشرق إلى المغرب ، فراه يدعى تارة أنه هاشمي وأخرى
أنه تاجر ، وثالثة أنه من الأشراف . ولم يشأ أن يرهق رحله بالأحمال ؛ فوزعها
بين الاتباع وفرق بعضهم عن بعض . أضف إلى ذلك إيمان أتباعه به إيمانا
لا حد له ؛ فقد كانوا يعذبون أحيانا بقضم أظافرهم وقطع أجسامهم ، ومع ذلك
كانوا لا يقرون بشيء . من ذلك ما فعله زيادة الله مع أبي العباس محمد بن
زكريا أخى أبي عبد الله الشيعي ، فقد عذبه عذابا لا طاقة لأحد به ، ومع ذلك ظل
صامتا لا ينبس ببنت شفة . وكذلك نرى اليسع بن مدرار يعذب أتباع عبيد الله
عذابا لم نسمع بمثله ، من قلع الأظافر ، إلى تأريق دائم ، إلى تحريق ، دون أن ينال
منهم غرضا ؛ ثم نرى عبيد الله يترك نساءه في عهدة بعض رجاله المختصين ، فيسلكون
سبلا غير السبل التي كان يسلكها هو ، ونرى رجاله موزعين هنا وهناك ، يجتمعون
سرا ويفترقون سرا . وبفضل هذا كله نال عبيد الله ما ناله من نجاح .

(هـ) عبيد الله في سجلماسة

لما دخل عبيد الله سجلماسة اتبع طريقته المعهودة ، فأغدى على واليها اليسع بن مدرار ، حتى إنه كان « يوجب حقه وتعظيمه » (١) . وكان يخصه ويكرمه ويوجب حقه . واستأجر عبيد الله في الوقت نفسه دارا تليق بشخصه ، كما اتصل ببعض أهالي القيروان ، وأوفده إلى أبي عبد الله الداعي ، وتراسل معه عن طريقه كما تقدم ، واشترى بعض المالك لخدمته . كل هذا يدلنا على أن المهدي أقام بسجلماسة حرا طليقا فترة من الزمن (٢) .

وعلى الرغم من أن زيادة الله الأغابي أخذ يرسل كتبه إلى اليسع ، يقول فيها إن عبيد الله هو الرجل المقصود ، ويغريه بالقبض عليه ، تركه حرا في بيته ، حتى إن أنصاره وأعوانه كانوا يتصلون به . إلا أن هذه المعاملة الطيبة تبدلت بعد انتصار أبي عبد الله على الأغلبية وإزالة دولتهم في سنة ٢٩٦ هـ ، وعزمه على قصد سجلماسة ، فإن اليسع بدأ يتغير من ناحية المهدي ، لكراهيته أبا عبد الله ، فقرر عزل المهدي وفصله عن القائم ، وقبض على أعوانه وأنصاره ، وعذبهم عذابا شديدا .

وبهذا نرى أن الحرية التي نعم بها عبيد الله وأنصاره قد تبدلت . وعلى الرغم من هذا التشدد الذي بدا من اليسع ، كان المهدي يبعث بخادمه إلى ابنه القائم في داره ، وإلى أنصاره وعبيده في سجونهم ، فيستطلع أخبارهم . وقد وصف جعفر الحاجب (٣)

(١) النعمان : افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٣

(٢) يقول النعمان (افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٤) : « فلما قرب أبو عبد الله أرسل اليسع إليه ، فسأله عن نسبه وحاله ، وهل إليه قصد أبو عبد الله ، فأنكر له ع م بالنسب إذ لم يسمه إنكاره ، ولمز له في ذكر أبي عبد الله فقال : ما رأيته ، ولا أعرفه ، وكذلك كان لم يره ... وقال إنما أنا رجل تاجر ، وذلك أنه خاف على نفسه ، ورأى منه إسكارا لقوم أبي عبد الله ، وأنفة من دخول بلده فغلظ له في القول في ذلك ، فلم يزل يلهي الأول . فأنزل الله له بأكثر الحية في قلبه والجلالة في عينه ، فلم يتحنه بأكثر من أن جعله في دار ، وجعل عليه حرسا ، وجعل ابنه القاسم بأمر الله في دار أخرى ليمرق بينهما ، ويختبر قول كل منهما . وكان قهرهما واحدا ... واتبعن رجلا كانوا معهما بالعذاب ليقرروا عليهما ، لم يكن منهم إلا ما قلناه ، » .

(٣) النعمان : سيرة جعفر الحاجب ص ١٢٢

تلك الحالة بقوله : « والمهدى والقائم ع م مبجلان معظمان في منزلتهما ، قد هبهما الله عز وجل في عين صاحب سجلماسة ، وعظمهما في قلبه ، وإنما كانت صولته علينا ، يعذبنا كل يوم بالسوط » . والواقع أنه كلما اقترب أبو عبد الله الشيعي من سجلماسة أمعن اليسع في تعذيب أتباع المهدي ، حتى لقد أقر واحد منهم بعض الإقرار لهول ما لاقاه من التعذيب ؛ وقال أحدهم لمعذبيه : « يا قوم ! إن كان قد صح عندكم ما قيل فينا فاقتلونا وأريحونا من هذا العذاب الذي نحن فيه » (١) .

وتذهب بعض المصادر إلى أن أبا عبد الله لما اقترب من سجلماسة ، قتل اليسع عبيد الله في سجنه . ويظهر أن هذا الزعم لا يستند إلى أساس سليم . حقيقة عقد اليسع مؤتمراً من المقربين إليه ، حين أدركوا جميعاً خطورة استيلاء أبي عبد الله على سجلماسة ، وبخاصة بعد قتل رساله إليهم ؛ فأشار بعضهم بقتل جميع المتهمين بالتشيع في حاضرتهم ، ليفل من شوكة أبي عبد الله وأنصاره ، وأشار بعض آخر بالإحسان إليهم حتى لا يتعرضوا لسيخط أبي عبد الله وحنقه ، وأشار بعض آخر أيضاً بإخراج من يشبهه في أمرهم ولرسالهم إلى أبي عبد الله ؛ وفي ذلك الوقت استطاع اليسع الإفلات بنفسه وبمن معه . ولا يبعد أن يرجع أبو عبد الله بالمهدي إلى إفريقية على جناح السرعة ، خوفاً على ملكه الجديد من أن يقع في يد زيادة الله الأغلب (٢) ؛ فأخرج رجلاً غير المهدي ، فلم يعبأ أبو عبد الله به . ولما خرج المهدي ، اليهم ، أخذ الفرص منهم كل مأخذ (٣) ، فانتهر اليسع ومن معه هذه الفرصة وأمعنوا في الحرب . ثم أمر المهدي أبا عبد الله بفتح سجلماسة وتخريبها .

(١) المصدر نفسه ص ١٢٣

(٢) يقول جعفر الحاجب في هذا الرأي الأخير (استنار الإمام ص ١٢٤) : « وقال له بعض من كان يثق به ويرجع إلى رأيه : القوم قد أحاطوا بنا من كل جانب ، وليس لنا بهم طاقة . فان كنت قتلت هؤلاء القوم فتلك بهم وقتلونا . والرأي لنا ولك أن تخرج هؤلاء الرجال إليهم واحداً واحداً ، فمن كان منهم صاحب القوم فتلكوا بهم وقتلونا . والرأي لنا ولك أن تخرج هؤلاء الرجال إليهم واحداً واحداً ، فمن كان منهم صاحب القوم فتلكوا بهم وقتلونا . فبعد ذلك نجد نحن لا شتائم الفرصة للرب ؛ ومع ذلك فانه إذا وصل إليهم صاحبهم ، لم يكن له ولا لهم اهتمام إلا القول إلى إفريقية خوف أن يبلغ زيادة الله بن الأغلب الحارب من بين أيديهم أنهم انصرفوا من إفريقية إلى سجلماسة ، فيرجع إليهم طمعاً منه ، ليمد ما بين البلدين ، ويحشد بها العرب ويحصن منهم ، فيصب الأسم عليهم . فاذا انصرفوا عن البلد بصاحبهم ، رجعنا إليه » .

(٣) النجاشي : سيرة جعفر الحاجب ص ١٢٤ .

كان على عبيد الله بعد ذلك أن يعمل على إحضار الإمام المستقر — ولى العهد أبي القاسم . وقد وضع لذلك خطة محكمة تذرع بها لتخليصه ؛ وتناخص في أن يرسل أبو عبد الله إلى السجن من يطلق أتباعه ليدلوه على موضع القائم . وقد عثر رجال أبي عبد الله عليه بشق النفس ، لأن السجن قد فُتِحَ وفر من كان به ، واهتدوا إلى عبيد المهدى الذين دلوه على موضع القائم . ولم يحتفل المهدى بالبيعة له إلا بعد أن التأم شمل جماعته وأتباعه .

والذى يلفت النظر حقا ما حدث في اليوم الذى أخذت فيه البيعة للمهدى بسجلماسة ؛ فقد قلد المهدى أبا عبد الله سيفاً وخلع عليه ، كما خلع على أتباعه الذين حضروا بخلع وسيوف كان قد حملها معه من سلمية . ويعتبر يوم البيعة من أبهى أيام عبيد الله ؛ فقد جلس على سرير نخم نصب له في ميدان كبير بسجلماسة ، ووقف ولى عهده — القائم — عن يمينه ملتصقا بالسرير ، وحولها أتباعهما الذين حضروا معهما من سلمية ، وكانوا يسمون المكان الذى نصب فيه سرير المهدى « السماء » . وجعلوا على باب هذا المكان جعفرا الذى كان في صحبة المهدى ، وأطلقوا عليه اسم « الحاجب » منذ ذلك اليوم ، لأنه كان قائما « على باب السماء » . وأخذ أبو عبد الله يقدم إلى المهدى أشياءه وأنصاره ثلاثة أيام كاملة . ثم رحل عن سجلماسة بعد أن قبض على اليسع وضرب بالسياط ، وقتل من معه . أما هو فلم يقتل لأنه وهب للقائم ، فمات بعد قليل .

وكانت رحلة المهدى من سجلماسة إلى إفريقية رحلة ممتعة حقا ؛ فلم تسكن كذلك الرحلة التى عانى فيها الأمرين من قبل . لقد خرج من سلمية لا يعرف له مستقرا ، يخشى القريب والبعيد ، ويتألم لحاله وحال من معه ، ويشفق على نفسه من الموت أو السجن . كان يعيش على الأمل المنشود ، ويسعى للملك سعى إليه العلويون من من قبل . أما اليوم فقد أصبح المهدى سيد إفريقية بلا منازع ، يخرج في حفل هائل من العساكر العظيمة التى لم يجتمع لملك قبله مثلاً .

يم المهدى نحو المشرق عائدا من سجلماسة إلى كتامة ، إلى البلاد التى ناصره أهلها ، إلى فج الأخيار ، حيث دار الهجرة ، والأموال الضخمة ، التى أودعها داعيه أبو عبد الله الشيعى . ومن هناك غادر المهدى هذه البلاد التى كانت يوما ما

نقطة ارتكاز للهجوم على الأغلبية حتى حط رحاله في إفريقية ، التي لم يبق أحد من أهلها إلا تلقاه بالترحيب ، وأنخذ من مدينة رقاة قاعدة للملك .

وهكذا انتهى الدور الأول من حياة عبيد الله بجلوسه على عرش الخلافة الفاطمية بإفريقية في أوائل سنة ٢٩٧ هـ ، فترك حياة التخفي والاستتار ، ولم يعد ذلك الإمام المستور ، بل بدأ حياة جديدة : أصبح خليفة وإماما ، وأصبحت الدعوة الإسماعيلية تهرف إلى الالتفاف حول شخصه وملكه ومذهبه ، والدفاع عنها جميعا . ومنذ ذلك الحين أخذ المهدي يد سلطاناه شرقا وغربا ، ليقم ملكه على أساس متين ، ويجدد ملك علي بن أبي طالب ، ويحيي ما درس من خلافته ، ويعمل على تفويض دعائم الدولة العباسية المتداعية ، ليقم على أنقاضها دولة الفاطميين الفتية ، وإن لم يستطع أن يحقق جميع آماله الواسعة ، فقد وضع الخطة التي سار عليها خلفاؤه من بعده .

٤ — نسب عبيد الله

أسس عبيد الله - علي ما سنرى - دولة تعرف بالدولة الفاطمية . نسبة إلى فاطمة بنت الرسول وزوج علي بن أبي طالب ، أو الدولة العلوية نسبة إلى علي . وتسمى أحيانا الدولة العبيدية نسبة إلى عبيد الله نفسه . وليس من شك في أن الدولة التي أسسها عبيد الله دولة إسماعيلية ، وأن خلفاءها قاطبة إسماعيلية ؛ وإنما الشك ينصب على شخصية عبيد الله : هو إسماعيل من سلالة إسماعيل ، أم هو إسماعيل من أنصاره لا من سلالاته ؟

اختلف العلماء في نسب عبيد الله اختلافا كثيرا ، فهناك جماعة يرون صحة نسبه إلى إسماعيل بن جعفر ، وجماعة ينكرون صحة هذا النسب : فيرون أن عبيد الله من سلالة ميمون القداح ، أو من سلالة موسى الكاظم . وبهذا نرى المؤيدين لنسب عبيد الله إلى عليّ وفاطمة ثلاث طوائف : طائفة تقول إنه إمام من الأئمة الاثنا عشرية أو الموسوية ، وطائفة تنسبه إلى إسماعيل بن جعفر ، وهم من الإسماعيلية ، وجماعة من السنين يرون صحة انتسابه لإسماعيل . أما المؤيدون لنسب عبيد الله لميمون القداح ، فهم قلة من الإسماعيلية أنفسهم ، والغالبية العظمى من العلماء السنين .

(١) نسب عمير الله الى علي وفاطمة

امتثلت بطون الكتب الشيعية خاصة بأحاديث ، معظمها موضوع ، عن المهدي المنتظر ، وآمن بذلك الإسماعيلية والاثنا عشرية وكثير من السفين . ولذلك يرون أن عبيد الله إمام من نسل الرسول ، وأنه المقصود بهذه الأحاديث ، وأن نسبه لا غبار عليه مطلقا .

١ — السفينون الذين يؤيدون صحة النسب

وهناك طائفة كبيرة من العلماء السفين يشبّون صحة نسب عبيد الله إلى علي وفاطمة . ومن هؤلاء ابن الأثير وابن خلدون والمقريزي . فيذهب المقريزي إلى القول بأن الله لا يملك الدعي ولا ينصره ، وقد ملك الفاطميون نحو ثلاثة قرون (٢٩٦ — ٥٦٧ هـ) حيث يقول : « إن الكاذب لا يملك البلاد ولا يمكن له في الأرض »^(١) . ويستدل المقريزي بحديث لموسى الكاظم عن ظهور المهدي بالمغرب ، وانتشار الدعوة الإسماعيلية شرقا وغربا فيقول : « نقل عن أئمة آل البيت عليهم السلام الإشارة إلى أمر عبيد الله المهدي ؛ فمن ذلك أن موسى الكاظم بن جعفر الصادق سئل عن ظهور القائم متى يكون ، فقال : « إن ظهور القائم مثله كمثل عمود من نور سقط من السماء إلى الأرض ، رأسه بالمغرب وأسفله بالمشرق . وكذلك كانت بداية أمر المهدي عبيد الله ، فإنه ابتداء من المغرب وانتهى أمره على يد بنيه إلى المشرق ، فإنه ظهر بسجلماسة سنة ٢٩٦ هـ ، وهي أقصى مسكون المغرب ، ودعى المستنصر ببغداد في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة . »^(٢)

على أن تلك العبارة التي أوردها المقريزي لا تنهض دليلا على صحة ما ذهب إليه ؛ فإن هذا القول الذي ينسب إلى موسى الكاظم ، يراد منه أن ظهور المهدي سيكون أمرا واقعا يعرفه الخاص والعام ، وينتشر حتى يصل إلى أقصى الدنيا ،

(١) المقريزي : انعاظ الخفا ص ٣٠

(٢) يقصد بذلك ثورة أبي الحارث البساسيري على الخلافة العباسية ، وفتح بغداد ، وإقامته

الحطبة للمستنصر الفاطمي من ذي القعدة سنة ٤٥٠ إلى ذي القعدة سنة ٤٥١ هـ .

وليس معناه قيام الدولة الفاطمية بالمغرب وإقامة الخطبة لها بالمشرق . ثم من ذا الذى يقول بأن الإمام موسى الكاظم أو سواء يعلمون الغيب الذى اختص به الله تعالى ؟ وأغرب من ذلك تحديد بعضهم السنة التى يظهر فيها المهدي ، وإرجاع ذلك التحديد إلى أحد الأئمة الاثنا عشرية ؛ فيقول المقرئى (١) : « إن على بن محمد بن على بن موسى الكاظم كان يقول فى سنة أربع وخمسين ومائتين ، ستكشف عنكم الشدة ، ويزول عنكم كثير مما تجدون ، إذا مضت عنكم سنة اثنتين وأربعين ، يشير بذلك إلى البداية من تاريخ وقته ؛ فيكون المراد منه سنة ست وتسعين ومائتين ، أى بإضافة ٤٢ سنة إلى سنة ٥٢٥ هـ ، وهى السنة التى قامت فيها الدولة الفاطمية فى المغرب .

كما يستدل المقرئى على صحة نسب عبيد الله من اتجاه ميول بعض الأمراء المسلمين نحوه ، مثل نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان ، ومرداويج بن زيار الديلمي ، ويوسف بن أبي الساج أمير الرى ، مما لا يترك مجالاً للشك فى أن نسب عبيد الله إلى على وفاطمة كان أمراً معترفاً به فى ذلك الوقت (٢) . يقول المقرئى (٣) : « وبعث إليه نصر بن أحمد — أمير خراسان — يقول : أنا فى خمسين ألف مملوك يطيعوننى ، وليس على المهدي بهم كلفة ولا مئونة ؛ فإن أمرنى بالمسير سرت إليه ، ووقفت بسيفى ومنطقتى بين يديه ، وامتثلت أمره ... الخ . وكتب إليه مرداويج الجبلى بمثل ذلك ، وكتب إليه يوسف بن أبي الساج ... وأنفذوا رسالهم مع الأموال ، فوقع على ظهر كتبهم : « الزموا مراكمزكم ، لكل أجل كتاب » .

ويستند من يثبت صحة نسب الفاطميين من السنيين إلى قصيدة الشريف الرضى ، وكان من العلويين النابهي الذكر فى عهد الخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) صاحب محاضر الطعن فى نسب الفاطميين . وفى هذه القصيدة يثبت هذا العلوى صحة نسب هؤلاء الخلفاء فى مصر ، ويظهر عطفه عليهم . ويعلق ابن الأثير أهمية كبيرة على هذه القصيدة فى إثبات صحة النسب ؛ هذا إلى ما ينسبه بعض إليه من امتناعه عن توقيع المحضر الذى طعن فى نسب الفاطميين ، وصرفه عن المناصب التى كان يتقلدها

(١) اتماظ الحنفا ص ٣٠

(٢) حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر ص ٧٣

(٣) المقفى الكبير - مخطوط - عن كتاب « الفاطميون فى مصر » ، للدكتور حسن ابراهيم ص ٧٤

من قبل العباسيين . وزاد ابن الأثير (١) هذه المسألة بياناً فقال ، إنه ناقش مسألة هذا النسب مع جماعة من العلويين العالمين بالأنساب ، فلم يرتابوا في أن الفاطميين من أولاد علي .

ومما جاء في قصيدة الرضى التي اعتمد عليها ابن الأثير كثيراً في إثبات نسب عبيد الله قوله : —

ما مُقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف كحى^(٢)
ولبابه مخلق بن عن الضيم كما راغ طائر وحشى^(٣)
أى عذر له إلى المجد أن ذلّ ل غلام في غمده المشرقى^(٤)
أحمل الضيم في بلاد الآعادي^(٥) وبمصر الخليفة العلوى^(٦)
من أبوه أبى ومولاه مولاى إذا ضامنى البعيد القاصى^(٧)
لف عرق بعرقه سيدا النساى جميعا محمد وعلى^(٨)
إن جوعى بذلك الربع شبع وأوامى بذلك الظل رى^(٩)
مثل من يركب الظلام وقد أسرى ومن خلفه هلال مضى^(١٠)

والحق أنه لو ثبت ذلك الشعر لأحد العلويين ، لكان ذلك دليلاً قاطعاً على صحة نسب الفاطميين . لكنه ، على ما يظهر ، كان من صنع دعاة الإسماعيلية لتقويه مركز الفاطميين في بلاد المشرق وفي العراق خاصة . يدل على ذلك أن الشريف الرضى نفي نسبة هذا الشعر إليه ، وأقسم الإيمان المغلظة أن هذه الأبيات لم تكن من نظمهم . أضف إلى ذلك أنها لم ترد في ديوانه كما لم يروها الرواة عنه . ولم يكن امتناعه عن إثبات ذلك الإقرار بكتابة في محضر العباسيين إلا خوفاً من دعاة مصر . يقول

(١) ج ٨ ص ٨ - ٩

(٢) كتابة عن قدرته البلاغية وعزة نفسه ودليلاً على تدمره من العيش في بلاد العباسيين

(٣) الآعادي هنا هم العباسيون

(٤) يصرح باعترافه بصحة نسب الفاطميين ويرى أنهم أحبابه لأنه منهم ، وأن العباسيين أعداؤه . لأنهم غرباء عنه .

(٥) بمعنى أن يكون بمصر وينتجاً بالسعادة فيها ولو مع فقره .

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٩ .

ابن كثير : « لما سمع الخليفة القادر بأمر الله هذه القصيدة انزعج ، وبعث إلى أبيه الموسوى يعاتبه ، فأرسل إلى ابنه ، فأنكر أن يكون قالها بالمرّة ، والروافض من شأنهم التزوير . فقال أبوه : إن لم تكن قلتها ، فقل أبيتا تذكر فيها أن الحاكم بمصر دعى لا نسب له ، فقال : إني أخاف غائلة ذلك . . . وترددت الرسائل من الخليفة إليهم في ذلك ، وهم ينكرون ذلك ، حتى بعث الشيخ أبا حامد الأسفرائني والقاضى أبا بكر الباقلاني إليهما ، خلف لهما الإيمان المؤكدة أنه ما قالها » (١) .

وقد أكد أبو الرضى نفي هذا الشعر عن ابنه ، ونسبه إلى أعدائه ، كما سجل الرضى ذلك على نفسه ، وأبدى خوفه من دعاة الإسماعيلية ، كما نرى ذلك في قول أبي الرضى : « أما هذا الشعر فما لم نسمعه منه ، ولا رأيناه بخطه . ولا يبعد أن يكون بعض أعدائه نحله إياه وعزاه إليه » . وأما امتناع الشريف الرضى عن تسجيل اسمه في محضر القادر فيرجحه قوله : « لا أكتب ، وأخاف دعاة صاحب مصر . وأنكر الشعر ، وكتب خطه بأنه ليس بشعره ولا يعرفه . فأجبره أبوه على أن يسطر خطه في المحضر ، فلم يفعل ، وقال : أخاف دعاة المصريين وغياتهم ، فإنهم معروفون بذلك » (٢) .

وأما ابن خلدون ، وهو من المتعصبين لمذهب الشيعة ، فقد دحض في مقدمته هذه الأقوال التي أنكر فيها المؤرخون والكتاب صحة هذا النسب حيث يقول : « ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثيرون من المؤرخين والأثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة ، من نفهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم ، والطعن في نسبهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس ، تزلفا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم ، وتفنتنا في الشبهة بعدوهم . . . ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات ، وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك ، من تكذيب دعواهم والرد عليهم ، فإنهم متفقون في حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المختسب ، لما دعا بكثامة للرضا من آل محمد ، واشتهر خبره ، وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم ، خشيا على أنفسهما ، فهربا من المشرق محل الخلافة ، واجتازا مصر ، وأنهما خرجا

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٤

(٢) المقرئى : تناظر ص ١٦ .

من الإسكندرية في زى التجار^(١) .

والذى نلاحظه على هذه الأقوال :

١ — أنها تقوم على أساس العاطفة ، فلسنا نؤمن بما ذهب إليه المقرئى بأن عبيد الله من أصل فاطمى حقيقى ، لأنه أقام الدولة الفاطمية التى ملكت زمنا طويلا ، والله لا يملك الظالم ؛ لأن الله قد يملك الظالم وقد لا يملكه ، إلى غير ذلك مما لا يصلح أن يكون أساسا للحكم الصحيح على صحة نسب عبيد الله إلى على وفاطمة .

٢ — أن أصحاب هذه الآراء يختلفون فيما بينهم فى ذكر سلسلة نسبهم ؛ فنرى ابن الأثير يقول إن عبيد الله هو ابن أحمد بن إسماعيل الثانى بن محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق ، ويذكر فى الوقت نفسه سلسلة أخرى فيها أن عبيد الله بن عبد الله ابن ميمون بن محمد بن إسماعيل^(٢) . ونرى ابن خلدون يأتى بأكثر من سلسلة واحدة للنسب ، يؤكد فيها جميعها أن عبيد الله من سلالة إسماعيل ، ويقول : إنه ابن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم . وهذه السلاسل تختلف كثيرا عما أورده المقرئى فى مقفاه الكبير حيث يقول : إن عبيد الله بن الحسين بن محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق ، ونرى ابن النديم يورد سلسلة من النسب تتفق مع ما يذكره الإسماعيلية أنفسهم ، من أن عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر .

والحق أننا لو تفحصنا سلاسل النسب ، التى أوردها العلماء السنيون الذين يقولون بصحة نسب عبيد الله ، لبلغت المئات عدا ، وكلها تختلف فى ذكر أسماء الأئمة المستورين ، الذين يفصلون بين محمد بن إسماعيل وعبيد الله ، بل فى ذكر عدد الأجيال التى تفصل بين هذين الإمامين ، وأن هذا الاختلاف إن دل على شيء فإنما يدل على عدم تحقق هؤلاء العلماء من شخصيات الأئمة المستورين ، مما يجعلنا لا نميل إلى الأخذ بصحة كل ما ذهبوا إليه ؛ فهؤلاء العلماء إنما زادوا الموضوع غموضا .

٣ — وبتقصي آراء العلماء السنيين المؤيدين صحة النسب ، نستطيع أن نتحقق

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢١ .

(٢) ابن الأثير : ٨ ص ٨

أنهم كانوا يجهلون الحقائق عن أصول المذهب الإسماعيلي ونظمه السرية ، وأنهم لم يقفوا على حقيقة نظامي الاستقرار والاستيداع الإمامي . ولو عرفوا أن من نُظِمَ الإسماعيلية المحببة إليهم أن الإمام قد يكون مستقرا ، بمعنى أن الإمامة تستقر فيه ، وأنه ينقلها إلى سواء ، وأنه قد يكون مستودعا لهذه الإمامة ، بمعنى أنه لا يستطيع نقلها إلى سواء ، وأن المستودع من الأئمة قد يكون من بيت الإمام المستقر ، أو من غير بيته ، وربما لا يمت إليه بقراءة ، كأن يكون من نوابه أو من حججه وحججه — لو أنهم عرفوا ذلك لما غاب عنهم أن كثيرا ممن ذكروهم كانوا أئمة استقرار ، أو أئمة استيداع ، وأنه يمكن فصل هؤلاء عن أولئك . ولو فعلوا ذلك لما حدث هذا الاضطراب والغموض ؛ بل لو أنهم قرءوا أو عثروا على بعض كتب الحقائق عند الإسماعيلية لعلوا أن عبيد الله من أئمة الاستيداع^(١) ، على حين كان أبو القاسم الذي تسمى بعد ذلك بالقائم لم يكن ابنه من الدم ، وإنما كان ابنه من جهة التعليم فقط .

٢ - الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة النسب

ليس من شك في أن غالبية الإسماعيلية يؤيدون نسب عبيد الله إلى علي وفاطمة ؛ إلا أن هناك جماعة منهم يقولون إن عبيد الله من الأبناء الروحانيين للأئمة المستورين ، وإنه ، وإن كان إماما ، فإن إمامته إنما قامت لأنه استودع لينقلها إلى سواء ، فلم يكن والحالة هذه من الأبناء الحقيقيين للأئمة المستورين ، وإنما انتقلت الإمامة عن طريقه من إمام مستقر إلى إمام مستقر آخر ، وهؤلاء هم الإسماعيلية الذين ينكرون نسب عبيد الله إلى علي وفاطمة .

وفي الحق أننا لا نجد عالما أو مؤلفا واحدا من الإسماعيلية الذين ألفوا كتب

(١) انظر ص ١٧ — ١٨

(٢) تكاد تتفق المراجع الإسماعيلية على أن عبيد الله بن الحسين النقي بن أحمد الوفي ، بن عبد الله الرضي بن محمد المكتوم ، على حين ترى صحائف الداودية أنه ابن الحسين الزكي بن أحمد النقي ابن عبد الله الرضي بن محمد الوفي .

الظاهر لا يربط نسب عبيد الله بمحمد بن إسماعيل ، ولذلك نرى القاضى النعمان المغربى (٣٦٥ هـ) يؤكد صحة نسب عبيد الله ، فى كتبه الظاهرية ، كافتتاح الدرة الزاهرة ، والداعى جعفر بن منصور اليمنى ، يؤكد نبوة عبيد الله الجسانية للأئمة المستورين ، ويكاد يتفق علماء الإسماعيلية ، الذين يؤيدون نسب عبيد الله ، على أنه ابن الإمام المستور الحسين بن أحمد بن عبيد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، كما ذكرنا فى كلامنا على هؤلاء الأئمة المستورين فى الباب الأول من هذا الكتاب . ولكن هؤلاء العلماء يختلفون فيما بينهم فى ذكر ألقاب هؤلاء الأئمة ؛ فقد يلقبون أحدهم بالتقى والوفى وغير ذلك ، مع أن هذا غير ذاك .

والصعوبة التى تعترض الباحث هنا ، أن بعضهم قد يذكر الألقاب ويهمل الأسماء ، مما يثير كثيرا من الغموض . مثال ذلك ما أورده صاحب كتاب دستور المنجمين - وهو من كتب الإسماعيلية (١) - عن الأئمة المستورين الذين يفصلون بين محمد بن إسماعيل وعبيد الله ، فقد اكتفى بذكر ألقابهم ، فقال : هم الرضى والوفى والتقى .

والواقع أن الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة نسب عبيد الله ، يكادون يتفقون على أن عبيد الله المهدي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ؛ إلا أن جماعة ممن يدعون الانتصار للفاطميين يغفلون فى تأييد نسب عبيد الله إلى على . من ذلك محاولة مامور Mamour (٢) لإثبات أن محمد بن إسماعيل هو ميمون القداح ، وأن عبد الله بن ميمون القداح هو نفسه عبد الله الرضى . ولعل لما مور بعض العذر ؛ فقد أُلّف كتابه فى سنة ١٩٣٤ م ، ولم تكن كتب الإسماعيلية السرية خاصة قد انتشرت انتشارها اليوم . ومن ثم لم يقرأ مثلاً كتاب أسرار النطقاء ، للداعى جعفر بن منصور اليمنى ، أو كتابي عيون الأخبار ، وزهر المعاني ، للداعى عماد الدين إدريس المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ، كما أنه لم يقرأ كتاب غاية المواليد للداعى الخطاب بن الحسين المتوفى سنة ٣٣٥ هـ ، ليرى أن محمد بن إسماعيل يمثل فرعاً من

(١) De Goeje : Memoires sur les Carmathes, vol.

ii, p. 204.

(٢) Polemics on the Origins of the Fatimids, p. 68.

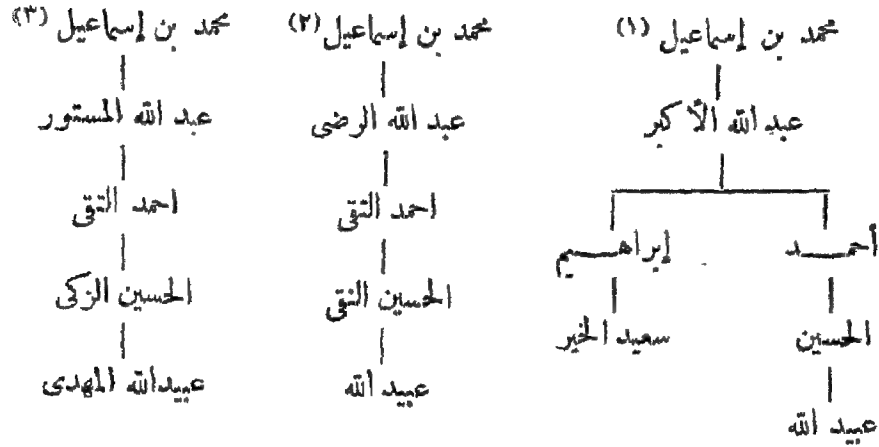
فروع الأئمة ، وأن القداح يمثل فرعاً من فروع الحجج أو نواب الأئمة ، وأن هؤلاء غير أولئك ، وأن الإسماعيلية جميعاً لا يوافقون « مامور » على ما ذهب إليه . ولا نستطيع أن نوافق على ما ذهب إليه مامور من القول بأن اضطهاد العباسيين للأئمة العلويين من طائفة الإسماعيلية قد أدى إلى اتخاذ هؤلاء أسماء مستعارة ، وأن اسم محمد بن إسماعيل المستعار هو ميمون . فقد رأينا أن الإمام محمد بن إسماعيل كان في صحبة ميمون القداح منذ أيام جعفر الصادق ، وأنه استمر معه في المدينة المنورة ، وهاجر معه أيضاً . ثم هل نصدق مامور ، ومن يرى رأيه فيما زعموه ، ولا نصدق كتب الإسماعيلية الأساسية التي تنقض كل ما قالوه ، والتي تدل على أن مثل هذه الفروض وما ترتب عليها من نتائج لا يقوم على شيء من الصحة ؟ ومع ذلك هل يستطيع هؤلاء أن يفسروا بعض النصوص التاريخية التي تؤكد أن القداحية ليسوا علويين ، وإنما هم جماعة من كبار الدعاة ؟ فهذا الحسن الأعصم الإسماعيلي القرمطي يعلن من فوق منابر دمشق بأن المعز لدين الله من سلالة القداح^(١) ، وأن القداح وأسرته كانوا كالقرامطة يدعون للأئمة المستورين . هذا إلى أن السواد الأعظم من الإسماعيلية ينفون انتساب الفاطميين إلى القداح وأبنائه ، ويذهبون إلى أنهم جميعاً كانوا حججاً للأئمة ، والأئمة غير الحجج بالطبع^(٢) .

وقد أوضحنا المراجع الإسماعيلية هذه الحقيقة الهامة ، وهي أن الأئمة المستورين لم يكونوا معروفين لغير خاصتهم ، وأن عامتهم لم يكونوا يعرفون أسماء هؤلاء الأئمة . كما أن الدعاة كانوا يختلفون في ذكر أسمائهم كي يحيطوهم بسياج من المنعة والتخفي ؛ ومع هذا كله فإنهم يكادون يتفقون على ذكر أسماء الأئمة الحقيقيين في مؤلفاتهم الظاهرية والسرية ، ويتفقون كذلك مع بعض المعتدلين السنيين في ذكر أسماء أئمتهم المستورين . وهاك أهم سلاسل النسب عند مؤيدي نسب عبيد الله من الإسماعيلية :

(١) لا نوافق الأعصم على أن المعز من سلالة ميمون القداح إلا إذا تحققنا أن الخليفة القائم

ابن عبيد الله ، وهو ما لم نذهب إليه .

(٢) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد ج ١ ص ١٨٨



ولكن هل كانت عقيدة انتساب عبيد الله إلى محمد بن إسماعيل ذائعة في عهده ؟ نعم ! كانت هذه عقيدة الإسماعيلية قاطبة ، مع استثناء حمدان قرمط ومن على شاكلته ، ممن لم يوافقوا على إمامة حجة الإمام ؛ وهؤلاء كانوا قلة إذا ووزنوا بغيرهم . هذا إلى أن كثيرا من مراجعنا ترجع إلى العصر الذي عاش فيه عبيد الله ، أو أن مؤلفيها أخذوا عن عاصروا عبيد الله ، وهؤلاء جميعا ، إلا قليلا منهم ، يقولون بانتساب عبيد الله إلى محمد بن إسماعيل وعلى وفاطمة .

انتساب عبيد الله إلى الموسوية

على أن هناك جماعة ألحقوا نسب عبيد الله بعلي وفاطمة عن طريق موسى الكاظم ؛ فيعتبره بعض أبنا للحسن العسكري الإمام الحادي عشر عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية ، وأخا للمهدي المنتظر (٤) ، ويعتبره بعض أبنا لأخي الحسن العسكري (٥) . كما يعتقد بعض أنه محمد المنتظر نفسه ، وهو الإمام الثاني عشر عند طائفة الموسوية (٦) .

(١) النيسابوري : استنار الإمام ص ٩٥

(٢) الداهي إدريس : زهر الماني ص ٦٤

(٣) Fayzée : A Chronological List (J.B.B.R.A.S, 1934) p. 10

(٤) Fayzee : A Chronological List (J.B.B.R.A.S, 1934) p. 10

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٣

(٦) Mamour : Polemics on the Origins of the Fatimids, p. 93.

ونحن نشك كل الشك في أن تلك الأقوال كانت تجد لها مكانا في أدمغة المعاصرين لعبيد الله ؛ لأن فكرة الانتساب لإسماعيل والاستماتة فيها كانت ذائعة متسلطة على عقول المنتسبين إلى إسماعيل في ذلك الحين . بل إننا نجد حوارا حادا يدور بين مؤلفي الإسماعيلية ودعائهم في صدر الدولة الفاطمية . يتضح ذلك من كتاب « أسرار النطقاء » لجعفر بن منصور اليميني ، الذي عاصر المهدي والقائم والمنصور والمعز ؛ وفي هذا الكتاب ينهى جعفر بن منصور باللائمة على جماعة الموسوية ، لادعائهم إمامة موسى الكاظم . كما يعيب عليهم القول بالإمام المنتظر ، لأنه مات ولن يعود ، وينقض إمامة أئمتهم الذين ولوا موسى الكاظم نقضا يدل على كراهية هؤلاء لأولئك ، كما يدل في الوقت نفسه على بعد تصديق إلحاق عبيد الله بموسى الكاظم ، في ذلك الحين على الأقل . وليس هذا وحده ، بل إننا نرى المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي دعاة المستنصر ، يشيد باللائمة الإسماعيلية ويحيط شأن الأئمة الموسوية ، ويرميهم بالجهل والارتفاء في أحضان المعتزلة ، مما يوحى بأن الإسماعيلية كانوا حتى ذلك الوقت يناوئون الاثنا عشرية ولا يتقربون إليهم .

ولسنا نشك كذلك في أن إلحاق عبيد الله بالأئمة الاثنا عشرية إنما هو من صنع الإسماعيلية أنفسهم ؛ لأن الاثنا عشرية كانوا ، ولا يزالون ، ينتظرون إمامهم الثاني عشر ، ولو كانوا آمن يؤمنون بصحة انتساب عبيد الله الفاطمي إلى موسى الكاظم لكانوا عوناً للفاطميين ، ولا انضموا إليهم في عهده وبعده عهده . مع أننا نرى الاثنا عشرية الحديث يبعض الإسماعيلي الحديث ، بهريا كان أو أغاخانيا ، بغضه للسني أو أشد . ويخيل إلينا أن محاولة إلحاق عبيد الله المهدي بالأئمة الاثنا عشرية قد حدثت في أخريات الدولة الفاطمية ، وفي العصر الذهبي للنزارية . وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى محاولة جعل المذهب الإسماعيلي ملائما للجميع ؛ بمعنى أنه ليس هناك اثنا عشرية أو إسماعيلية ، وهذا نوع من التقية والدفاع عن المذهب ذاته .

وإذا صح هذا فإنه يدل على صحة ما نسب إلى عبد الله بن ميمون القداح ، المؤسس الحقيقي للمذهب الإسماعيلي ، من أنه كان يحاول خلق مذهب عام يتفق مع مشارب الجميع وميولهم ، وأن سياسته هذه قد تحققت بعد قرنين من زمانه . أضف إلى ذلك أن الاثنا عشرية كانوا قوة لا يستهان بها ، ولا سيما في فارس وخراسان .

فهم وحدهم الذين يستطيعون أن يهدموا مبادئ الإسماعيلية وعقائدهم . لذلك ترامي للقائمين بأمور الإسماعيلية في ذلك الحين أن يتجنبوا الصراع مع أبناء عمومتهم وأنصارهم . ولم تكن التقية أو الرغبة في تجنب الصراع مع الاثنا عشرية هي التي حدثت بالإسماعيلية الى إلحاق رئيسهم ومهديهم بأئمة منافسيهم الاثنا عشرية ، بقدر ماسيطرت الرغبة الملحة في جذب أكبر عدد ممكن إلى صفوف الإسماعيلية ، لأن الاثنا عشرية كانوا في ذلك الوقت المعين الذي لا ينضب لإمداد الإسماعيلية بالانصار ، ولأن كثيرا من مبادئهم لا يختلف عن مبادئ الإسماعيلية في شيء . لذلك لا يعدو انتساب عبيد الله إلى موسى الكاظم ، أن يكون نوعا من التطور المذهبي عند الإسماعيلية والاثنا عشرية :

كان القرن الخامس والسادس ، بل السابع الهجري ، مسرحا من مسارح ذلك الاندماج بين الإسماعيلية والاثنا عشرية ، حتى إن أعلام النزارية كانوا من الأئمة الاثنا عشرية . فهذا الحسن الصباح ، مؤسس الدعوة النزارية ، الذي يعد من أعظم الشخصيات في التاريخ الإسلامي ، كان إماميا اثنا عشريا . ولا بد أنه حاول جذب كثير من أقرانه في المذهب ، وأنه حاول التوفيق في العقائد بين هؤلاء الإسماعيلية وأوائك الاثنا عشرية . ولا يقل سنان راشد الدين ، مقدم الدعوة في بلاد الشام في عهد صلاح الدين الأيوبي ، عن زعيمه الأول الحسن الصباح . فقد كان اثنا عشريا نصيريا ، ولذلك تلوث المذهب النزاري في بلاد الشام خاصة بكثير من مبادئ النصيرية ؛ مما سهل على كثير من دعاة النزارية خاصة أن ينادوا بالاتصال بين الإسماعيلية والاثنا عشرية في شخص عبيد الله المهدي .

وقد شهدت مصر نفسها تنزعا هذا المذهب الإمامي الاثنا عشري في أشخاص وزرائها العظام . فإن بيتي بدر الجمالي ، وطلائع بن رزيك ، كانا يدينان بمبادئ الاثنا عشرية ؛ وكثيرا ما حاول هؤلاء رفع شأن مذهبهم في مصر على حساب المذهب الإسماعيلي ، بل لقد تعدى تأثيرهم إلى الخلفاء الفاطميين أنفسهم ، حتى إن الخليفة المستنصر اتخذ من بدر الجمالي الاثنا عشري باب أبواب دعاته ، وجعل يشيد به لاتباعه فيقول للسيدة الملكة أروى الصليحية (١) : « وطالعي الوالد السيد الأجل

(١) هي ثالثة ملوك الصليبيين ، وكانت رئيسة الدعوة الاسماعيلية في اليمن ، وتولت الحكم بعد وفاة زوجها المكرم الصليبي سنة ٤٧٩ هـ ، واستمرت لسان الدعوة الناطق هناك حتى سنة ٥٣٣ هـ .

أمير الجيوش ... بدرا المستنصرى ... فهو خليفتنا ، وباب دعوتنا ، الحال منا محلا لم يحله أحد قبله ، القائم من أمورنا مقام الأساس ، لمشكلات الالتباس (١) . . . وكان أبناء ذلك الوزير أشد إمعانا منه في الإشادة بمذهبهم الاثنا عشرى .

ولمّا أتينا بهذه الحقائق لنقيم الدليل على أنه منذ القرنين الخامس والسادس الهجرى ، كان تأثير الإسماعيلية فى الاثنا عشرية عظيما ، حتى إن بعض دعاة الإسماعيلية استطاعوا أن يجذبوا الاثنا عشرية إلى صفوفهم . كما لا يبعد أن يكون مصدرا نسب عبيد الله إلى موسى الكاظم نوعا من نفي ارتباطه بسلالة ميمون القداح ؛ ونعتقد أن ذلك لون من ألوان الدفاع الرخيص .

وغنى عن البيان أن انتساب عبيد الله إلى الأئمة الاثنا عشرية أو الموسوية لا يقوم على أساس تاريخى صحيح ؛ فإن الموسوية غير الإسماعيلية بالطبع . وأن الحركة التى أنجبت عبيد الله ، والتى قامت منذ أيام جعفر الصادق على يد الأئمة الإسماعيلية وأنصارهم لا تؤيد هذه الدعوى بحال من الأحوال . وإليك نسب عبيد الله إلى موسى الكاظم :

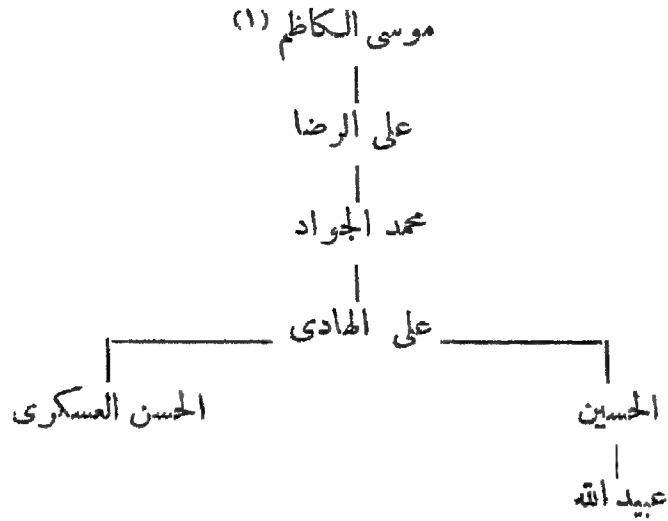
موسى الكاظم (٤)	موسى الكاظم (٣)	موسى الكاظم (٢)
علي الرضا	محمد الوصى	علي الرضا
محمد الجواد	احمد الوفى	محمد الجواد
علي الهادى	القاسم التقى	علي الهادى
الحسن العسكرى	عبد الله الرازى	الحسن العسكرى
عبيد الله محمد المنتظر	محمد المهدي (عبيد الله)	محمد المنتظر (عبيد الله)

Al-Hamdani : The Letters of Al-Mustansir (B.S.O.S, (١)
1943), p. 315

O'Leary : A Short Hist. of the Fatimid Khaliphate, p.37. (٢)

Sirdar Ikbal: Aga Khan (London, 1930), p. 240. (٣)

Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 95, (٤)



(ب) نسب عبيد الله إلى ميمون القداح

شغلت أسرة ميمون القداح مكانا كبيرا في تاريخ الدعوة الإسماعيلية في دورها الأول ، وهو دور الستر ، واعتمد الأئمة العلويون عليهم اعتمادا تاما منذ عهد جعفر الصادق (١٤٨ هـ) ، واستمروا يغذون الدعوة بخيوطهم ، ويرعونها بجهودهم ، حتى كان الأئمة - على ما رأينا - يكون إليهم جميع شئونهم الداخلية والخارجية . فكان ميمون القداح اليد المحركة للإمام محمد بن إسماعيل ، وكان عبد الله بن ميمون اللسان الناطق ، واليد الباطشة لعبد الله الأكبر بن محمد بن إسماعيل ، ولائنه الإمام أحمد الوفي . واستطاع أحمد بن عبد الله القداح أن يكون مع الإمام الحسين النقي كما كان أبوه وجده مع الأئمة السابقين . وعلى يد أحمد بن القداح « الحجة » وإمامه الحسين ، راجت الدعوة رواجا كبيرا حتى شملت اليمن والمغرب وفارس وخراسان بل والعراق . كما لم تخل بلاد الشام ومصر من أنصار هذا المذهب . كل هذا جعل الإمام الحسين ينزل عن إمامته طواعية لحجته سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح ، لكي يردها لابنه أبي القاسم (القائم) إذا بلغ رشده ، ويقوم بجميع شئون المذهب والدعوة ، ويعمل على إقامة الدولة الفاطمية التي ظلوا ينشدونها أكثر من قرن ؛ حتى لقد يستطيع المرء أن يسمى دور الستر بالدور القداحي .

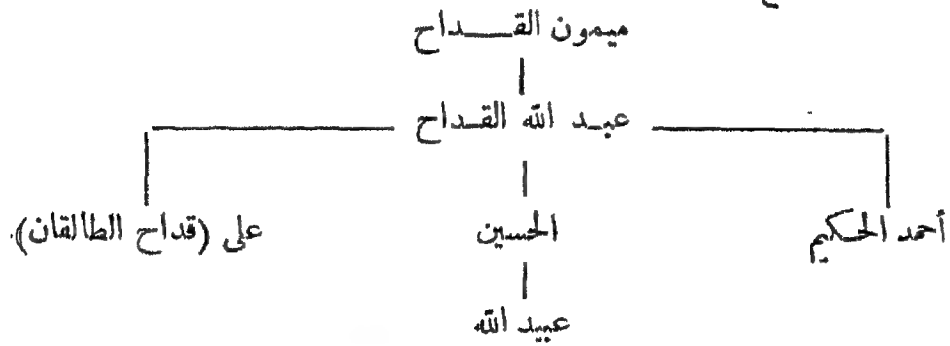
وقد ظل الناس لا يعرفون علاقة بيت القداح بالأئمة الإسماعيلية إلا عن طريق السنيين الذين اتخذوا من ذلك وسيلة للغضب من شأن هؤلاء الأئمة ، فرمواهم بأقذع التهم ، ووصفهم بأخس الصفات - على ما رأينا - إلى أن وقعت بين أيدينا بعض كتب الإسماعيلية ، التي تتضمن شيئا غير قليل عن علاقة ميمون القداح وأبنائه بالأئمة الإسماعيلية ، وهي تؤكد بعض ما يعتقده السنيون من أن عبيد الله المهدي من سلالة ميمون القداح .

١ - آراء الإسماعيلية :

تناولنا في الباب الأول موضوع تأميم عبيد الله بشيء من التفصيل ، وبيننا بعض الأسس التي قام عليها هذا التأميم ، وقلنا إن من مبادئ الإسماعيلية أنهم إذا وجدوا إمامهم الحقيقي في خطر ، جاز لهم أن ينقلوا هذه الإمامة بطريق الإيداع إلى شخص يشقون به ، حتى ينقلها هذا بدوره إلى مستحقها عند ما تحين الفرصة بذلك . ويسمون هذا المودع ، أى الذى كان واسطة اتصال بين إمامين حقيقيين ، إماما مستودعا . ويعتقد بعضهم أن عبيد الله من الأئمة المستودعين . ويرى بعض المراجع الإسماعيلية - كما تقدم - أن عبيد الله جمع بين رتبة الحجّة والإمام ؛ واستندت هذه المراجع إلى أن الإمام الحسين استغل مبدأ التبني الروحاني عند الإسماعيلية ، فاعتبر سعيدا (وهو عبيد الله) ولدا روحيا له ، وورثه الإمامة الوقتية ، كما اعتمد على مبدأ الاستيداع ، وهو إمكان نقل الإمامة من الإمام الحقيقي أى المستقر إلى شخص آخر لم يكن إماما حقيقيا أى مستقرا .

وقد أتينا ببعض النصوص الأصلية التي تثبت هذا الاعتقاد ، وتبين أن الخليفة القائم كان ابنا روحيا لعبيد الله ، أو بالحرى ولده المنتسب إليه بتعليمه وإفادته . كما أتينا بما يؤيد نزول الإمام الحقيقي لحجته سعيد الخير ، وأثبتنا أن سعيدا الخير (عبيد الله) قداحى ، حتى إن الدرزية يجعلونه في مرتبة الإمامة ، على حين يجعلون الخليفة القائم وأباه من قبله في رتبة الألوهية ، ويأتون بسلسلة نسبه ، ويؤكدون أنه من أبناء ميمون القداح ؛ كما يجعل الحسن الأعصم الفاطميين - ومنهم عبيد الله - من القداحية . وقد أشرنا إلى ما هنالك من خطأ فى تعميم الأعصم حكمه ، لأن

النصوص الأساسية تدحضه ، واستشهدنا بانتفاض حمدان قرمط على سعيد الخير هذا ،
وقلنا : إن هذا الانتفاض من الحجج الدامغة ، التي تؤيد ما ذهبنا إليه من أن عبيد الله
من نسل القداح ، ورددنا على ما يمكن أن يعترض به القائلون بأن عبيد الله إمام
إسماعيلي ، فنحن أن يكون مقتضيا للإمامة ، أو أن آباءه كانوا يميلون إلى اغتصاب
حقوق الأئمة . واستبعدنا أن يكون أبو عبد الله الشيعي يعلم أن المهدي إمام مستودع ،
وأن القائم إمام مستقر ؛ لأنه لم يتدرج في الدعوة إلى آخر خطواتها ، وقلنا : إن تأميم
سعيد الخير كان نوعا من أنواع المحافظة على كيان الإمامة نفسه ، ولم يكن هدما لها ،
على ما ذهب إليه من ينكر نسب عبيد الله . وخلصنا من ذلك كله إلى أن سعيدا لم
يكن ابنا جسيما للإمام الحسين بن أحمد ، أو أخا للمهدي ، بل كان حجة للإمام
الحسين ثم أضحى إماما فهديا (١) . فلما مات سلم الإمامة إلى القائم الإمام المستقر .
وإليك ثبوتا بوضوح هذا :



ومن الجدول الآتي نرى ارتباط الحجج بالأئمة المستورين

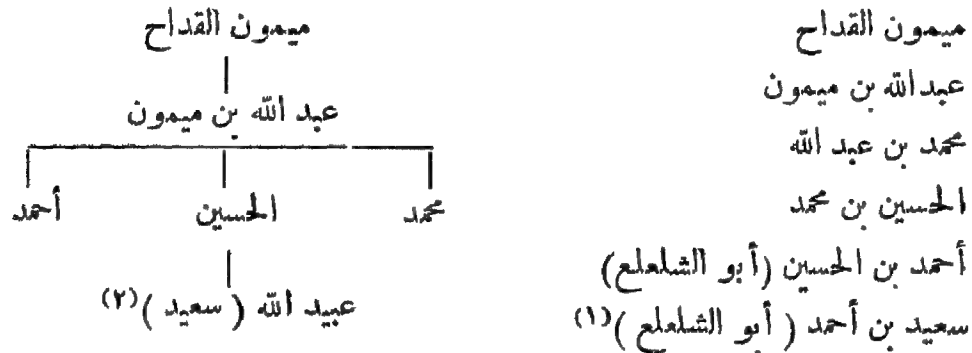
الإمام		الحجة	
محمد بن إسماعيل	١	ميمون القداح	١
عبد الله الأكبر (الرضي)	٢	عبد الله بن ميمون	٢
أحمد بن عبد الله	٣	" "	٢
أحمد بن عبد الله	٣	أحمد الحكيم (٢)	٣
الحسين بن أحمد بن عبد الله	٤	سعيد الخير	٤
القائم الإمام لا الخليفة	٥	سعيد الخير	٤

(١) انظر ما كتبناه في تأميم عبيد الله .

(٢) هذا ما أمكننا أن نستنتجه من المصادر الإسماعيلية ، التي لم نذكر سوى أحمد الحكيم .

وأما سلسلة النسب التي تذكرها رسائل الدرزية ، فإنها تخالف مراجعنا الإسلامية الأخرى في عدد هؤلاء الحجج ، فتذكر بين عهد الله القداح وعبيد الله ثلاثة أجيال . وإذا علمنا أن عبيد الله كان حجة للإمام عبد الله الذي قصد سلمية بعد عهد الرشيد ، وأنه عاصر الإمام أحمد الذي عاش في عهد المأمون وخلفائه على ما ذكرنا في الباب الأول ، فإن المدة التي تفصل بين عهد عبد الله بن ميمون القداح وعهد عبيد الله المهدي لا يمكن أن تشمل ثلاثة أجيال .

ونعتقد أن ذلك الخطأ المادى الذى وقع فيه الدرزية ، راجع الى أن عبد الله القداح لما استقام له أمر الدعوة ، استعان بأبنائه ، ومنهم أحمد الذى يسميه بعض محمدا أبا الشلعلع ، والحسين ، وأنه - على ما تقدم - وضع ابنه الحسين فى معسكر سلبية ، وأحمد فى معسكر السكوفة . فلما مات الحسين فى حياة أبيه ، انتقل أحمد بن عبد الله إلى معسكر سلبية الرئيس ، فاعتقد الدرزية أن أبناء عبد الله القداح يمثلون ثلاثة أجيال مختلفة . والحق أنهم إنما يمثلون جيلا واحدا ، لأن أحمد هو محمد ، وهو فى الوقت نفسه أخو الحسين . ومهما يكن من شئ فإن سلسلة نسب عبيد الله على ما جاء فى رسائل الدرزية تؤكد انتساب عبيد الله لميمون القداح برغم هذا الخطأ . وماك نسب عبيد الله عند الدرزية مع تصحيح خطئهم .



الذى ذهبنا إل أنه أحد بن عبد الله ، وكان حجة للحسين وأبيه ، وسعيد الخير ، حجة الامام الحسين ، ومستودع الامامة للامام أبي القاسم الذى تسمى بالقائم بعد وفاة عبيد الله ، والذى تؤكد المراجع الدرزية أنه قداحى .

(١) النقط والدوائر ص ٧٤ (نشره ميبلد سنة ١٩٠٢) .

(٢) استنتجنا هذا من بحثنا في تاريخ أشخاص حجج الأئمة ، انظر الباب الأول

ولا يختلف الإسماعيلية الذين ينكرون نسب عبيد الله إلى علي وفاطمة ، عن الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة هذا النسب إلا في عدد الأئمة ، وفي شخص عبيد الله . ولذلك لا يذكر هؤلاء المنكرون عبيد الله ضمن أئمة الاستقرار ، كما يتضح من هاتين السلسلتين :

محمد بن إسماعيل	محمد بن إسماعيل
عبد الله الأكبر	عبد الله الأكبر
أحمد بن عبد الله	أحمد بن عبد الله
الحسين بن أحمد	الحسين بن أحمد
علي بن الحسين	القائم (الخليفة الفاطمي الثاني) (١)
القائم (الخليفة الفاطمي) (٢)	

٣ — آراء السفيين المعارضين :

ويرى السنيون المعارضون أن نسب عبيد الله إلى علي وفاطمة غير صحيح ، ويذهبون - وهم على حق كما رأينا - إلى القول بأن عبيد الله ينتمي إلى الدعاة لا إلى الأئمة ، ويرمون أجداده بالزندقة تارة ، والمجوسية أخرى . فيرى عريب ابن سعد أن عبيد الله ينتمي إلى أحد الزنادقة الذين فتك بهم المهدي العباسي (١٦٩) ، أو أنه من سلالة أحد الدعاة الذين أخذوا على عاتقهم نشر الدعوة لأهل البيت . والحق أن عريب بن سعد ، مع قرب عهده بعبيد الله ، يخلط في عباراته خلطاً يدل على عدم تحققه من نسب عبيد الله فيقول : « إن عبيد الله المهدي بن عبد الله ابن سالم من أهل عسكر مكرم ... وسالم جده قتله المهدي (العباسي) على الزندقة ... وأن جده كان ينزل عند بني سهم بن بأهلة بالبصرة . وكان يدعى أنه يعرف مكان الإمام القائم ، وله دعاة في النواحي يجمعون له المال بسببه ؛ فوجه إلى ناحية المغرب رجلاً يعرف بأبي عبد الله الصوفي المحتسب ، (٣) . ولا نستطيع أن نصدق

(١) يكاد يجمع المؤرخون من الإسماعيلية على أن القائم بن الحسين لا على .

(٢) الخطاب : غاية المواليد ص ٣٦ (من المنتخب)

(٣) صلة تاريخ الطبري ج ١٢ ص ٢٧

ما قيل من إرسال جد عبيد الله المهدي أبا عبد الله إلى بلاد المغرب : لأنه وصل إلى هذه البلاد في أواخر القرن الثالث الهجري ، على حين أن جد عبيد الله كان يعاصر الخليفة العباسي المهدي ، الذي توفي سنة ١٦٩ هـ .

كذلك ذكر عطا ملك الجويني أن المهدي كان من سلالة عبد الله بن سالم البصري ، أحد دعاة الدعوة الإسماعيلية (١) . ويرى ابن النديم (٢) والنويري (٣) أن عبيد الله ينتمي إلى ميمون القداح ، إلا أن ابن النديم يرى أن عبيد الله هو ابن الحسين بن عبد الله القداح ، على حين يرى النويري أنه ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله القداح . ولو حاولنا تقصي آراء السنيين القائلين بانتساب عبيد الله إلى ميمون القداح لبلغت آراؤهم المئات عدداً ، وذلك مما يخرج بنا عن نطاق هذا البحث . ونحن لا ننكر أن كثيراً من هذه المراجع السنية على شيء من الصواب .

على أن هناك من يغلو في دعوى انتساب عبيد الله إلى ميمون القداح ، فيقولون إن الحسين أبا عبيد الله تزوج حين كان بسلمية من أرملة يهودي حداد ، وإن عبيد الله - سعيداً - كان ابن ذلك اليهودي ، فأحببه الحسين ورباه . ولما لم يكن له وارث عهد بالأمر إليه . ولسكننا نشك في أن الحسين لم يكن له ولد ، لأنه إذا كان المقصود هو الحسين بن عبد الله القداح ، فقد رأينا في الباب الأول أن سعيداً هو ابن ذلك الحسين ؛ وإن كان المقصود الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن

(١) Blochet : Le Missianisme, p. 83.

وليس من شك في أن عريب بن سعد والجويني خلطوا بين عبد الله بن ميمون القداح وأبيه ميمون ، وبين عبد الله بن سالم وجده سالم ؛ لأن المعروف أن ميمونا اتهم بالزندقة في عهد أبي جعفر المنصور والمهدي ، وأن كلا من ميمون القداح وابنه عبد الله كان من دعاة الإسماعيلية ، حتى إن أوصاف عبد الله بن سالم البصري تتفق تماماً مع أوصاف عبد الله بن ميمون . وشيء آخر هو أن القرامطة الشيعيين كانوا يسمون المهدي ، ابن البصري . وقد ينهض هذا دليلاً على أن ابن البصري الذي يقصده القرامطة هو البصري الذي يذكره عريب والجويني ، وأن سعيد بن البصري لا يمت إلى العلويين بصلة النصب .

(٢) الفهرست ص ٢٦٥

(٣) نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٣ ورقة ٧

إسماعيل . فإن المراجع الإسماعيلية تكاد تجمع على أن أبا القاسم (القائم) هو ابنه . هذا من جهة . ومن جهة أخرى أما كان يوجد في بيت الحسين من يضطلع برياسة الدعوة الإسماعيلية بدل ذلك اليهودي ؟ ويظهر أن القول بأن عبيد الله من أصل يهودي قد ولدته كراهة العباسيين والعلماء السنيين للفاطميين . خصوصاً وأنهم كانوا لا يرون غضاضة في الاستعانة بوزراء من اليهود كابن كلث . ولو أخذنا برأى الذين يقولون بانتساب عبيد الله المهدي إلى عبد الله بن ميمون القداح ، لاستحال علينا أن نأخذ بالرأى القائل بأنه من أصل يهودي . لما اشتهر عن هؤلاء من الطموح والميل إلى الزعامة . ولذلك لا يمكن أن يسمحوا لهذا الحسن أن يعيث بالدعوة التي قامت على أكتافهم وانتشرت بفضل جهودهم ، وأن يلقيها في يد لا تمت إليهم بصلة . ومهما يكن من شيء فقد رمى عبيد الله بأن أباه ، من نسل القداح الملحد المجوسى . وقيل : كان والد عبيد الله هذا يهودياً من سلبية من بلاد الشام . وكان حدادا . وعبيد الله هذا كان اسمه سعيداً . فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله ، وزعم أنه علوى فاطمى ، وادعى نسباً ليس بصحيح ، لم يذكره أحد من مصنفى الأنساب العلويين ، بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه (١) .

ويظهر أن الذين ينسكرون صحة نسب عبيد الله أكثر اختلافاً من الذين يقولون بصحة هذا النسب ، مما يجعل الاهتمام إلى رأى قاطع في هذا الموضوع — عن طريقهم — من الصعوبة بمكان . فمن هؤلاء من يقولون إن عبيد الله من أصل يهودي — كما رأينا — ، ومنهم من يثبت أن عبيد الله أقر على نفسه أنه من أصل قداحى (٢) . ومنهم من يقول إن الحسين بن عبد الله القداح زوجه من ابنة عمه محمد أبي الشلملج ، فأنجبت منه ولداً أسماه عبد الرحمن الذى تولى الخلافة بعده وتلقب بالقائم ؛ ومنهم من يقول إن سعيداً لم يكن يسمى عبيد الله ، فلما وصل إلى سجلماسة تسمى بذلك الاسم . يقول الباقلانى — من علماء القرن الخامس الهجرى : وجد عبيد الله كان مجوسياً ، ودخل عبيد الله المغرب ، وأدعى أنه علوى ، ولم يعرفه

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٣٠٠ - ٣٠١

(٢) راجع ما ذكرناه عن مقابلة عبدان ، داعى حدان ، عبيد بن الحسين .

أحد من علماء النسب ، وكان باطنيا خبيثا حريصا على إزالة ملة الإسلام^(١) .
وقد دفعت العاطفة الجاحمة بعض من ينسبون نسب الفاطميين إلى القول
بأن اليسع بن مدرار — صاحب سجلباسة — سجن عبيد الله (سعيد بن الحسين) ،
ولكنه قتله حين حضر أبو عبد الله الشيعي إلى بلده ، فأخرج أبو عبد الله خادم
المهدي ، وادعى أنه هو المهدي^(٢) . إلا أنه لا يمكن الأخذ بهذا القول ، لأن
اليدين قتلت عبيد الله تستطيع أن تقتل ولي عهده القائم . وليس هناك ما يمنع
أبا عبد الله من أن ينادى بالقائم على أنه المهدي المنتظر ، وبذلك يضع أبو عبد الله
الأمور في نصابها . كما يمنعنا من تصديق ما أورده الذهبي أن القائم ظل على وفاق مع
عبيد الله المهدي حتى سنة ٣٣٢ هـ ، وأنه كان ساعده الأيمن في الحروب التي شنها على
أعدائه في الشرق والغرب . ولو لم يكن عبيد الله هو المهدي نفسه ، لشق القائم عليه
عصا الطاعة ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث . أضف إلى هذا أن المؤامرة التي أخذ
أبو عبد الله الشيعي يحكيها حول المهدي تؤيد ذلك ، ولم تكن هذه المؤامرة
في حقيقة الأمر إلا محاولة تذرعه بها هذا الداعي لاسترداد ما فقد من نفوذ . ولو
كان عبيد الله المهدي قد قتل في سجلباسة ، لكان أول ما يرمى به من المتآمرين أنه
خادم المهدي وليس المهدي نفسه . ويدحض هذا ما بين أيدينا من المراجع
الإسماعيلية ، التي تتفق فيما بينها على أن شيئا من ذلك لم يحدث . ونستطيع أن نخلص
ما ذكره السنيون الذين ينسبون صحة هذا النسب إلى أمور أهمها :

أولا : أن هؤلاء المؤرخين يكادون يجمعون على أن عبيد الله من سلالة ميمون
القداح ، ويدكرون في الوقت نفسه أن ميمونا القداح وأبناءه كانوا من دعاة الأئمة
الإسماعيلية المستورين ، ثم اغتصبوا الأمر لأنفسهم .

ثانيا : يرى هؤلاء أيضا أن عبيد الله وآباءه كانوا من الزنادقة المجوس ، الذين
حاولوا تقويض دعائم الإسلام ، عن طريق التأويل تارة ، والقول بالباطن أخرى ،

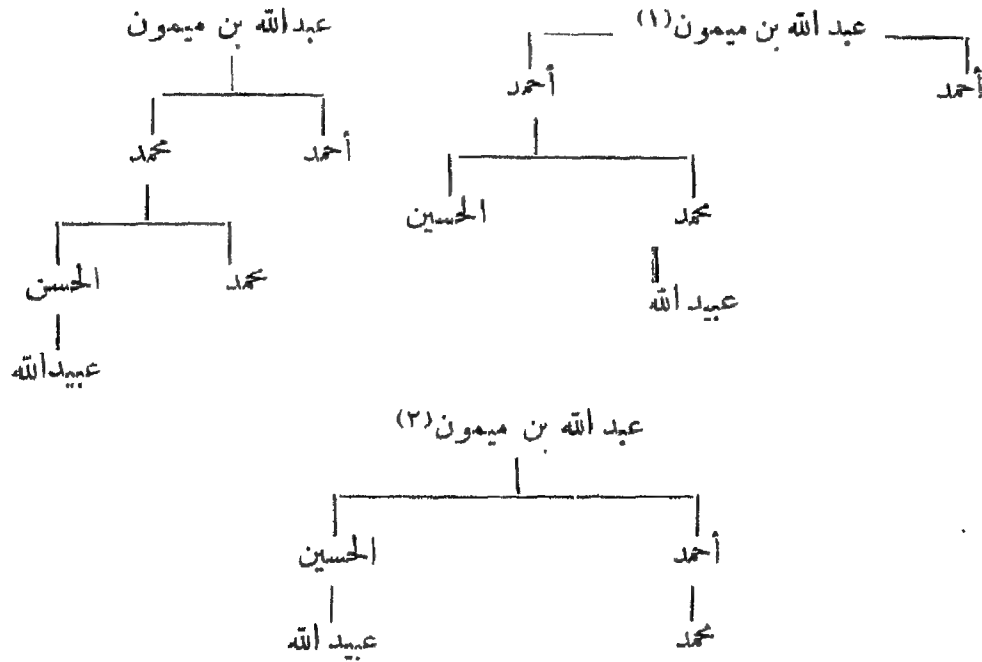
(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مخطوط ، ج ٣ ص ٨٥ . وقريب من هذا ما ورد في كتاب أبناء
الزمن (ص ٢٥) من أنه ، اتفق النسابون وأهل التاريخ على بطلان نسبهم ، وأنهم غير فاطميين .
ولنما يرجع نسبهم إلى ميمون القداح مولى جعفر الصادق ، ، .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مخطوط ج ٣ ص ٨٥

أو عن طريق محاولة إحياء عقائد المجوسية ، أو ما إلى ذلك .

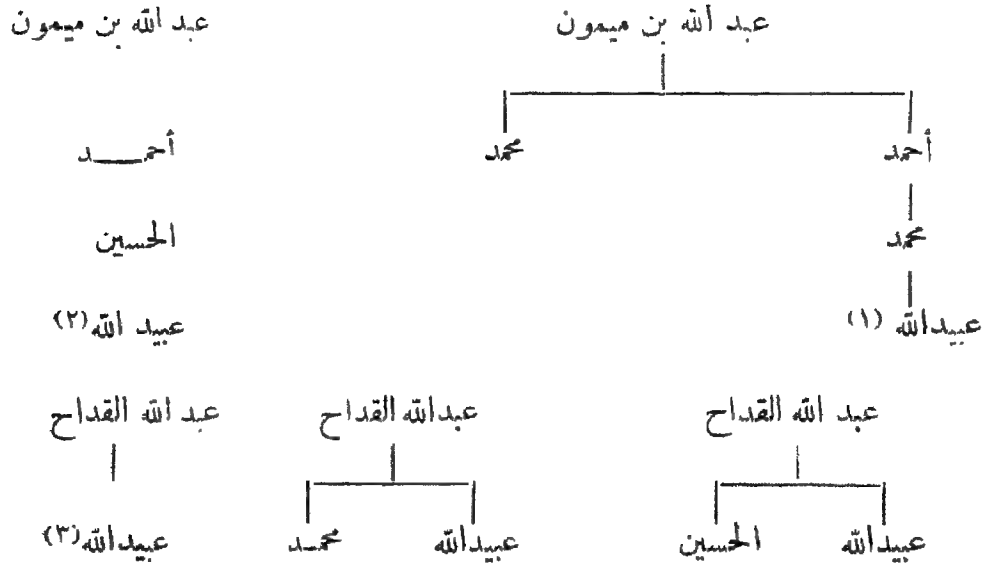
ثالثا : أنهم يرجعون عبيد الله إلى أصل يهودى ، ويذهب بعض إلى أنه قتل في سجلماسة . وسنرى أن المعارضين في صحة هذا النسب على شىء من الصواب ، فيما يتعلق بالأميرين الأول والثانى . وأنهم لم يصبوا فيما ذهبوا إليه مما يتعلق بالأمير الثالث .

رابعا : اختلف كثير من هؤلاء المؤرخين في ذكر أسماء آباء عبيد الله . وفي عدد الأجيال التي تفصل بينه وبين جده عبد الله بن ميمون القداح ، المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجرى ؛ فيقول بعض إنها ثلاثة أجيال ، ويقول بعض آخر إنها جيلان ، ومنهم من يقول إنها جيل واحد فقط ؛ بل إن هناك من يعتقد أن عبيد الله هو ابن عبد الله القداح نفسه . وهاك أهم آراء السنين الذين ينكرون صحة نسب عبيد الله المهدى ، على ما نراه في الجدول الآتى :



Mamour : Palemics on the Origins—pp. 137-9 (١)

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٥



والآن وقد استعرضنا نسب عبيد الله من جميع نواحيه ، نستطيع أن نتهدى إلى النتائج الآتية :

- ١ — يجب أن نطرح جانبا القول بأن عبيد الله المهدي من سلالة موسى الكاظم ، لأن هذا القول أقرب إلى الخرافات منه إلى الحقائق التاريخية .
- ٢ — إن ما ذكره الإسماعيلية الذين قالوا بصحة هذا النسب لا يجانب الصواب من ناحية الأئمة المستورين . أما عن انتماء عبيد الله إلى الإمام المستور الذي تولى زعامة الدعوة الإسماعيلية قبله من ناحية القرابة ، فقد أصبح مثارا للشك ، بعد أن شهد شاهد بل شهود منهم على بطلانه . ونعتقد أن كثيرا من هؤلاء الكتاب الإسماعيليين الذين اعترفوا بصحة هذا النسب ، كانوا يعرفون حقيقة عبيد الله ، ولكنهم كانوا لا يريدون أن يثيروا الرعية عليهم إذا علموا أن مؤسس دولتهم الأول لم يكن من الفاطميين العلويين ، خصوصا وأن السواد الأعظم من رعايا الفاطميين كانوا لا يعرفون شيئا عن أصول المذهب الإسماعيلي ، التي قام عليها تأميم عبيد الله المهدي . — أي إسناد الإمامة إليه — بمعنى أنهم لم يعرفوا نظامي الاستقرار والاستبعاد

(١) Mamour : Polemics, pp. 137-9.

(٢) أنباء الرن في أخبار البين ص ٢٩ (مخطوط) .

(٣) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ١٩

الإمامي ، والتبني الروحاني وغير ذلك من النظم الإسماعيلية الأساسية . وإذا كان كثير من الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة نسب عبيد الله إلى علي وفاطمة عن طريق الفراية . فإن بعضا منهم كانوا ، على العكس من ذلك ، يرون أن عبيد الله ينتسب إلى عبد الله القداح . ولكن هؤلاء لم يريدوا أن يثيروا في وجه الفاطميين متاعب جديدة . لأنهم كانوا يعتقدون أن عبيد الله إمام حقا . فإذا أقروا بأنه من سلالة علي وفاطمة جعلوه أحد أئمة الاستقرار . وإذا أرجعوه إلى أصله الحقيقي ، أي إلى أبناء ميمون القداح ، جعلوه في هذه الحالة أحد أئمة الاستبداد . والعامه لا ندرك أكان عبيد الله إمام استقرار أم إمام استبداد ، وإنما تعتقد أنه إمام من سلالة علي وفاطمة . وإذا علموا غير ذلك لما أحجموا عن شق عصا الطاعة على الفاطميين ، والغض من شأنهم ، وإثارة الفتن والفتن في وجههم .

٣ — أما ما يراه السنيون الذين يقولون بصحة هذا النسب ، فإنه على الرغم من أنهم استندوا فيما ذكروه إلى ما جاء في كتب الإسماعيلية ، وأنهم وصلوا في كثير من الأحيان إلى بعض ما وصل إليه الإسماعيلية أنفسهم في كتبهم السرية ، فإن ما ذكروه لا يمكن أن نعتمد عليه كثيرا . لاختلافهم في أشخاص آباء عبيد الله ، ولأنهم كانوا على جهل تام بكثير من أساليب الدعوة السرية لهذا المذهب . ولو أنهم ألما بهذه الأساليب لكان آراؤهم كثير من الاعتبار والتقدير . أضف إلى ذلك أنهم كانوا يندفعون كثيرا ما وراء عواطفهم وميولهم ، على ما ذكره ابن الأثير والمقرئ وغيرهما . لذلك نستطيع أن نقول إن آراء هؤلاء السنيين الذين يؤيدون صحة نسب عبيد الله . لا تصلح لأن تتخذ أساسا للحكم في موضوع انتساب عبيد الله إلى علي وفاطمة ؛ وإن كان لهذه الآراء اعتبارها فيما يتعلق بالأئمة المستورين ، الذين جاءوا قبل عبيد الله .

٤ — إن المعلومات التي ذكرها السنيون الذين ينكرون صحة هذا النسب ، تمتاز بغزارة مادتها ، وكثرة إلمام أصحابها بالموضوع الذي نحن بصدد بحثه واستقصائه ، ولكنهم كانوا ينظرون إليه نظرة غير عميقة ، وإنما نظروا إليه نظرة تنطوي على الكراهية والمقت للفاطميين خاصة ، إرضاء لميولهم ورغباتهم من جهة ، وإرضاء للعباسيين السنيين وغيرهم من الأمراء ، من جهة أخرى . ولكنهم استطاعوا برغم ذلك أن يصلوا إلى بعض الحقائق ؛ فقد قرر أكثرهم أن عبيد الله ينتسب إلى

ميمون القداح ، وأثبتوا في الوقت نفسه أن أفراد أسرة القداح كانوا دعاة للأئمة المستورين ؛ وهذا ما ذهب إليه الإسماعيلية أنفسهم . وأما القول بأن هؤلاء القداحية قد استبدوا بالامر دون العلويين ، فإنه ينطوى على شيء غير قليل من المبالغة . وذكر هؤلاء السنيون في الوقت نفسه اعتناق أسرة القداح مبادئ الزندقة والمجوسية الخ . وفي الحق أنه على الرغم من هذه المبالغة والتفنن في تصويرها ، فهناك شيء من الحقيقة ؛ ذلك أن السنيين في جميع العصور كانوا ينظرون إلى المذهب الإسماعيلي نظرتهم إلى الزندقة والمجوسية وما إليهما . فإن هناك مذاهب يقول بها الأئمة الإسماعيلية وأنصارهم ، تنطوى على شيء كثير من التطرف والخروج على كثير من أصول الشريعة الإسلامية . من ذلك أنهم يقولون بنبوة محمد بن إسماعيل ، وأنه صاحب الشريعة السابعة ، أي شريعة التأويل .

وصفوه القول أن اتهام القداحية بالزندقة والمجوسية وغيرهما ، إنما هو اتهام قصد به النيل من المذهب الإسماعيلي ، والأئمة الإسماعيلية وأنصارهم . ولكننا نأخذ على السنيين الذين ينكرون صحة نسب عبيد الله أنهم شوهوا الحقيقة ، بإسرافهم في الغضب من شأن أسرة القداح ، ورميهم إياه بالإلحاد والمروق عن الإسلام . وليس بهذا نستطيع فهم الحقائق التاريخية .

أما الذي لا نستطيع أن نصدفه ولا أن نؤمن به ، فهو هذه المحاولات التي قصد بها نفى انتساب عبيد الله إلى بني القداح ، فإن فيما ادعاه هؤلاء الذين قالوا بأن عبيد الله من أصل يهودي نوع من التجنى ، لأننا لو علمنا أن المذهب الإسماعيلي ، في درجاته الأولى ، يرمى إلى جذب الناس إليه عن طريق التظاهر بالتقشف والورع والتقوى ، وإذا كانت التقوى تعتبر أساس المذهب الإسماعيلي ، ووسيلة لجذب الناس إليه ، فكيف يعقل أن يميل الناس إلى قبول مذهب يدعو إليه قوم من اليهود ؟ ثم كيف يعقل أن يحمل الفاطميون العالم الإسلامي على الإقرار بزعامتهم من الناحيتين الروحية والزمنية اللتين حاربوا العباسيين من أجلهما . ولا غرو فإن الفاطميين يدعون - وهم على حق - أنهم أولى الناس بالزعامة الروحية للعالم الإسلامي ، لأنهم ورثوها عن الرسول عليه الصلاة والسلام . بعد هذا كله نرى أن القول بأن عبيد الله من أصل يهودي نوع رخيص من الدعاية العباسية . خصوصا إذا علمنا أن أبناء القداح لا يستطيعون أن ينزلوا عن

الزعامة لغيرهم . وأن الزعامة الروحية التي كان الأئمة الإسماعيلية يسعون إلى تحقيقها تحول دون ذلك . كما تحول دون الأخذ بهذا الرأي المصادر الإسماعيلية الأصلية ، التي تكلمت على الدعوة من الناحية الميرية ، والتي أوضحت بطلان هذا الرأي .

ومثل ذلك أيضا القول بأن عبيد الله مات مقتولا على يد اليسع بن مدرار صاحب سجناسية ، لأن القائلين بذلك بنوا آراءهم على حقيقة يقر بها الإسماعيلية . وهي أن أبا عبد الله الشيعي لم يكن يعرف شخص المهدي . ولكن جهل أبي عبد الله بعرفة زعيمه عبيد الله ، لا يجعلنا نحكم بأنه مات مقتولا ، وأن غيره وضع في مكانه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد دلت القائلون بهذا القول على أنهم غير جادين فيما ذهبوا إليه ، لأنهم لو علموا أن رسل أبي عبد الله كانت ترد عليه تباعا في سلمية ، ثم وهو في طريقه إلى المغرب ، فماذا يكون موقف المهدي وموقف أبي عبد الله الشيعي لو أشاع الرسل أن هذا الشخص ليس إمامهم الذي نادوا بزعامته ، وقابلوه في سلمية وفي طريقه إلى المغرب ؟ وأمر ثالث هو : ما الذي يمنع أبا عبد الله الشيعي من أن يقر بالحقيقة لو أن عبيد الله قد مات ، فيقيم الإمام المستقر وهو القائم مقامه ؟ أما أنه يضع خادما موضع الإمام في الوقت الذي يكون فيه بين يديه إمام مستقر ، فإن ذلك يعتبر خروجا على المذهب الإسماعيلي الذي يقول بتعيين إمامه بالنص . ولا شك في أن القائم كان منصوبا على إمامته .

هـ — أما ما ذكره الإسماعيلية القائلون بأن عبيد الله من نسل ميمون القداح ، فإن ما ذهبوا إليه كان عن عقيدة راسخة وبقين ثابت . ولا عجب ، فإن هؤلاء قد أدركوا الحقيقة فذكروها مجردة عن كل ميل أو هوى ؛ رأوا أن عبيد الله كان إماما لكنه مستودع ، وأنه من سلالة العلويين روحانيا فقط . وأنه ابن الأئمة التعليمي لا الجسماني ؛ كما رأوا أن الإقرار بهذه الحقائق لا يضير الدعوة ، ولا يضير الدولة ، وأدركوا عبث التماذي في التفسيرات التأويلية Esoteric Interpretation الخاصة بشخص عبيد الله . ومن ثم لجئوا إلى التصريح دون التلميح . وكان لما فعلوه أثره في إظهار الحقيقة ناصعة جليلة . وهي أن عبيد الله من أصل قداحي ، وأن سائر الخلفاء الفاطميين من أصل علوي . وإذن فإن هؤلاء لم يقولوا ما قالوه ليمعدوا الشكوك عن الدولة الفاطمية - كما يقول بعض - إذ كيف يزيلون الشكوك بإضافة شكوك أخرى ؟

ثم كيف نستطيع أن نفهم الحقيقة التالية : يأتي العباسيون ، المنافسون الخطرون للفاطميين . في سنة ٤٠٢ هـ ، فيعانون في محاضرة عامة ، أن الخلفاء الفاطميين ، وعلى رأسهم عبيد الله ، ليسوا علويين . ثم يأتي علماء الإسماعيلية الذين لا يؤيدون صحة نسب عبيد الله ، فيقولون إنه قداحى لا علوى . لا ! بل يكتب الدرزية وهم - كما نعلم - فرع من الإسماعيلية بعد ست سنوات ، يؤكدون انتساب عبيد الله إلى بنى القداح . ومعنى ذلك أن هؤلاء الإسماعيلية إما أنهم ذكروا الحقيقة مجردة ، وإما أنهم أقروا العباسيين على دعواهم فيما ذهبوا إليه ، من أن الفاطميين من أصل غير علوى . ولا يمكن أن يدافع الإسماعيلية عن خصومهم ، أو أن يرموا أنفسهم بنفس التهم التي رماهم بها هؤلاء العباسيون . ومن ثم لا يساورنا الشك في أن هؤلاء الإسماعيلية الذين يؤيدون انتساب عبيد الله إلى ميمون القداح ، كانوا على حق فيما ذهبوا إليه .

من ذلك كله نستطيع أن نقرر هنا أن عبيد الله هو الإمام المستودع سعيد الخير ابن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح ، وأنه كان كجده حجة للأئمة المستورين ، الذين عينوه إماما مستودعا ، لينقل الإمامة إلى أبي القاسم بن الحسين بن أحمد ابن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، الذي تلقب بالقائم حين ولى الخلافة بعد عبيد الله المهدي في سنة ٣٢٢ هـ . ونعتقد أنه لم يعد هناك ما يمكن أن نسميه مشكلة النسب الفاطمي ؛ فإن عبيد الله مستودع من نسل القداح . وبذلك يتفق بعض المصادر الإسماعيلية مع المصادر السنية القديمة والحديثة في نسبة عبيد الله إلى أبناء القداح ، وفي أن الفاطميين علويون نسبا وقرابة إلا عبيد الله ، وأنه ليس في ذلك حَظٌّ لعبيد الله أو للفاطميين ، لأنها الحقيقة المجردة أولا ، ولأن عبيد الله كان إماما مستودعا ثانيا ، وإن لم يكن من بيت على وفاطمة . أما إخلاصه للأئمة الإسماعيلية وللمذهب الإسماعيلي ، فلم يكن موضع شك أو ريبة في يوم من الأيام .

الباب الثالث

عبيد الله المهدي والخلافة

قامت الدولة الفاطمية في إفريقية بعد أن قضى أبو عبد الله الشيعي على دولة الأغالبة سنة ٥٢٩٦ هـ : فكان قيام هذه الدولة نهاية عهد استتار الأئمة ، الذي بدأ بمحمد بن إسماعيل ، وطورا من أطوار النزاع الذي قام بين العلويين الشيعيين والعباسيين السنيين ، والذي لم ينته إلا بقضاء هولاكو على بقايا الإسماعيلية في خراسان وطبرستان وقوهستان (٥٦٥٥ هـ) ، وعلى الدولة العباسية نفسها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

لم يقنع الفاطميون بتكوين دولتهم في بلاد المغرب النائية ؛ ولذلك لم يكن بد من أن ينتزعوا أهم بلاد العالم الإسلامي من جسم الدولة العباسية . وأن يرثوا الإدارة بعد أن ضعفت شوكتهم ، ويضعوا جميع بلاد المغرب (تونس والجزائر ومراكش) في داخل نطاق إمبراطوريتهم المنشودة . وقد أدى هذا كله إلى صراع عنيف ، قام به عبيد الله في الشرق والغرب ، كما أدى إلى صراع سياسي عنيف آخر ، قام بين المهدي في المغرب والأمويين في الأندلس .

١ — علاقة عبيد الله بالعباسيين

أسباب هذا العداوة :

ويرجع هذا العداوة الذي قام بين التشيع Shiism والسنية Sunnism إلى عوامل كثيرة . فقد كان العلويون والشيعيون والمتشيعون جميعا يعتقدون أن عليا أحق بالخلافة من سواه ، فناروا على الأمويين . ولما انتقلت الخلافة إلى العباسيين اعتقد العلويون أنهم اغتصبوا الأمر منهم ، وحمل الإسماعيلية لواء الفريق المناوئ

العباسيين ، وظلوا يعملون في الخفاء ، حتى أزالوا دولة الأغالبة ، وأقاموا دولة شيعية على أنقاضها : واتخذوا من تلك الدولة نقطة ارتكاز أغاروا منها على ممتلكات العباسيين . وقد رأينا ما دار من نقاش بين وزير المقتدر وأحد أتباع عبيد الله ، الذي نعى على العباسيين اغتصابهم الأمر من الفاطميين ؛ كما كان عبيد الله ، كرامة الإسماعيلية ، يعتقد أن العباسيين غير جديرين بالزعامة الروحية والسياسية ، لأنهم لم يقتصروا الحق من أهله فقط ، بل أضحووا في نظرهم من الخارجين على الدين ، حتى قال داعيهم للمقتدر : « لأنك أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين » .

ولا ننسى أن الضرورة الملحة كان لها أثر كبير في تشكيل سياسة عبيد الله مع العباسيين ؛ فقد كانت إفريقية بلادا فقيرة معدمة ، لا تستطيع أن تمد دولة تريد أن تنزع العالم الإسلامي بالمسال والرجال ، وكان يفصلها عن العالم المتحضر في مصر والعراق وفارس وغيرها . الصحراء الغربية القاحلة . وقد رأى عبيد الله أن القيروان أو المهدية لا تصلح أن تكون قاعدة لإمبراطوريته المنشودة . ولذلك كان الصراع بين الفريقين أمرا لا مفر منه ؛ فعبيد الله يريد أن ينزع زعامة العالم الإسلامي من المقتدر العباسي ، وهذا يريد أن يحتفظ بتلك الزعامة مهما كلفه الأمر . ويدلنا على رغبة عبيد الله المهدية في ابتلاع بلاد المشرق ، تلك الآيات التي مدحه بها ابن سعدون الوريث جيلي (١) :

هذا أمير المؤمنين تضعضعت
لقدومه أركان كل أمير
هذا الإمام الفاطمي ومن به
أمنت مغاربها من المخدور
والشرق ليس لشامه وعراقه
من مهرب من جيشه المنصور (٢)

وهناك أمر جدير بالنظر ، هو أن الدولة الفاطمية قامت عقب صراع عنيف شنه الكتاميون بزعامة الداعي أبي عبد الله الشيعي ، وأن هؤلاء الذين تعودوا شن الحروب والدفاع والهجوم خمس عشرة سنة ، لا يستطيعون الهدوء أو البقاء دون حرب . لذلك كان من الحنكة السياسية أن يعمل عبيد الله على استغلال هذا الروح

(١) يحتمل أن يكون هذا اللفظ نسبة إلى ورجلان ، وهى كورة بين شمال إفريقية وبلاد الجريد ، التي يسكنها قوم من البربر . انظر معجم البلدان لياقوت . حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٧٢ هامش (١)

(٢) المقرئى : اتعاظ الخنقا ص ٤٤

الحربى للصالحه دعوته ومذهبه ، وفي سبيل إقامة دولة شاسعة الأرجاء يرت فيها دولة العباسيين . فكان عبيد الله يتشبه في عمله بأبي بكر الصديق رضى الله عنه ! حين أراد أن يشغل المسلمين بالحروب التى يجرون من وراءها المغنم ، ويشيدون للإسلام مجدا ودولة مترامية الأطراف .

وهكذا دل عبيد الله على مقدرة فائقة فى الناحية السياسية ؛ ولا غرو فقد رأى بعينه مؤامرة أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس وكثير من زعماء كتامة عليه ، ورأى فى الوقت نفسه أن قتل أبى عبد الله الشيعى (سنة ٢٩٨ هـ) قد أحدث هزة عنيفة فى أركان هذه الدولة الناشئة ، فعمل على أن يشغل الناس بشن الحرب على العباسيين ، ومحاولة الاستيلاء على مصر واتخاذها قاعدة جديدة لمد نفوذه إلى بلاد العراق .

(١) امتداد نفوذ عبيد الله فى المشرق

اتخذ هجوم الفاطميين على العباسيين شعبا أربعا ؛ كانت الشعية الأساسية تتركز فى الاستيلاء على مصر . على حين وجه نشاطه نحو العراق مستعينا بالقرامطة ، ونحو بلاد المشرق كخراسان وسواها مستعينا بالدعاة العلناء ، ونحو بلاد المغرب ليرث الأدارسة ، ويقضى على البقية الباقية من الولايات السنية فى تلك البلاد . والواقع أن إغارة الفاطميين على مصر كانت لونا من ألوان الصراع الذى قام به الفاطميون فى وجه العباسيين .

١ — الهجوم الفاطمى على مصر

كانت بلاد المغرب أكثر البلاد صلاحية لنشر المذهب الإسماعيلى ، ولكنها لم تكن صالحة لإقامة دولة قوية . لذلك كانت مصر هى الهدف الذى تهدف إليه الدولة الفاطمية لإقامة دولة تراث العباسيين . وعلى الرغم من أن محاولات عبيد الله فتح مصر قد منيت بالإخفاق ، إلا أنه ورث خلفاءه هذا الميل القوى للاستيلاء على هذه البلاد ، حتى انتهت هذه المحاولات بالفتح سنة ٣٥٨ هـ . ولا يعزب عن بالنا أن الدعوة الفاطمية كانت قد أوجدت فى بلاد الشام ومصر واليمن جماعات تدين لها بالطاعة . وأنه إذا ما توجهت جهود الفاطميين نحو مصر ، وجدوا فيها كل

عون . ولا يبعد أن يكون الفاطميون قد رموا من وراء احتلال القسطنطينية حاضرة مصر ، ثم دمشق حاضرة الشام ، والمدينة المنورة ومكة المكرمة حاضرتي العالم الإسلامي من الناحية الدينية إلى مد نفوذهم إلى بلاد العراق . ولا غرو فإن من يحتل هذه المدن يسهل عليه احتلال بغداد نفسها^(١) .

(١) الحملة الأولى :

كانت الحملة الأولى (سنة ٣٠١ هـ) بزعامة أبي القاسم ، ولي عهد المهدي والإمام المستقر ، وحباسة بن يوسف . وقد استولى الجيش الفاطمي المغربي على برقة ، ثم على الإسكندرية ، وتوغل في الوجه البحري ، حتى أصبح على مقربة من الجزيرة ، ولكنه ارتد عن مصر بعد أن حلت به الهزيمة في مدينة مشتل ، القريبة من الجزيرة . ويهملنا أن نلاحظ على هذه الحملة أموراً منها :

أولاً : أن الفاطميين كان لهم في مصر أنصار وأعوان ، لم يقتصروا على المستجيبين من الإسماعيلية ، وأن حركتهم شملت جماعة من السنين والقبط وسواهم . ومهما يكن من شيء ، فإن أبا علي الداعي المقيم بالمهدي بمصر ، كان يبذل جهوداً جبارة في جذب أهالي هذه البلاد إلى الفاطميين ، وأنه قام بنفس الدور الذي قام به أبو عبد الله مع المغاربة ، وابن حوشب مع اليمنيين ، لنصرة المهدي ودولته . يدلنا على صحة هذا ما ذكره أحد الشعراء المعاصرين في قوله :

وأقبل^(٢) جاهلاً حتى تخطى وجزاز بجهله حد التخطي
بكتب جماعة قد كاتبوه من أقباط بمصر وغير قبطي
وكل كاتبوه وناقبونا وكل في البلاد له موطن^(٣) .

ولذلك لما وصل أبو القاسم إلى الإسكندرية ، ألقى كثيراً من الخطب يحث فيها المصريين على الثورة في وجهه العباسيين ، ويستميلهم إلى الفاطميين ، ويذكر فيها شيئاً غير قليل من عقائد المذهب الإسماعيلي . ولا بد أن تكون هذه الخطب

(١) حمدان إبراهيم حمدان : الفاطميون في مصر ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) يزيد : حباسة .

(٣) الكندي : كتاب الولاية والقضاء ص ٨٢ .

قد زالت إعجاب أنصار الفاطميين في مصر . بخلاف السنين الذين لا يميلون إلى المذاهب الشيعية الغالية . وكانت مهمة ذكا (٣٠٣ - ٣٠٧ هـ) الوالى العباسى الجديد . أن يتبع الموالى للفاطميين . وفسجن منهم كثيرين ، وقطع أيدي بعضهم وأرجلهم (١) .

ثانيا : أن الذى دافع عن مصر هم العباسيون ، إذ أرسل الخليفة المقتدر قائده مؤنسا الخادم ، بجيش لا يقل عدده عن أربعين ألف رجل (٢) . ومعنى ذلك أن حالة مصر كانت مضطربة بعد الطولونيين ، حتى إننا لم نسمع كثيرا عن نشاط ولائها ، ووقوفهم في وجه الجيش الفاطمى . ولاغرو ؛ فإن الدولة العباسية كانت على الرغم من ضعفها ، في حالة تسمح لها بإرسال الجيوش خارج بلاد العراق ، بخلاف ما كانت عليه الحال عند ما غزا جوهر الصقل مصر بعد ذلك بأكثر من نصف قرن (أى في سنة ٣٥٨ هـ) .

ثالثا : أن من الأمور الجديرة بالبحث في الحملة الفاطمية الأولى على مصر ، معرفة الرئيس الفعلى لتلك الحملة ؛ أهو أبو القاسم (القائم) ، أم حباسة . ابن يوسف الزعيم الكنتامى ؟ لا شك أن حباسة هو الذى خرج على رأس الحملة من بلاد المغرب ، ثم فتح برقة وحده . ولا يبعد أن يكون المهدي قد أعد جيشا بزعامة حباسة ، ثم أمده بجيش بقيادة ولى عنده أبى القاسم ، فأدرك حباسة وهو على أبواب مصر (٣) . ويظهر أن أبا القاسم وحباسة تنافسا الزعامة ، أو أن خلافا نشأ بينهما ، وأن ذلك لم يرق عين المهدي ، فقتل حباسة عقب عودته (٤) . وقد ذهب ابن عذارى (٥) إلى القول بأن القائم كان يقلل من شأن حباسة ، وأنه أراد أن يعين غيره على رئاسة الجيش ، فعز عليه أن يكون جزاؤه هذا ، بعد اجتهاده في

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ٣٦

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ المصنوع على التحقيق والتصديق ص ٦٠ . ويقول بعضهم إن عدد الجيش بلغ مائة ألف رجل .

(٣) الكنتدى . الولاة والقضاء ص ٢٦٩

(٤) عريب بن سعد . صلة تاريخ العاصمى ص ١٢٠ ص ٥٣

(٥) البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ٧٣

الحرب ، وإحرازه هذه الانتصارات فهرب مع قليل من أنصاره ، وتبعه المهدي . حتى قبض عليه وقتله .

رابعا : أن هذه الحملة ترتبط بحملة أبي سعيد الجنابي على البصرة . ذلك أن أباسعيد كان حتى قبيل سنة ٣٠٠ هـ يقف من العباسيين موقف الدفاع ، لكننا نراه يتبع إزاءهم سياسة الهجوم ، مما يحملنا على الظن بأن حركته كانت بوحي من الفاطميين ، لإيقاع الارتباك في صفوف العباسيين ؛ إلا أن حملته هذه كانت ضعيفة ، فلم تحدث الأثر المرجو منها ، حتى إن القائد العباسي مؤنسا الخادم ، استطاع أن يحطم جيوش الفاطميين . ثم فسدت العلاقة بين المهديّة وهجر ، أو بين الفاطميين والقرامطة ؛ فقتل أبو سعيد ، وعزل ابنه سعيد عن عرش القرامطة .

ونستطيع أن نقول إن عبيد الله أخفق في هذه المرحلة من مراحل الحروب ، التي شنها الفاطميون على العباسيين في مصر ، لأمور كثيرة ، منها : أن أباسعيد الجنابي لم يقيم بواجبه المذهبي ، الذي يحتمه عليه خضوعه للفاطميين ، وأن أنصار عبيد الله في مصر ، الذين كان يعول عليهم كثيرا . والذين أرسلوا إليه يرجونه أن يقوم بفتح هذه البلاد ، لم يقوموا بما كان ينتظره منهم . أضف إلى ذلك أن الجيش وصل إلى مصر بعد أن عانى كثيرا من آلام الجوع والعطش والمرض .

وقد يسأل المرء : أما كان يحسن أن يستعين عبيد الله بجيوش اليمن في حملته هذه ؟ نعتقد أن المهدي كان يفكر في ذلك ، وأنه كان من نهجه الأساسي أن يلتقي الجيشان المغربي واليمني في مصر — على ما رأينا . وإذا علمنا أن ابن حوشب كان في ذلك الحين في صراع عنيف مع ابن فضل — الداعي الإسماعيلي الثائر — أدركنا السبب في عدم طلب عبيد الله النجدة من إسماعيلية اليمن .

(ب) الحملة الثمانية :

قضى عبيد الله ست سنوات (٣٠١ — ٣٠٦ هـ) في تنظيم أموره في الداخل ، وإعداد جيش يفتح به مصر . وقد أخذ في الوقت نفسه يعمل على تنظيم شئون أنصاره في الخارج ، ولا سيما من كاب منهم باليمن والبحرين ؛ فتدخل في شئون اليمن ، وعزل أبناء ابن حوشب ، وولى غيرهم ، واعتقد أنه أصاب في تلك السياسة ؛ وأن تدخله هذا سيؤدي إلى الوحدة التي فصم عراها ابن فضل . لكن

سياسته هذه قد أدت في النهاية إلى عكس ما كان يؤمله ؛ فقد دب التنافس بين أنصاره هناك ، وأصبحت الدعوة الإسماعيلية كالهرة تأكل بنيتها ؛ ولم يمت عبيد الله المهدي حتى كانت الدعوة التي بدأها ابن حوشب في بلاد اليمن قد زالت أو كادت . ويخيل إلينا أن المهدي قد قطع الأمل في معاونة إسماعيلية اليمن له في حملاته على مصر ، بعد أن رأى ابن فضل يحارب ابن حوشب ويشور على الفاطميين ، والنفور يدب بين بيت ابن حوشب وبيت الشاوري ، داعي بلاد اليمن الجديد . إلا أن إخفاقه في هذه البلاد لم يحل دون إحرازه النصر على القرامطة ، حتى تمكن من قتل أبي سعيد - على ما قيل . ولما لم تعجبه توليته ابنه سعيدا ولا سياسته ، تدخل في شئون القرامطة ، وحملهم على إشعال نار الثورة على هذا الوالي الجديد ، ثم عين أخاه أبا طاهر مكانه ، بعد أن أخذ عليه العهد بأن يكون طوع بنان المهدي (٣٠٥ هـ) .

كان أول ما قام به أبو طاهر للدلالة على إخلاصه للفاطميين ، هجومه العنيف على إقليم البصرة . ثم محاولته الاتصال بالجيش الفاطمي في مصر - على ما سنرى - حتى لقد خيل إلى عبيد الله المهدي ، أن الأمور قد تمهدت له في المشرق ، وأن أنصاره القرامطة لا يخذلونه اليوم كما خذلوه بالأمس .

وكان أبو القاسم الفاطمي الذي بويع له بالعهد ، اليد المنى لعبيد الله المهدي ؛ وقد أوفده إلى مصر على رأس جيش كثيف (١) استولى على الإسكندرية في أوائل سنة ٣٠٧ هـ دون عناء . ثم قصد الجزيرة حيث وقعت بينه وبين جنود مصر في جمادى الآخرة من هذه السنة موقعة قتل فيها عدد كبير من الفريقين . ولكن الفاطميين احتفظوا على رغم ذلك بقوتهم ، حتى إننا نراهم يفتحون الفيوم وغيرها بعد قليل . وعلى الرغم من استماتة حامية مصر في الدفاع أمام جنود الفاطميين ، كان المصريون في حاجة إلى معونة خارجية . وقد أدرك الخليفة العباسي المقتدر خطر الموقف في مصر ، ورأى أنه إذا لم يتداركها تززع كرسى خلافته ليتلقفه الفاطميون ، ولذلك أرسل قائده الكبير مؤنسا الخادم ، الذي انتصر على الفاطميين ، واستولى على سفنهم وأحرقها (٢) .

والواقع أن الحرب بين الفريقين كانت حرب حياة أو موت ؛ ولذلك تعددت

(١) كان خروج أبي القاسم من إفريقية في أواخر سنة ٣٠٦ هـ ، واستيلائه على الإسكندرية في صفر سنة ٣٠٧ هـ .

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع ص ٨٠ ، المقرئ : انماط المنها من ٤٣ .

المعارك بين القائم ومؤنس الخادم ، وكاد القائم ينتصر لولا أن فشا الوباء بين جنده ، وقلت المؤن بعد ضياع السفن ، فمات كثير من جنده . ولأهمية هذا الانتصار الذى أحرزه مؤنس الخادم أطلقوا عليه لقب المظفر . وقد بذل المقتدر قصارى جهده لمنع اتصال بلاد المغرب بمصر بحرا ، ولذلك أعد أسطولا مدربا على استخدام النفط وغيره من وسائل الإحراق ، واستطاع أن يقضى على أسطول المهدي الذى بلغ مائة سفينة (١) .

ولم تكن حرب القائم فى مصر تعتمد على السيف وحده ، بل كان يستخدم الدعاية لمذهبه ، فيشيد ببيته ، ويغض من شأن العباسيين . ولا بدع فى ذلك ، فإنه كان يعلم علم اليقين أنه كان يحارب جنود الخاميات العباسية لا المصريين ، بل كان على العكس من ذلك يعتقد أن المصريين يرحبون بمقدمه وبثروته على العباسيين ، لأن هذه البلاد كانت منذ أيام الخلفاء الراشدين تدين بنجب على وأبنائه ، حتى إنها التفت حول محمد بن أبى بكر نصير على . ومن ثم وجه أبو القاسم الفاطمى القصائد الكثيرة للمصريين يستحثهم فيها على الالتفاف حوله ، ويدين لهم ما فتحه من بلاد ليملأ قلوبهم رجاء وأملا . وهكذا بدأت الحرب الكلامية بين العباسيين والفاطميين ؛ فإن مؤنسا الخادم ما كاد يرسل إحدى هذه القصائد إلى الخليفة المقتدر العباسى حتى أمر شاعره ، الصولى (٢) المشهور بأن ينظم قصيدة أخرى يرد بها على أبى القاسم ، ويدحض قوله ، فقام الصولى بما أمر به ، ونظم قصيدة على وزنها ورويها (٣) ، وملأها بالسباب والطعن فى نسب الفاطميين ودينهم . ويخيل إلينا أن هذه القصيدة التى قالها أبو القاسم كانت نوعا من الدعاية للفاطميين ومذهبهم . يتضح ذلك من هذه الآيات التى ننقلها عن عريب (٤) :

أيأهل شرق الله زالت حلومكم أم اختدعت من قلة الفهم والأدب
صلاتكم مع من ؟ وحجكم بمن ؟ وغزوكم فيمن ؟ أجيئوا بلا كذب

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٩ .

(٢) أبو بكر الصولى من أحفاد إبراهيم الصولى الشاعر المشهور ، المتوفى سنة ٢٤٣ هـ .

انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ١١-١٣ .

(٣) حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ص ٨٣ .

(٤) صلة تاريخ الطبرى ج ١٢ ص ٤٢ .

صلاتكم والحج والغزو ويلسكم
 ألا إن حد السيف أشنى لدى الوصب
 صبرت وفي الصبر النجاح وربما
 إلى أن أراد الله إعزاز دينه
 وناديت أهل الغرب دعوة واثق
 فجاءوا سراعاً نحو أصيد^(١) ماجد
 وسرت بخيل الله تلقاء أرضكم
 وأردفتها خيلاً عتفاً يقودها
 شعارهم جدى ودعوتهم أبى
 فكان بحمد الله ما قد عرفتم
 وذلك دأبى ما بقيت ودأبكم

بشراب خمر عاكفين على الريب
 وأحرى بنيل الحق يوماً إذا طلب
 تعجل ذو رأى فأخطأ ولم يصب
 فتمت بأمر الله قومة محتسب
 برب كريم من تولاه لم يخب
 يبادونه بالطوع من جملة العرب
 وقد لاح وجه الموت من خلل الحجب
 رجال كأمثال الليث لها جنب^(٢)
 وقولهم قولى على النأى والقرب
 وفزت بسهم الفلج^(٣) والنصر والغلب
 فدونكم حرباً تضرم كاللهب

وقد رد شاعر العباسيين عليه فى تلك الأبيات :

عجبت ، وما يخلو الزمان من العجب
 وجاء بملحون من الشعر ساقط
 تباعد عن قصد الصواب طريقه
 ولو كان ذا لب ورأى موفق
 فمن أنت يا مهدي السخافة والخنأ^(٤)
 فلو كنت من أولاد أحمد لم يغب
 ولو كنت منهم ما انتهكت محارماً
 ولم تقتل الأطفال فى كل بلدة
 وكم مصحف حرقت فرماده

لذى خطل فى القول أهدى لنا الكذب
 فأخطأ فيما قال فيه ولم يصب
 فما عرفت تأويل إعرابه العرب
 لآقصر عن ذكر القصائد والخطب
 ابن لى ، فقد حقت على وجهك الريب
 عن الناس ما تسوء إليه من النسب
 يذبون عنها بالأسنة كالشهب
 فتركب من أماتهم شر مرتكب
 مثار مسقى الريح من حيث ما تهب

(١) الأصيد : المثل العتق من الكبر ، وهو من صفات الملوك الامراء .

(٢) الجنب : ما يجنب أى يشد بجانب خيل الحرب ، ايركبه الفارس إذا عقر فرسه أو نعب .

(٣) الفلج : النصر والظفر .

(٤) الخنأ : القعش .

كفرت بما فيه وبدلت آيتهُ وقد رويت أسيافتنا من دمائكم
تضىء بأيدينا وتظلم فيكم قتل لى : أى الناس أنتم وما الذى
أولئك قوم خيم الملك فيهم أياهل غرب الله أظلم أمركم
ولو كانت الدنيا مطية راكب وكان لكم منها بما حزتم الذنب (٦)

ولا يهمننا أكانت قصيدة أبى القاسم الفاطمى قد قيلت قبل الحملة الأولى أم
الثانية أم بعدهما ، أم أنها أرسلت إلى بغداد أم إلى مصر ؛ وإنما يهمننا أن نقول إن
الفاطميين عولوا على مد نفوذهم فى الشرق . يدلنا على ذلك أن أبا القاسم حين قرأ
قول الصولى :

فلو كانت الدنيا مطية راكب لكان لكم منها بما حزتم الذنب
قال : « والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر وذنبه ورأسه إن قدرت ، أو
أهلك دونه (٧) » .

ولم تقف هذه الحرب الكلامية عند هذا الحد ؛ بل إن القاسم أرسل إلى الحجاز
يطلب من أهلها الدخول فى طاعته ، « ويعدهم بحسن السيرة فيهم ، فأجابوه : إن لهذا

(١) قضيت الشئ : قتلته .

(٢) جمع أخية وأخية : وهى هود يدفن طرفاء فى الأرض ، ويرى كالحلقة نقد فيها الدابة .
والمعنى عريقو الأصل .

(٣) العناب : جبل طويل يشد به مرادق البيت ، جمه أطناب .

(٤) انكسب فكوبا : هدد عن الشئ .

(٥) حرب : أى نقص وسوء حال .

(٦) عريب : صلة تاريخ القاهرى ج ١٢ ص ٤٢—٤٣ .

(٧) المقرئى : انعاظ الخنفا ص ٤٢ .

ألبيت ربا يدفع عنه ، وإن تؤثر على سلطاننا غيره (١) . وقد أثار هذا العمل الخليفة المقتدر ، فأرسل هذا الجيش إلى مصر على الفور (٢) .

وعلى الرغم من انزام أبي القاسم الفاطمي في حملته الثانية على مصر ألقت هذه الحملة الرعب في قلوب الموظفين في هذه البلاد . ولا عجب فقد استولى على جزء كبير منها ، وقبض على خراجها . ونهب الموظفون العباسيون باقى خراج مصر . يتبين ذلك من تلك العبارة التي قالها أحد موظفي خراج مصر : إنه « قد كان ورد من مال الضمان للسنة الأولى جملة ، ثم سار العلوى من إفريقية ، حتى تغلب على أكثر النواحي بمصر . . . فانصرف أكثر المال إلى أعطيات الجند ، ونفقات العساكر ، وانكسر باقيه لأجل استخراج العلوى ما استخراج من أوال النواحي المجاورة لمصر (٣) » .

وكان من عوامل إخفاق هذه الحملة أن الخطة التي وضعها المهدي لغزو مصر لم تنفذ بدقة ، فقد كان لزاما أن يلتقى جيش القرامطة بقيادة أبي طاهر الجنابي (٣٣٢ هـ) بجيش الفاطميين بقيادة أبي القاسم الفاطمي . ولكن مهارة مؤنس الخادم حالت دون نجاح هذه الخطة . وفي ذلك يقول ابن خلدون (٤) : « وصل أبو القاسم القائم إلى مصر ، واستدعى أبا طاهر القرمطي وانتظره ، فأعجله مؤنس الخادم عن انتظاره ، وسار من قبل المقتدر ، فمزقه ، ورجع إلى المهدي » . وبهذا نرى أنه لو تم للمهدي اتصال بعض الجيشين ببعض لفتح مصر سنة ٣٠٧ هـ ، واستطاع المهدي أن يظفر بفخر انتزاع مصر من العباسيين ، ويمتلك صدر الطائر ورأسه ، كما أراد . ولكن الخلافة العباسية كانت لا تزال على شيء من القوة ، على الرغم من ازدياد نفوذ قواد الأتراك الذين نبغ منهم جماعة يعتقد بهم كنؤنس الخادم . ومهما يكن من شيء فقد استغرقت حملة المهدي الثانية على مصر سنتين وثمانية أشهر ، على ما ذهب إليه ابن الأثير (٥) .

(١) صلة تاريخ الطبرى ج ١٢ ص ٤٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٩ .

(٣) حسن البرهيم : الفاطميون في مصر ص ٨٤ .

(٤) العبر ج ٤ ص ٨٩ .

(٥) الكامل ج ٨ ص ٩٨ .

(ح) الحملة الثالثة :

جد من الأحداث في بلاد المشرق مادعا عبيد الله إلى توجيه نشاطه إلى مصر من جديد ؛ فقد مات الخليفة المقتدر ، واضطربت أحوال العباسيين ، وانقسم قواد الأتراك في بغداد على أنفسهم بسبب ذلك . واتخذ المهدي من ذلك فرصة سانحة لمد نفوذه شرقا ، فاتفق مع تابعه النشيط أبي طاهر لإثارة الاضطراب في بلاد المشرق - كفارس أو سواها - في الوقت الذي تغير فيه جيوشه المغربية على مصر . لذلك نراه يرسل هذه الجيوش في سنة ٣٢١ هـ بقيادة حبشي بن أحمد المغربي . وتكاد يجمع المراجع على أن الحملة الثالثة كانت في عهد القائم (٣٢٤ هـ) لا المهدي (٣٢٢ هـ) : فيرى ابن الأثير (١) أن الخليفة القائم أرسل بعد وفاة المهدي جيشا « مع خادمه زيدان ، وبالغ في النفقة عليهم ، وتجهيزهم إلى مصر ، فدخلوا الإسكندرية . وأخرج إليهم محمد الإخشيد عسكريا كشيئا فقاتلهم ، وهزموا المغاربة ، وقتلوا فيهم وأسروا ، وعاد المغاربة مغلوبين » . ويتفق ابن خلدون (٢) والمقريزي (٣) في ذلك مع ابن الأثير . غير أن الكندي ، وهو أقدم هؤلاء المؤرخين ، يؤكد لنا أن الذي أرسل الحملة الثالثة إلى مصر هو عبيد الله لا القائم ، وأن هذه الحملة استغرقت ثلاث سنين (٣٢١ — ٣٢٤ هـ) ، وأن المغاربة استولوا على جزء كبير من مصر وبخاصة في الدلتا ، وأن مناوشات كثيرة حدثت بين الفريقين — أي بين الحاميات المصرية وجيوش المغاربة بقيادة حبشي بن أحمد . وفي صفر سنة ٣٢٢ هـ عقدت الهدنة بين حبشي — وكان معسكرا في الجزيرة — وبين جند مصر (٤) . إلا أن هذه الهدنة لم تستمر طويلا ، بل كثيرا ما يذكر هذا المؤرخ شيئا غير قليل عن نشوب مبارك بين المغاربة وجند مصر في مدن كثيرة كالجزيرة وبلق وبليس وسواها (٥) .

(١) الكامل ج ٨ ص ٩٨

(٢) العبر ج ٤ ص ٣٩ .

(٣) اتعاظ الخنقا ص ٤٥ .

(٤) الكندي : القضاة والولاة ص ٢٨٤ .

(٥) المصدر ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .

ولم يكتف الكندي بذلك ، بل إنه يذهب إلى القول بأن ذلك كان في عهد ولاية محمد بن طنج الإخشيد^(١) (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) ، الذي هزمهم في جمادى الأولى من السنة نفسها ، فاضطروا إلى العودة إلى بلاد المغرب . من هذا كله نستطيع أن نوفق بين ما ذكره الكندي وما ذكره غيره من المؤرخين فنقول : إن الذي أرسل الحملة الثالثة إلى مصر هو عبيد الله ، وذلك في أخريات حياته ، وأنه لم يمّت سنة ٣٢٢ هـ إلا بعد أن أدرك نجاحه في مصر واستقر جنوده في كثير من بقاعها . غير أن جيوش الفاطميين لم يستطيعوا أن يحتلوا هذه البلاد احتلالا كاملا ، بل كانت الحرب سجالا بين جنود مصر وجنود الفاطميين في سنتي ٣٢١ ، ٣٢٢ هـ . ونحن نعلم أن عبيد الله مات في ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ ، وأن القائم لم يصرح بموته إلا بعد سنة ، أى بعد أن استقرت أموره في المغرب ، وقضى على الفتن في بلاده . ومن ثم أرسل جيوشه إلى مصر في أواخر سنة ٣٢٣ هـ ، فبلغتها في أوائل سنة ٣٢٤ هـ ، واحتلت الإسكندرية . وكانت هذه الجيوش الأخيرة مددا للحملة الأولى التي وجهها عبيد الله المهدي إلى مصر ، فتوهم بعض أن القائم لا عبيد الله هو الذي اضطلع بإرسالها .

وبما يلفت النظر في هذه الحملة ماذهب إليه الكندي من أن الجيوش الفاطمية دخلت الإسكندرية في سنة ٣٢٤ هـ . وأن كثيرين من زعماء المصريين انضموا إليها^(٢) ، مما يبين مدى تأثير الدعاية الفاطمية في تلك البلاد . وإلا كيف نفسر انضمام هؤلاء المصريين إلى الجيش الفاطمي الشيعي ؟ فهل كان هؤلاء الزعماء المصريون سنيين مخلصين لسنيتهم ، ولكنهم انضموا إلى الفاطميين رهبة لا رغبة ؟ لو أنهم كانوا كذلك لما انضموا إلى الفاطميين ، ولأجابوهم بمثل ما أجابهم به أهل مكة من أنهم لا يفضلون حاكما شيعيا على الدولة السنية . يبدو أنهم كانوا كذلك ، ولكن مهارة الوالي الجديد — محمد بن طنج الإخشيد — حالت دون تحقيق أمنيتهم في سيادة المذهب الإسماعيلي في مصر .

(١) من سلالة ماوك فرغانة ، والاشييد لقبهم . أما طنج فمناها عبد الرحمن . وكان من كبار رجال العلويين وولاتهم في الشام ، وقد رأينا ، يقاوم قرامطة الشمال مقاومة تذكر .

(٢) الكندي : القضاة والولاة ص ٢٨٦ .

وقد ساعد على إخفاق تلك الحملة الثالثة أمور منها :

أولا : ظهور محمد بن طنج الإخشيد ، واستبداده بشتون مصر في ذلك الحين .
حقا لقد أحدث مقتل المقتدر في سنة ٣٢٠ هـ اضطرابا عاما في بلاد المشرق . وكانت خلافة القاهرة (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) مضطربة ، فلم تمض عليه سنة واحدة ، حتى هب الجند في وجهه وخلعوه . والحق أنه بتولية الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) بدأ عصر إمرة الأمراء ، حين كان الخلفاء مع أمراء أمراءهم كالمحجور عليهم . ونعتقد أنه لولا تولية محمد بن طنج الإخشيد ولاية مصر لآخر مرة (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) ، لتوطدت أقدام الفاطميين في مصر في ذلك الحين . وعلى الرغم من أن الخليفة المهدى عجز عن أخذ مصر أو إقرار نفوذه فيها ، استطاع الخليفة القائم أن يستميل الإخشيد إليه في أخريات حياته ، وأن يستغل الحالة السيئة التي وصلت إليها الخلافة العباسية في عهد أمراء الأمراء ، حتى خطب له على منابر مصر^(١) . إلا أنه يجب ألا نغفط عيب الله حقه ؛ فقد وضع للخلفائه سياسة المهجوم على مصر ، وسن لهم سنة

(١) عمل القائم على جذب الإخشيد إليه ، فأرسل إليه كتابا بارقا يستدله إليه ، وهذا ما يدل على أن القائم عدل عن سياسة الحرب مع والى قوى كهداء . وإن حالة بلاد المغرب كانت مضطربة ، بسبب ثورة أبى يزيد محمد بن كبداد الخارحى . وبما جاء في رسالة القائم إلى الإخشيد : « قد خاطبتك — أذك الله ! — في كتبي المشتعل على هذه الرقعة بما لم يجر لنا في عقد الدين ، وما جرى به الرسم من سياسة أفعال يستجلبون ؛ وضمت رقتى ما لم يطاع عليه أحد من كتانى وذوى المكائنة عنى . وأرجو أن تردك صحة عزيمتك ، وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه ؛ فقد شهد الله على ميلى إليك وإيثارى لك ، ورضيتى في مشاطرتك ما حو به يئى . واحتوى عليه ما لى . وليس يتوجه لك القدر في التخلع عن إجابتي ، لأنك قد استغرقت بجهلك في منحة قوم لا يرون إحصائك ولا يشكرون إخلاصك . يتفنون وعذك ، ويتخفرون ذمتك . لم يمتد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل المجازاة ، وليس يذنب لك أن تعدل عن منهج من نصحك ، وإشراك من أشرك إلى من يحمل موضعك ويضع حسن سيرتك ، وأنا أعلم أن طول العادة في طاعتهم قد كره إليك المدول عنهم ؛ فإن لم تجد من نفسك مهووة على اتباع الحق ولزوم الصدق ، فاقب أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة ، حتى تتبين مقام رئيس من أهلك ، تسكن إليه في أرك ، وتعمل عليه بمثل ذلك . وإذا تدبرت هذا الأمر ، علمت أن الذى يجملى إلى التطاطى لك وقبول المصير منك ، إنما هو الرغبة فيك ، وأنت حقيق بحسن مجازاتى على ما بذلته ؛ والله يريك حسن الاختيار في جميع أرك . وهو حسبتنا ، ونعم الوكيل . ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٢٥-٢٦ . وعلى الرغم من أن الإخشيد لم يعمل بما في هذه الرسالة اللينة ، فإن ظروفه السياسية قد أرغمته على إعلاء الخطية للعباسيين ، وتحويلها إلى الفاطميين مدة من الزمن . انظر : حسن إبراهيم : « الفاطميون في مصر » ، ص ٩٠-٩٢ .

التطلع إلى المشرق ، وعدم الاكتفاء ببلاد المغرب . حتى لا يتألم ما نال بني عثمم الأدارسة . هذا إلى أنه قد بين لهم الفائدة التي يجنونها إذا ما اعتمدوا على الدعاية المنظمة للمذهب الإسماعيلي والدولة الفاطمية .

ثانيا : إخفاق حملة أبي طاهر الجنابي البحرية على جنوب غربي فارس ؛ فقد كان يرى من ورائها إلى خلق المتاعب للعباسيين ، حتى تستطيع الجيوش الفاطمية أخذ مصر في سهولة ويسر ، خصوصا إذا اضطرب العباسيون إلى سحب بعض حامياتهم من الولايات الأخرى كمصر والشام . حقيقة أن العباسيين لم يستطيعوا إمداد مصر بالرجال في أثناء الحملة الثالثة ، ولا سيما في أوائل أيامها بمصر ؛ ولكنهم عولوا بعد ذلك على رجالهم الفذ محمد بن طغج الإخشيد ، الذي استطاع أن يستغل قوة جيوشه المدربة ضد الفاطميين . ومهما يكن من شيء فإن هجوم أبي طاهر على جنوب فارس ، وهجوم الفاطميين على مصر في وقت واحد تقريبا (٣٢١ هـ) ، ليين مدى سياسة المذهب الإسماعيلي في عهد المهدي . كما يبين استغلال عبيد الله سيوف أنصاره القرامطة في إزالة الدولة العباسية ، وإقامة الدولة الإسماعيلية على أنقاضها ، ثم في تقوية الرابطة المذهبية بين رئاسة الدعوة في المغرب وبين أنصارها . ولو استمرت هذه السياسة الحكيمة قائمة بين الفاطميين والقرامطة حتى فتحت مصر على يد جوهر سنة ٣٥٨ هـ ، لتكاتف الفرعان الإسماعيليان في إزالة الدولة العباسية المتداعية وقتئذ . وهكذا سن عبيد الله المهدي لخلفائه هذه السنة الطيبة لاستغلال موارد الفرق الإسماعيلية الأخرى كالقرامطة والحواسب . ولكن خلفاءه لم يحتفظوا بتلك السياسة الحكيمة ؛ فإن أبا طاهر الجنابي لم يكديموت سنة ٣٣٢ هـ ، ويتدخل القائم الفاطمي والمنصور والمعز من بعده في شئون القرامطة ، حتى فترت العلاقات بين الفاطميين والقرامطة .

فتح الفاطميون مصر سنة ٣٥٨ هـ ، في الوقت الذي بلغ فيه الفتور بين الفريقين مبلغا كاد يقضى على تلك العلاقة المذهبية التي كانت سائدة بين هؤلاء وأولئك . ومن ثم اتخذ البويهيون والعباسيون من هذا الفتور فرصة سانحة لإثارة القرامطة على سادتهم الفاطميين ، وانضم الحسن الأعصم إلى العباسيين ، ونادى بسقوط الفاطميين ، وحاربهم في الشام ومصر ، وكاد يقتلهم من تلك البلاد . ولو فرضنا

أن هذا النشاط الهائل الذى وجهه الأعصم للقضاء على الفاطميين قد توجه إلى القضاء على العباسيين ، وأن القرامطة فى عهد الأعصم كانوا على وفاق مع الفاطميين وانضوا تحت لواء جوهر الصقلى ، لكان ذلك كفيلا بأن يقوض دعائم الدولة العباسية (١) .

ثالثا : كثرة الثورات والاضطرابات فى بلاد المغرب ، سواء أكان ذلك فى أخريات عهد عبيد الله أو بعد تولية القائم الخلافة . يدلنا على ذلك أن القائم لم يصرح بموت المهدي إلا بعد أن أخذ الثورات التى كانت منتشرة فى بلاده : من ذلك ثورة ابن طالوت القرشى الذى ادعى أنه ابن المهدي ، وحاصر طرابلس . كما حاصر الأدارسة بعض بلاده ، وشجعوا الثوار عليه ؛ فلم يستطع إخماد هذه الحركات إلا بشق النفس (٢) . ومن ثم لم تستطع نجدته التى أرسلها إلى مصر أن تقوم بعمل حاسم فى ضم هذه البلاد إلى حوزة الفاطميين .

من هذا كله نرى أن عبيد الله كان — منذ ولى الخلافة إلى أن مات — يبذل قصارى جهده للقضاء على العباسيين ، وأنه اتخذ من فتح مصر وضمها إلى إمبراطوريته وسيلة لتحقيق هذه السياسة ؛ كما استطاع أن يكون جهة متحدة من الفاطميين والقرامطة تقف فى وجه العباسيين . كما أن إسماعيلية اليمن لم يستطيعوا أن يشتركوا معه فى هذه الخطة الجريئة ، لما انتابهم من الضعف بسبب ثورة ابن فضل على ابن حوشب أولا ، وانتزاع عبيد الله الرياسة من أبناء منصور اليمن ثانيا . كذلك قام عبيد الله المهدي بحملات ثلاث لفتح مصر ، إلا أنها أخفقت جميعها . وعلى الرغم من هذا الإخفاق فى الناحية الحربية ، كان لهذه الحملات أثر كبير فى نشر التشيع فى هذه البلاد طوال حكم الدولة الإخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ) ، ذلك الأثر الذى ساعد إلى حد كبير جوهر الصقلى والمعتزلى فى غزو مصر ، كما كان لها أثر كبير أيضا فى خلفاء عبيد الله ، الذين لم يتوانوا لحظة واحدة عن العمل على تحقيق مبادئهم من محاولات لفتح مصر . ولولا ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى ، التى اجتاحت بلاد المغرب ، واستنفدت كل جهود الفاطميين ، حتى جعلت خزائهم خلوا من

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماغيلية السياسى ج ١ ورقة ٢٣٦ — ٢٣٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٩٨ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤٠ ، المقرئى : انعاظ المنها ص ٤٥

الصفراء والبيضاء ، لأتبع للفاطميين فتح مصر على أهون سبيل . ولكن القائم والمنصور من بعده انصرفا إلى إخماد هذه الثورة ، وإصلاح ما أفسده أبو يزيد . لذلك لم يكفد المعز يتخلص من متاعب المغرب حتى ولى وجهه شطر المشرق : ففتح مصر ، ومد نفوذه في بلاد الشام والحجاز . وكان المعز بذلك يترسم سياسة عبيد الله المهدي التي كانت تهدف إلى مد نفوذ الفاطميين الزماني والديني إلى المشرق والمغرب ، والقضاء على الدولة العباسية .

٣ - امتداد نفوذ عبيد الله في خراسان وفارس

لم يكن هذا كل ما أظهره عبيد الله المهدي من نشاط في سبيل القضاء على العباسيين ، فإنه لم يكتف بالإغارة على مصر من ناحية المغرب ، كما لم يكتف بانضمام أشياعه القرامطة إليه لتحقيق سياسته العدائية مع هؤلاء العباسيين ، بل جعل دعاته في بلاد المشرق يضاعفون جهدهم في نشر الدعوة له ، حتى لقد قيل إن عبيد الله هو الذي قتل المقتدر^(١) ، وتخلص بذلك من منافس ذي خطر طالما وقف عقبة كأداء في وجه سياسته في المشرق . ولما لم يلبس ذلك النشاط الذي بدأه دعاته العلماء في الري وطبرستان وخراسان وما وراء النهر . يداننا على ذلك ما رأيناه من هذه الجهود الكبيرة التي بذلها كل من الداعي أبي حاتم الرازي (٣٢٢ هـ) ، والداعي النسفي (٣٣١ هـ) ، والداعي أبي يعقوب السجزي (٣٣١ هـ) . فقد كان لجهود هؤلاء أثر ملموس في نشر ثقافة المذهب الإسماعيلي وفلسفته الجديدة التي ترمي إلى تقديس شخص عبيد الله المهدي — إمام الإسماعيلية وخليفتهم — وفي ترويج المبادئ الإسماعيلية تحت ستار الرد على الفلاسفة حيناً وعلى الملاحدة حيناً ، ومناصرة بعضهم بعضاً أحياناً .

دلت سياسة هؤلاء الدعاة على عبقرية نادرة المثال ؛ فقد استغلوا بعد هذه البلاد عن حاضرة العباسيين ، كما استغلوا جهل أهلها بوسائل النقاش والمناظرة والتضاع

(١) يقول ابن حماد (أخبار بني عبيد وسيرتهم ص ١٧) في مقتل المقتدر : « وأظهر عبيد الله عند ما بلغه الخبر أن دعاته نزلته بأسره ، وجلس لذلك مجلساً هنيئاً فيه . ولا يبعد أن يكون ذلك صحيحاً ، لأن الذي قتله كان بربرياً ولم يكن من أهل المشرق » .

في العلوم والمعارف، وجذبوهم إليهم : واستطاعوا بفضل ذلك كله أن يجذبوا إلى سادتهم الفاطميين عددا كبيرا من الأمراء والقواد السنيين، حتى اتصل هؤلاء الأمراء بعبيد الله المهدي، وقدموا له فروض الطاعة، والتسوا منه أن يأذن لهم بالانضواء تحت لوائه. وهكذا كانت بلاد المشرق أشبه ببركان أوشك على الانفجار في وجه العباسيين. وقد نجح دعاة عبيد الله نجاحا يحسدون عليه في هذه السبيل. وإذن هل كان عبيد الله المهدي ودعاته يرمون من وراء جذب الأمراء والقواد إليهم أن يعلنوها ثورة جامعة على العباسيين، ثم يتصل هؤلاء بالفاطميين ويصبحوا من رعاياهم؟ يبدو أن هؤلاء الأمراء والقواد كانوا يعملون على الوصول إلى تحقيق هذه الأغراض، بدليل ما صرح به بعض من أنه كان عنده خمسون ألف رجل طوع ببنان المهدي، وما صرح به ابن أبي الساج من أنه حليف أبي طاهر الجنابي، إلى غير ذلك. أما اعتذار المهدي عن قبول ما عرضه عليه هؤلاء الأمراء وقوله لهم : «الزموا مراكم»، لكل أجل كتاب، فإنه، على الرغم من أن ذلك يبدو بعبء التصديق، يدل في الوقت نفسه على أن الدعوة الإسماعيلية لم تتمكن بعد من قلوب المسلمين كافة؛ فإن العدد الذي ذكره نصر بن أحمد الساماني لم يكن كافيا لإحداث الانقلاب الذي ينشده عبيد الله، كما أن جنود يوسف بن أبي الساج لم تكن على مذهب عبيد الله. ومن ثم نرى أن الوقت لم يكن قد حان لإعلان عبيد الله وأنصاره الثورة على العباسيين في المشرق.

ويصح أن نفرض أن عبيد الله الذي استغل نفوذ دعاته في خراسان وبلاد ماوراء النهر وطبرستان والري وغيرها استغلالاتا، لم يشأ أن يعلن الثورة في تلك البلاد إلا بعد أن يتأكد من نجاحه، ورأى أن يرجى ذلك حتى يتم له فتح مصر؛ وبذلك يكون الاتصال بينه وبين أنصاره في هذه البلاد النائية أمرا ميسورا. لذلك نرى أن عبيد الله قصد من قوله : «الزموا مراكم» لكل أجل كتاب، إلى أنه إنما أراد أن يهائم حتى يفتح مصر، وحينئذ يستطيع أن يعمل على إذكاء نار الثورة على العباسيين، بإغارة أتباعه عليهم من الشرق، على حين يلتقي هو معهم من المغرب فينتزع بغداد، وتقوم الدولة الفاطمية على أنقاض الدولة العباسية في المشرق. وعلى الرغم من أن شيئا من ذلك لم يتحقق، فإن هذا يدل على مهارة عبيد الله الحربية والسياسية.

٣ - امتداد نفوذ عبيد الله المهدي في بلاد المغرب

كان احتلال الفاطميين إفريقية (تونس) ، وقلوبهم دولة الأغالبة ، خطوة لامتداد نفوذهم شرقا وغربا . أما في الشرق ، فقد أخفقت دولتهم في الاستيلاء على مصر في عهد عبيد الله ؛ وأما في المغرب ، فكان الفاطميون يعملون على أن تكون جميع هذه البلاد في قبضتهم ، بحيث لا يحول بينهم وبين المحيط الأطلسي حائل . لذلك اصطدم عبيد الله المهدي بدولة الأدارسة ، وساهم إلى حد كبير في إلزائها ، كما اصطدم مع الأمويين في الأندلس . ولم يكن بد من أن يخضع عبيد الله القبائل الكبيرة في المغرب ، كزناته وسواها . وعلى الرغم من أن عبيد الله لم يستطع أن يخضع لسلطانه جميع بلاد المغرب ، مهد السيل للعز لدين الله الذي استطاع أن يوحد كل بلاد المغرب تحت لوائه ، وأن يتم ما بدأه عبيد الله المهدي قبله بنحو نصف قرن .

تنظيم عبيد الله بلاد المغرب :

مرت المحاولات التي بذلها الفاطميون لإخضاع بلاد المغرب في أدوار مختلفة ؛ وكانت المحاولة الأولى على يد أبي عبد الله الشيعي ، واستمر عبيد الله المهدي يعمل على ضم بلاد المغربين - الأوسط والأقصى - وجزيرة صقلية ، حتى كادت جميعها تقع في قبضة يده .

وفي المرحلة الأولى (٢٩٦ - ٢٩٧ هـ) أزال أبو عبد الله دولة الأغالبة عن إفريقية ، ولذلك نراه حين يخرج منها إلى المغرب الأقصى ، يستخلف عليها أخاه أبا العباس ، كما نرى جميع البلاد الواقعة بين سجلماسة بالمغرب الأقصى وتونس تخضع له ، أو تظهر خضوعها على الأقل . وبعبارة أخرى ، اهتز المغرب لخروجه ، وخافته زناته ، وزالت القبائل عن طريقه ، وأتته رسالهم ، ودخلوا في طاعته ، (١) . ولو أن اليسع بن مدرار صاحب سجلماسة أحسن لقاء أبي عبد الله الشيعي ، لما كان هناك ما يحول دون بقاء السلطة في يد بني مدرار كما كانت من قبل . ولما كان اليسع ركب

(١) المتريزي : انماط الحفا ص ٣٨

رأسه ، وحارب أبا عبيد الله فقتله في سنة ٢٩٦ هـ . وبقتل اليسع آلت بلاده إلى الفاطميين ، فعيّنوا عليها واليا من قبلهم ^(١) . والواقع أن عبيد الله لم يجلس على عرش الدولة الفاطمية في رقادة حتى كان قد زال ملك بنى الأغلب من إفريقية ، وملك بنى مدرار من سجلماسة ، وملك بنى رستم من تاهرت (بالمغرب الأوسط) . وملك المهدى جميع ذلك ، ^(٢) .

وتبدأ المرحلة الثانية (٢٩٧ - ٣٠١ هـ) باحتلاء عبيد الله المهدى العرش ، وتنتهى بمحاولته فتح مصر للمرة الأولى . وقد عمل المهدى ، منذ جلس على العرش في ربيع الثاني سنة ٢٩٧ هـ ، على أن يكون السيد المطلق على الدولة الناشئة وعلى الدعوة ذاتها ؛ فللقب ، على ما يقوله السنون ، بلقب « المهدى » ^(٣) ، وأرسل العيال إلى الولايات المختلفة ، واختارهم من زعماء كتامة بالطبيع ، ومن يثق بهم من المغاربة . ومما يلفت النظر حقا ما زراه من نشاط ولاية المهدى في ذلك الحين ؛ فقد ولى على صقلية سنة ٢٩٧ هـ واليا كان يثق به ، واستطاع هذا الوالى أن ينظم شئون هذه الجزيرة ، وأن يهدد جنوبي إيطاليا ، فيهاجم كلابريا (قلورية) كما يسميها العرب في سنة ٢٩٩ هـ . وكان من أشهر ولاته والى طرابلس ووالى برقة ، أو بالأحرى ولاية المغرب الأدنى ، ثم والى تاهرت في المغرب الأوسط . وقد اختارهم المهدى من خيرة تلامذة مدرسة أبي عبيد الله الشيعي ، الذين ساعدوه على إقامة الدولة الفاطمية . ولكي يتمم المهدى إخضاع المغربين الأوسط والاقصى ، اعتمد على أبي عبيد الله الشيعي ، لأن هذه البلاد لم تقر للمهدى بالزعامة المطلقة ، أو على الأقل لم يدن أهلها له بالطاعة . لذلك نرى أبا عبيد الله يخرج في سنة ٢٩٧ هـ « مع جماعة من قواد كتامة ودعاتهم إلى أرض المغرب ، لما ظهر فيه من الالتياث وفساد الطرق ، وقيام القبائل على عمالهم ؛ فافتتح المدن وقتل وسبي ، ووردت له كتب كثيرة بالفتوح فقرئت بإفريقية » ^(٤) .

(١) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٣٩

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٨

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٥٦

(٤) ابن عذارى : ج ١ ص ١٦٠

وهذا يدل على أن مهمة عبيد الله في بلاد المغرب كانت لا تزال شاقة ، وأن الأمر لم يقف عند حد إزالة الدولة الأغلبية ، وأنه ليس من السهل على دولة شيعية متطرفة ، كالدولة الفاطمية الإسماعيلية ، أن تخضع بلادا واسعة الأرجاء تسود فيها المذاهب السنية ، كما أنه ليس من السهل أن تخضع قبائل زناته للكتاميين ، إلى غير ذلك من الصعاب التي اعترضت المهدي ، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها . ومن ثم نرى أبا عبد الله الشيعي يقوم في سنة ٢٩٨ هـ على رأس جيش يحارب زناته جنوبي بلاد كتامة ، فيقتل الرجال ، ويأخذ الأموال ، ويسبي الذرية ، ويحرق بعض المدن بالنار ، (١) . ولم يقف الخطر المحدق بعبيد الله المهدي عند هذا الحد ، فنرى أهل طرابلس في سنة ٢٩٨ هـ يعزلون والي الفاطمي ويولون غيره ، ويسير بعض الزناتيين لاحتلالها . ولولا مهارة عبيد الله المهدي لوقفت طرابلس عقبة كأداء في سبيل سيره إلى مصر ؛ فقد استردها وعين عليها أحد زعماء كتامة من المخلصين لأبي عبد الله (٢) .

غير أن مقتل أبي عبد الله في سنة ٢٩٨ هـ اضطر المهدي إلى أن يحدث بعض التبدل في ولايته ، وإحلال غيرهم ممن يخلصون له لا لأبي عبد الله الشيعي ؛ فجعل على المغرب الأدنى — وخاصة برقة — حباسة بن يوسف ، الذي قاد الحملة الأولى على مصر مع أبي القاسم الفاطمي (٣٠٠ — ٣٠١ هـ) ، وعين على بلاد المغرب الأوسط والأقصى أخاه عروبة بن يوسف قاتل أبي عبد الله الشيعي ، وكان مقره « تاهرت » . وكان موقف عبيد الله دقيقا حقا ؛ فقد ثارت زناته على ولايتهم الفاطميين في سنة ٢٩٩ هـ ، وثار أهل تاهرت على عمالهم . وكذلك ثارت كتامة انتقاما لأبي عبد الله الشيعي سنة ٢٩٩ هـ ، كما ثار أهل طرابلس في سنة ٣٠٠ هـ ، وثار أهل صقلية على واليهم ، وكاتبوا الخليفة العباسي المقتدر ودانوا له بالطاعة . إلا أن عبيد الله المهدي استطاع أن يخرج من هذه الشدائد ظافرا ، بفضل جهود ولي عهده أبي القاسم (القائم) ، الذي أخضع كتامة ، وغزا طرابلس ، ثم بفضل إخلاص ولاته الذين عينهم بعد أبي عبد الله الشيعي مثل حباسة بن يوسف وأخيه

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٦١

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٣

عروبة ، وبفضل دهائه هو . وهكذا تعرضت دولة عبيد الله المهدي في بلاد المغرب لأخطار جسام ، وعلى الأخص بسبب انتفاض الأهلين على ولاتهم . ورغم هذا كله اعتقد عبيد الله ، أنه بقتله أبا عبد الله الشيعي وأنصاره ، وتوليته ولاية يطمئن إليهم ، وإخضاعه الثورات التي قامت في وجهه على أثر مقتل أبي عبد الله ، يستطيع أن يمد نفوذه شرقا إلى مصر . ولذلك نراه يرسل إليها حماته الأولى .

وتبدأ المرحلة الثالثة من مراحل تنظيم بلاد المغرب (٣٠٢ — ٣٠٧ هـ) بحملة عبيد الله المهدي الأولى على مصر ، وتنتهي بحملته الثانية عليها . على أن سياسة عبيد الله قد جرت عليه كثيرا من المتاعب ، كما أدى مقتل أبي عبد الله الشيعي إلى وقوع الاضطراب في نظام حكم الولايات الفاطمية في المغرب وصقلية ، كما جر عليه مقتل حباسه بن يوسف شيئا غير قليل من المتاعب . فقد عز على عروبة أن يكون جزاء أخيه حباسة ، الذي قتل أبا عبد الله الشيعي ونكل بأنصاره ، وأحرز كثيرا من الانتصارات في مصر ، الحبس والتشريد ؛ كما خاف على نفسه وفر من تاهرت — مركز ولايته — في المغرب الأوسط . ولكن عبيد الله المهدي هم بقتله وتبع أنصاره وأنصار أخيه . ويظهر أن قتل حباسة وأخيه عروبة قد أثار الاضطرابات في المغرب ، فامتنتع برقة على عبيد الله المهدي ، ولم تسلم إلا بعد سنة ونصف سنة^(١) . يقول ابن خلدون^(٢) : « وانتفض لذلك أخوه عروبة بالمغرب ، واجتمع إليه خلق كثير من كتامة والبربر ، وسرح إليهم المهدي مولاة وغالبا ، في العساكر ، فهنهم . وقتل عروبة وبنى عمه في أمم لا تحصى . ثم انتفض أهل صقلية ، وتقبضوا على عاملهم ... وولوا عليهم غيره ؛ فدعا للبقدر العباسي ، وخلع طاعة المهدي » . لذلك لم يكن بد من أن يخضع عبيد الله ثورة جزيرة صقلية ، وأن يولي عليها رجلا يرضاه هو ويوافق عليه أهل هذه الجزيرة . وقد نجح المهدي في ذلك نجاحا يذكر .

ويهمنا في هذه المرحلة أن نقول ، إن عبيد الله المهدي اتخذ من تاهرت بالمغرب الأوسط ، مركزا رئيسا يوجه منه قوته نحو المغرب الأقصى ، وإنه أخذ يحتك في هذا الدور بالأدارسة وبالأمويين جميعا . ذلك أن المهدي حين قتل عروبة بن

(١) المقرئ : اتعاظ الخنفا ص ٤١

(٢) العبر ج ٤ ص ٣٨

يوسف - واليه على القسم الغربي من دولته - ولى مكانه على تاهرت قائده المشهور « مصالة بن حبوس » ، الذى بدأ صراعه العنيف مع قبائل صنهاجة ، فاستولى على حاضرتهم « ناكور » أو « نكور » فى سنة ٣٠٥ هـ (١) . وكان استيلاء الفاطميين على هذه المدينة بدء صراع عنيف مع الإدارة ثم مع الصنهاجيين . وليس هذا وحده ، بل لقد بدأ نوع جديد من الصراع السياسى والحزبى بين الأمويين والفاطميين ؛ إذ اتخذ الأمويون بزعامة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) من هرب حكام هذه البلاد إلى الأندلس فرصة لجذبهم إليهم ، ومد يد المساعدة لهم على الفاطميين . وهذا يدل على أن الحرب بين الصنهاجيين والفاطميين إنما كانت فى الواقع حربا بينهم وبين عبيد الله من ناحية ، وبين الخليفة الفاطمى والخليفة الناصر الأموى من ناحية أخرى . ولا غرو فإن عبد الرحمن الناصر بدأ يلقب نفسه بألقاب الخلفاء ، ويرى أنه لا يقل شأنا عن الفاطميين . وإن من يدرس العلاقة بين الفاطميين وبين الأمويين فى الأندلس فى الدور المغربى خاصة ، يستطاع أن يدرك إلى أى حد أضمر الفاطميون العداء للأمويين ، وخاصة فى عهد عبد الرحمن الناصر ، لا لأنه يدين بالعقائد السنية فقط ، بل لأنه أخذ ينافس عبيد الله وخلفاءه فى ألقابهم وفى نظم حكمهم ، ولأنه كان يعمل على الوقوف فى وجه

(١) كان الصنهاجيون من القوة بحيث كانوا يهددون ملك الأغالبة . وقد خافهم عبيد الله المهدي ، فأخذ يتودد إليهم حيناً ، ويتراجع حيناً ، ولما لم يعبثوا به . فكان ما قام به مصالحة بن حبوس انتقاماً لسيده عبيد الله المهدي . يقول ابن عذارى (البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ١٨١) : « لما تغلب عبيد الله الشيعى كتب إلى أهل المغرب يدعوهم إلى الدخول فى طاعته ، والتدين بإمامته ، وكتب بمثل ذلك إلى سعيد بن صالح (أمير صنهاجة وصاحب نكور) ، وفى أسفله أبيات كثيرة منها :

فإن تستقيموا أستقم إصلاحكم	وإن تعدلوا عني أقتلكم عدلا
وأعلو بميقى قاهرا لسيروكم	وأدخلها عفوا وأملؤها عدلا

فأجابه شاعرهم :

كذبت وبيت الله لا تعرف الدلا	ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
وما أنت إلا كافر ومنافق	يميل مع الجهال فى السنة المثلى
وهمتنا العليا لدين محمد	وقد جعل الرحمن همك السفلى

الفاطميين في بلاد المغرب ، ولا سيما أن الفاطميين كانوا منذ قيام دولتهم في المغرب يرون أن كل شمال إفريقية مجال حيوى لمد نفوذهم وتحقيق سياستهم . كما كانوا يرون في الوقت نفسه أن أى تدخل من جانب الأمويين يتعارض مع مصالحهم . وهكذا فتح مصالة بن حبوس مدينة « ناكور » (١) ، وقتل رئيسها سعيد بن صالح في يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم (٢) . وانتخب مصالة « ناكور » ، وسبي النساء والذرية ، ثم انصرف إلى تاهرت ، وكتب بالفتح إلى عبيد الله ... ثم إن بنى صالح خرجوا فارين بأنفسهم إلى الأندلس معتمدين بماتناهي إليهم من فضل أمير المؤمنين الناصر ، وحسن مذهبه في كل نازع إليه ومعتمدين به ، فنزلوا بمرسى مالقة ، وعهد بإنزالهم والتوسع عليهم . وبعث إليهم بضروب الكسوة وكل ما احتاجوا إليه من المرافق ، وخيروا في القدوم إلى قرار السلطان والمقام في ذلك المكان ، فاخترأوا المقام على بره وحبائه . وكان مصالة قد استخلف على ناكور رجلا يقال له ذلول ، وانصرف إلى تاهرت ، فافترق عن ذلول من كان معه ، وبقي في قل من المشاركة ، فقصدده صالح بن سعيد . . . من مرسى مالقة ، فقتله وقتل أصحابه ، ولزم ناكور ، وهادى أمير المؤمنين (٣) بالخييل والجمال (٤) .

وهذا يدلنا على مدى مساعدة الناصر الأموى للصنهاجيين . فقد كان يهمه أن يكون له خلفاء من المغاربة ، يستطيع أن يحصل من بلادهم حاجزا يقيه شر الفاطميين ، الذين كان يخشاهم ، ويعتقد أنهم يستطيعون أن يحققوا ما أخفق فيه العباسيون من الاستيلاء على بلاده ، وطرده من أسبانيا ، لبعد الشقة ووعورة الطريق بين العراق والأندلس ، مع قرب المسافة وسهولة الطريق بين المغرب والأندلس . لذلك أمر الناصر بإمداد صالح بالأخبية والآلات والبنود والطبول (٥) . أضف إلى ذلك أن الخليفة الناصر الأموى استغل عنصر الكراهية بين التشيع

(١) مدينة ساحلية في مراكش ، لها مرسى فيه جزيرة .

(٢) سنة ٣٠٥ هـ .

(٣) يقصد عبد الرحمن الثالث الناصر الأموى

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٧٧ - ١٧٨

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٣

Shiism والسنية Sunnism المتأصل في قلوب الصنهاجيين ؛ فقد رأينا هؤلاء ينظرون إلى عبيد الله وإلى دولته ومذهبه نظرهم إلى الروم والمجوس . هذا إلى أن خوفهم على ملكهم من عبيد الله المهدي ، والتجأهم إلى الناصر السني إنما كان يرى إلى الاحتفاظ بدينهم ودولتهم . ومن هنا نرى كيف بدأ عبيد الله المهدي يعمل بعد ذلك بجهد ونشاط على الاستيلاء على المغربين الأوسط والأقصى ، ليحول بذلك بين الأمويين في الأندلس ، وبين تحقيق أمانهم في بلاد المغرب . وهكذا انتهى دور الاستقرار والتمكين ، وبدأ دور العمل في الشرق والغرب معا . أما في الشرق فقد رأينا عبيد الله يرسل إلى مصر حملتين منيتا بالحيبة ، وأما في المغرب فنرى أن عبيد الله المهدي يكاد يقضى على نفوذ الإدارة الذين سيمثلون معه نفس الدور الذي قام به الصنهاجيون من الاتصال بالأمويين ومناوأتهم والوقوف في وجهه .

وتبدأ المرحلة الرابعة من هذا التنظيم بالحملة الثانية على مصر ، وتنتهي بوفاء عبيد الله المهدي (٣٠٧ — ٣٢٢ هـ) . ويتمثل في هذه المرحلة صراع الفاطميين مع الإدارة ، ومع حلفاء الخليفة الناصر الأموي من المغاربة . ويظهر أن عبيد الله المهدي حين أدرك إخفاقه في مصر ، عول على بذل جهوده كاملة في المغرب ؛ ومن ثم بدأ صراعه مع الإدارة ، ذلك الصراع الذي انتهى بعزلهم في إقليم الريف ، وقضى على ملكهم في المغرب الأقصى ، ومن ثم بدأ دور الهجوم الجدي .

خرج مصالة بن حبوس قائد المهدي المشهور من تاهرت سنة ٣٠٨ هـ ، واسترد مدينة « ناكور » من الصنهاجيين ، ويمم شطر الإدارة في فاس . وعليها يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس الذي يقول فيه ابن خلدون (١) : « كان أعلى بني إدريس ملكا ، وأعظمهم سلطانا ، وكان فقيها عارفا بالحديث . ولم يبلغ أحد من الإدارة مبلغه في السلطان والدولة » . والحق أن يحيى هذا استطاع أن يوحد بين أدارسة فاس بالمغرب الأقصى ، وأدارسة الريف إلى حين . ومع ذلك فقد انتصرت جيوش المهدي الفاطمي عليه . وبما يلفت النظر حقا أن الإدارة كانوا يحاربون بمساعدة المغاربة « وأولياء الدولة من «أوربة» وسائر البرابرة والموالي (٢) » . كما كانت جيوش

(١) العبر ج ٤ ص ١٦ : كان الإدارة يتكون وقتئذ ناهيتين : الأولى في إقليم فاس ، والثانية في إقليم الريف .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الفاطميّين تتألف من المسكناسيين . وعلى رأسهم موسى بن أبي العافية ، ومن الكتّاميين^(١) الذين قامت الدولة الفاطمية بفضل مساعدتهم . فما أسباب هزيمة الأدارسة إذن ؟ يرجع ذلك إلى تكاتف الكتّاميين برياسة مصالة بن حبوس القائد الفاطمي ، والمسكناسيين برياسة موسى بن أبي العافية صاحب مكناسة^(٢) ، وكان يحقد على الأدارسة ، ويتمنى زوال ملكهم . أضف إلى ذلك أن عبيد الله . بعد أن أخفق في الاستيلاء على مصر عول على أن يوجه كل قواته نحو المغرب ، فانتسح سياسة « فرق تسد » ، واستطاع بذلك أن يفرق بين موسى بن أبي العافية أمير مكناسة وبين يحيى بن إدريس ؛ إذ لو اتحد هؤلاء وكونوا جهة مناوئة له لما استطاع أن يثال منهم غرضاً .

وكانت نهاية تلك الجولة الأولى (٣٠٨ هـ) أن وضع أدارسة فاس تحت الحماية الفاطمية ؛ فاعترفوا بزعامة المهدي الفاطمي ، ودفعوا له الجزية ، وولى الفاطميون في الوقت نفسه موسى بن أبي العافية على هذه البلاد . فكان بمثابة المندوب السامي في عصورنا الحديثة . وقد لخص ابن خلدون^(٣) نجاح الفاطميين على الأدارسة بقوله : « صالحه على مال يؤديه إليه ، وطاعة معروفة لعبيد الله ، وأبقى عليه مصالحه في سكنى فاس ، وعقد له على عملها خاصة . وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة يومئذ . . . على سائر أعمال البربر » .

وفي الحق أن نهاية أدارسة فاس أو المغرب — على ما يسمونهم — كانت قد تقررت منذ سنة ٣٠٨ هـ ؛ فقد أدرك يحيى بن إدريس أنه لا يستطيع البقاء كالأسير في بلاده ، كما كان يحتقر موسى بن أبي العافية لأنه من البربر . لذلك أثر يحيى الراحة وترك شؤون فاس لابنه طلحة ؛ ولما كان موسى ما زال يغري مصالة بن حبوس به وبابنه طلحة ، فاستصفى هذا القائد أموالها في سنة ٣٠٩ هـ ، ونفى طلحة إلى بلاد

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٧

(٢) مدينة شرق مدينة مراکش ، تبعد عنها بأربع عشرة مرحلة كما تبعد عن فاس بمرحلة واحدة . وتقع في الطريق من فاس إلى « سلا » ، على ساحل البحر ، وفيها قرى البراكب ، ومنها تجلب الخنطة إلى شرق الأندلس .

(٣) المغرب ج ٤ ص ١٦

الريف حيث أقام مع بنى أعمامه الأدارسة الذين يـكـونون الفرع الآخر في إقليم الريف . وأما يحيى فقد عول على قصد المهديّة ؛ إلا أن ابن أبي العافية قبض عليه وسجنه مدة (١) ثم أطلقه ليذهب إلى المهديّة ، ويقضى بها حياته في شقاء . وبهذا تم إخضاع إقليم فاس للفاطميين ، بعد زوال سلطان يحيى بن إدريس وأهل بيته عنه ، وتعيين وال فاطمي على إقليم فاس ، على حين بقيت الزعامة والرياسة لصاحب مكناسة حليف الفاطميين على جميع هذه البلاد ، ومعنى هذا انضمام جزء كبير من بلاد المغرب الأقصى إلى الفاطميين (٢) .

على أن هذا النصر كان يقتضى إخضاع إقليم سجلماسة إلى الدولة الفاطمية . حقيقة كان أبو عبد الله الشيعي قد ضم سجلماسة إلى الدولة الفاطمية في سنة ٢٩٦ هـ ، وولى عليها واليا من قبله قبل عودته مع المهدي إلى رقادة سنة ٢٩٦ هـ . غير أن هذا الوالى الفاطمي لم يتمتع بالحكم أكثر من خمسين يوما ، فقتله أهل سجلماسة ، وخرجت هذه البلاد عن طاعة الفاطميين (٣) . ولكن كيف يستطيع وال في بلاد نائية كهذه أن يحتفظ بولايته ؟ ثم كيف يستطيع أن يحكم جماعة يضمرون له ولخليفته ومذهبه الكراهة والبغضاء . ويودون التخلص منه ؟ هذا إلى أن البلاد التي تفصل بين مقر الفاطميين وبينها بلاد معادية أو منافسة للفاطميين ؛ فهناك قبائل زناتة وصنهاجة والأدارسة وسواهم . وهكذا كان فتح فاس من العوامل التي ساعدت على فتح سجلماسة . وقد تم ذلك في سنة ٣٠٩ هـ ، وأصبح والى هذه البلاد من قبل الفاطميين .

ويبدو أن مصالة بن حبوس ، قائد الفاطميين وأمير تاهرت بالمغرب الأوسط ، كان موضع خوف المغاربة وإعجابهم ؛ إذ لم يكفد يعود إلى إفريقية (بلاد تونس) سنة ٣١٠ هـ حتى هب أحد أمراء الأدارسة ، وطرده أمير فاس الفاطمي ، وحارب موسى بن أبي العافية وانتصر عليه ، واستولى على فاس سنتين .

(١) قدرها المؤرخون بعشرين سنة ، فقد بعدها المهديّة حيث استقر بها أثناء حصار ابن كيداد لها ، ومات فقيراً بائساً

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٢٠

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢١٤

غير أن موسى بن أبي العافية ما زال به حتى طرده من فاس في سنة ٣١٣ هـ. ويظهر أن ابن أبي العافية قد داخله الغرور بعد استرداده فاس ؛ ولذلك أخذ ينكل بأنصار الفاطميين ، ويعمل على استئصال البقية الباقية من الأدارسة . وقد فر جميع هؤلاء إلى إقليم الريف ، وذهب ملك الأدارسة ، واستولى ابن أبي العافية على جميع المغرب ، وأجلى بنى محمد بن القاسم بن إدريس وأخاه الحسن إلى الريف ، (١) ؛ وكان ذلك في سنة ٣١٥ هـ . وهكذا تكاتف الفاطميون وصاحب مكناسة على إزالة دولة الأدارسة . ويعتبر هذا نجاحا للفاطميين أكثر منه للمكناسيين ؛ لأن هؤلاء أزالوا دولة علوية ، كانت تعتبر نفسها كالدولة الفاطمية أحق بزعامة المسلمين . وكان الأدارسة يتنازعون الزعامة مع الفاطميين ؛ لذلك كان لزوال دولة الأدارسة أثر كبير في نجاح الفاطميين من الناحيتين السياسية والدينية .

والواقع أن موسى بن أبي العافية صاحب مكناسة أضحى خطرا على ملك الفاطميين في بلاد المغرب الأقصى ، حيث استولى على ملك فاس وبلاد المغرب ... وانتظم الأمر لموسى بن أبي العافية في المغربين الأقصى والأوسط ، (٢) . وقد شجعه على ذلك موت مصالة بن حبوس القائد الفاطمي في سنة ٣١٢ هـ ، فأصبح ابن أبي العافية خطرا يهدد كيان الفاطميين أنفسهم . من ذلك نستطيع أن نقول ، إن الفاطميين نجحوا إلى حد كبير في إقرار سلطانهم على بلاد المغرب الأوسط في عهد ولاية مصالة بن حبوس (٣٠٧-٣١٢ هـ) ؛ فاستطاع هذا الوالي أن يضم إلى الدولة الفاطمية بلاد صنهاجة في المغربين الأوسط والأقصى ، كما استطاع أن يقضى قضاء يكاد يكون تاما على أدارسة فاس ، وأن يزيل دولة آل مدرار من سجل مكناسة نهائيا . ففتح معظم بلاد المغربين الأقصى والأوسط ؛ غير أن الدولة الفاطمية لم تستطع

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٧ . ويسمى هذا الزعيم الإدريسي الحسن بن محمد بن القاسم ابن إدريس ، ويلقب بالحجام . حارب موسى بن أبي العافية ، وواقعه وقعة لم تر بلاد المغرب مثلها ، بعد دخول إدريس الكبير ، ، على ما يقوله ابن عذاري (ج ١ ص ٢٢٠ - ٢٢١) . ولكن أهل فاس غدروا به حيا في الفاطميين ، وتعاونوا مع موسى عليه ، وألقى الحجام بنفسه من فوق سور المدينة فات سنة ٣١٥ هـ .

(٢) السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨١

أن تتمتع بهذا الملك الواسع طويلا، لاستبداد ابن أبي العافية أمير مكناسة بالأمر في تلك البلاد دونهم .

ومن ثم عمل الخليفة المهدي على إنقاذ مملكته في هذه البلاد وغيرها ؛ فأرسل إليها ولي عهده أبا القاسم في سنة ٣١٥ هـ ، واستطاع أن يعيد للفاطميين كثيرا من نفوذهم . وكان المهدي يعتبر عمل القائم هنالك جهادا في سبيل الله ، كما يتبين ذلك من قوله . « اللهم إنك تعلم أني ما أردت بإخراجه إلى المغرب إلا رضاك ونصرة دينك وإذلال أعدائك » (١) .

ولي المهدي على المغرب الأوسط و تاهرت واليا آخر هو « حميد بن يصال » ؛ وعمل هذا الوالي الجديد على أن يشعر موسى بن أبي العافية بقوة الفاطميين ونفوذهم في هذه البلاد ، فأرسل من قبله واليا إلى فاس . وكان « مدين بن موسى بن أبي العافية » قد استبد بها وأرغمه على الفرار . وهذا يدل على أن العلاقة بين ابن أبي العافية وبين حميد بن يصال لم تكن من الصفاء على ما كانت عليه في عهد ولاية مصال بن حبوس على المغرب الأوسط (٣٠٧ — ٣١٢ هـ) . ومن ثم شجع موسى الثوار على والي الفاطميين الجديد فقتلوه وحملوا رأسه إليه . فأرسله إلى عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموي : لأن موسى « كان يميل إلى صاحب قرطبة من أمراء بني أمية » (٢) .

بهذا نرى أن موسى بن أبي العافية قد أصبح خطرا على الفاطميين ، وأن ذلك كان راجعا إلى رغبته في الاستبداد ببلاد المغرب وحدها ، بل إلى ارتباطه بالأمويين أعدائهم التقليديين . وقد ظل موسى خطرا على الفاطميين حتى في عهد الخليفة الفاطمي الرابع ، وهو المعز لدين الله . ومهما يكن من شيء فقد أوضح ابن خلدون موقف هذا الثائر من الفاطميين فقال : « ثم انتقض موسى بن أبي العافية عامل فاس والمغرب ، وخلع طاعة الشيعة ، وانحرف إلى الأموية من وراء البحر ، وبث دعوتهم في أقطار المغرب » (٣) .

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٩٧

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٢

(٣) ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٣٩ - ٤٠

ولم يكن ابن أبي العافية وحده هو الذى سلك مع الفاطميين هذه السبيل : فان أدارسة الريف قد حذوا حذوه ، فولوا وجوههم شطر عبيد الرحمن الناصر الأموى بالأندلس ، مستعئين به على منافسيهم ، ولا سيما مع بنى عمهم الفاطميين . وبفضل هؤلاء وأولئك استمر نفوذ الأمويين فى بلاد المغرب قويا ، كما استمر الصراع كذلك بين هؤلاء وبين الفاطميين ، حتى ولى المعز لدين الله الفاطمى الخلافة ، فأخضع بلاد المغرب كلها لنفوذه ، وحارب الأمويين برا وبحرا . وانتصر عليهم وعلى حلفائهم الروم والمغاربة .

صقلية فى عهد عبيد الله المهدى

ما كادت ترجح كفة أبى عبد الله الشيعى ، وينتصر على الأغالبة ، حتى هب أهالى صقلية على واليهم السنى ، الحسن بن رباح ، الذى كان يحكم هذه الجزيرة باسم الأغالبة ، وولوا عليهم عليا بن أبى الفوارس (٢٩٩ هـ) . ولم يكتفوا بذلك ، بل طلبوا إلى أبى عبد الله أن يقرهم على ما فعلوا ، فأقر هذا الوالى الجديد ، وحتم عليهم أن يتم ما بدأه من الفتح والغزو (١) .

غير أن عبيد الله المهدى كان قد وضع لنفسه سياسة الاعتماد على السكتاميين أنصار المذهب الإسماعيلى ، ولذلك قبض على ابن أبى الفوارس ، وولى مكانه الحسن ابن أحمد بن أبى خنزير السكتامى . وقد تعصب السنيون على الحسن ، وعملوا على طرده من صقلية لجوره أولا ، ولامتهانهم لإياه ثانيا .

أما جوره فنراه فى استبداده بالسنيين ، وانتهاج عماله نهجه فى الاستبداد بهم ؛ وأما امتهانهم لإياه ، فإن كثيرا من زعماء العرب فى صقلية كانوا بأنفون أن يتزعّمهم سكتامى بربرى ، لأنهم كانوا يرون أنهم أرفع منه قدرا . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اتضح لهم أن الحسن يقرب إليه البربر ويهمل شأن العرب ؛ فولى أحد السكتاميين على قضاء الجزيرة ، وأطلق يد أخيه على بن أبى خنزير فى أمور البلاد .

(١) أمارى : المكتبة الصقلية ج ١ ص ٤٣٤ .

وليس هذا كل ما أثار حفيظة السنين بصقلية على الحكم الفاطمي ؛ فقد عز عليهم أن يخطب على منابرهم للخليفة المهدي الفاطمي ، وأن تنظم الدعاية فيها للمذهب الإسماعيلي الذي كان دعائه يعملون في جد وحزم على جذب الناس إليه . وفي الحق أن هذا هو السبب الأساسي الذي أثار أهل صقلية على واليهم الفاطمي .

وقد ولي عبيد الله المهدي عليا بن عمر البلوي جزيرة صقلية ، فوصل إليها في سنة ٢٩٩ هـ . ولم يكن البلوي أقل تعسفا من سلفه ، على الرغم مما عرف به من اللين وضعف الإرادة ، فزار الناس عليه . وقد يسأل بعض عن السبب الحقيقي الذي حدا بأهل صقلية إلى شق عصا الطاعة على هذا الوالي الفاطمي ، وهل يرجع ذلك إلى لينه وشيخوخته ؟ أو إلى أنه كان يمثل العنصر الشيعي ، مع أن السواد الأعظم من المسلمين بصقلية كانوا يدينون بالعقائد السنية ؟ أم أن ذلك يرجع إلى أنه كان من بين الثائرين جماعة من تلاميذ مدرسة أبي عبد الله الشيعي ، الذين عز عليهم مقتله فتأروا بالمهدي وبواليه البلوي ؟ يبدو أن هذه الأسباب مجتمعة هي التي أدت إلى إشعال نار الثورة في صقلية . فإن مقتل أبي عبد الله الشيعي قد أثار على عبيد الله المهدي موجة من السخط والغضب شملت المغرب وصقلية ^(١) (سنة ٣٠٠ هـ) ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن عددا كبيرا من الثائرين على البلوي ، كانوا من أنصار مدرسة أبي عبد الله الشيعي . أضف إلى ذلك أن العناصر العريضة قد عز عليها أن يرسل الفاطميون ولاية من البربر ، ولذلك اختار الزعماء في صقلية أحمد بن قرقب ، وكان عربيا . في سنة ٣٠٠ هـ .

ويبدو أن ابن قرقب كان في سنيه الأولى على شيء كبير من الصفاء مع الفاطميين . وقد أبدى هذا الوالي نشاطا ملحوسا في الناحية الحربية ؛ فأغار على قلورية (كالابريا) في سنة ٣٠٠ هـ . ويظهر أيضا أن ابن قرقب لم يكن يأمن جانب السنين في صقلية ، بل الفاطميين أنفسهم ، وأنه كان في الوقت نفسه يميل إلى الزعامة ويعمل على الاستقلال عن الفاطميين ، ومقاومة المسلمين في صقلية إذا اقتضى الأمر . يدل على ذلك أنه عول على فتح ثغر طبرمين ، الحصين في هذه الجزيرة ، وكان غرضه إذا ملكها أن يجعل بها ولده وأمواله وعبيده ؛ فإذا رأى من أهل صقلية ما يكره.

(١) ابن خلدون : المغرب ٤ ص ٣٨

امتنع بها^(١) ، . ولم يمنعه عن تحقيق أغراضه إلا ثورة الجند عليه .
وقد نُسأل عن السبب الذى حدا بثورة الجند على ابن قهره . يبدو أن نزعتهم
إلى الاستقلال بصقلية قد أدركها أنصار الفاطميين ، فأشعلوا نار الثورة على ابنه ،
وكادوا يقتلونه ، لولا أن تصدى لهم العرب من السنين ؛ لذلك فإن ابن قهره
حين أدرك أن أمره قد افتضح ، وخشى انتقام الفاطميين ، نار عليهم ، وأعلن ولاءه
للعباسيين (سنة ٣٠٤ هـ) ، وقطع الخطبة للمهدى فى صقلية ، وخطب للخليفة المقتدر
العباسى (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) .

ولم يكتف ابن قهره بقطع خطبة الفاطميين ، بل عمل على إثارة مخاوفهم ،
لئلا تحدّثهم أنفسهم بمحاولة طرده من صقلية ، ولكى يظهر أمام العباسيين بمظهر
المخلص المتفانى فى طاعتهم . لذلك أرسل أسطوله القوي لمهاجمة سواحل بلاد
المغرب ، وأحل بأسطول الفاطميين الهزيمة عند سواحل إفريقية (تونس) ،
وقتل قائده (ابن خنزير) . ومن ثم قصد إلى سفاقس^(٢) ، فخرّبها ، ولم يجد المهدي
من نفسه القدرة على صده عن طرابلس . غير أن أسطول ابن قهره خشى بقاء
أبى القاسم الفاطمى فى هذه البلاد ، وعاد إلى صقلية ظافرا .

وكان من أثر تلك الإغارة ، أن ضاعف المهدي جهده فى تقوية أسطوله وإعداد
لصد هجمات ابن قهره الذى نال إعجاب العباسيين ، فأرسل إليه المقتدر الخلع
السود والألوية . وقد جعلت نشوة ذلك الانتصار البحرى الذى أحرزه ابن
قهره يقدم على مهاجمة قلورية فى جنوب إيطاليا ، ثم على مهاجمة الفاطميين فى عقر
دارهم من جديد^(٣) .

وكان إسراف ابن قهره فى الاعتداد بنفسه من عوامل هزيمته ؛ فإن هذه
المظاهرة التى قام بها فى وجه الفاطميين قد أضعفت قوته . أضف إلى ذلك أنه

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥

(٢) ميناء فى بلاد تونس : بينها وبين المهدية ثلاثة أيام ، وبينها وبين سرسة يومان ، وبينها
وبين قاس ثلاثة أيام ، وهى مشهورة بزيت الزيتون .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥ . كان ذلك فى سنة ٣٠٤ هـ لا فى سنة ٣٠٠ كما روى
ابن خلدون .

بتوجيه نشاطه إلى «قلورية» قد حد من قوته الحربية ، حتى إنه لما هاجم إفريقية بأسطول قوى ، وجد أساطيل الفاطميين واقفة له بالمرصاد ؛ ولم يلبث أن قضى على أسطوله وتآمر عليه الملتفون حوله ، وقبضوا عليه وأرسلوه مع بعض خاصته إلى المهدي حيث قتل ، وعادت صقلية من جديد إلى حظيرة الفاطميين .

علبت الحوادث عبيد الله المهدي أن حكم الفاطميين لن يستقر في جزيرة صقلية ، إلا إذا أرسل إليها مع الوالي جيشا يدفع عنه خطر الثائرين على الحكم الفاطمي . والواقع أن المهدي اتخذ من إرسال هذا الجيش إلى صقلية وسيلة لقمع ولاية الفاطميين إذا حدثتهم أنفسهم بالخروج عليه ، والقضاء على أهالي صقلية إذا حاولوا شق عصا الطاعة (١) . وقد صدقت فرائسة المهدي ، فإنه ما كاد واليه الجديد (أبو سعيد) يظأ أرض هذه الجزيرة حتى ثار عليه كثير من أهالي مدائنها ، مثل مدينة صقلية وغيرها . ولولا مساعدة جند الفاطميين للوالي ، لما استقر حكم المهدي في هذه البلاد . ولذلك فإنه لما انتصر أبو سعيد على أهل صقلية ، واستنجد هؤلاء بالمهدي ، أمر واليه بالعفو عنهم (٢) . وكان ذلك في سنة ٣٠٥ هـ .

وقد أفاد المهدي من وراء هذه السياسة ، واستطاع ولاته على صقلية ، بفضل جيوش الفاطميين وما كان يصلهم من أمداد كبيرة ، أن ينشروا الأمن في ربوع هذه الجزيرة ، وأن يغيروا على قلورية مرات كثيرة . وكانت حملة واليه (سالم بن راشد) في سنة ٣١٣ هـ من أهم الحملات ، حيث انتصرت على الروم في جنوب إيطاليا وعلى المعارضين في صقلية ذاتها .

وقد سن المهدي سنة جديدة بتوجيه حملاته من المهدي لقتال الروم في إيطاليا وصقلية وسواهما ؛ وكان ولاية صقلية وجيوشهم يساهمون في هذه الحروب مساهمة فعالة . وقد أرسل المهدي في أخريات حياته حملة بحرية بقيادة قائده يعقوب بن إسحاق ، الذي استطاع أن يهدد جنوة نفسها ، ولم يمت إلا بعد أن تم له فتح هذه المدينة ، كما انتصر على أسطول الروم في سردانية (٣) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥ - ٢٦

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٠٧

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٥٤ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٠٨

وقد سار خلفاء المهدي على هذه السياسة التي سنها لهم . إلى أن تقلد ولاية هذه الجزيرة الحسن بن أحمد الكلي في عهد الخليفة الفاطمي المنصور إسماعيل . فكون أسرة عريقة حكمت هذه البلاد باسم الفاطميين وقتاً طويلاً . وكان لهم شأن يذكر في عهد المنصور والمعز ، واستطاعوا أن ينتصروا على الروم والأمويين جميعاً . وهكذا مات عبيد الله ، وقد امتد نفوذه من برقة — على حدود مصر — حتى سواحل المحيط الأطلسي ، وترك لخلفائه هذه الدولة الشاسعة الأرجاء . وورثهم فيما ورث الرغبة الملحة ، والعمل المتصل في سبيل بسط سيادة الفاطميين على كافة أرحاء شمال إفريقيا شرقاً وغرباً : فزال على أيديهم دول كثيرة . وأخذوا الثورات المتصلة ، التي كان يشنها البربر خاصة على الحكم الفاطمي ^(١) ، واصطدموا مع أمويي الأندلس ، كما اصطدم خليفتهم الأول . وقد لعبت السياسة الفاطمية دوراً هاماً في عهد عبيد الله : فقد استطاع أن يحارب الأمويين بنفس سلاحهم ، فاتصل بابن حفصون الذي ثار على عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) ثم على عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) ، وحضه على الثورة على الأمويين ، وكان يتصل به من حين إلى حين . وعقد معه معاهدة صداقة ومودة ، أدت إلى انتشار الدعوة الإسماعيلية والنفاذ الفاطمي في الأندلس . وقد انتقم عبيد الله المهدي بذلك لنفسه ولدولته الشيعية من هذه الدولة الأموية السنية . وهكذا ورث عبيد الله المهدي خلفاءه الحقد على الأمويين . والعمل على استئصال شأقتهم من المغرب ، بل من الأندلس نفسها إذا استطاعوا .

(١) استطاع الخليفة القائم (٣٢٢ — ٣٣٤ هـ) أن يقضى على كافة محاولات ابن أبي العافية ، مستعيناً في ذلك برجال الدعوة المخلصين له ، كبسور الخادم وسواه . كما استطاع الخليفة المنصور إسماعيل أن يتخلص من أبي يزيد محمد بن كيداد الخارجي . وليس هذا وحده ، بل إنه كثيراً ما حارب خلفاء عبيد الله إدارة الريف ، حتى انقسموا على أنفسهم : ففريق أصبح يفضل التقرب إلى الفاطميين ، وفريق آخر يفضل الأمويين . وكان هذا الفريق أكثر نفوذاً ، فاستطاع عبد الرحمن الناصر أن يهزم إليه سبئة وطنجة . ولما قضى المعز على دولة الإدارة في إقليم الريف ، وقف وجهاً لوجه أمام الأمويين ، ومازال الفاطميون بأبوابهم الإدارة حتى دالت دولتهم في سنة ٣٧٥ هـ ، بعد أن حكموا هذه البلاد زمناً طويلاً . (انظر حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٨٥ — ٢٨٦) .

وأما ما أضمره الفاطميون للعباسيين من عداوة ، فراه واضحا فيما بذله عبيد الله المهدي من جهود لفتح مصر ، والوصول إلى بغداد حاضرة العباسيين ، كما نراه في بث جواسيسه ودعائه حتى في بغداد نفسها . واستطاع هؤلاء الدعاة أن يستميلوا إليه الأمراء والقواد . ويوقعوا الارتباك في صفوف العباسيين والموالين لهم في بلاد ما وراء النهر وخراسان وطبرستان وما إليها . كما يتضح لنا عداوة الفاطميين للعباسيين . من حيث عبيد الله القرامطة على أن يكونوا حربا عوانا على العباسيين وأنصارهم ؛ فغيروا على العراق من حين إلى حين ، ودهموا الحاج لخطّ مركز الخليفة العباسي دينيا وسياسيا .

وهذا نرى أن عبيد الله المهدي كان موفقا في سياسته رئيسا للدولة الإسماعيلية . من الناحية السياسية ؛ فكان أكثر خلفاء عهده نشاطا ، وأشدّهم ذأبا على العمل الجدي ، خصوصا وأنه كان يهتم باستقرار أمور دعوته ودولته الناشئة ، على حين أن الخلفاء من غير الفاطميين كان الضعف قد أخذ يدب في جسم دولتهم . كما نجح عبيد الله رئيسا أو إماما للدعوة الإسماعيلية ، فاستطاع أن يوحد بين صفوف أنصار هذه الدعوة ، برغم ما سادها من الاضطراب ؛ نتيجة لتوليته الإمامة ثم الخلافة . واستمر القرامطة على ولائهم له . وحذا حذوهم في ذلك إسماعيليو فارس . وصفوة القول أن بقاء المذهب الإسماعيلي الذي يتمثل اليوم في طائفتي البهرة والخوارج في اليمن والهند خاصة ، يرجع إلى جهود عبيد الله المهدي .

مدينتا المهديّة والمحمديّة

كان من سياسة عبيد الله المهدي الخليفة ، أن يبني مدينة يتخذها حاضرة لدولته الناشئة ، وحصنا يوجه منه ضرباته إلى كل من تحدّثه نفسه من الخوارج بالخروج عليه وعلى مذهبه ، ويتخذها دار هجرة يعتصم بها هو وأنصاره إذا حاق بهم خطر خارجي . لذلك لم يتخذ فج الأخياري بجبل إيكچان دارا لهجرته ، كما اتخذها أبو عبد الله من قبله ، لأنها ليست في مكان يتوسط أجزاء دولته شرقا وغربا ؛ كما أنه لم يجد في القيروان أو رقادة مكانا يصلح لتحقيق هذه الأغراض السياسية والحربية والدينية ، لأنها كانت تزخر بالسنيين وأنصار الأغلبية المعادين للفاطميين الشيعة ، كما عدل .

السفاح والمنصور من قبله عن اتخاذ دمشق حاضرة للدولة العباسية . لأنها كانت غاصة بالأمويين وأنصارهم ، ولأنها كانت بعيدة عن بلاد الفرس مصدر قوة العباسيين . فسكان من المناسب إذن أن يعدل عبيد الله المهدي عن اتخاذ هذه الأماكن حاضرة لخلافته ، وأن يستبدل بها حاضرة جديدة تفي بهذه الأغراض جميعا .

خرج المهدي إلى تونس يرتاد موضعا يبني فيه مدينة حصينة يعتصم بها إذا خرج عليه أحد الخوارج ، وقيل : إنه وجد في بعض الكتب ما يدل على خروج أبي يزيد مخلد بن كيداد على دولته^(١) ، ووفق المهدي إلى موضع المهديّة وهي متصلة بالبحر كهيئة كهف متصلة بزند ، فتأملها فوجد فيها راهبا في مغارة ، فقال له : بم يعرف هذا الموضع ؟ فقال : هذا يسمى جزيرة الخلفاء ؛ فأعجبه هذا الاسم ، فبناها . وجعلها دار مملكته^(٢) .

تقع المهديّة على بعد ستين ميلا جنوبي القيروان . وقد ذكر البكري^(٣) أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، وأنه يدخل إليها من الجانب الغربي . وقد شيدت مبانيها بالصخر ، واتخذ المهدي لهذه المدينة بابين من الحديد لا خشب فيهما . زنة كل باب منهما ألف قطار ، وطوله ثلاثون شبرا ، ووزن كل مسبار من المسامير التي استعملت في تركيبه ستة أرهاطال . ونقش على هذين البابين صور لبعض الحيوانات ، وأقيم بها ثلاثة وستون صريحا ، عدا ما كان يجرى فيها من القنوات . ولم تلبث هذه المدينة أن أصبحت مرفأ هاماسوقا نافعة للسلع التي تحملها السفن من الإسكندرية ، ومن الشام وصقلية والأندلس وغيرها^(٤) . ومرسى المهديّة منتهى في حجر صلد يسع ثلاثين مركبا ، وعلى طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة من حديد ؛ فإذا أريد إدخال سفينة فيه ، أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٣

(٢) انظر لفظ « المهديّة » في معجم البلدان . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي

ج ٣ ص ٥٩٨ - ٥٩٩

(٣) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٢٩

(٤) المصدر نفسه .

السفينة ، ثم مدوها كما كانت بعد ذلك لئلا يطرقها مراكب الروم^(١) . وقد بنى المهدي بمدينة المهديّة داراً للصناعة تسع أكثر من مائتي مركب ، وفيها قبوان كبيران مستطيلان ، لئلا تتأثر آلات المراكب وعددها بأشعة الشمس أو ماء المطر^(٢) .

ولما فرغ المهدي من بناء حاضرتة الجديدة في سنة ٣٠٥ هـ قال : « اليوم أمنت على القاطميات ، » يعنى بناته ، ثم انتقل إليها في شهر شوال سنة ٣٠٨ هـ ، وأقام بها ، ثم عمر فيها الدكاكين ورتب أبواب المدن ، وجعل لكل طبقة سوقاً خاصة بها ، فثقلوا إليها أموالهم . وكان لهذه المدينة أرباض كثيرة أهلة عامرة ، منها ربض زويلة ، وكان أقرب أرباض المدينة إلى قصر المهدي ، وفيه الأسواق والحمامات ، وربض الحمى ؛ وقد أقام فيه أجناد إفريقية من العرب والبربر ، وربض قفصة^(٣) .

أمر المهدي ببناء مدينة أخرى بجوار المهديّة ، وجعل بين المدينتين ميداناً فسيحاً ، وأحاطها بسور ، وأبواب وحراس ، وسماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر ، وأسكنها أرباب الدكاكين بحرهم وأهاليهم وقال : « إنما فعلت ذلك لآمن غائلتهم ، وذلك أن أموالهم عندي وأهاليهم هناك . فإن أرادوني بكيد ، وهم بزويلة ، كانت أموالهم عندي ، فلا يمكنهم ذلك ؛ وإن أرادوني بكيد وهم بالمهديّة خافوا على حرهم هناك . وبنيت بيني وبينهم سوراً وأبواباً ، فأنا آمن منهم ليلاً ونهاراً ، لأنني أفرق بينهم وبين أموالهم لئلا ، وبين حرهم نهاراً^(٤) . » ويظهر أن المهدي حذا في ذلك العمل حذو أبي جعفر المنصور حين نقل أسواق حاضرة خلافته جنوباً إلى الكرخ^(٥) .

وقد قال شعراء إفريقية في المهديّة وانتقال عبيد الله إليها :
حططت الرحل في بلد كريم رعت له الملائكة الكرام

(١) البكري : المغرب ص ٨٤ - ٨٥

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠

(٣) المصدر نفسه ص ٣٠-٣١ . انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٥٩٨-

(٤) البكري ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٣٢ - ٨٤

(٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٥٩٨ - ٥٩٩

لقد عظمت بأرض الغرب دار
 هي المهديّة الحرم الموقى
 كما بتهامة البلد الحرام
 ترى قدميك إن عدم المقام
 وإن لثم الحجيج الركن أضحي
 لأن شاب الزمان وشاب ملك
 دعائه إذا عجمت حطام^(١)
 غلام والزمان به غلام
 لك الدنيا ونسلك حيث كنتم
 فلكم لها أبدا إمام^(٢).

وقد اختلف المؤرخون في السنة التي وضع فيها المهدي أساس مدينة المهديّة ، فيرى ابن عذارى^(٣) أن ذلك كان في سنة ٣٠٠ هـ ، ويرى ابن خلدون^(٤) أنه كان في نهاية سنة ٣٠٢ هـ ، ويوافقه المقرئ^(٥) على ذلك . ويظهر أن ما قاله ابن عذارى أقرب إلى الصواب ، لأنه انتهى من بنائها في سنة ٣٠٥ هـ ، أي أنه بناها في عامين أو أقل . وهذه المدة لا تسكفي - في الغالب - لبناء مدينة عظيمة كذلك المدينة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن بناء المهديّة في سنة ٣٠٠ هـ يكاد يتفق مع ما قاله المؤرخون من أن المهدي بناها خوفا من جماعة أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس ؛ فإذا فرضنا صحة هذا الرأي . فما الأسباب التي جعلت عميد الله المهدي يؤجل هذا البناء من أواخر سنة ٢٩٨ هـ إلى أواخر سنة ٣٠٣ هـ ؟ وهذا يجعلنا نؤمن بصحة ما ذهب إليه ابن عذارى ، وخصوصا أن البكري وغيره^(٦) من المؤرخين قد اتفقوا مع ابن عذارى على أن أساس المهديّة قد وضع في سنة ٣٠٠ هـ . وهناك ملاحظة أخرى تتلخص في أن كثيرا من مؤرخي الإسماعيلية يعدون .

(١) يشير بذلك إلى هزم الدولة العباسية .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٨

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ١٧٠

(٤) المعبر ج ٤ ص ٢٨

(٥) تماظ الحنقا ص ٤٢

(٦) انظر معجم البلدان - لفظ : مهديّة .

مدينة المهديّة داراً من دور هجرة هذه الطائفة . ولاغرو فإن هذه المدينة تضم إمامين :
إماماً مستودعاً ، هو عبيد الله المهدي ، وإماماً مستقراً ، هو أبو القاسم (القائم) .
لذلك يقول الداعي لإدريس عماد الدين ، إن المهدي انتقل بعد بنائها ، وجعلها دار
هجرة الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين . ويكفي المهديّة فخراً أنها استطاعت أن
تصد جحافل أبي يزيد مخلد بن كيداد ، وأنها حققت نبوءة المهدي حين قال بعد أن
فرغ من بنائها : « الآن أمنت على الفاطميات » .

والفرق بين المهديّة وغيرها من دور هجرة الإسماعيلية ، أن هذه المدينة لم تقتصر
على الإسماعيلية وحدهم ، على حين بجد دار الهجرة عند القرامطة والحواشب مثلاً
لا تضم أحداً من غير الإسماعيلية . كما أن تسميتها « المهديّة » لم يقصد بها الانتساب
إلى عبيد الله المهدي وحده ، بل إنها مدينة الأئمة المهديين من الخلفاء الفاطميين ،
لأن كلا من هؤلاء الخلفاء إمام مهدي عند الإسماعيلية . وقد رأيناهم يضعون
الآحاديث على أن المهدي سيليّه اثنا عشر إماماً مهدياً من الأئمة الخلفاء الفاطميين .
وهكذا ظلت المهديّة كعبة الإسماعيلية التي يحجون إليها ، ما كان بها الإمام
الإسماعيلي . فلما هجرها هؤلاء إلى غيرها ، لم تعد لها تلك المكانة الروحية في نفوس
الأتباع ، وحلت محلها المنصورية التي بناها المنصور إسماعيل بن القائم ، حتى هجرها
المعز إلى مصر ، فحلت القاهرة في الزعامة الروحية خاصة محل هاتين المدينتين :
المهديّة والمنصورية .

ولم تسكن مدينة المهديّة وحدها هي التي أنشئت في عهد عبيد الله المهدي ، بل لقد
بُنيت في عهده مدينة «المحمدية» ، وهي مدينة «المسيلة» التي تقع إلى الجنوب الغربي
من رقادة وإلى الشمال من قسنطينة . وقد أنشأها أبو القاسم لإقامة «خط دفاع» عن
المهديّة يقف في وجه القبائل المعادية خاصة . ويدلنا بناء هذه المدينة على اتجاه
الفاطميين في الاستقرار بالمهديّة ، كما يدل على خوفهم من ثورات القبائل المعادية
من المغاربة .

كانت السنة التي بدى فيها ببناء مدينة «المحمدية» مليئة بالثورات السكّيرة ،
كما كانت حافلة في الوقت نفسه بالانتصارات الرائعة ، التي أحرزها أبو القاسم
ولي العهد . ولا بد أنه أدرك خطر الثائرين في الجنوب ، وأنه يستطيع الوقوف

في وجههم ، بتكوين مدينة تستطيع حماية المهدية ، وتصد غارات الأعداء عليها من ناحية الجنوب . لذلك نرى أبا القاسم يؤسس هذه المدينة . ويملؤها بالخلعدين له وللمذهب ودولته ، ويطرد منها من يشك في إخلاصه ، ويشحنها بالأمداد والميرة . ولهذا كانت هذه المدينة عوناً للمهدى والقائم والمنصور من بعده في الدفاع عن المهدية ، ثم في الوقوف بعد عهد المهدى في وجه أبي يزيد مخلد بن كيداد . يقول ابن خلدون (١) عند كلامه على حوادث سنة ٣٩٥ هـ إن أبا القاسم « أمر بمكان بلد المسيلة ، وفيها بنو كملان من هواره . وكان يتوقع منهم الفتنة ، فنقلهم إلى فج القيروان ، وقضى الله أن يكون هؤلاء أولياء لصاحب الحمار (٢) عند خروجه . ولما نقلهم أمر ببناء المسيلة في بلدهم ، وسماها بالمحمدية ، ودفع على بن حمدون الأندلسي من صنائع دولتهم إلى بنائها . وعقد له عليها وعلى الزاب (٣) بعد اختطاطها . فبناها وحصنها ، وشحنها بالآقوات . فكانت مدداً للمنصور في حصار صاحب الحمار . وقد أوضح المقرئ سبب قتل القائم بنى هواره بقوله : « لذلك أحب أن يكونوا قريباً منه ، وهم كانوا أصحاب أبي يزيد الخارجي (٤) » . ثم بين المقرئ (٥) أهمية هذه المدينة للدولة الإسماعيلية حين دهمها خطر الخوارج فيقول : إن المنصور كان يمتار ما يريد من المحمدية « إذ ليس بالموضع مدينة سواها » . وهكذا دل بناء المهدية والمحمدية على حسن سياسة الفاطميين وفطنتهم .

(١) المعبر ج ٤ ص ٣٩

(٢) يتعد بصاحب الحمار أبا يزيد مخلد بن كيداد ، لأنه كان يركب على حمار .

(٣) غير الزاب الأكبر الذي هزم فيه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في المشرق سنة ١٣٢ هـ .

(٤) المقرئ : اتعاظ الخنقا ص ٤٤

(٥) المصدر نفسه

الباب الرابع

عبيد الله المهدي وإمامة الإسماعيلية

تغير مركز رياسة الدعوة الإسماعيلية بعد قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ؛ فبعد أن كانت رياسة الدعوة في سلمية تعنى بتوجيه الدعوة وحدها، أصبحت تعمل على الاهتمام بشئون الدعوة وتلبية مطالب الدولة. كان عليها أن تستمر في زعامتها القديمة على رجال الدعوة الإسماعيلية في جميع بقاع العالم الإسلامي، وأن توجههم توجيهًا جديدًا يرمي إلى استخدام الدعوة لصالح الدولة؛ وذلك بالعمل على إحاطتها وإحاطة خليفتها بهالة من التقديس، ومساعدة الدولة في تحقيق آمالها السياسية لتستطيع الوقوف في وجهه العباسيين. وفي سبيل ذلك نرى زعيم الدولة الفاطمية الأول، عبيد الله المهدي، يشعر أتباعه بسلطته المطلقة عليهم، ويملي سلطانه على جميع أتباعه، فيتدخل في تعيين رؤسائهم وعزلهم. وكان لذلك أثر كبير في سياسة الدعوة في عهد عبيد الله خليفة وإماما. فقد كان معروفًا لدى كبار دعاة الإسماعيلية، أنه إذا مات واحد منهم تبعه ابنه دون تدخل من ناحية رياسة الدعوة بسلمية. أما بعد قيام الدولة الفاطمية فلم يعد هذا التعيين من حق الدعاة، بل غدا ذلك من حقه هو، لأن سلطته الدينية والزمينية تخوله ذلك. وقد أدخل عبيد الله المهدي هذا النظام الجديد، فجر على نفسه شتم على خلفائه من بعده شيئًا غير قليل من المتاعب؛ ولم تكن ثورة الحسن الأعصم القرمطي على المعز والعزير إلا نتيجة لهذه السياسة التي ابتدعها المهدي. وهكذا كانت زعامة عبيد الله الدينية تدفعه إلى توجيه الدعوة التوجيه الذي يبتغيه، فنجح أحيانًا وأخفق أحيانًا أخرى، كما يتضح ذلك من موقف عبيد الله المهدي من القرامطة بالبحرين ومن الحواشب باليمن. أضف إلى ذلك أن المهدي قد أدرك بثاقب نظره خطر الاصطدام برعاياه السنين وغيرهم ممن لا يدينون بالمذهب الإسماعيلي؛ إذ أن الفاطميين كانوا أقلية إسماعيلية تحكم أكترية من غير الإسماعيلية؛ ومن ثم اضطر المهدي إلى أن يوجه الدعوة توجيهًا يتفق مع هذا الوضع الجديد.

١ - عميد الله الخليفة و القرامطة

انفلّ قرامطة الشمال . كما انفلّ السواد الأعظم من قرامطة السواد في دور الستر الذي سبق قيام الدولة الفاطمية ؛ ولكن هؤلاء القرامطة بعثوا من جديد على يد أبي سعيد الجنابي في إقليم القطيف — جنوبي البصرة — ثم في إقليم البحرين . وستبين من بحث العلاقة بين هذه الدويلة القرمطية المتحمسة وبين الدولة الفاطمية في عهد عميد الله تطورا كبيرا ؛ فبعد أن كان الجنابية برياسة أبي سعيد يخضعون في دور الستر لرياسة الدعوة ، فتر هذا الخضوع قليلا ، وعز على زعماء الجنابية أن يسلبوا بعض نفوذهم بسبب ظهور الإمام المستور في شخص أبي محمد عميد الله المهدي ؛ ولذلك لم يعد أبو سعيد الجنابي يتحمس للخلافة الفاطمية تحمسه للإمامة المستورة . وقد عرف عميد الله فيه ذلك ، فعمل على التخلص منه ، كما عمل في الوقت نفسه على عدم إقرار الوراثة بين القرامطة بالصورة التي يريدها زعمائهم . ومن ثم تألف من أبناء أبي سعيد ومن القرامطة فريقان : فريق يعمل على التقرب إلى الفاطميين ، وفريق يعمل على الانحراف عنهم . واستمرت السيادة الفاطمية قوية بين القرامطة في عهد عميد الله المهدي بسبب تفوق الفريق الماليء للفاطميين ؛ فلما صار الأمر للفريق الآخر بعد عهد عميد الله ، ساءت العلاقة بين الفاطميين والقرامطة حينئذ من الدهر .

(١) موقف عمير الله الفاطمي من أبي سعيد الجنابي :

نجح أبو سعيد الجنابي في تكوين دولة أو ما يشبه الدولة في بلاد البحرين . ويبدو أنه كان ينتصر لرياسة الدعوة في سلبية ويقف في وجه حمدان قرمط ؛ ولكنه منذ اليوم الذي شعر فيه بالقوة بدأ يعمل مستقلا أو شبه مستقل ، وكان ذلك يتعارض طبعاً مع سياسة الفاطميين وزعامتهم . ولا يبعد أن أبا سعيد لم يكن راضيا عن زعامة عميد الله المهدي ، مؤسس الدولة الفاطمية ، جماعة الإسماعيلية ، وأنه لم يكن متحمسا لقيام دولته في المغرب . وكانت سياسة قرامطة البحرين في عهد أبي سعيد تقوم على الصراحة المطلقة في نشر آراء المذهب الإسماعيلي ؛ لأن المجتمع القرمطي.

كان مجتمعاً إسماعيلياً بحتاً ، ولم يكن بين القرامطة من يدين بغير المذهب الإسماعيلي ، على عكس الفاطميين الذين كانت سياستهم تقوم على أساس إخفاء أصول المذهب الإسماعيلي عن رعاياهم الذين كانوا يختلفون عنهم في المذهب ، كما كانت الحال في بلاد المغرب ثم في مصر . وإذن لا بد أن يكون لهذا الاختلاف أثره في علاقة أبي سعيد بالخلافة الفاطمية .

لذلك نرى أبا سعيد يعمل على موادعة الخلفاء العباسيين ، في الوقت الذي كان يجب أن يشن الحروب الشعواء على العباسيين ، ليشغلهم عن الإسماعيلية في الأقاليم الأخرى . فقد رأينا أنه يترك زميله زكرويه بن مهرويه . زعيم قرامطة الشمال ، يلقي حتفه على يد العباسيين في سنة ٢٩٤ هـ ؛ ولو قام بمساعدته لتغيرت حال القرامطة . ويبدو أن أبا سعيد كان يسير على هذه السياسة التي كانت تملئها عليه مصلحته الخاصة ، ولا سيما بعد قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ؛ ومن ثم أثارت هذه السياسة النفعية سخط عبید الله المهدي^(١) .

وقد عملت السياسة العباسية بزعامة الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) ووزيره على بن عيسى الذي عرف ببراعته السياسية ، على جذب أبي سعيد . ولا غرو فقد استطاعا بفضل تقربهما إلى أبي سعيد الجنابي ، أن يساهما إلى حد كبير في إخفاق حملة الفاطميين الأولى على مصر (٣٠١ — ٣٠٢ هـ) ؛ لأن الوزير على بن عيسى أدرك الخطر الذي يهدد الخلافة العباسية إذا تم الاتحاد بين أبي سعيد الجنابي وزعيمه الأول عبید الله المهدي الفاطمي ، ودوّنوا بلاد الدولة العباسية ، كما أدرك الفتور الذي كان سائداً بين أبي سعيد والفاطميين ، فحاول التقرب إلى أبي سعيد .

وإذا علمنا أن عبید الله لم يقنع ببلاد المغرب القليلة الخصب ، وأنه عزم على انتزاع مصر من العباسيين ليتخذها درة في جبين الدولة الفاطمية ، وأنه التمس مساعدة أبي سعيد الجنابي ، بشن غارة حربية على العراق ، في الوقت الذي غزت فيه جيوشه المغربية البلاد المصرية لأول مرة (٣٠٠ — ٣٠١ هـ) ، وأن أبا سعيد قام بحملة لم تحقق الغرض الذي أرسلت من أجله ، وأرغمت جيوش الفاطميين على التقهقر إلى بلاد المغرب . إذا علمنا هذا استطعنا أن ندرك أن هذه المساعدة اليسيرة لم تصادف هوى من نفس عبید الله المهدي .

(١) الذهبي : تاريخ الاسلام (مخطوط) ج ٣ ص ٣ - ٤ .

ويرى دى غويه^(١) أن حملات الفاطميين على مصر في ذلك الوقت كانت تتمق دائما مع حركات قرامطة البحرين ، لأنها كانت تصدر كلها عن أوامر الخليفة الفاطمي ، وأنه يمكن القول بأن حملة أبي سعيد في سنة ٣٠١ هـ كانت بإذن عبيد الله المهدي ، ولكنها لم تكن من الجدد في شيء ، حتى لقد شك عبيد الله في إخلاص تابعه أبي سعيد ، وعمل على قتله^(٢) . ويظهر أن أبا سعيد أرسل هؤلاء الجند القليلي العدد تغريرا بعبيد الله ، وأنه لم يكن في عمله هذا ما يثير عليه حكومة بغداد التي ضاعفت جهودها في التحالف معه . ومن ثم حنق عبيد الله المهدي على أبي سعيد ، بل إننا لا نغلو إذا قلنا ، إن حكومة بغداد لم ترغب في التحالف مع أبي سعيد إلا بعد أن أدركت الفتور الذي ساد بينه وبين الفاطميين^(٣) .

ويذكر ابن حوقل^(٤) الذي عرف بميله للفاطميين ، أن أبا سعيد خلع طاعة رئيسه عبيد الله قبيل وفاته ، ويقول عن أبي سعيد وحمدان : « وكان حمدان قرمط إذ ذاك في دعوة السلطان^(٥) حذاء أمير المؤمنين المهدي بالله ، فرجعا عما كانا يعتقدانه وخالفنا ذلك . وجرت خيوط وتخاليط كثيرة في بعض الروايات ، وذبح أبو سعيد في حمام قد اتخذها في قصره مع جماعة من وجوه رجاله بالأحساء . وإذا صح ذلك دل على أن علاقة أبي سعيد بعبيد الله الخليفة لم تكن على شيء من الصفاء . وقد رأينا كيف أن ابن الفضل داعي الإسماعيلية الناصر باليمن كان يقول لزميله ابن حوشب ، إنه في ثورته هذه إنما كان يحتذى أبا سعيد الجنابي في محاولته الاستقلال عن الدولة الفاطمية . »

وكان مقتل أبي سعيد في الأحساء سنة ٣٠١ هـ ، على يد أحد عبيده ، الذي يدعى المؤرخون أنه لم يعجبه سلوك أبي سعيد ، فقتله هو وجماعة من كبار

(١) Mémoire sur les Carmathes du Bahrain, vol. II, p. 69.

(٢) يصف المصوري تلك الحملة (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٥ ص ٦٩) بقوله : « قام نفر من القرامطة من أصحاب أبي سعيد إلى البصرة ، وكان عليا محمد بن إسحاق بن كنداجيق ... وكان الوزير يعرفه بوصول القرامطة ويستمدده ، فلما أصبح ولم ير للقرامطة أثرا ندم على ما فعل ... »

(٣) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسية ص ١ ورقة ٢١٠

(٤) المسالك والممالك ص ٢١٠ - ٢١١

(٥) يقصد بذلك الخلافة العباسية .

رجالهم . وليس هناك ما يمنعنا من الذهاب إلى أن عبيد الله لما رأى خروج أبي سعيد على سياسته ، أو أنه لما شك في إخلاصه ، اتفق مع خادمه هذا على قتله . وبما يزيد هذه المسألة وضوحاً أن هذا الخادم كان بعد قتل أبي سعيد يتخير من يريد من رؤساء القرامطة ؛ فلا يبعد أن يكون هؤلاء الذين تخيرهم هذا الخادم من أنصار عدم التعاون مع الفاطميين . وبعبارة أخرى ، لا يبعد أن يكون عبيد الله أراد بذلك التشفي والانتقام من معارضيه في حكومة القرامطة بالبحرين (١) . والخلاصة أن فتورا حدث بين القرامطة وبين عبيد الله المهدي ، وأن نتائج ذلك الفتور تركزت في قتل أبي سعيد ونفر من حاشيته في سنة ٣٠١ هـ ، « وذلك في قلعة الأحساء بأمر من عبيد الله » (٢) ، على ما ذهب إليه شيفر Schefer ؛ كما لا يبعد أن يكون أبو سعيد قد ضمن جماعة كرهوا أن يكون الخليفة عبيد الله مهديهم المنتظر . ولا غرو ، فإن الدعاة الجريئين يستطيعون تحقيق آمالهم في ظل إمام مستور لا إمام ظاهر (٣) ، حتى لقد ذهب دى ساسي إلى القول بأن ادعاء عبيد الله الإمامة قد أدى إلى انفصال الفاطميين عن كثير من الإسماعيلية الآخرين ، الذين لم يوافقوا مطلقاً على ظهور الإمام المنتظر في شخص الخليفة الفاطمي الأول (٤) .

(ب) موقف عبيد الله المهدي من خلفاء أبي سعيد

١ — عبيد الله وسعير بن أبي سعيد (٣٠١ — ٣٠٥ هـ)

لم يقض موت أبي سعيد على ذلك الفتور الذي كان بين القرامطة وعبيد الله ، وذلك لسببين :

الأول : أن سعيداً الذي خاف أباسعيد لم يأت به التعمين من قبل الفاطميين . ولما كان عبيد الله المهدي قد وضع أساس سياسة الزعامة المطلقة على جميع الإسماعيلية ،

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسية ج ١ ورقة ٢١٠ .

(٢) كتاب سفر نامه ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٣) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسية ج ١ ورقة ٢١٠ .

(٤) De Sacy : Recherches sur l'Initiation à la Secte Ismaëleene (J.A. 1824), p. 303.

فإنه لم يستطع ابتلاع تلك الغصة ، بل ظل يعمل على زحزحة سعيد عن عرش القرامطة ، واتخذ من ذلك وسيلة لإقرار فكرة تعيين زعماء القرامطة عن طريق الفاطميين . فإن المعروف أن أبا سعيد كان قد ولي ابنه سعيدا عهده من بعده . ولو أن عبيد الله المهدي أقر بيعة سعيد لمساعد ذلك القرامطة على الاستبداد بالأمور دون الفاطميين ، وهو ما لا يرضاه عبيد الله المهدي الذي عرف بميله إلى الزعامة والرياسة .

الثاني : أن سعيد بن أبي سعيد سار على سياسة أبيه في التقرب إلى العباسيين ؛ وليس أدل على صحة هذا القول من ذلك الكتاب الذي بعث به سعيد إلى علي بن عيسى وزير المقتدر العباسي يعلن فيه ولاءه للعباسيين ، كما يعلن أنه يدين بالعقائد السنية ، واعتذر عما بدر من القرامطة من أمور ، على ما نراه مفصلا في هذا الكتاب الذي نقله عن الذهبي ^(١) ، وقد جاء فيه : « سلام على الوزير ^(٢) ؛ فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلي على سيدنا محمد . فأما ما ذكره عنا من انفرادنا عن الجماعة ، فنحن — أيك الله ! لم نفرّد عن الطاعة والجماعة ، بل أفردنا عنها وأخرجنا من ديارنا ، واستحل دماؤنا . . . نحن نشرح للوزير حالنا : كان قديم أمرنا أنا كنّا مستورين مقبلين على تجارتنا ومعاشنا ، ننزه أنفسنا عن المعاصي ، ونحافظ على الفرائض ؛ فنقيم علينا سفهاء الناس وفجارهم ، ممن لا يعرف دين ، وأكثروا التشنيع علينا ، حتى جمع الناس علينا ، وتظاهروا ، وشهدوا علينا بالزور ، أن نساءنا بيننا بالسوية ، وأنا لا نحرّم حراما ، ولا نحلّ حلالا ؛ فخرجنا هارين ، ومن بقى منا جعلوا في رقابهم الحبال والسلاسل . . . فألجئونا إلى جزيرة ، فأرسلنا إليهم في طلب أموالنا وحریمنا ، فنعوها ، وعزموا على حربنا ، فأكناهم إلى السيف ، قال تعالى : (ومن بغى عليه لينصرنه الله) فنصرنا الله عليهم . وأما ما ادعى علينا من الكفر وترك الصلاة ، فنحن تائبون مؤمنون بالله . »

بذلك نجح العباسيون في جذب القرامطة إليهم ؛ فلما ضمنوا ولاء سعيد لهم ، وأدركوا ما كان بينه وبين الفاطميين من نفور . أرسلوا إلى عبيد الله المهدي ، عن طريق « تسكين » وإلى مصر من قبلهم ، يتهددونه . كما تبادل الوزير علي بن عيسى الكتب هو والقرامطة ، « وهاداهم ، وأطلق عليهم ليتألفهم ، فنفع ذلك . . ولا شك

(١) تاريخ الاسلام (مخطوط) ج ٣ ورقة ٤ - ٥

(٢) يقصد به علي بن عيسى

أن ذلك قد حز في نفس عبيد الله، وآله أن يقتض عليه أتباعه الذين كان يعتمد عليهم في فتح مصر: وها هو ذا والى مصر العباسى يتهده ، وهؤلاء العباسيون يحتضنون سعيدا ، وكأنه تناسى مذهبه وواجبه نحو رئيسه . وليس من شك في أن القرامطة كافة لم يسيروا على تلك السياسة النفعية ، التي دفعهم إليها سعيد ؛ فقد عز على كثير منهم أن تفتر العلاقة بينهم وبين « صاحب الزمان ، و « إمام الوقت » الذي طالما كانوا يؤملون ظهوره . ليحملوا علم دعوته ودولته . عز على هؤلاء القرامطة الذين كانوا يميلون إلى الفاطميين ، أن تسوء العلاقة بينهم وبين الفاطميين ، فتمنوا الخلاص من سعيد . وهكذا نجد القرامطة معسكرين : معسكرا يناصر الفاطميين ، كما أسلفنا ، ومعسكرا آخر — وكانوا قلة — يرون رأى سعيد ، وهم جماعة من النفعيين الذين أملت عليهم السياسة أن يعيشوا مستقلين عن الفاطميين والعباسيين ، مع تناسيهم ما كان بينهم وبين الفاطميين من اتصال في المذهب ، واتحاد في الآمال ، فلم يناوؤوا العباسيين العداء ، كما كان يرغب الإسماعيلي المخلص لمذهبه وعقيدته الإسماعيلية .

ويظهر أن الفريق الذي ظل على ولائه للفاطميين كان — كما تقدم — قوة لا يستهان بها ، فعملوا على قلب عرش سعيد ، وتحويله إلى أمير جنابي آخر من أبناء أبي سعيد ، يعترف بالزعامة للفاطميين ، ويقره هؤلاء في التعيين . وقد وجدوا ذلك الشخص في سليمان أبي طاهر بن أبي سعيد ؛ وسرعان ما جاءه التقليد أو التثبيت من « المهدي » . وفي هذا الدليل الواضح على مبلغ تدخل عبيد الله في إحداث ذلك الانقلاب في حكم القرامطة^(١) . ولم يكن الأمر كما ذكر بعض المؤرخين ، وهو أن أبا سعيد عهد إلى ابنه سعيد من بعده ، حتى يبلغ أخوه سن الرشد . وفي ذلك يقول النويري^(٢) : « وخلف أبو سعيد من الأولاد أبا القاسم سعيدا ، وأبا طاهر سليمان ، وأبا منصور أحمد ، وأبا العباس إبراهيم ، وأبا العباس محمد ، وأبا يعقوب . وكان أبو سعيد قد جمع رؤساء دولته وبني زرقان . وكان أحدهم زوج ابنته — وبني سنبر ، وكان متزوجا إليهم ، وهم أخوال أولاده ، وبهم قامت دولته ، وقوى أمره ، فأوصى إليهم ، إن حدث أن يكون القيم بأمرهم ابنه سعيد إلى أن يكبر أبو طاهر .

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسية ج ١ ورقة ٢١٢

(٢) نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧٤ - ٧٥

وكان سعيد أكبر من أبي طاهر سنا ، فإذا كبر أبو طاهر كان المدبر لهم . ولما قتل جرى الأمر على ما وصاهم به ، وكان قد أخبرهم أن الفتوح تكون لأبي طاهر ؛ فجلس سعيد يدبر الأمر بعد مقتل أبيه إلى سنة خمس وثلاثمائة . ثم سلم الأمر لأخيه أبي طاهر ، فعمل أشياء موّدها على أصحابه ، فقبلوها وعظموا أمره .

(ح) موقف عبيد الله المهدي من أبي طاهر الجنابي (٣٠٥ — ٣٢٢ هـ)

تولى أبو طاهر الجنابي القرمطى عرش القرامطة بعد ثورة دامية أشعلها أبو طاهر بمساعدة أنصار عبيد الله المهدي من القرامطة في سنة ٣٠٥ هـ . وقد وافق المهدي على تلك الحركة وباركها ، إن لم يكن هو المدبر لها . ولا غرو فإن عبيد الله حقق غرضه المنشود من هذه الحركة ، وأثبت للقرامطة عدم رضاه عن تعيين سعيد ، أو بعبارة أخرى ، عن نظام الوراثة عند القرامطة ، وبرهن بعمله هذا على أنه يريد ممن يتولى عرش القرامطة أن يكون على هواه ، يأتمر بأوامره ، وينتهي بنواهيته . وكأبه بهذا العمل قد سن الدستور الذي يجب على خلفائه من الفاطميين أن يسلكوه مع أمراء القرامطة ، وسن في الوقت نفسه لأمراء القرامطة دستورا يبين لهم فيه أن التعيين يجب أن يكون من الفاطميين أولا ، وأنه يجب أن لا يعين في هذا المنصب إلا من كان على هواهم ، يسير وفق سياستهم ، ويكون طوع أمرهم .

ومما يؤيد تدخل عبيد الله المهدي في عزل سعيد وإشعال نار الثورة عليه ، وفي تعيين أبي طاهر ، ما ذكره ابن خلدون (١) في هذه العبارة حيث يقول : « ثار به أخوه الأصغر أبو طاهر (٢) ، فقام بأمرهم ، وبايعه العقْدانية (٣) . وجاءه كتاب عبيد الله المهدي بالولاية » .

وإن تدخل عبيد الله في أمر تعيين أبي طاهر ، وتدخل العقْدانية في إحداث ذلك الانقلاب ، لينهض دليلا على أن هناك جماعة من القرامطة كانوا يعملون بوحى

(١) العبر ٣٠ ج ٤ ص ٨٨ — ٨٩ .

(٢) في الأصل والطاهر ، والصواب أبو طاهر .

(٣) كبار القرامطة ووجههم ؛ ويضمون أعضاء مجلس السناتو عند الرومان

من عبيد الله : ومن ثم استمرت علاقة الفاطميين بالقرامطة منذ سنة ٣٠٥ هـ حتى نهاية حكم أبي طاهر سنة ٣٣٢ هـ على خير ما تكون . ونعتقد أن أبا طاهر كان على صلوات طيبة مع عبيد الله ، كما كان موضع احترامه وتبجيله . أضف إلى ذلك أنه كان - كما يقول دوزي - على اتصال سرى بعبيد الله ، يقرّ له بالزعامة المطلقة ، ويفرد له من دخل جماعة القرامطة الخمس (خمس الإمام) ، ويطيعه ، ولا يعصى له أمرا .

معاذرة أبي طاهر عبيد الله المهدي في سياسته

كان حتما على أبي طاهر ، لكي يحتفظ بالعرش له ولأبنائه من بعده ، أن يعمل على وفق رغبات عبيد الله المهدي . ولما كانت الدولة الإسماعيلية التي يرأسها عبيد الله تسعى جاهدة لقلب خلافة بغداد حتى بذلت جهودا جبارة في سبيل الاستيلاء على مصر من العباسيين ، نراها تقوم بحملات ثلاث ، بامت الأولى (٣٠٠ - ٣٠١ هـ) بالخيبة ، لأنها لم تجد من القرامطة بزعامة أبي سعيد ما كان يؤمله عبيد الله المهدي . وكان من أثر ذلك أن قام بين البيتين ، فتور لم ينته إلا في سنة ٣٠٥ هـ باحتلال أبي طاهر عرش القرامطة - على ما رأينا . وقد أحسن عبيد الله المهدي إذ وضع على رأس الدولة القرطبية رجلا مخلصا بالذهب والدولة معا . ومن ثم عمل أبو طاهر وعبيد الله على تحقيق أمور ثلاثة :

الأول : مساعدة أبي طاهر الفاطميين في فتح مصر ، إما بالإغارة عليها من الناحية الشرقية ، ليلتقي مع جيوش عبيد الله بها ، أو بإيقاع الارتباك بين صفوف العباسيين ، حتى يعجزوا عن إرسال الجيوش لتنجدها .

الثاني : شغل العباسيين بالهجوم عليهم في عقر دارهم ، أي في بلاد العراق ، وإتاحة الفرصة لعبيد الله لتنظيم شؤون المغرب دون أن يعكر صفوه مكدر .

الثالث : محاولة التقليل من هيبة الخليفة العباسي - كزعيم للمسلمين - بالإغارة على قوافل الحاج ، وعلى مكة نفسها إن اقتضى الأمر .

أما مساعدة أبي طاهر للفاطميين في محاولة فتح مصر ، فتراها واضحة في محاولته تحقيق ما عجز أبوه أبو سعيد عن القيام به ؛ ولذلك اتفق القرامطة مع الفاطميين في سنة ٣٠٧ هـ على القيام بهجوم مزدوج على مصر ، بحيث تلتقي جيوش

أبى طاهر الآتية من الشرق بجيوش عبيد الله الآتية من الغرب في مصر نفسها .
وليس من شك في أن عبيد الله الفاطمي عرض تلك الخطة الجريئة على القرامطة ، أو
أنه أمرهم بتنفيذها ، فقبلوها عن طيب خاطر . وقد قامت جيوش أبى طاهر فعلا
بمجهودات كبيرة لمحاولة هذه الخطة ، ولكن الدولة العباسية حالت دون ذلك ،
فأرسلت الجيوش من بغداد إلى مصر ؛ وأدى ذلك إلى إخفاق أبى طاهر في
الوصول إلى تلك البلاد ، وأخفقت الحملة الفاطمية الثانية في الاستيلاء عليها . وفي
ذلك يقول ابن خلدون (١) : « وفي سنة ست وثلثمائة (٢) وصل أبو القاسم القائم إلى
مصر ، واستدعى أبا طاهر القرمطي وانتظره ، فأعجبه مؤنس الخادم عن انتظاره ،
وسار من قبل المقتدر ، فزعمه ، ورجع إلى المهدي . وبذلك نرى أنه كانت هناك
خطة مرسومة ، وأن أبا طاهر كان يعمل على تنفيذها ، وأن المهدي قد نجح في هذه
السياسة ، على الرغم من أن إخفاق تلك الحملة على مصر . في أن يجعل من القرامطة
جماعة تخضع لسلطانها ، حتى إنه أصبح آمنا من ناحية هذا الفريق . ولو أن هؤلاء
القرامطة اتحدوا هم والعباسيون ، لكانوا خطرا عليه في المغرب ، كما كانوا في عهد
المعز والعزیز . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن محاولة الفاطميين الثانية لفتح
مصر لم تكن آخر المحاولات التي تدل على ارتباط أبى طاهر بعبيد الله المهدي .

وقد برهن أبو طاهر على وفائه للمهدي ، كما يتضح ذلك من حروبه المتعددة
مع العباسيين ، وإغاراته على قوافل الحاج للغرض من شأن الخليفة العباسي السني .
والذي يهمنا هنا ما كان من مساعدة أبى طاهر القرمطي لزعيمة الخليفة الفاطمي ،
بشأن غارة شعواء على العباسيين في سنة ٣٢١ هـ ، في الوقت الذي كانت جيوش
عبيد الله المهدي تغزو مصر من المغرب . وذلك أنه قد تبين للفاطميين والقرامطة
صعوبة تحقيق أمل الفاطميين في التقاء جيوشهما في مصر . ولذلك عمل أبو طاهر
على أن يقوم بحملة بحرية على جنوب بلاد فارس الغربي ، للاستيلاء على أهم
موانئ الخليج الفارسي كجنابة وغيرها ، ولا بد أن أبا طاهر كان يرى من وراء
حملته هذه إلى تحقيق سياسته القرمطية الفاطمية ، بمحاولة شغل جيوش

(١) العبر : ج ٤ ص ٨٩ .

(٢) في الأصل ست وثمانين .

العباسيين عن جيوش زعيمه عبيد الله التي كانت تغزو مصر في ذلك الوقت . لذلك استعد لهذه الحملة أتم استعداد ، وأمّر عليها كثيرا من زعماء القرامطة وذوى قرباه . ولا يبعد أن يكون أبو طاهر قد رمى من وراء حملته هذه إلى جعل الخليج الفارسي بحيرة قمرطية ، بعد أن وقعت عمان في قبضته ، وخضعت بلاد البحرين والقطيف لنفوذه . ولو تم له ذلك لأصبح من القوة بحيث يستطيع أن يصبو ضرباته العنيفة إلى العباسيين .

غير أن تلك الحملة كان مصيرها الإخفاق ، لأن أهالي هذه البلاد كنوا للقرامطة في الجبال والوديان وهزموهم هزيمة تامة . ولو قدر لهذه الحملة النجاح لوقع الارتباك في صفوف العباسيين وعجزوا عن الدفاع عن مصر ، وأتيح للفاطميين احتلال هذه البلاد في سنة ٣٢١ هـ . ومهما يكن من شيء فإن إخفاق حملة أبي طاهر هذه ، معناه القضاء على حملة عبيد الله المهدي على مصر ^(١) . وهكذا قام أبو طاهر بواجبه نحو زعيمه عبيد الله ، ونحو مذهبه الإسماعيلي ، فلم يدخر وسعا في تحقيق الغرض الأول الذي كان يسعى إليه الفاطميون وأنصارهم ، وهو القضاء على العباسيين ، وإقامة دولة الفاطميين على أنقاض دولة هؤلاء .

وأما محاولة أبي طاهر الغرض من كرامة الخليفة العباسي باعتباره زعيما دينيا ، فإنها تركز في الهجوم العنيف على قوافل الحاج في سنين عدة ؛ حتى إن أهل مكة رحلوا عنها في سنة ٣١٣ هـ خوفا منه ، وامتنع الناس عن الحج أكثر من سنة في بعض السنين . واستطاع أبو طاهر أن يدهم قوافل كثيرة ، وأن يفتك بها جميعا ، ويعامل من بقى قيد الحياة معاملة الأسرى ، فيتخذ منهم عبيدا وإماء . وكان يقوم فوق ذلك ببعض الهجمات العنيفة على جنوب العراق ولا سيما مدينة البصرة . وقد نسأل عن العوامل التي دفعت أبا طاهر إلى ذلك : أكان سعيا وراء المال وحده ؟ أم كان تنفيذا لأوامر ساداته الفاطميين ؟ أم أن أبا سعيد كان مدفوعا بعوامل دينية ؟ أم أنه كان يقصد إيقاع الارتباك في صفوف العباسيين ؟

الواقع أننا لا نستطيع أن نعزو ذلك إلى حب المال وحده . حقيقة كان أبو طاهر يستولى على أموال ضخمة من الحجاج . وإذا كان قد اغتصب من قائد

(١) أنظر تفصيل هذه الحملة في التبرير : نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٩٣ .

إحدى هذه القوافل عشرين ألف دينار في سنة ٣١٢ هـ ، فإذا كانت جملة ما أخذ ونهب من الأموال من جميع الحجاج ؟ ولكن مع ذلك لم يكن يرى إلى الحصول على المال وحده . بل كان يعتقد فوق ذلك أن الحجاج يقومون بعمل ينطوي على العبث بالدين ، وكان يرى في حج المسلمين إلى مكة جريمة دينية . وهذا يدلنا على غلوه المذهبي . وشيء آخر يجب الالتفات إليه ، وهو أن الفاطميين - وعلى رأسهم عبيد الله - كانوا يعملون على إضعاف مركز الخليفة العباسي في نظر العالم الإسلامي ؛ ولذلك لم ير عبيد الله بأسا من الاستعانة سرا بتابعه أبي طاهر في تحقيق هذه السياسة .

ولكن الخليفة العباسي المقتدر اكتفى بأن أرسل إلى أبي طاهر يوبخه ويتوعدده (٣١٣ هـ) . وبذلك نرى مدى ما وصلت إليه الخلافة العباسية من ضعف ووهن ، حتى إنها عجزت عن حماية رعاياها وحجاجها بالسيف ، ولجأت إلى التهديد والوعيد بالكتابة لا بالسيف . ومن رسالة أبي طاهر إلى الخليفة المقتدر تتبين ، مدى العلاقات الطيبة بين الفاطميين والقرامطة ، فنرى أبا طاهر يعترف بتبعيته لعبيد الله المهدي ، ويعلن أنه من دعائه ، ويشيد بإمامته ، وبغض من شأن الخليفة العباسي ، ويعتبره فاسقا كافرا ؛ كما يعيب عليه نظام حكمه للمسلمين ، ويتحداه في شجاعة ظاهرة . وهاك طرفا من هذه الرسالة الممتعة التي تنقلها عن كتاب كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، للحجادي الباني (١) : « من أبي طاهر (٢) سليمان بن الحسن الجنابي ، الداعي إلى تقوى الله ، القائم بأمر الله ، الآخذ بشار رسول الله ﷺ ، إلى قائد الأرجاس ، المسمى بولد العباس ... هذا وقد خرج عليك الإمام المنتظر ، والأسد الغضنفر في سبيل الظفر ، متقلدا سيف الغضب ، مستغنيا عن نصره العرب ، لا يأخذه في الله لومة لائم ... قد اكتشف العز من حواليه ، وسارت الهيبة بين يديه ، وضربت الدولة عليه سرادقها ، وألقت عليه قناع بوائقها (٣) ، وانقشعت طخا الظلمة (٤) »

(١) ص ٣٣ - ٣٤

(٢) في الأصل أبي سعيد ، وهو خطأ ظاهر .

(٣) جمع بائقة : وهي الداهية .

(٤) الطخا : هو السحاب .

ودُجَّةُ الضلال ، وغاضت بحار الجهالة ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل ولو كرهه المجرمون .

« فأما ما ذكرت من قتل الحجيج ، وإخرا ب الأعمار ، وإحراق المساجد ، فوالله ما فعلت ذلك إلا بعد وضوح الحجة ، كإيضاح الشمس ، وادعاء طوائف منهم أنهم أبرياء ، ومعاينتي فيهم أخلاق الفجار ، فحكمت عليهم بحكم الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون (٢) . وأما ما ذكرت من إحراق مساجد الأبرار ، فأى مساجد أحق بالخراب من مساجد إذا توسطتها سمعت فيها السكندب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ ، بأساليب من مشايخ جرة ، بما أجمعوا عليه من الضلالة ، وابتدعوا من الجهالة . وأما تخويفك لى بالله ، وأمرك إياى بمراقبته ؛ فالعجب من بهتك ، وصلابة حدقتك ! أترى أنى أجهل بالله منك ؟ ... لأنت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين .

« وبعد : فما لك والوعيد ، والإبراق والتهديد ؟ اعترم على ما أنت عليه عازم ، واقدم على ما أنت عليه قادم ، والله من ورأى ظهير ، وهونعم المولى ونعم النصير . والحمد لله ، وصلى الله على خير بريته وآله وعترته . »

إننا لا نرى فى رد أبى طاهر على الخليفة المقتدر العباسى ، ما يشعرا بأنه لم يكن على غير الإسلام ، أو أنه كان يسعى لهدمه ، وإنما كان يخرب المساجد ويحرقها ، لأنه كان يعتقد أن الشعائر الإسلامية لم تكن تؤدى بها على وجهها الصحيح . فكأنه كان يتشدد فى الدين . هذا التشدد الذى حمله على الإغارة على مكة ، والعبث بالحاج . فى سنة ٣١٧ هـ . ويرتبط بهجوم أبى طاهر على مكة ، وحمله الحجر الأسود إلى حجر أمور ، منها : بحث الدوافع الحقيقية لهذا الحادث التاريخى العجيب ؛ إذ كيف يكون متشددا فى الدين من يهتك حرمة الكعبة ، ويقتل الحجاج فى المسجد الحرام ، ويفتك بالآلوف منهم ، لا لذنوب يعرفه ؟ بل إنه كان يقول مبررا عمله :

فلو كان هذا البيت لله ربنا لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأننا حججنا حجة جاهلية مجللة لم تبق شرقا ولا غربا
وأنا ترصنا بين زمزم والصفاء ككاتب لا تبغى سوى ربها ربا

(١) الدجّة : الظلمة .

(٢) سورة المائدة آية ٤٤ .

ولكن رب العرش جل جلاله ولم يتخذ بيئنا ولم يتخذ حجبا (١)
فهل كان الدافع الحقيقي الذى دفع أبا طاهر إلى ارتكاب هذا ، ما يراه بعض
من أن الإسماعيلية كانوا يتنبشون فى ذلك الحين بزوال دولة الإسلام ، وسيادة دولة
الإسماعيلية ودينهم ؟ وأن مبعث هجومهم على مكة يرجع إلى تلك النبوءة ؟ وأنه لما لم
تتحقق هذه النبوءة عراهم الوهن ، واتتابهم الألم بعد ذلك (٢) ؟ والذى لاشك فيه
أن مذهب الإسماعيلية فى جوهره يقوم على بغض كثير من شعائر الإسلام ، حتى
إن من أصول عقائد الدرزية — وهم إسماعيلية — أن الحاكم بأمر الله حين يرجع
من غيبته سوف يهدم الكعبة ، ويجعل الخلق جميعا يدينون بدينه الذى يسمونه
« دين التوحيد » ، وكأن الدافع المذهبي هو الذى حدا بأبي طاهر إلى إحداث
ما أحدث .

وهل كان أبو طاهر يرمى من وراء ذلك إلى صرف الناس عن الحج إلى مكة ،
وتوجيههم للحج إلى بلاده ، ولذلك نقل الحجر الأسود إلى هجر ، (٣) حاضرة بلاده ؟
على أننا لم نجد فى سلوك أبي طاهر ما يؤكد ذلك ، بل نراه يحتفظ بالحجر الأسود ،
ويضعه فى مكان خفى . ويظهر أن المؤرخين لما رأوا أبا طاهر يؤسس دار هجرة
لأنصاره ، ظنوا أنه بنى مكانا لمنافسة مكة ، مع أن بناء تلك الدور فى البلاد التى انتشر
بها المذهب الإسماعيلي من خصائص الدعوة الإسماعيلية . والحق أن الحجر الأسود
بقى فى بلاد البحرين سنين كثيرة - على ما يقوله ناصر خسرو - وأن أحدا من
المسلمين لم يزره ، أو أن أحدا قد حاول أن يفعل ذلك (٤) .

وكيف نفسر موقف عبيد الله المهدي مما قام به أبو طاهر ؟ إننا نعلم أن هذا
التابع لم يكن يتصرف فى أعماله بغير أمر زعيمه عبيد الله ، مما حدا ببعض المؤرخين
على الاعتقاد بأن ما فعله أبو طاهر كان بإيحاء من عبيد الله ، وجعل بعضا آخر
يعتقد أنه استبد بالامر دون عبيد الله . ويدلل القائلون بأن عبيد الله لم تكن له

(١) الحادى النجاشى : أمرار الباطنية ص ٢٣

(٢) Carra de Vaux: Les Penseurs de l'Islam, Vol. v, p. 41.

(٣) ابن خلدون : الديرة ج ٤ ص ٥٩

(٤) سفر نامه : ج ٢ ص ٢٢٩ .

يد فيما اقترفه أبوطاهر بأدلة منها : أنه أرسل إليه « يشكر عليه ذلك ، ويلومه ، ويلعنه ، ويقيم عليه القيامة » . ويقول له : قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت : وإن لم تردّ على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وترد الحجر الأسود إلى مكانه ، وترد كسوة الكعبة ، فأنا برىء منك في الدنيا والآخرة ، (١) . ولكننا نشك في أن أباطاهر استجاب لأمر عبيد الله المهدي . ورد الحجر الأسود إلى مكانه بمكة ، كما يقول ابن الأثير : لأن هذا الحجر بقي في هجر اثنتين وعشرين سنة (٣١٧ — ٣٣٩ هـ) ، أي بعد موت أبي طاهر بسبع سنوات ، وبعد موت المهدي نفسه بسبع عشرة سنة .

ويحمل بنا أن نشير إلى أن الأحوال السياسية قد أرغمت عبيد الله المهدي ، باعتباره رئيساً للدولة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية ، يجمع بين السلطين الزمنية والروحية جميعاً ، إلى أن ينهج في تصرفاته منهجين : منهجاً سرياً مع أتباعه الإسماعيلية ، يشجعهم على القيام برسوم مذهبهم ، بحيث لا يطلع أحد من رعاياه غير الإسماعيليين على هذه الاتصالات السرية ، ومنهجاً علنياً يتصل عن طريقه برعاياه السنيين ، ولا يتقيد في هذا المنهج الأخير ، بأسرار المذهب الإسماعيلي ، بل كثيراً ما يتبرأ منها أمام هؤلاء الرعايا : فإذا أدركنا ذلك استطعنا أن نقف على حقيقة موقف عبيد الله المهدي في هذا الأمر بالذات (٢) . وهذا ما حدا بعض المؤرخين على القول بأن عبيد الله أرسل إلى أبي طاهر رسالتين : إحداهما هذه الرسالة التي يبرىء فيها نفسه أمام رعاياه السنيين ، والثانية بعث بها سرا ، ولم يتصل خبرها إلا بخواص أهل مذهبه من المقرئين إليه . وكان من أثر تلك الرسالة أن بقي الحجر الأسود في هجر حتى سنة ٣٣٩ هـ (٣) . ولو كان عبيد الله جادا في رسالته الأولى لعاد الحجر الأسود إلى مكانه بمكة من فوره ، لأن أباطاهر لم يكن يعصى أمره . وقد تحامل العيني على عبيد الله وعلى الفاطميين فقال : « وإلما حمل هؤلاء على هذا الصنع ، لأنهم كفار زنادقة مائلون (وردت في الأصل مماثلين) للفاطميين ، الذين نبغوا في هذه السنين

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٧١

(٢) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد ج ١ ورقة ٢٢٧

(٣) العيني : عقد الجمان (مخطوط) ج ١٨ ورقة ٢٢

ببلاد إفريقية من أرض الغرب ، وأميرهم عبيد الله الملقب بالمهدى^(١) . ويرى دى غويه^(٢) أن العلاقة بين القرامطة والفاطميين كانت سرية ، وأن رعايا الفاطميين الخاضعين لسلطانهم لم يعرفوا شيئاً عن هذه العلاقة ؛ ولو علموا بها وبما حدث بمكة من أخذ الحجر الأسود ، وقتل الحاج . وأن ذلك كان بأمر الفاطميين ، لما بقي عبيد الله المهدى على العرش سنة واحدة .

وبهذا نرى أن أبا طاهر الجناني لم يأخذ الحجر الأسود من مكة ليرتق بسببه ؛ فقد عرض عليه عشرات الألوف من الدنانير كفاء رده إلى مكانه بالكعبة ، فأبى إلا أن ينفذ أوامر عالية حالت دون تلبية هذا النداء . فقد روى أن بحكم «المتغلب على الدولة ببغداد أيام المستكني (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ) بذل لهم خمسين ألفاً من الذهب ، على أن يردوه فأبوا ؛ وزعموا أنهم إنما حملوه بأمر من إمامهم عبيد الله ، وإنما يردونه بأمره وأمر خليفته^(٣) . وهذا مما حدا دوزي^(٤) على القول بأن أبا طاهر لم يسر إلى مكة ، ولم يسلب الحجر الأسود إلا بأمر عبيد الله صاحب المغرب . ومن ذلك نستطيع أن نقول ، إن سياسة عبيد الله المذهبية كانت تناقض في كثير من الأحيان سياسته الحكومية . ونحن نعتقد صحة ما ذهب إليه هؤلاء العلماء ؛ لأن عبيد الله لو حاول أن يعامل أتباعه الإسماعيلية كما يعامل رعاياه السنين ، لاحت المذهب الإسماعيلي وزالت معالمه .

وإذن هل حقق عبيد الله المهدى سياسته التي كانت ترمي إلى الانتفاص من هبة الخليفة العباسي ؟ لا شك أن عبيد الله استطاع بما فعله أحد أتباعه وهو أبو طاهر ، أن يظهر العباسيين بمظهر العاجز عن حماية رعاياه السنين ، ولكنه في الوقت نفسه جلب على أنصار المذهب الإسماعيلي (القرامطة) مقت العالم الإسلامي كله ؛ فقد رأينا كيف اتهمه المؤرخون القدماء والمحدثون ، وفيهم الموالون للفاطميين كابن خلدون مثلاً ، وعدّ بعض رسالة عبيد الله لأبي طاهر الجناني خديعة ومكرًا .

(١) العيني : عقد الجنان (مخطوط) ج ١٨ ورقة ٣٣ .

(٢) Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn, vol. ii, p. 224.

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٨٩ .

(٤) Essai sur l'Histoire de l'Islamisme, p. 279.

وإن دل هذا الحادث على شيء فإنما يدل على كثير من المهارة السياسية التي برع فيها عبيد الله المهدي : فقد أظهر نفسه بمظهر البرى المدافع عن الدين الإسلامى ، ولكن بقاء الحجر الأسود اثنتين وعشرين سنة في أيدي القرامطة ، الذين كانوا يعتبرون المهدي حلول الله على الأرض ، لا يتفق مع رسالته التي أرسلها إلى القرامطة ، يهتمهم فيها بالخروج على الدين ، كما لا يعقل أن يتهمة القرامطة كذبا بأنه أمرهم بحمل الحجر الأسود إلى بلادهم . وإذن قولهم : « أخذناه بأمر من إمامنا عبيد الله ، لا يتناقى مع منعهم هذا الحجر بعد أن بعث المهدي في طلبه منهم ، كما أن قولهم : « وإنما نرده بأمره أو بأمر خليفته » ، يتفق تماما مع ما ذهب إليه بعض العلماء من أن المنصور بن القائم الفاطمى هو الذى أمرهم برده ، ولم يردوه بوحى من ضمائرهم .

محاولة أبى طاهر الجنابى فتح العراق :

كان هجوم أبى طاهر القرمطى على بلاد العراق فى سنى ٣١٥ هـ ، ٣١٦ هـ ، مؤامرة حاك شركها زعيمه عبيد الله المهدي ضد الدولة العباسية ؛ وقد اتهم أبو طاهر حالة الضعف التي وصلت إليها هذه الدولة فى عصر نفوذ الأتراك ، فضاغف هجومه على مدن العراق ، لكي يشغل العباسيين عن ساداته الفاطميين ، فيصبحوا آمنين فى بلاد المغرب . ومن ثم أسس فى بلاد الأحساء مدينة حصينة أسماها «المؤمنية» ، لتقف فى وجه العباسيين ، وأتم فتح بلاد عمان ، فأصبح ساحل الخليج الغربى لإسماعيليا بحتا . وإنما فعل ذلك ليحمى جناح جيشه الجنوبى إذا ما وجه حملاته إلى بلاد العراق . وقد أصاب أبو طاهر فيما فعل ؛ فإن الخليفة المقتدر ولى بلاد القطيف والبحرين واليا جديدا ، يقف فى وجه مطامع أبى طاهر القرمطى . ومهما يكن من شيء فقد استطاع أبو طاهر أن ينشر الذعر والهلوع فى كافة بلاد العراق ، وكادت تقع بغداد نفسها فى قبضة يده سنة ٣١٥ هـ .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن نبين مدى نفوذ عبيد الله المهدي فى بلاد العراق . ويظهر ذلك واضحا جليا من استقصاء علاقة يوسف بن أبى الساج (١)

() كان هذا الأمير يتولى أمور آذربيجان من قبل العباسيين ، فولاه المقتدر إقليم القطيف والبحرين لقتال القرامطة .

بالفاطميين . ذلك أن جماعة من المؤرخين يهتمون هذا القائد العباسي بالاتصال بالفاطميين ، فقالوا إنه كان على دين القرامطة ، بمعنى أنه كان إسماعيليا . وإنه كان يعمل على تسليم بغداد إلى الفاطميين ، ويقوم بذلك بنفس الدور الذي قام به أبو مسلم الخراساني مع العباسيين ، وأبو عبد الله الداعي مع الفاطميين . ولكن كاتبه محمد بن خلف النيرماني باح بهذا السر لنصر الحاجب ، فأذاعه هذا بدوره للخليفة المقتدر . وبما قاله محمد بن خلف ، أن ابن أبي الساج كان يستتر مذهبه في الدين ، وأنه لما سار إلى واسط ، أنس به وانبسط إليه ، فكشف له أنه يتدين بأن لا طاعة عليه للمقتدر ، ولا لبني العباس على الناس طاعة ، وأن الإمام المنتظر هو العلوي الذي بالقيروان^(١) ، وأن أبا طاهر الهجري صاحب ذلك الإمام ، وأنه قد صح عنده أنه يتدين بدين القرامطة . . . وأنه ليس له نية في الخروج إلى هجر ، وأنه إنما احتال بالوعد بالخروج إلى هجر حتى يتم له أخذ الأموال ، وأنه قال له في شهر ربيع الآخر : أى شيء بقي لنا على الخليفة ووزيره من الحجة ، ولم — ليس (كذا في الأصل) تخرج إلى هجر ولا أراك تستعد لذلك ؟ . . . قال له : فلم غررت السلطان بذلك ، ووعدته بهذه الحال حتى سلم إليك جميع أعمال المشرق ؟ فأجابه بأنه يرى انتقاص المقتدر وسائر ولد العباس الغاصبين أهل الحق ، فرضا لله عز وجل ، وأن طاعة طاغية الروم أسلم من طاعة الخليفة . فقال له : فهبك فعلت ذلك ، ما الذى يؤمنك من القرمطى أن يوافى إلى واسط وإلى الكوفة ، فلا تجد بدا من لقائه ومحاربته ؟ فقال فى الجواب : ويحك كيف أحارب رجلا هو صاحب الإمام وعدة من عدده ؟ فقال له : فإن أراد هو حربك ، أى شيء تعمل ؟ فقال له : ليس لهذا أصل . وقد ورد عليه كتاب الإمام من القيروان بأن لا يظأ بلدا أكون فيه ، ولا يحاربني بوجه ولا سبب ، وأنه ختم القول بأن قال : إنى إنما أنتظر أن يقبض رجالى بأسرهم أموال سنة ٣١٤ هـ ، فإذا قووا بذلك منعت أولا من أعمال واسط والكوفة وسقى الفرات ، وأنفذت إليها العمال ، فلا بد للسلطان أن ينسكح حينئذ ما أفعل ، فأكشفه ، وأخطب للإمام ، وأظهر الدعوة ، وأسير إلى بغداد . فإن من بها من الجند قوم يجرى بحرى النساء .

(١) هو عبيد الله المهدي .

فقد ألقوا الدور (التسكر) على دجلة والشراب والثلج والخيش والمغنيات^(١)، فأخذ أنفسهم وأموالهم ، ولا أدع الهجرى يفوز بالاسم ، وأكون أنا سابق الدولة إلى الإمام ، فإن أبا مسلم — خراز النعمان —^(٢) لم يكن له أصل . وقد بلغ ما بلغ ولم يكن معه لما ارتفع النصف من معى ، وما هو إلا أن أظهر الدعوة حتى قد اجتمع مائة ألف ضارب سيف . ويقول محمد بن خلف : قد صدقت أمير المؤمنين عن هذا الأمر ، فإن ولانى الوزارة انقمع ابن أبى الساج وبطل عليه تدبيره^(٣).

نتبين فى تلك الوثيقة مؤامرة هائلة على يد قائد من خيرة قواد العباسيين ، يريد أن يقلب دوله ويقيم أخرى ، فيهدم دولة سنية ويؤسس على أنقاضها دولة شيعية . وإذا صح كل ما جاء فى هذه الوثيقة ، دل على مقدرة عبيد الله السياسية ، تلك المقدرة التى جعلت من ذلك القائد العباسى الذى كان وراءه مائة ألف سيف يخضع له ، ثم هو يتكلم فى ثقة واطمئنان عن عدم اصطدام أبى طاهر الجنبانى به . فهل كان حقاً ما ذهب إليه هذا القائد ؟ وهل أوحى عبيد الله إلى تابعه أبى طاهر بأن لا يحارب ابن أبى الساج ؟ يؤكد لنا دى غويه أن هجوم أبى طاهر على الكوفة فى ذلك الحين ، لم يكن الغرض منه سوى استطلاع ما فى نفس ابن أبى الساج ، لأنه لو كان هذا القائد على هوى عبيد الله ، لانضم إلى القرامطة وهددوا بغداد جميعاً ، وأعادوها فاطمية لحماً ودماً . وقد يساعد على تصديق ذلك أنه لما أسر أبو طاهر ابن أبى الساج ، أكرمه ليعرف خبايا نفسه ؛ فلما تأكد أنه على غير ما يرغب قتله . يقول ابن الأثير^(٤) : إن الناس يهتمون ابن أبى الساج بأنه « قرمطى يعتقد إمامة العلوى الذى فى إفريقية » ، وإنه نواظر فى ذلك ، فأقره وداعى « أنه لا يسير إلى قتال أبى طاهر القرمطى ، وإنما يأخذ بهذا السبب ويقوى به على قصد حضرة السلطان وإزالة الخلافة عن بنى العباس » . ويرى الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم^(٥) أنه على الرغم « من أن ابن أبى الساج لم يقم

(١) هذه الأوصاف للدلالة على إيمان جيش الخلافة فى وسائل التعرف .

(٢) أى أبو مسلم الخراسانى مؤسس الدولة العباسية .

(٣) De Goeje; Mémoire, Vol. ii, pp. 216—218.

(٤) الكامل فى التاريخ ٨ ص ٧٣

(٥) الفاطميون فى مصر ص ٧٣

في هذه الحرب بعمل تشتم منه رائحه العصيان للخليفة العباسي ، فإن هذا الأمر لا يحول دون ما نراه ، وهو أنه كان يميل إلى الدخول في دعوة المهدي ، ولكن الفرصة لم تكن بعد لأن يقوم بتحقيق هذا العمل .

غير أن هناك ما يمنعنا من تصديق كل ما قيل عن تشيع القائد يوسف بن أبي الساج ، وإن ما عرف عن سلوكه وأخلاقه يؤيد ما ذهبنا إليه . نعم إنه لا يعقل أن يفعل هذا دون أن يكون جيشه كله على رأيه . وإذن هل كان جيش ابن أبي الساج يدين بالمذهب الإسماعيلي فيتشيع لمن في المغرب من الإسماعيلية ؟ وهل كان ابن أبي الساج متشيعا حين ولايته بأذربيجان ، أو بعد تعيينه على الجيوش العباسية للصراع مع القرامطة ؟ الواقع أن جيشه لم يكن متشيعا ، كما لم يعرف عنه أنه تشيع في أثناء ولايته بأذربيجان أو بعد ذلك ، الأمر الذي يشككنا في صدق تلك الرواية ، خصوصا إذا علمنا أن من أوصلنا إلى مسامع العباسيين كان يتمنى أن يكون وزيرا . لهذا لا يمكن أن نأخذ بصحة ما ورد عن هذه المؤامرة الخطرة . على أن ذلك لا ينفي ارتباط ابن أبي الساج بعبيد الله ، أو عطفه على المذهب الإسماعيلي ودولته على الأقل . وقد رأينا أنه اشترك مع نصر بن أحمد الساماني ومازيار الديلمي في التقرب إلى الفاطميين ، كما كانت هناك مراسلات بين هؤلاء الأمراء وبين الفاطميين ، على ما ذكره المقرئ في كتابه «المقفي الكبير» (١) .

ولا يعني هذا أن نتبع حوادث ذلك الصراع تفصيلا ، ولكننا نقول إن أبا طاهر اتجه نحو الكوفة في سنة ٣١٥ هـ ، وهزم ابن أبي الساج وأسر . وقد قيل إن ابن أبي الساج أرسل إلى أبي طاهر يقول : لك حق قديم ، وأنت في قلة ، وأنا في كثرة ، والمصلحة أن تنصرف سالما (٢) . ولم يكن هناك ما يحول دون وصول أبي طاهر إلى بغداد وسقوطها في يده ، لولا ما كان من قطع القنطرة الموصلة إلى هذه المدينة . وقد تخلص أبو طاهر من ابن أبي الساج ، إذ رأى أنه على غير هواه (٣١٥ هـ) ، ولم يعتبر أبو طاهر ارتداده عن حاضرة العباسيين هزيمة ، فقد جال في شمال العراق حتى وصل إلى الرحبة (٣) ، وخافه أهل قرقيسيا (٤) ، وصالحوه على جزية سنوية

(١) انظر حسن إبراهيم : الفاطميين في مصر ص ٧٤ .

(٢) العيني : عقد الجمان (مخطوط) ج ١٨ ورقة ٥٧ .

(٣) قرية بجوار القادسية على مقربة من الكوفة - انظر معجم البلدان لياقوت .

(٤) بلدة نهر الخابور ، قرب رحبة مالك بن طوق ، على ستة فراسخ ، واقع عند مصب نهر الخابور .

يدفعونها إليه . وبذلك أصبح نفوذ القرامطة عظيماً في شمال العراق ، خصوصاً بعد أن قصدوا الرقة ، وحاربوا أهل الرحبة ، وجالوا حتى مدينة سنجار ، (١) . على أن أبا طاهر لم يكن من سياسته أن يعمل على الاستقرار في بلاد العراق ، مستعيناً في ذلك بما يسمونه وجيوش احتلال ، ؛ ولذلك كان نصيبه الخيبة ، وعاد إلى بلاده في سنة ٣١٦ هـ . ولم يشأ أبو طاهر القرمطي أن يقر بأن تقهره عن العراق كان ينطوى على هزيمة ، بل إنه تنبأ بانحيار الدولة العباسية ، وادعى أنه سيوصل بجيشه إلى بلاد المغرب ، ليلتقي بجيوش الدولة الفاطمية هناك ، ويحيل تلك البلاد الشاسعة بلاداً إسماعيلية تدين للفاطميين بالطاعة ؛ كما أقر على نفسه بأنه أحد دعاة المهدي . ويتضح من هذه القصيدة التي أنشدها أبو طاهر أنه كان مشتركاً مع عبيد الله المهدي الفاطمي في حركته الحربية :

أغرّكم منى رجوعي إلى هجر ؟ فما قليل سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المريخ في أرض بابل وقارنه النجمان ، فالخذر الخذر !
فمن مبالغ أهل العراق رسالة بأنى أنا الموهوب في البدو والحضر ؟
سأضرب خيلي نحو مصر وبرقة إلى قيروان الترك والروم والخذر
أكيلهم بالسيف حتى أبيدهم فلا أبقى منهم نسل أنثى ولا ذكر
أنا الداعي إلى المهدي لا شك أننى أنا الضيغم الضرغام والمارس الذكر (٢)

وقد أسفرت هذه الحركة عن وجود جماعة من الإسماعيلية في بلاد العراق ، تخلص لعبيد الله وأتباعه القرامطة . ولو استطاع أبو طاهر استغلال هذه الجماعة ، لكوّن منهم جاسوسية منظمة للقضاء على العباسيين ؛ ولكنّه لم يفعل . ومعاداً ربين الوزير العباسي على بن عيسى وبين أحد الإسماعيلية من أهل العراق ، نبيين مبلغ إيمان هؤلاء بإمامة عبيد الله واعتقادهم أنه المهدي المنتظر ، ورميهم العباسيين بأقبح الصفات . يقول ابن الأثير (٣) : « جاء إنسان إلى على بن عيسى ، وأخبره أن في جيرانه رجلاً من

(١) سنجار : مدينة بنو أمية المرسل ، بينهما ثلاثة أيام .

(٢) البيروني : الآثار الباقية ص ٢١٤ .

(٣) الكامل ج ٨ ص ٥٨ .

شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالأخبار ؛ فأحضره وسأله ، فاعترف وقال : ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندى أنه على الحق ، وأنت وصاحبك (أى الوزير والمهدي) كفار تأخذون ما ليس لكم . ولا بد لله من حجة فى أرضه ؛ وإمامنا المهدي فلان بن فلان بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، المقيم ببلاد المغرب . ثم أنظر مبلغ ثقتهم بأنفسهم وبقائهم فى إخلاصهم بعضهم لبعض . ذلك أنه لما قال له الوزير على بن عيسى : وقد خالطت عسكرنا وعرفتهم ؛ فمن فيهم على مذهبك ؟ فقال : وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة ؟ كيف أسلم قوما مؤمنين إلى قوم كافرين ؟ لا أفعل ذلك ، (١) .

- وترجع أهمية هذه الحملة بالنسبة لعبيد الله المهدي ، إلى أن أبا طاهر خرب مدن العراق وبث الرعب فى قلوب الأهاليين . حتى إننا إذا وازنا بين حالة العراق قبل سنة ٣١٥ هـ بحالته بعد سنة ٣١٦ هـ ، لأدركنا خطر ما قام به القرامطة من إفساد وتدمير فى أعظم بقاع الدولة العباسية خصبا وحضارة ، مما حدا ببعض المؤرخين إلى القول بأن ذلك كان من العوامل التى ساعدت على ضعف العباسيين ، وشجعت البيزنطيين على الإغارة على بلادهم بعد ذلك بقليل . وقد أفاد عبید الله المهدي من ذلك أيعا فائدة ؛ فشغل جيوش الخلافة العباسية . التى عدها خطرا قد يوجه فى يوم من الأيام إلى قلب الدولة الإسماعيلية فى المهديّة نفسها .

وليس هذا فقط بل إن حركة أبى طاهر هذه قد ساعدت جماعة آخرين من بقايا قرامطة السواد على الثورة فى بلاد العراق ؛ وكان على رأس هذه الحركات القرمطية جماعة يؤمنون بمحمد بن إسماعيل ، ولا يزالون ينتظرون مهديا من سلالته . ومن هؤلاء الداعى عيسى بن موسى ابن أخت عبدان داعى حمدان قرمط ، وحريث بن مسعود . وقد نجح هؤلاء القرامطة فى تكوين حكومة قرمطية فى قلب بلاد العراق ؛ وكانوا يعملون على نشر الدعوة بطريقة علمية منظمة : فهذا عيسى بن موسى يقيم ببغداد ، يدعو ويتوصل إلى ناس استغزهم ، ويعمل ككتبا يجمع فيها ما يأخذه من كتب يشتريها من الوراقين ، يخرق فيها بذكر أمور ينسجها ، ويوهم أن له بذلك علما . ورتب كتبا ينسبها إلى عبدان الداعى ، ليوهم أن عبدان كان أحد العلماء بكل

فلسفة وغيرها ، وأنه يعلم ما يكون قبل كونه ، ومخرق بمجده على جهال الناس ، فصاروا له أتباعا ، وأفسدوا إفسادا خطيرا ، (١) .

٢ - عميد الله المهدي والإسماعيلية في اليمن

قامت الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن في عهد الإمام المستور الحسين بن أحمد ابن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، على يد ابن حوشب وزميله ابن فضل الجدني ، وأصبحت هذه البلاد مركزا رئيسا لنشر الدعوة في كثير من بقاع العالم الإسلامي ، كعصر والمغرب وسواهما . وقد رأينا كيف ساد الاعتقاد في أواخر القرن الثالث الهجري ، بأن الدولة الإسماعيلية المنشودة ستقوم في اليمن ، وأن مهدي الإسماعيلية سيرفع عليه عاليا في تلك البلاد . ومعنى ذلك أن بلاد اليمن كانت لها الصدارة في دور الستر ، وأن رؤسائها كانوا يودون لو أن الدولة الفاطمية الإسماعيلية قامت على أيديهم في تلك البلاد ؛ ولذلك كان لقيام هذه الدولة في بلاد المغرب أثر سيء في بعض بلاد اليمن ، وخصوصا في البلاد التي كان يتزعمها ابن فضل الجدني . ولاغربة في ذلك ؛ فقد تنحت اليمن للمغرب عن تلك الزعامة ، كما تنحى ابن فضل وابن حوشب للمهدي عن زعامة الإسماعيلية ورياستهم . وكانت هذه التغييرات عظيمة الأثر في نفس ابن فضل ؛ أما ابن حوشب فقد ظل على إخلاصه ووفائه لآئمة الإسماعيلية مستورين كانوا أم ظاهرين .

(١) موقف عميد الله من النزاع بين ابن فضل وابن حوشب

ثار ابن فضل على ابن حوشب ، ثم على الآئمة الإسماعيلية الخلفاء تبعا لذلك . ولكن متى حدث ذلك ؟ لقد رأينا بعض المراجع الإسماعيلية تعزو ذلك إلى عهد إمامة عبيد الله ، أي في أثناء هربه من سلبية ، وأنها تعزو ذلك إلى لجوء بعض الدعاة التأثيرين إلى اليمن ، وتأثيرهم في ابن فضل الذي ثار على الدين الإسلامي وعلى المذهب الإسماعيلي ، كما ثار على ابن حوشب . لسكننا لا نميل إلى تصديق هذا كله ،

(١) النويري : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٣ ورقة ٩٢ .

فنحن لا نعلم أن أحدا من الإسماعيلية قصد بلاد اليمن ، وقام بما ذهب إليه هؤلاء المؤلفون من الإسماعيلية قبل فيروز ، داعي دعاة المهدي وباب أبوابه : فقد عز عليه أن يقصد عبيد الله بلاد المغرب دون اليمن ، فانفصل عنه وهو في مصر (٢٩١ هـ) ، إذ أن الدعوة الإسماعيلية في الشام ومصر واليمن إنما قامت على أكتافه . ولا غرو فقد أدخل ابن حوشب في المذهب الإسماعيلي ، وأرسله مع زميله ابن فضل إلى بلاد اليمن . كما جعل على الدعوة في مصر صهره الداعي أبا علي الذي رباه — كما يقول اليماني — وعليه أصول المذهب الإسماعيلي . أضف إلى ذلك ازدياد نفوذه في بلاد الشام نفسها ، وفي العراق وسواها . وكان الداعي « فيروز » يؤمل أن يستمر على زعامته لتلك الجماعة الإسماعيلية في الشرق الأدنى . ولذلك لم يتحمل صدمة اتجاه عبيد الله الإمام إلى بلاد المغرب ، فقصد هو بلاد اليمن . ولا نستبعد على داعي الدعوة فيروز أن يكون من تلامذة مدرسة حمدان قرمط ، الذين حز في نفوسهم انتقال الإمامة من الإمام المستقر السابق الحسين إلى حبيته سعيد الخير ابن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح ، أو أن فيروزا — على الأقل — لم يكن في إخلاصه مع عبيد الله كما كان مع الإمام المستقر الحسين بن أحمد . وإلا فكيف نفسر فراره إلى اليمن ، وتركه إمامه عبيد الله يلاق المتاعب وحده ، وهو الذي ساهم من قبل مساهمة فعالة في رفع منار الدعوة في عهد الحسين ، الإمام المستور ؟

أما البرنامج الذي وضعه داعي الدعوة فيروز لنفسه في بلاد اليمن ، فيرى بعض علماء الإسماعيلية أنه حاول إغراء ابن حوشب ، فلم يستطع ، ولكنه وجد من ابن فضل قبولاً لدعوته ، فثار على ابن حوشب وعلى عبيد الله ، بل ثار على المذهب الإسماعيلي ، وعلى دين الإسلام ، واستحل المحارم ، ورفض الظاهر ، ودعا الناس إلى الإباحات . فلما اشتهر بذلك تبرأ منه ذلك الذي أفسده (أي فيروز) ... فحارب أبا القاسم^(١) . ويرى بعض أنه احتال على ابن حوشب ، وادعى له أنه رسول المهدي إليه ، وأنه أتى ليعدها العدة معاً لملاقاة جيوش المهدي الآتية من المغرب في البلاد المصرية . فلما أدرك أن حيلته لم تتم ، وأن سره قد كشف ، فر إلى ابن فضل ، فكان منه ما كان مما سنقف عليه في الصفحات التالية^(٢).

(١) الثعالب : افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٠ (من المنتخب) .

(٢) اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥ (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦ م)

ولكن متى تم ذلك على وجه التحقيق ؟ لا نستطيع أن نفرّ مع ما ذكره القاضي النعمان المغربي . من أن ثورة علي بن فضل الجندى اليماني قامت قبل هرب عبيد الله إلى مصر ، أى فى سنة ٢٩١ هـ . ويكاد يكون ما ذهب إليه اليماني الإسماعيلي أقرب إلى الصحة . وهو أن الداعي فيروز قصد اليمن حقا فى سنة ٢٩١ هـ . على أننا لا نعرف على وجه التحقيق متى هرب فيروز إلى علي بن فضل ، وترك تلميذه ابن حوشب ؛ كما لا نستطيع أن نتأكد من أن ثورة ابن فضل على ابن حوشب كانت إثر وصول فيروز هذا إليه ، أو بعده بكثير . والذي نعرفه هو أن فيروز استمر فى صحبة ابن حوشب « إلى أن ورد كتاب المهدي ع . م مقرونا بكتاب الداعي أبي علي بمصر ، صهر فيروز ، وزوج ابنته ، يعرفان أبا القاسم كيف جرت قصة فيروز ، وأمره المهدي بقتله . . . فهرب لوقته ، وطالبه الداعي أبو القاسم ، فلم يدر أى الجهات سلك . ولم يزل يبحث عنه إلى أن بلغه أنه وصل إلى علي بن الفضل الجيشاني ، وأنه أفتنه وأفسده ؛ فلما علم أبو القاسم الداعي بموضعه ، وأنه قتل علي بن الفضل وأهل بلده ، وشعوذ لهم ، ودعاه وأهل بلده إلى نفسه ، خرج إليهما أبو القاسم وحاربهما مدة طويلة (١) . »

من ذلك نستطيع أن نقول إن ابن فضل إنما ثار على ابن حوشب ، مدفوعا بتأثير داعي الدعاة فيروز ، ثم بميله هو إلى الاستبداد والزعامة ليستقل ببلاد اليمن . ولا غرو فهو يعنى لحما ودما . كما لا يبعد أن ابن فضل كان لا يرغب فى أن يعمل لحساب إمام ظاهر ، بل كان يود أن يظل يعمل لإمام مستور ، حتى يستطيع أن يحقق آماله وطموحه دون تدخل من إمامه الذى أصبح خليفة . ولا نستطيع أن

(١) اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥ . زى فى هذه العبارة أن ابن حوشب لم يعرف شيئا عن فيروز إلا بعد أن مهد هذا الداعي الأمور لنفعه عند ابن فضل ، فكان يجتمعان اثرا على عبيد الله ، وعلى ظاهر الشريعة ، وعلى الدعوة الإسماعيلية نفسها . ولا يبعد أن يكون ذلك قد استفاد كثيرا من الوقت ؛ وإذن كيف نفسر مساعدة ابن حوشب لابن فضل حين كاد يهزم على أيدي السنيين فى تهامة بعد سنة ٢٩٩ هـ ؟ نستطيع أن نقول إن ابن فضل ، على الرغم من قبوله التجاه فيروز إليه بعد سنة ٢٩١ هـ ، ظل على ولائه لابن حوشب ، أو على الأقل كان يتظاهر بذلك ، حتى تم له فتح صنعاء فى سنة ٢٩٩ هـ . ثم تكب بعد ذلك بقليل ، فأجده ابن حوشب . ولما كان ابن حوشب قد توفى سنة ٣٠٢ هـ ، فإن هذه الحرب يجب أن تكون قد وقعت بين سنتي ٢٩٩ ، ٣٠٢ هـ .

نقول ، إن ابن فضل ثار على عبيد الله حين أدرك أنه حجة للإمام ؛ لأننا لم نره في أثناء ثورته أو بعدها ينادى بمحمد بن إسماعيل ، وإنما تمثل بأبي سعيد الجنابي القرمطي الذي عمل على الاستقلال بملك أئله بيديه عن سادته الفاطميين ؛ لا لأنهم إسماعيليون أو قداحيون ، بل لأنه كان يرغب في أن يستمر في دعوته إلى إمام مستور لا إلى إمام ظاهر . وإنما فعل ذلك لأنه كان نفعيا ، تقوم سياسته على استغلال الظروف لمصلحته الخاصة .

ويظهر أن ابن فضل هو الذي بدأ زميله ابن حوشب بالعدوان ؛ فإنه لما خلع طاعة الفاطميين ، وبعث بذلك إلى ابن حوشب ، حذره هذا عاقبة أمره وقال له : « كيف تخلع طاعة من لم تتل خيرا إلا به ، وترك الدعاء له ؟ أو ما تذكر ما بينك وبينه من المواثيق والعهود ؟ فلم يلتفت إليه ^(١) . » ولم يكتف ابن فضل بذلك ، بل أعلن الحرب على ابن حوشب ليخلص له ملك اليمن . وكاد يقضى على زميله ومساعدته بالأمس ؛ لولا أن تم الصلح بينهما كفاء تسليم ابن حوشب أحد أبنائه إليه . إلا أن ذلك الصلح لم يقض على النزاع الذي كان مستحكما بينهما ، بل زاد هوة الخلاف اتساعا بين إسماعيلية اليمن ، فلم يعد ابن حوشب وأتباعه يثقون بإسماعيلية ابن فضل ، كما لم يعد ابن فضل وأنصاره يعتمدون على مساعدة ابن حوشب . ومن ثم أصبح الجميع هدفا لهجمات السنيين . ويظهر أيضا أن عبيد الله المهدي لم يستطع أن يقوم في وجه هذا التأثير بعمل حاسم ؛ فترك أمره لتابعه المخلص ابن حوشب ، وانتهت الحرب على غير ما يشتهي عبيد الله ، فقم النصر لابن فضل . ولذلك يتهم بعض العلماء هذا الخليفة بقتل ابن فضل في سنة ٣٠٣ هـ ، كما اتهم بقتل أبي سعيد الجنابي القرمطي من قبل ^(٢) .

والخلاصة أن الثورة التي قامت في بلاد اليمن بعد قيام الدولة الفاطمية ، ترجع إلى أسباب كثيرة : منها ميل ابن فضل إلى الاستقلال . واستبداد عبيد الله بشئون الدولة والدعوة معا ، ووقوع ابن فضل تحت تأثير بعض الخائنين على الفاطميين . أضف إلى ذلك أن ثورته كانت ثورة سياسية دينية ، حتى إنه اتهم بالزندقة والإلحاد ،

(١) أنباء الزمن في تاريخ اليمن (مخطوط) ص ٣١ .

(٢) De Goeje : Encyclopaedia of Religion and Ethics, vol. iii.

فسمى نفسه « رب العزة » ، وسمى ابنه « ابن رب العزة » . ومهما يكن من شيء فإن ابن فضل قد حفر قبره بيده ، بسبب ثورته على عبيد الله الفاطمي ، فمات مسموماً على أيدي الفاطميين أو الحواشب ، وتعرض أبناءه لغارات السنين ، فلم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ، وذهبوا من صفحة التاريخ .

(ب) عبيد الله المهدي وأبناء المنصور

إن ماساد بين الفاطميين وبيت ابن حوشب (منصور اليم) من علاقة ، ليكشف لنا عن سياسة عبيد الله الحقيقية ، التي سنها لنفسه ، والتي تنطوي على الاستبداد بكل شيء . وإشعار الأشياع والأتباع بنفوذه وقوة شخصيته ؛ فلم يشأ أن يعترف بمبدأ الوراثة لبيت ابن حوشب ، الذي أخلص مؤسسه لعبيد الله وللأئمة من قبله ، إخلاصاً جعله موضع إعجاب الإسماعيلية جميعاً . وكان تدخل عبيد الله في شؤون الحكم في بيت منصور اليم ، كما كان النزاع الذي تفاقم بين ابن فضل وابن حوشب قبل ذلك من عوامل ضعف الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليم .

مات ابن حوشب في سنة ٣٠٢ هـ (٩١٤ - ٩١٥ م) ، بعد أن أوصى بالأمير من بعده إلى ابنه الحسين وإلى تابعه المخلص عبد الله بن عباس الشاوري ، وكان موضع ثقته كما كان رسوله الخاص إلى المهدي . ويبدو أن ابن حوشب كان يخشى عبد الله ابن عباس ، كما لا يبعد أن يكون قد أدرك ميل المهدي إليه فنص في وصيته عليه . والمهم أنه ترك بعمله هذا السبيل ممهدة لتدخل عبيد الله المهدي ؛ لأن ابن حوشب لم يعهد لأحد بالحكم من بعده ، بل ترك وصية تنم عن إخلاصه وولائه لعبيد الله والفاطميين . وقد جاء فيها : « قد أوصيتكما بهذا الأمر فاحفظاه ، ولا تقطعا دعوة عبيد بن ميمون ^(١) ؛ فنحن غرس من غرسهم . ولولا ناموسهم ، وما دعونا به إليهم ، ما صار إلينا من الملك ما قد نلناه ، ولا تم لنا في السياسة حال ؛ فعليكما بمكاتبة القائم منهم واستيراد الأمر منهم . فأوصيكما بطاعة المهدي - يعني عبيد

(١) يقصد عبيد الله بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح .

ابن ميمون ، حتى يرد أمره بولاية أحدكما ، ويكون كل واحد منكما عوناً لصاحبه (١) .

ولما كانت سياسة عبيد الله ترمى إلى زعامة جميع العالم الإسماعيلي ، والتدخل في شئون الدعوة الإسماعيلية ، وتوجيهها كما يريد ، أو بعبارة أخرى لما كانت هذه السياسة ترمى إلى توجيه الدعوة في سبيل مصلحة الدولة ، رأى عبيد الله أن يقر ابن عباس الشاوري في الحكم مكان ابن حوشب ، وعزل أبناء المنصور . ولكن هذه السياسة فرقت أنصار الدعوة المخلصين لها في تلك البلاد ؛ فقامت بينهم المؤامرات ، وضعفوا ضعفاً ظاهراً أمام أعدائهم ، فأخذتهم سيوف السنيين من كل جانب . وفي الحق أن سياسة التدخل التي سار عليها عبيد الله المهدي في بلاد اليمن ، كانت تختلف عن هذه السياسة التي سار عليها مع القرامطة في البحرين ، حيث اختار شخصاً من بيت أبي سعيد ، بعزله سعيداً وتولية أبي طاهر ، وكلاهما من أبناء أبي سعيد مؤسس الدعوة القرمطية . وبذلك اتفقت القرامطة جميعاً حول أبي طاهر ، حليف عبيد الله ، وعز على أخيه سعيد المعزول أن يثور حتى لا يهدم بيته بيده . أما هنا في بلاد اليمن ، فإن عزل أفراد البيت المنصوري ، الذي تفانى في الدعوة الإسماعيلية ، منذ استقرت في تلك البلاد ، قد وضع الأمر في يد غيرهم ، وحز ذلك في نفوس كثير منهم ، خصوصاً ذوى المهامع منهم . فلم يهدوا أو يستكينوا لحكم عبيد الله . ولا يبعد أن يكون عبيد الله المهدي قد اتفق مع ابن عباس الشاوري ، رسول ابن حوشب إليه ، على توليته الحكم ، قبيل وفاة المنصور ؛ لأن الشاوري لم يكذب

(١) يقول الخنّادي البغائي (كشف أسرار الباطنية ص ٣٩ - ٤٠) : إن عبد الله بن عباس الشاوري كتب إلى عبيد بن ميمون المسمى بالمهدي بموت المنصور ، وهو يومئذ بمدينة بناها وسمّاها المهديّة بالغرب ، وأنه قام بذهبه بعد المنصور ودعا إليه ، وأنه لم يبق إلا استيراد الأمر ، وإرساله الولاية وعزل أولاد المنصور . وخرج ولد المنصور نفسه إلى القيروان ، إرساله الولاية لنفسه ، ولا ينزع الأمر منهم بعد أبيهم . وقد كانت قد وصلت هدايا ابن عباس وكتابه ، وولاه الأمر وكتب له . ولما وصل ابن منصور أمره بطاعة ابن العباس ؛ وبمات لابن العباس بسبع رايات ، فرجع المنصور إلى اليمن وقد يشىء ما كان يرجو من الولاية ، فلقية عبد الله بن عباس بنفسه وأهل دعوته ، فبجله وعظمه . ولقيه أخوه جعفر وأبو الفضل ، وبقية أولاد القرمطى (أى ابن حوشب) ، أسألوه بما ورد به الأمر ، فصرفهم بصرف الأمر عنهم إلى عبد الله بن العباس دونهم .

يبحث إلى المهدي بخبر موت المنصور ، وأنه قد قام بالأمر من بعده ، وأنه يرغب في أن ينال رئاسة الدعوة الإسماعيلية في تلك البلاد دون أبناء المنصور - حتى نرى المهدي يوليه هذه الرئاسة مكان ابن حوشب ، ويحقق له جميع آماله ومطالبه . ولم يكن الأمر كما ذهب إليه الجندی في كتابه « السلوك » ، من أن الشاوري بعث إلى المهدي برسالة على يد أحد أبناء المنصور ؛ لأنه لا يعقل أن يكون هذا الداعي الجريء يمثل تلك السذاجة ، فيرسل رسالة فيها عزل أبناء المنصور على يد أحد أبنائه . ويظهر أن ما ذكره الحمادي النجاشي أقرب إلى الصواب ، حيث يذهب إلى القول بأن الشاوري أرسل إلى المهدي يطلب الحكم لنفسه ، وأن أبناء المنصور أرسلوا في الوقت نفسه يطلبون هذا الحكم لأنفسهم ؛ فرفض عبيد الله طلبهم ، وعين الشاوري دونهم^(١) .

ومعنى ذلك أن المهدي أخذت تقلد من تريد من أتباعها رئاسة الإسماعيلية في البلاد المختلفة ، وأن عبيد الله أراد أن يشعر كبار دعاة وأبناءهم ، أن الرأي الأخير له وحده دون سواه . ولكنه نسي أنه بتوليته الشاوري إنما ألقى بذور الشقاق في ذلك البيت ، الذي ظل على ولائه له ولآبائه وأئمتهم من قبل ؛ فضعفت قوة الإسماعيلية في اليمن أمام السنيين ، إذ حقق أحد أبناء المنصور على عبيد الله لإمعانه في الاستخفاف بهم ، وعمل على إذكاء نار الثورة على ذلك النظام الذي وضع أساسه في بلاد اليمن ، واغتصاب عرش الدعوة فيها من حليفه ، ولم يستمع لنصيحة أخيه الداعي المشهور جعفر بن المنصور ، صاحب المؤلفات الكثيرة ، حين قال له : « إن أمرنا إذن يتلاشى ويؤول ملكتنا . وتفرق هذه الدعوة ، ويذهب الناموس الذي تمسناه^(٢) على الناس ، فلا تحدث نفسك بهلاكه فتهلك »^(٣) .

ولم يكتف الحسن بن منصور اليمن بما فعل ، بل جر الشكبات على نفسه ، وعلى بيته ومذهبه ، وعلى الإسماعيلية جميعا ، حين أعلن ارتداده عن المذهب الإسماعيلي ،

(١) الحمادي النجاشي : كشف أمارات الباطنية ص ٤٠ .

(٢) تمس السر كتمه ، وتمس بين القوم أفسد وأغرى ، والمقصود النظام الذي وضع النشر الدعوة الإسماعيلية .

(٣) الحمادي : كشف أمارات الباطنية ص ٤٠ .

واعتنافه المذاهب السنية ؛ وبعبارة أخرى ، فإن الحسن بن منصور لما تخلص من الشاوري ، اعتقد أن الأمور قد استقرت في يده ، فجمع د الرعايا من أقاليم البلاد وأدانها ، وأشهدهم على نفسه أنه قد خرج من مذهب القرامطة (١) إلى مذهب أهل السنة ؛ فأحبه الناس ودانوا له ، وقتل القرامطة الذين حولهم ، وشردهم في كل ناحية (٢) .

لم يكن هذا كل ما حدث من تدخل عبيد الله في شؤون الدعوة باليمن ؛ فإن المذهب الإسماعيلي - كما نعلم - مذهب سري ، والدعوة إليه سرية كذلك . ومن أخطر الأمور على المذاهب السرية والدعاية إليها ، أن ينتقض عليها أنصارها الذين يعرفون أسرارها ودخائلها . وهذا ما حدث للمذهب الإسماعيلي ، والدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن إثر ارتداد الحسن بن منصور عن هذا المذهب ورجوعه إلى الإسلام ؛ إذ أخذ يتبع الإسماعيلية - أنصاره بالأمس - تبعا لا هوادة فيه ، فأباد السواد الأعظم منهم . وفي الحق أن الحسن بن منصور أخطأ فيما فعل ، بإبادته الإسماعيلية الذين كانوا يدينون بعقائد الفاطميين ، لأنه أصبح هو وأنصاره الذين خرجوا على المذهب الإسماعيلي ودخلوا في الإسلام طعمة لأمراء المسلمين السنيين الطموحين ، والزيدية الشيعيين أيضا ؛ فقتلوه ، ثم تبعوا أبناءه وإخوته وغيرهم من الأنصار ، الذين ظلوا على ولائهم لعقائد هذا المذهب ، حتى إنه لم يبق من الإسماعيلية من أتباع ابن حوشب ، إلا من استطاع الاستتار .

وكان من أثر اندفاع الحسن وتقلبه في سياسته ، أن فر أخوه الداعي جعفر ابن منصور إلى بلاد المغرب ، بعد أن أخفق في إقناع أخيه بالعدول عن الدخول في المذاهب السنية واضطهاد الإسماعيلية . يقول الجندی في كتابه « السلوك » عن الحسن وأخيه : « فدخل عليه أخ اسمه جعفر ، فنهاء عما فعل وقبحه ، فلم يلتفت إليه ؛ فخرج مغضبا ، وقصد المهدي إلى القيروان (٣) ، فوجده قد توفي ، وقام بعده ابنه القائم ، وذلك سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة - أعني موت المهدي وقيام القائم ،

(١) يقدم بذلك المذهب الإسماعيلي .

(٢) أبناء الزمن في تاريخ اليمن ص ٣٥ .

(٣) الصواب إلى المهدي

فليث ابن منصور عنده . تم إن أخاه قتل أهل مذهب أبيه وشردهم ، حتى لم يبق حوله منهم إلا من لا يُعرف (١) . من ذلك نرى أن عبيد الله أدركه مغبة سياسته التي سلكها مع بيت المنصور في بلاد اليمن ، وأنه أعطى القوس لغير باريها في هذه البلاد ، كما أدرك أنه كان ينبغي أن يحتفظ بالعرش في بيت ابن حوشب الذي يقر له الشاوري وسواه بالزعامة . وأما تركه الرؤساء الأصليين وتعيين أتباعهم في المكان الذي يجب أن يحتله هؤلاء الرؤساء ، فإنه يدل على عدم وقوفه على مبلغ رواج الدعوة في بلاد اليمن ، التي لا يستطيع أن يشرف عليها ويعمل على تنفيذ سياسته وأوامره فيها بسبب بعدها عن بلاد المغرب .

وإن ضعف الإسماعيلية الحواشب بسبب تدخل عبيد الله ، يكون فصلا بمتعا في تاريخ العلاقة بين الإسماعيليين بعضهم مع بعض من ناحية ، وبين السنيين والزيدية وبين الإسماعيلية من ناحية أخرى . ذلك أن بيت ابن حوشب ثار على داعي دعاة المهدي في بلاد اليمن - كما رأينا - ولم يستطع هذا البيت أن يحتفظ بوحدة وبعقائده الإسماعيلية ، فانقسم على نفسه : فمنهم من فر من اليمن ، ومنهم من لقي حتفه على أيدي السنيين ، ومنهم من ارتد عن المذهب الإسماعيلي إلى الإسلام على المذاهب السنية . إلا أن الحسن بن منصور النبي لم يحسن وراء ذلك شيئا ؛ فقد اعتبره المسلمون السنيون زنديقا يجب قتله حتى بعد توبته ، وعدوا قتاله جهادا في سبيل الله ؛ ولذلك تأمر عليه خلفاؤه من الأمراء السنيين وقتلوه ، وتعرض أهله وذووه للأخطار ، وفُتِب عليهم المسلمون من أهل المغرب (٢) ، فقتلهم الصغير والكبير ، وسبوا حريمهم ، ولم يبقوا على وجه الأرض من الكافرين ديارا ، ولم يبق للمنصور عقب يعرف (٣) .

(١) عمارة اليمن : تاريخ الترامطة باليمن ص ١٥١

(٢) يقصد بذلك أهل الجهات الغربية من بلاد اليمن .

(٣) الحادى : كشف أسرار الباطنية ص ٤٠ ، ٤١ . ولا نعرف من أبناء ابن حوشب غير جعفر بن منصور الداعى ، الذى صرح حتى أدرك الحكم الفاطمى فى مصر . ومع ذلك فإن هناك فى اليمن اليوم جماعة يعرفون باسم « الحواشب » ، ولا ندرى إن كان هؤلاء من عقب المنصور أو من أتباعه ، أو أنهم لا يتنون إليه بصفة . وفى هؤلاء يقول ميخائيل شاروبيم فى كتاب « التأييد فى مذهب أهل التوحيد » ص ٧٣ : « لابن حوشب باليمن نسل وبعن ، أى هى قبيلة يقال لها الحواشب ، وهى مستقلة ومعتدة بحكم نفسها عاقلة للدولة الانجليزية » .

من ذلك نرى أن الذي خلف الحسن بن منصور الين في رئاسة جماعة الإسماعيلية الذين ارتدوا إلى المذاهب السنية ، رجل عريق من بيت إسماعيلي ، ساهم أبناؤه مساهمة جدية في إقامة المذهب الإسماعيلي ببلاد الين ، ويسمى هذا الرئيس إبراهيم بن عبد الحميد السباعي . وقد نهج هذا الزعيم الإسماعيلي المرتد ، نهج الحسن بن منصور ؛ فأعلن للعلا ارتداده عن المذهب الإسماعيلي . ولم يكتف بذلك ، بل خطب على منابر الخليفة العباسي ، لا الفاطمي ، وأعاد بعمله هذا ما فعله العباسيون من نفوذ في بلاد الين منذ أمد طويل ، واشتد إبراهيم في طلب الإسماعيلية المخلصين لعبيد الله المهدي وخلفائه . والحق أنه جعله يتبع القرامطة ، يقتلهم ويسبي ذراريهم ؛ فبقى منهم قليل في ناحية جبل مسور^(١) ، فأقاموا قرمطيا منهم . . . فسمع به إبراهيم بن عبد الحميد ، فخرج إليه فقتله ، وفرق من بقي من أصحابه إلى عمان . . . وانتهكت أمرهم من إبراهيم^(٢) .

وقد بقيت زعامة الإسماعيليين الحقيقية في غير بيت ابن حوشب ، وأمن هؤلاء في التخفي ، وكانوا على اتصال دائم بخلفاء عبيد الله الفاطمي . وقد قاسوا من هذه المحنة زمنا طويلا ، حتى بعثهم الصليحيون^(٣) بعثا جديدا في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ، وذلك في القرن الخامس الهجري . وأما الإسماعيلية الذين اعتنقوا المذاهب السنية ، فقد انعقد لواء الرياسة بينهم في بيت إبراهيم بن عبد الحميد ، وأخذ الضعف يدب فيهم . حتى انمحوا من صفحة التاريخ في الدور الفاطمي المغربي . (٢٩٦ — ٥٣٥٨ هـ) .

من هذا كله نستطيع أن نقول إن عبيد الله قد أحدث الفرقة في صفوف أنصاره ببلاد الين ، وبذلك فقدت الدولة الفاطمية الأمل في الاعتماد على الفرع

(١) من أعمال صنعاء الين ، يقع جنوبي صنعاء بسنة أميال . أنظر معجم البلدان لياقوت .

(٢) الحمادي : كشف أسرار الباطنية ص ٤١ .

(٣) نسبة إلى علي بن عبد الصليحي (٤٥٩ هـ) ، داعي المستنصر في الين ، وهو أول من أسس دولة الصليحيين ، التي أخلصت لخلفاء الفاطميين وخصوصا المستنصر والمعتزلي والآخر ، ولا يزال بقاياهم على إخلاصهم للإمام الطيب بن الأمر وأبنائه حتى اليوم . ويعرف أتباع هؤلاء في أيامنا هذه باسم البهرة ، وهم قسمان : قسم يعرف بالداودية ، وينتشر سوادهم في الهند ، وقسم يعرف بالصليحية وينتشر سوادهم في الين .

الإسماعيل البيني في الهجوم على مصر ؛ إذ لو قدر له أن يظل قويا كما كان في عهد ابن حوشب ، لتقابلت جيوش الإسماعيلية في المغرب والبحرين واليمن في مصر ، واستطاع الفاطميون أن يستولوا عليها قبل استيلاء جوهر الصقلي عليها بزمن طويل .

٣ — عبيد الله والدعوة الإسماعيلية في فارس

كانت الدعوة الإسماعيلية في عهد عبيد الله (٢٩٦ — ٣٢٢ هـ) في بلاد فارس وشرق المملكة الإسلامية . استمرارا لما كانت عليه حين كان يقوم بعمل الحجة ، ثم الإمام المستور . وقد رأينا على رأس الدعوة في فارس وبلاد المشرق ، في أخريات القرن الثالث الهجري ، جماعة من العلماء الأفذاذ ، كما رأينا رواج نظرية المهدي المنتظر ، وانتشار الدعوة الإسماعيلية في أماكن كثيرة . وعلى الأخص في البلاد النائية عن حاضرة العباسيين .

ومما بلغت النظر في انتشار الدعوة في فارس ، أن فكرة المهدي المنتظر قد ضعفت بظهور عبيد الله ، وأنها لم تعد تجد رواجاً بين الإسماعيلية في شرق المملكة الإسلامية بعد قيام الدولة الفاطمية ؛ بل نرى الإسماعيلية في هذه البلاد ، يولون الخليفة عبيد الله كثيراً من الاحترام والتقدير ؛ فكانوا يعتقدون أن قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب على يد عبيد الله خطوة سوف تلونها خطوات كثيرة تؤدي إلى سيادة المذهب الإسماعيلي والدولة الإسماعيلية ، في كافة أرجاء المملكة الإسلامية ، بل في كافة أرجاء العالم قاطبة . وكانت الدعوة في تلك البلاد تعمل دائماً على تقديس عبيد الله ، وتضفي عليه من صفات التقديس شيئاً غير قليل ، حتى إن المستجيبين قد رموا المذهب الإسماعيلي في هذه البلاد بالزندقة والكفر . فكان الدعاة في فارس يبالغون في تصوير أئمة الفاطميين الخلفاء ، وخصوصاً عبيد الله ، ويجحد هؤلاء الدعاة من الفرس أذناً مصغية في تصديق هذا الغلو ، على عكس ما كان عليه الدعاة والمستجيبون في المغرب . ونحن نرى إقراراً رسمياً من الخليفة القائم الفاطمي (٣٣٤ هـ) يؤيد أن هناك جماعة من الدعاة يرمون الفاطميين بأنهم يدعون علم الغيب . يقول المعز لدين الله (٣٦٥ هـ) : « سمعت القائم بأمر الله ﷺ يقول

في قوم من الدعاة بلغه أنهم غلوا فيه وفي آبائهم الأئمة الصادقين ، صلوات الله عليهم أجمعين ! وقالوا : إنهم يعلمون الغيب ، فلعنهم ، وقال : هؤلاء الصادون عنا ، الكاذبون علينا . والله ما أرادوا بما وصفونا به إلا تكذيبا لنا ، وإبعادا للناس عنا ؛ لأنهم إذا وصفونا لهم بما ليس فينا ، فلم ير الناس ذلك عنا ، ولا وجدوه عندنا ، لم يروا أنا أئمة ، (١) .

وليس من شك في أن هؤلاء الدعاة من الغلاة كانوا من الفرس ، وأن رعاياهم ، في عهد القائم وفي عهد عبيد الله من قبله ، الذين كانوا يتصلون بهم اتصالا وثيقا ، لا يعرفون فيهم هذا الغلو المذهبي ، من العلم بالغيب والحلول في البشر ، وما إلى ذلك . ولم نذهب بعيدا ؟ فقد تأثرت جميع البلاد التي انتشر فيها الإسلام والتي لم تكن عربية وعلى الأخص في فارس . تأثرا واضحا بالعقائد الفارسية القديمة ، زرادشتية كانت هذه العقائد أو مانوية أو مزدكية . أضف إلى ذلك نظرية تقديس الملوك التي كانت سائدة في بلادهم في عهد الأكاسرة ؛ فكان لهذا أثره في فارس فيما يتعلق بعبيد الله المهدي .

وكان الداعي أبو حاتم الرازي (٣٢٢ هـ) يصرح بقرب ظهور المهدي . بل لقد عين زمن هذا الظهور في البلاد التي انتشر فيها نفوذه ، وخصوصا في بلاد الديلم والجبل وغيرهما . فلما انقضى الزمن الذي حدده . ولم يظهر الإمام ، ثار كثير من الناس عليه ونادوا ببطلان مذهبهم ، ورموه بأنه دين متروك لا غير (٢) . وقد خلق الرازي في محيط الدعوة الإسماعيلية مبدأى الستر والظهور (٣) ، وبحيثما بحثا عليها مستفيضا .

ومما يمتاز به الدعوة الإسماعيلية في فارس في عهد عبيد الله ، أنها لم تتركز في أقاليم خاصة بها . كما كانت الحال في بلاد البحرين أو في بلاد اليمن ؛ بل كانت منتشرة في عامة البقاع ، ولكنها لم تكن منتشرة انتشارا كافيا ، بحيث تغمر هذه البلاد وتسود عقائدهم ، وتتمثل في أفكارهم ؛ بمعنى أن أنصار هذه الدعوة كانوا أقلية

(١) النعمان : المحاسن والمسايرات (مخطوط) ج ١ ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) نظام الملك : سياسة نامه ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٣) Islamic Culture (1937), p. 217.

لإسماعيلية تعيش في وسط أكثرية ساحقة من السنين أو ممن لا يدينون بالمذهب الإسماعيلي . ولذلك لم تستطع الدعوة هناك أن تنجب دعاة محاربين يتصفون بصفات أبي عبد الله الشيعي وأبي سعيد الجنابي أو ابن حوشب وابن فضل ، بل كانت هذه الدعوة تتجه إلى أساليب الإقناع العقلي والتأثير في المستجيبين عن طريق العلم والتثقف . ومن ثم حمل لواء الدعوة لعبيد الله المهدي في هذه البلاد علماء أجلاء ، وفلاسفة أجاد مثل أبي حاتم الرازي ، والنسفي ، والسجزي وغيرهم ، ممن اتخذوا الفلسفة وسيلة للإقناع ، فتفوقوا على منافسيهم من السنين خاصة ، حتى طاب سكان طبرستان النجدة العلمية من بغداد^(١) . واستغل هؤلاء الدعاة مذهب التعليم المشهور عند الإسماعيلية ، وهو أن الإمام - ظاهرا أو مستورا - مصدر الحقيقة التي يمكن أن يستمد منها المرء مباشرة أو عن طريق دعااته ، ولا سيما في الأقطار النائية .

وكان هؤلاء الدعاة العلماء يبذلون جهودا كبيرة لجذب كبار الأمراء إلى زعيمهم عبيد الله . فترى الداعي النسفي (٣٣١ هـ) يجذب إلى هذا الخليفة الفاطمي نصر بن أحمد الساماني (٣٠١ — ٣٢٩ هـ) عدو الإسماعيلية اللدود ، الذي قتل أستاذه (أي أستاذ النسفي) الحسين بن علي المروزي . ويأخذ منه دية أستاذه . ويرسلها إلى عبيد الله الفاطمي ، ليبرهن له على إخلاصه للدعوة الإسماعيلية — دعوة الفاطميين^(٢) . وكان من أثر التفاف دعاة الفرس حول عبيد الله الخليفة ، أن استطاعوا جذب كبار الأمراء السنين إليه ، حتى لقد غلا بعض فاعتقدوا أن نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان وبلاد ما وراء النهر ، ومرداويج الديلم ، أمير طبرستان ، ويوسف بن أبي الساج ، أمير آذربيجان ، كانوا على اتصال وثيق بعبيد الله ، وأنهم كانوا يعملون على إزالة الخلافة العباسية . ولذلك بعث نصر بن أحمد - على ما رأينا - إلى المهدي يقول : « أنا في خمسين ألف مملوك يطيعونني ، وليس على المهدي بهم كلفة ولا مثونة ؛ فإن أمرني بالمسير سرت إليه ، ووقفت بسيفي ومنطقتي بين يديه ، وامتلأت أمره ... وكتب إليه مرداويج الجبلي بمثل ذلك ، وكتب إليه يوسف بن أبي الساج ... وأنفذوا رسالهم مع الأموال إليه ، فوقع على ظهر

(١) نظام الملك : سياسة نامه ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٣٦٦ .

كتبهم : الزموا مرا كركم ، لكل أجل كتاب^(١) . وهذا يدلنا على ما كان هناك من علاقات مودة وصفاء ، بين هؤلاء الأمراء الذين أخلصوا للدعوة الفاطمية ، وبين عبيد الله المهدي رئيس هذه الدعوة . والحق أن الدعوة الفاطمية في بلاد المشرق كانت قد استقرت في عهد عبيد الله ، في بلاد ماوراء النهر ، وفي طبرستان . ولولا أن بعض الأمراء السنيين تنبهوا إلى خطرهما ، لما تردد هؤلاء المشاركة في القيام بنفس الدور الذي قام به أبو مسلم الخراساني من قبل . ولكن المحنة العظمى التي حلت بطائفة الإسماعيلية ، أتباع عبيد الله المهدي بالمشرق في سنة ٣٣١ هـ ، حالت دون تحقيق هذا الحلم الجميل .

أسرهم دعاة عبيد الله في بلاد المشرق :

أنجبت الدعوة الفاطمية في المشرق في عهد عبيد الله المهدي دعاة علماء . كان لهم شأن كبير في عالم الدعوة وفي عالم الأدب والفلسفة والتأليف ، حيث أخذوا على عاتقهم التفاني في الدفاع عن الدعوة بالقلم واللسان ، والعمل على جذب العامة والأمراء بنفس هذا السلاح العلمي الخطير . ومن هؤلاء الدعاة :

أبو حاتم الرازي (٣٢٢ هـ)

ويسميه الإسماعيلية سيدنا أبا حاتم عبد الرحمن الرازي الورستاني . وكان داعي الإسماعيلية في بلاد الري ؛ ويمثل فشاط الدعوة الفاطمية في عهد إمامة عبيد الله وخلافته . وقد تأثر إلى حد كبير بمدارس الدعوة التي أسسها عبيد الله المهدي في شمال إفريقيا ، واستغل رواج هذه الدعوة في بلاد فارس منذ أيام عبد الله القداح ، فدخل كثير من أهالي هذه البلاد في المذهب الإسماعيلي . وجعل أبو حاتم دمجاله الحيوى ، طبرستان وأصفهان وأذربيجان ، حيث تولى رئاسة الدعوة فيها ، وأخذ على عاتقه إرسال دعاة إليه . ويمتاز بعذوبة لفظه ، وحسن بلاغته ، حتى إنه استطاع أن يستميل إليه المروزي أمير الري — وكان سنياً — وأدخله في مذهبه^(٢) . ودأب على إخضاع أمراء هذه البلاد لدعوته والدخول في طاعة عبيد الله ؛ وأصبح بذلك

(١) حسن إبراهيم : الفاطميون في مصر ص ٧٤ .

(٢) نظام الملك : سياسة نامه ج ٢ ص ٢٧٢ .

علما من أعلام السياسة والدين . يقول پول كراوس^(١) : « كان أبو حاتم من كبار دعاة الإسماعيلية ، واشتهر بدعوته إلى المذهب الفاطمي ، ولعب دورا عظيما في الشئون السياسية في طبرستان والديلم ، ولا سيما في أصفهان والري ، حتى استجاب له جماعة من كبار الدولة مثل أسفار بن شيرويه ومرداويج^(٢) القائد وغيرهما . وكان للحمود أبي حاتم أثر فعال في اتصال مرداويج بعبيد الله . ولا غرو فقد كان هؤلاء الدعاة من العلماء المشاركة سفراء عبيد الله المهدي إلى أمراء المشرق وعامته .

ويرى بعض السنين أبا حاتم الرازي بكثير من التهم ، فيذهبون إلى أنه باطني زنديق . ويرميه بعض آخر باعتناق مبادئ الثنوية والدهرية^(٣) ، بأن الذين يقولون بأن العالم لا نهاية له . وهذه اتهامات يرى بها السنون جميع دعاة الإسماعيلية تقريبا . ومهما يكن من شيء فإن هذه الاتهامات لا تقلل من أهمية أبي حاتم ؛ فقد كان علما من أعلام النهضة العلمية الإسلامية في فارس في القرن الرابع الهجري ، كما استغل هذه النهضة ذاتها في الإشادة بإمامة عبيد الله المهدي وتقديسه . على أننا نستطيع أن نذهب إلى القول بأن أبا حاتم وأقرانه من الدعاة العلماء ، كانوا يلجئون إلى هذه الناحية العلمية الفلسفية البحتة ليستتروا وراءها ، ويعملوا في الخفاء على نشر آرائهم المذهبية . وكان كل منهم يهتم بإخفاء أي اتصال بالمدرسة الإسماعيلية القديمة ، ولا سيما لأنهم جميعا يقولون بمذهب التعليم ، ويدعون أن الإمام مصدر المعرفة وحده . وساعدتهم على تحقيق رغباتهم أنهم كانوا يقصدون في كثير من الأحيان الجهات الجبلية ، أو الجهات التي لم يكن الإسلام قد تغلغل فيها أو تأصل في نفوس أهلها ،

(١) رسائل فلسفية ص ٢٩١ .

(٢) مرداويج : مقدم الديلم ، وكانوا جميعا يميلون للشيعة . ومن قواده علي بن بويه رأس البرميين . يقول فيه السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ٢٥٩) : كان يريد قصد بغداد وأنه مسلم لصاحب الجيوش ، وكان يقول : أنا أرد دولة العجم وأعق دولة العرب ، . كما كان على صلة بعبيد الله الفاطمي ، فماداه وحرص عليه مساعدته حيث دبر بهت بالرملة يحملون المال الكثير للمهدي في شمال إفريقيا ، وأعلن رغبته في الدخول في طاعته ، . حسن إبراهيم : (الفاطميون في مصر ص ٨٣) . ومات سنة ٣٢٢ بعد أن فتح الري وأصفهان وطرد سيده أسفار .

(٣) البغدادى الفرق بين الفرق ص ٢٦٧ ، ابن التديم : الفهرست ص ٢٦٦ ، ونظام الملك : سياسة

أو يقيمون بين قوم لا علم لهم بالجدل والنقاش الديني الذي برع فيه هؤلاء الدعاة العلماء^(١).

ولما كان أبو حاتم الرازي قد عاصر عبيد الله إماما وخليفة، كانت له نظريات كثيرة في مبدأى الستر والظهور، حتى قالوا عنه: إنه أول من وجّه هذين المبدأين في الإسلام توجيها جديدا. وعلى الرغم من أن إخوان الصفاء كثيرا ما أوردوا في رسائلهم لفظي «الكشف والستر» (أو الستر)، لم يقصدوا بهما - كما قال الدكتور حسين الهمداني - ما كان يقصده أبو حاتم، كما فعل الفلاسفة الإغريق الآخرون بذكرهم معاني الكشف والستر، بخلاف ما يقصده الإسماعيلية^(٢)، الذين ذهبوا إلى أن «الستر» الإسماعيلي، هو الدور الذي يعمل فيه الإمام مختفيا في دار هجرته، والذي ينشط فيه دعائه في نشر الدعوة. وأما دور الظهور أو الكشف الإمامي، فهو الدور الذي تشرق فيه شمس الإمامة على الكون، فيظهر الإمام المستور، كما ظهرت الشمس من مغربها بظهور المهدي.

ومن أهم مؤلفات أبي حاتم الرازي: كتاب «الزينة»، ويحتوي على ١٢٠٠ صفحة. وقد أهداه إلى الخليفة القائم الفاطمي؛ وتناول فيه الأمور الفقهية، وفلسفة ما وراء الطبيعة، وبعض موضوعات أخرى كالفرق الدينية، والمعلومات الجغرافية القيمة. ويقول الإسماعيلية إن ذلك الكتاب يبحث في اللغة وحدها، ولذلك لا يعدونه من كتبهم السرية. قال أبو حاتم في مقدمته: «هذا كتاب فيه أسماء واستفتاحات ألفاظ، وعبارات من كلمات عربية يحتاج الفقهاء إلى معرفتها، ولا يستغنى الأدباء عنها، وفي تعلمها نفع كبير، وزينة عظيمة لكل ذي دين ومروءة»^(٣). ومن مؤلفات الرازي كتاب «أعلام النبوة»، ويعد من أهم كتب فلسفة المذهب الإسماعيلي. وقد تناول فيه الكلام على نظريات الإسماعيلية في الرسل، وفي الله تعالى، وفي النفس والهيولى والزمان والمكان، وغيرها. وفي هذا الكتاب يرد الرازي على أحد الزنادقة الملاحدة. ولا يقل كتاب «الإصلاح»

(١) الدكتور طه شرف: تاريخ الإسماعيلية السياسية ج ١ ورقة ٢٤٧.

(٢) Ivanow: A Guide to Ismaili Literature, pp. 32-33.

(٣) Ibid.

أهمية عن هذه الكتب . وقد ذكره حميد الدين الكرماني ، داعي الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في فارس . ويتكون من ٥٠٠ صفحة ، وترجع أهميته إلى ما أورده المؤلف من تأويل الآيات القرآنية ، وما ذكره عن الأنبياء^(١) . ويذكر ابن النديم^(٢) له كتاب د الجامع ، ، وليس له الآن وجود . كما أنه غير معروف للبهرة من الإسماعيلية .

من هذا كله ترى كيف ساهم أبو حاتم الرازي في الإشادة بعبيد الله المهدي ودولته ، وفي النهضة بالمذهب الإسماعيلي في شرق المملكة الإسلامية ؛ كما ساهم في محيط الثقافة الإسلامية عامة ، فتسكلم في الفلسفة واللغة والتفسير والفقه وما إلى ذلك ، وحاول في هذا كله أن يشرح نظريات الإسماعيلية ومبادئهم . ومع هذا فإن هذا العالم لم يسلم من اضطهاد السنيين ، وخاصة الديالمة ، واضطر إلى الاختفاء في أخريات حياته ، ومات على ما يقال في سنة ٣٢٢ هـ بعد تولية الخليفة الفاطمي القائم بقليل .

٢ - النسي (٣٣١ هـ) .

ومن هؤلاء الدعاة العلماء أبو عبد الله بن أحمد النسي البرذعي الذي قتل في سنة ٣٣١ هـ ، في غضون المحنة الكبرى التي ألمت بالإسماعيلية المشرق . وكان قد تنلبذ على الداعي الأمير الحسين بن علي المروزي ، داعي خراسان ، وكان الحسين قد استجاب للداعي غياث ، كما كان من أعظم تلامذته علما ودراية . وقد نهج النسي نهج أستاذه المروزي في التقرب إلى أمراء عصره ، وإلى كبار القواد في حكومة نصر بن أحمد الساماني ؛ فلم يتوان النسي في أداء مهمته على أكمل وجه ، حتى استطاع أن يجذب إلى الإسماعيلية كثيرين من أهالي خراسان . ولم يكتف بما أحرز من نجاح في هذه السبيل ، بل عبر نهر جيحون واتجه إلى بخارى ، حيث نجح نجاحا هائلا . وكان هؤلاء الأمراء جميعا الفضل في معاونة النسي ببخارى ، حتى

Ivanow ; A Guide to Ismaili Literature, pp. 32-33. (١)

(٢) الفهرست من ٢٤٦ .

تحوّل كثير من رجالها إلى المذهب الإسماعيلي ؛ وبفضل هؤلاء وجد النسفي طريقه إلى قلب نصر بن أحمد ، الذي رحب بمبادئه وطلب رؤيته . وكانت هذه فرصة فريدة تمكن بها النسفي من جذب نصر بن أحمد ورجاله إليه . وكان نصر من أكبر معارضي المذهب الإسماعيلي ، فقبض على أستاذ النسفي وسجنه حتى مات - على ما تقدم . وقد استغل النسفي كل هذا للاشادة بزعامه عبيد الله المهدي ؛ فطلب دية أستاذه ، ومقدارها ١٠٩ ألف دينار ليرساها إلى الخليفة الفاطمي . فكانت موافقة الأمير نصر بن أحمد الساماني على دفع هذه الدية دليلا على إخلاصه للمذهب الإسماعيلي أولا ثم لعبيد الله المهدي ثانيا (١) .

والحق أن علاقة النسفي بالبيت الساماني تكوّن فصلا ممتعا في تاريخ الدعوة الإسماعيلية ببلاد المشرق في عهد عبيد الله الفاطمي ؛ فقد أصبح هذا الداعي العالم صاحب الأمر والنهي في دولة نصر بن أحمد الساماني ، واستغل هذا المركز الممتاز وضاعف جهده في جذب الناس إلى المذهب الإسماعيلي سرا وجهرا ، مما أثار عليه حفيظة كبار رجال الدولة السامانية من السنيين ، وبخصوصا بعض القواد والعلماء الذين أخذوا يكيّدون له ولأنصار المذهب الإسماعيلي .

وعما آل إليه مصير النسفي ، نستطيع أن نقدر مدى تغلغل المذهب الإسماعيلي في خراسان وبلاد ما وراء النهر ، كما نستطيع أن نشاهد لونا من ألوان إخلاص الدعاة لمذهبهم وخلافتهم الفاطمي ، كما نستدل على مدى ما كان يعانيه الدعاة المخلصون من عنث واضطهاد . فيرى ابن النديم (٢) أن نصر بن أحمد الساماني ندم في أخريات حياته على اندفاعه وراء النسفي ؛ ولما مات جمع ابنه نوح الفقهاء لمناظرته ، فلما أفحموه ، قتله وقتل معه كثيرين من رؤساء الدعاة ووجوههم من قواد نصر الذين دخلوا في المذهب الإسماعيلي ، ومزقهم شر ممزق .

يبد أن نظام الملك يرى أن قواد نصر من السنيين دبّروا مؤامرة خطيرة على العرش الساماني ، لانضمام صاحبهم إلى المذهب الإسماعيلي ، وتقريبه من الإسماعيلية أنصار هذا

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسية ج ١ ، ورقة ٢٤٦ - ٢٤٨ .

(٢) الفهرست ص ٢٢٦ .

المذهب . وقد استقر رأيهم على اغتصاب مملكة ، ووضع العرش في يد كبير قواده . وأقام المتآمرون حفلا كبيرا يعلنون فيه بدء ثورة جاحدة . إلا أن أحد المجتمعين تمكن من الفرار وأفشى سر هذه المؤامرة لنصر بن أحمد وابنه نوح ، فتحايل على كبير القواد وقتلاه ؛ ثم خلع نصر بن أحمد نفسه ، وتولى بعده ابنه نوح الذي عمل على مطاردة الإسماعيلية بعد أن قتل النسفي . وإن ما حل بهؤلاء الإسماعيلية يعد نكبة كبرى ، حتى إنهم أطلقوا عليها اسم « المحنة العظمى » . ولا غرو فقد كان لهذه المحنة أثرها في وقف انتشار الدعوة الإسماعيلية في بلاد ما وراء النهر منذ ذلك الحين (أى منذ سنة ٣٣١ هـ) ، إلى أن رفع ناصر خسرو (٢) منارها بعد قرن ونصف قرن تقريبا . ثم تبعه في ذلك الحسن الصباح (٥١٨ هـ) مؤسس الدعوة النزارية في خراسان وفارس والشام . وهكذا قام النسفي بدور خطر في الناحية السياسية بتأليف جهة قوية موالية لعبيد الله المهدي ، كما قام بدور خطر أيضا في الناحية المذهبية بنشر المذهب الإسماعيلي في خراسان وما وراء النهر .

أما من الناحية العلمية ، فقد فاق النسفي كثيرا من الدعاة العلماء . ولا غرو فقد ذاعت شهرته في عالم الأدب وفي فلسفة المذهب الإسماعيلي ، كما كان من أحرار الرأي في خراسان . ومن أشهر مؤلفاته كتاب « المحصول » . ويظهر أن هذا المؤلف من المکتب التي تعرضت لشرح أصول المذهب الإسماعيلي ؛ وقد جاء فيه ، على ما ذكره صاحب كتاب « الفرق بين الفرق » : « أن المبدع الأول أبدع النفس ، ثم إن الأول والثاني مدبرا للعالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع » . ويرى البغدادي : « أن هذا في التحقيق معنى قول المجوس : إن اليزدان خلق أهرمن » ، وأنه مع أهرمن مدبران للعالم ؛ غير أن اليزدان فاعل الخيرات ، وأهرمن فاعل الشرور ، (٣) . وقد لعبت يد الدهر بهذا الكتاب ، ولا نعرف عنه شيئا إلا عن طريق الكرمانى ، وكان

(١) سياسة نامه ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٨١ .

(٢) كان ناصر خسرو من كبار أنصار الدعوة القديمة في عهد المستنصر الفاطمي الذي عينه نائبا له « حجة » في خراسان وبأدخشان ؛ فكان جماعته هناك يعرفون بالناصرية ، وهم يخضعون اليوم لأغاخان .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٧٨ .

داعى الحاكم ، فى كتابه «الرياض» ، وكان النسفى فى هذا الكتاب يرى إلى التوفيق بين أبى حاتم الرازى وزميله أو تلميذه أبى يعقوب السجستانى . ومن ذلك نرى إلى أى حد بلغت حرية الرأى فى مستهل قيام الدولة الفاطمية التى كانت تشجع الأفكار الحرة ، والآراء الفلسفية ، وتعتقد المناظرات الدينية والعقلية دون أن تلقى معارضة تذكر . (١) . ويقول البغدادى (٢) : إن الشعرائى داعية عبيد الله بالمشرك لما مات ، «قام بدعوته بعده محمد بن أحمد النسفى ، داعية أهل ما وراء النهر . . . وصنف النسفى لهم كتاب المحصول» .

ولم يكن هذا كل ما بذله النسفى من جهد فى التأليف ؛ فقد ألف أيضا كتاب «عنوان الدين» ، وكتاب «أصول الشرع» ، وكتاب «الدعوة المنجية» ، (٣) ، وكتاب «كون العالم» ، وهو خاص بالفلك ووصف العوالم «الكوزمو جراف» ، لكنه مؤسس على المبادئ الدينية ، وقد عثر عليه ضمن مجموعة خاصة . ومن الغريب أن ذلك الداعى العالم الفيلسوف غير معروف لإسماعيلية اليوم (٤) .

٣ - السجزى (٨٣٣١)

ومن أشهر علماء المذهب الإسماعيلى ودعاته ، أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجزى أو السجستانى ، ويلقب دندان . وكان من كبار الدعاة ، كما كان اليد اليمنى للداعى النسفى ؛ وكان الجدل والمناظرة يقومان على قدم وساق فى مسألة النبوة التى شغلت أذهان المفكرين وقتئذ . وقد أولى الفلاسفة وأحرار الرأى هذا الموضوع كثيرا من العناية ، حتى أضحت عامة الدعاة الإسماعيلية فى عهد عبيد الله المهدي من أحرار الرأى ، أو على الأقل ، كانوا يتظاهرون بذلك لنشر مبادئهم تحت ستار هذه

(١) Dr. Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors

(J.R.A.S., 1933), p. 367.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٧ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٨ .

(٤) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 35.

الخبرية في الرأي . وقد أدرك أبو يعقوب السجزي هذه النهضة ، وهذه المساجلة العلمية . وأدرك أستاذه الرازي الداعي الأول ، ورآه يناظر الطبيب الفيلسوف محمد بن زكريا الرازي في كتابه «أعلام النبوة» . فساهم أبو يعقوب في هذه المناظرة ، واتخذ من الفلسفة سلاحا شهرة على نقاد المذهب الإسماعيلي ؛ فكان بهذا علما من أعلام الدعاة الإسماعيلية ، وأحد المفكرين الذين قاموا بقسط كبير من النهوض بفلسفة المذهب الإسماعيلي (١) .

ولأبي يعقوب مؤلفات كثيرة كان لها أثر كبير في نهضة الفكر الإسلامي في ذلك الحين بوجه عام ، وفي نهضة فلسفة المذهب الإسماعيلي بوجه خاص . وقد ذكر عبد القاهر البغدادي بعض هذه المؤلفات فقال : « وصنف لهم أبو يعقوب السجزي كتاب «أساس الدعوة» ، وكتاب «الشرائع» ، وكتاب «كشف الأسرار» (٢) . وقد ذكر إيفانوف أكثر من عشرين مؤلفا للسجزي ، ولا يزال أكثرها يتمتع به البهرة — وهم الإسماعيلية الحديثون — اليوم . ولا نستطيع أن نتتبع هذه المؤلفات جميعها بالبحث ، وإنما نتناول أهمها وأعظمها أثرا .

١ — كتاب لإثبات النبوة ، وينقسم إلى سبع مقالات ، وتشبه المقالة الباب ، وتنقسم كل مقالة إلى ١٢ فصلا . ويتناول السجزي في كتابه هذا موضوع إثبات النبوة من جميع النواحي ، أي من الناحية الطبيعية والناحية الروحية ، وغير ذلك ، ويتعرض لذكر الأمور التي تتفق عليها الرسل ، والتي يختلفون فيها . وأهم من ذلك كله ما ذكره السجزي عن أدوار الرسل ، والأدلة على إثبات نبوة محمد ﷺ ، وتعرض لما أسماه عجائب القرآن والشرعة (٣) .

٢ — كتاب الينايع ، وهو في حوزة البهرة ، وينقسم إلى أربعين ينبوعا ، تناول

(١) Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors

(J.R.A.S., 1933), p. 367.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢١٧ .

(٣) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp.

34, 35.

فيه موضوعات كثيرة أهمها : « ماهية المبدع ، وعالم العقل والنفس ، والزمان والمكان والهيولى ، وسبب الخلق ، وبدء الخليقة ، والملائكة ، وعدم قابلية العقل للفناء . ومعاني الجنة والنار ، ومعنى صلب عيسى ، وهوية القائم ، والوحدة والتعدد ، والبعث والثواب والعقاب ، والفرق بين تأييد الله وتأييد الخلق (١) . ويرى الدكتور حسين الهمداني أن الدعاة كانوا يترسمون في مؤلفاتهم نظام التأليف الذى سلكه أبو يعقوب السجزي فى كتابه «الينابيع» ، حتى إننا إذا وازنا بين كتاب زهر المعاني القيم ، الذى ألفه الداعى إدريس عماد الدين عن الدعوة الإسماعيلية ، وبين كتاب الينابيع هذا ، لوجدنا أن الخطة التى انتهجها الداعى إدريس هى نفس الخطة التى انتهجها السجستانى من قبل (٢) .

٣ — كتاب الموازين ، وقد قسمه السجستانى إلى تسعة عشر ميزانا ، تكلم فى كل ميزان منها عن أمور تمت لأصول المذهب الإسماعيلى بصـلات وثيقة : فتناول فى أحد موازينه « معرفة الحقيقة » ، وفى آخر وجوب معرفة « المبدع » ، وفى آخر « العقل » ومعرفة أسمائه ، كما قصر أحد الموازين على الفروع الثلاثة المتفرعة عن « الأصلين » (٣) (العقل والنفس) . ومن أهم هذه الموازين ما وقفه على النطقاء ، والأسس والأئمة ، والحجج والدعاة ، إلى غير ذلك من الموضوعات التى تفيد الباحث فى تاريخ التطور العقلى للمذهب الإسماعيلى (٤) .

٤ — كتاب النصر ، وقد علق فيه على كتاب المحصول الذى نسبناه إلى النسفى ، وإن كان بعض الإسماعيلية ينسبونه إلى الكرمانى ، داعى الفاطميين فى فارس فى عهد الحاكم بأمر الله ؛ ويظهر أن هذا الكتاب قد ضاع ، وأن الكرمانى كان قد اطلع عليه وأشار إليه فى كتابه .

هؤلاء هم أشهر دعاة عميد الله فى بلاد المشرق . وقد استطاعوا أن يرفعوا علم

Ibid. (١)

Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S., 1933), (٢)
p. 267.

(٣) الأصلان : هما العقل والنفس ، والفروع الثلاثة : هى الزمان والمكان والهيولى .

Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 34. (٤)

الدعوة هناك عاليا ، وأن يجذبوا الأمراء إلى عبيد الله المهدي . وأهم من ذلك كله أنهم ساهموا في النهضة الإسلامية العقلية في ذلك الحين ؛ فلم يكونوا كغيرهم من علماء المذاهب الأخرى ، في عزلة عن الحياة الثقافية التي تحيط بهم . ويظهر أن مدارس الدعوة التي أسسها عبيد الله ، كان لها أثر كبير في تغذية هؤلاء الدعاة بالحيوية والمبادئ التي تساعد على جذب الناس إليهم ، كما كانت تمد هذه البلاد من حين إلى حين بدعاة درسوا في تلك المدارس ، وتخرجوا على كبار أساتذتها .

٤ - عبيد الله والدعوة الإسماعيلية في بلاد الأندلس :

كان لمدارس الدعوة التي أنشأها ونظمها عبيد الله في المهديّة وسواها ، أثر كبير في تخريج جماعة من الدعاة الذين استطاعوا أن ينشروا الدعوة في كثير من أرجاء العالم الإسلامي ، وبخاصة في بلاد الأندلس . حقيقة كانت هذه المدارس تضاعف الجهد لتجديد النشاط المذهبي في البلاد التي كان ينتشر فيها المذهب الإسماعيلي من قبل ، كمصر والشام واليمن والبحرين والعراق وفارس . ولكن انتشار الدعوة الإسماعيلية في الأندلس بصورة جدية ، وعلى يد حكومة إسماعيلية هي الدولة الفاطمية ، كان شيئا جديدا في تاريخ المذهب الإسماعيلي^(١).

وكانت محاولة نشر الدعوة في إسبانيا نوعا من الصراع بين السنية Sunnism والتشييع الإسماعيلي Ismailism ، وقد انتهز عبيد الله ثورة ابن حفصون على الأمويين بالأندلس في عهد كل من عبد الله بن عبد الرحمن الثاني (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) وعبد الرحمن الناصر الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ، وعقد الصلح مع ابن حفصون الذي اعترف له بالزعامة ؛ ومن ثم أخذت عيون الفاطميين ودعاتهم يجوبون شـبه

(١) في الحق أن الدعوة للفاطميين الإسماعيليين كانت قد شقت طريقها إلى الأندلس قبل قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب . ولا نعرف متى تم ذلك ، وهل كان في عهد الخوفا وأبي سفيان داعي الإسماعيلية الأولين ، أم في عهد أبي عبد الله الشيعي ؟ المهم أن الدعوة للمهدي قد راجت في تلك البلاد قبل قيام الدولة الفاطمية ، حتى إننا نرى بعض فقهاءنا يعتقدون صحة النبوة القائلة بظهور أحد أبناء فاطمة وحكم بلاد الأندلس ، واستيلائه على القسطنطينية ، وقتله مسيحي قرطبة . وإذا كانت هذه الأفكار قد وجدت طريقها إلى عقول الطبقة المستنيرة ، فإنها لاشك قد غيرت عقول كثير من الناس هناك .

جزيرة أيبيريا من أقصاها إلى أقصاها ، في زى التجار . وقد ذهب دوزى إلى القول باحتمال إنشاء الفاطميين مدرسة لهم في إسبانيا ، وبعبارة أخرى عمل عبيد الله المهدي على غزو بلاد الأندلس فكريا ومذهبيا ، حتى يمهّد للفاطميين سبيل الاستيلاء على هذه البلاد . ومن ثم عهدوا في إدارة تلك المدرسة الإسماعيلية والإشراف عليها . إلى ذلك العالم الفيلسوف ابن مسرة ، وكان أحد دعاةهم . وكانت له فلسفة دينية خاصة تتمثل فيها الصراحة ، مما عرضه إلى الاضطهاد ، واضطر إلى الخروج من بلاد الأندلس والاتجاه نحو المشرق ودراسة المذاهب الإسلامية فيها ، والاتصال بالإسماعيلية سرا ، إلى أن أصبح واحدا منهم . ولما عاد إلى وطنه لم ينشر آراءه على طريقته الصريحة التي امتاز بها من قبل ، بل أخذ يعمل في الخفاء ويتظاهر بالتقوى والورع ، حتى يتمكن من نشر آرائه . وسواء أكان ابن مسرة من دعاة الفاطميين أم لم يكن ، فإن هؤلاء الفاطميين لم يتركوا وسيلة لتسكين أنصار لهم في بلاد الأندلس إلا اتبعوها ، وقد نجحوا في عهد عبيد الله المهدي إلى حد كبير . ولو قدر لهم النجاح ، وواصلوا بذل جهودهم هنالك ، لوجدوا في هذه البلاد مرتعا خصيبا لمبادئ المذهب الإسماعيلي ، ولانضم إلى مذهبهم كثير من أهلها (١) .

٥ - التنظيم الداخلي للدعوة الإسماعيلية

في عهد عبيد الله المهدي

لم تقتصر جهود عبيد الله على تقرير العلاقة بينه وبين أتباعه في خارج بلاد المغرب ، بل كان لزاما عليه أن ينظم الدعوة الإسماعيلية بعد قيام الدولة الفاطمية حسب الوضع الجديد . فهل يستطيع أن يجعل رعايا دولته جماعة إسماعيلية بحتة ، شأنه في ذلك شأن قرامطة أبي سعيد ثم الزارية من بعده ؟ سنرى أن عبيد الله بذل جهودا كبيرة لتحويل رعاياه إلى مجتمع إسماعيلي خالص ؛ ولكنه عجز عن تحقيق هذه السياسة ، فاضطر إلى وضع نظام جديد يقضى بأن تحكم أقلية من الإسماعيلية أكثرية من غير الإسماعيلية . ولذلك اضطر عبيد الله المهدي إلى تنظيم الدعاية المذهبية ،

(١) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne, vol. iii, pp. 127-8.

بحيث تلائم هذا الوضع الجديد ، فأسس مدارس أطلق عليها مدارس الدعوة . كما عمل عبيد الله على أن يكون الحاكم المطلق في داخل إمبراطوريته وفي خارجها . فحدث من نفوذ زعماء دعوته ، ايشعرهم بنفوذه وسلطانته ، وتخاص من كثير من هؤلاء الذين اعتبرهم خطرا على خلافته وإمامته ؛ ففتك بأبي عبد الله الشيعي ، وأخيه أبي العباس ، وغيرهما من الشخصيات البارزة في ملكه والمناوئة لنفوذه وسلطانته .

(١) عمولة عبيد الله برعاياه

قامت الدولة الفاطمية - كما رأينا - على أسس مذهبية بحتة ، تلتخص في أن آل بيت الرسول من علي وفاطمة أحق الناس بزعامة المسلمين ؛ إلا أن كثيرا من الرعايا السنيين لم يتفقوا معهم في دعوتهم . أضف إلى ذلك عدم اغتباط جميع مفكرى الإسماعيلية بظهور العقل السكلي^(١) في شخص الإمام عبيد الله المهدي الفاطمي . فمن عقائد الإسماعيلية حلول الله في رؤسائهم ؛ فلما استقر عبيد الله المهدي في بلاد المغرب ، وظهر بعد استتار ، رأى أن يقرر في أذهان رعيته - على ما يقوله السنيون - كثيرا من مبادئ الإسماعيلية المتطرفة ، فأظهر التشيع ، ونشر بعض أمور تخالف في كثير من الأحيان قواعد الإسلام .

والآن نعرض لآراء السنيين في سياسة عبيد الله مع رعاياه ، ثم نوازن بينها وبين آراء الإسماعيلية أنفسهم .

يقول ابن عذاري المراكشي^(٢) : « أظهر عبيد الله التشيع القبيح ، وسب

(١) Goldziher : Le Dogme et la Loi de l'Islam, p. 205.

يعتقد الإسماعيلية بنظرية الحلول ، ويقولون ، إن العقل السكلي ... يمكن أن يحل في أشخاص الأنبياء أو الرسل الذين يصممهم الإسماعيلية ، ، النطقاء ، ، فالناطق عندهم حلول للعقل السكلي ، ويرون أن آدم عقل كل ، ومحمد ، صلى الله عليه وسلم عقل كل كذلك . ويعتقدون مثل ذلك في النفس السكلية . Ame Universelle ؛ فيرون أن النفس السكلية تحل في أشخاص الأئمة ، وأن هاتين الصفتين . النطق والامامة ، قد اجتمعتا في أشخاص أئمتهم . وقد تركزت في محمد بن إسماعيل ناطقهم الصابع ، الذي ورث أبناءه الأئمة المستورين صفى النطق والامامة معا ، فأصبحوا جميعا رمزا لحلول العقل السكلي والنفس السكلية . ويتمتع عبيد الله الامام المستودع ، بهذه الصفات .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ١٥٨ - ١٥٩ .

أصحاب النبي وأزواجه حاشا على بن أبي طالب ، والمقداد بن الأسود ،
وعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسي ، وأبي ذر الغفاري ؛ وزعم أن أصحاب
النبي ارتدوا بعده ، غير هؤلاء الذين سميناهم . ومنع المروزي الفقهاء من أن
يفتي أحدهم إلا بمذهب . . . منه إحاطة البنات بالميراث ، وأشياء كثيرة يطول
ذكرها . وقد مدح اشعراء عبيد الله بالكفر فاستجازه ؛ وكان فيما مدح به
شعر لمحمد البديل كاتب أبي قضاة ، وفيه :

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصفي حل بها الككبش والذبيح
حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواة ريج

وكانت يمين أهل إفريقية (تونس) : « بحق عالم الغيب والشهادة ، مولانا
المهدى الذى برقادة ، حتى كتب بعض أحداث القيروان هذين البيتين ، وتلففوا
في وصولهما إلى عبيد الله من حيث لا يعلم وهما :

الجور قد رضينا لا الكفر والحسافة
يا مدعى الغيوب ! من كاتب البطاقة ؟

ويدعى السنيون أن عبيد الله قطع صلاة التراويح ، وأحدث في الصلاة أموراً
لم يألفها المسلمون السنيون ، مثل القسُوت في صلاة الجمعة قبل الركوع ، وزيادة
« حتى على خير العمل ، محمد وعلى خير البشر » مرتين مرتين ، وقول المؤذن :
« أحيك الله يا مولانا حافظ نظام الدنيا والدين ، جامع شمل الإسلام والمسلمين ،
وأعز بسلطانه جانب الموحدين ، وأباد بسيموك كافة الملحدين ، وصلى عليك وعلى
آبائك الطاهرين ، وأبنائك الأكرمين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين ، وآخر دعوانا
أن الحمد لله رب العالمين » (١) .

ولم يقتصر السنيون على ذلك الاتهام ، بل قالوا : إن عبيد الله كان يعمل على
هدم الإسلام متستراً بالتشيع (٢) ، وهذه التهمة نفسها هي التي رموا بها عبد الله القداح ،

(١) ابن حماد : أخبار بني عبيد وسيرتهم ص ١٦ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠١ .

ولكننا لا نستطيع أن نصدق جميع ما رمى به . ولا بد أن يكون ذلك الاتهام راجعا إلى ما ذهبنا إليه ، وهو أن عبيد الله المهدي كان يخلص لقواعد المذهب الإسماعيلي ، ويعتقد أن حركة هذا المذهب حركة إصلاحية شاملة ، وأنه بفضل هذه الحركة يمكن أن ينتشل الإسلام من الهوة التي تردي فيها ؛ فحاول إدخال هذه القواعد بين السنين ، فمدوها كفرا وإلحادا ، وقالوا فيه : « كان زنديقا خبيثا ، عدوا للإسلام ، متظاهرا بالتشيع ، مستترا به ، حريصا على إزالة الملة الإسلامية (١) » . وما لا نزاع فيه أن المهدي ودعاته كانوا يعملون على أن يحل المهدي من قلوب الرعايا أسمى مكانة ، فأخذوا يذيعون بين الناس عنه كثيرا من الصفات التي تحوطه بهالة من التقديس ؛ وأسرف الدعاة في ذلك ، حتى إنهم كانوا يقول بعضهم لبعض : هو المهدي ابن رسول الله ﷺ ، وحجة الله على خلقه ، ويقول بعضهم لبعض : هو رسول الله ، ويقول بعض بعض آخر : « هو الله الخالق الرازق (٢) » .

ويرى ابن الأثير (٣) أن عبيد الله حاول نشر المذهب الإسماعيلي قسرا بين الناس ، فيقول : « وأمر عبيد الله يوم الجمعة بذكر اسمه في الخطبة في البلاد ، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين ، وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف ، ومعه الدعاة ، وأحضروا الناس بالعنف والشدّة ، ودعّوهم إلى مذهبهم : فمن أجاب أحسن إليه ، ومن أبى حبس ؛ فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس ، وهم قليل ، وقتل كثيرا ممن لا يوافقهم على قولهم » . ويرى عبيد الله أيضا بأنه قتل جماعة من العلماء السنين لم يعترفوا بأنه رسول الله .

وإذا كانت هذه نظرة العلماء السنين إلى عبيد الله ، وعلاقته المذهبية برعاياه السنين ، فإن المراجع الإسماعيلية تؤكد غير ذلك ، وتبين أن المهدي وغيره من الخلفاء الفاطميين كانوا يسرون وفق الشريعة الإسلامية ، على ما أنزل الله ، وشرعة الرسول ، دون زيغ ، ويضربون الأمثلة الكثيرة التي تنقض دعاوى

(١) القاضي عبد الجبار : تثبيت التوبة (من كتاب الروضتين في أخبار الدرّتين) ج ١ ص ٢٠١

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠١ .

(٣) الكامل ج ٨ ص ١٨ .

السنيين . يقول النعمان المغربي^(١) : « بلغنا عن المهدي أن رافعا رفع إليه نصيحة فيما زعم ، يقول فيها : إن العامة لو طولبوا فيها بمذاهبهم ، وأجرى الحكم بها عليهم في تركهم توريث ذوى الأرحام ، وردهم ذلك كثيرا في قول كثير منهم إلى بيت المال ، لكان في ذلك توفير للمال من حيث لا يتكروونه ولا يدفعونه ، وإن المهدي عليه السلام أنكر ذلك من قوله ، واستشاط غضبا عليه ، وأمر بطلبه وقال : ما أراد هذا بما قال إلا الطعن علينا ، وأن نحكم بخلاف ما أنزل الله ؛ وإنما أقامنا الله جل ذكره لنقيم دينه لعباده ، لا لنستكثر من دنياهم بما يأتي من غير حله . »

وهذا من غير شك يبطل ما أتى به السنيون في الطعن على عبيد الله ، بل إن الإسماعيلية يرون أن عبيد الله المهدي إنما أنقذ العالم بإزالة الضلال ، ونشر الدين الحق ؛ لأنه « استأنف دعاء جديدا إلى الله ، لما غيرت السنن ، وكثرت البدع ، وتغلب أئمة الضلال ... فلما أنجز الله بالدعاء للأئمة ما وعدهم به من ظهور مهديهم ، احتاج أن يدعوهم دعاء جديدا ، كما ابتدأهم عليه السلام بالدعاء أولا ، »^(٢) .

وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الإسماعيلية يرون أن مذهبهم إنما قام ليحل محل الإسلام ، حتى قالوا في عبيد الله المهدي : إنه « قائم الزمان ... الذي يجمع الله له أمر العباد ، ويظهره على الدين كله »^(٣) . ولوأخذنا بما أورده هؤلاء الإسماعيلية في المهدي ، لكان كثير مما وصف به السنيون المذهب الإسماعيلي غير صحيح . لكن ينبغي أن نفهم أن كتابي المجالس والمساربات ، وشرح الأخبار وغيرهما ، هي من كتب الظاهر Exoteric Works التي تتفق مع التشريعات السنية ؛ ولا يبعد أن يكون كثير مما ذهب إليه السنيون صحيحا ، كما لا يبعد أيضا أن يكون الحال على عكس ذلك في كتب الباطن Esoteric Works . وخير مثل لذلك ما نقرؤه في مخطوط « عقيدة الإسماعيلية ، الذي نشره جويار ، فقد وردت فيه فصول قيمة عن حقيقة المذهب الإسماعيلي ، وعلى الأخص ما أورده عن تأليه المعز لدين الله . أضف إلى ذلك أن كثيرا من كتب الإسماعيلية التأويلية الرمزية ، تدل على أن

(١) المجالس والمساربات (مخطوط) ج ١ ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) كتاب شرح الأخبار (نشره إيفانو) ص ١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧ .

كتب الظاهر الإسماعيلية ، إنما وضعت للرد على السنيين ، وأنها كثيرا ما تتغاضى عن ذكر حقيقة المذهب الإسماعيلي .

(ب) توجيه الدعوة لمصلحة الدولة

قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ ، وكان قيامها أقصى ما نالته الدعاية الإسماعيلية من نجاح في دورها الأول . ولم يحقق قيامها في بلاد المغرب جميع أغراضها ؛ فلم يكن بد إذن من أن تزعم هذه الدولة على العالم الإسلامي ، ولا يمكنها أن تحقق ذلك إلا إذا بذلت جهودا كبيرة ودماء غزيرة . وقد تبين لعبيد الله ، رئيس الدعوة الإسماعيلية ودولتها ، استحالة تحقيق كل آماله بجدار السيف وإراقة الدماء ؛ ولذلك وجه نشاطه إلى تنظيم الدعاية لمصلحة الدولة ، ليغزو العالم الإسلامي بهذه الدعاية ، وليكون له في كل صقع من أصقاعه أنصار ومستجيبون . ومن ثم أصبح من أهم ما ترمى إليه الدعوة الإسماعيلية ، المحافظة على المذهب الإسماعيلي . ثم مناصرة الدولة الفاطمية^(١) ؛ وهذا يجعلنا نعتقد أن المذهب الإسماعيلي قد نهض على يد الفاطميين نهضة بعيدة كل البعد عن ذلك الروح الوثاب الذي أوجده عبد الله بن ميمون وأبناؤه في جماعة الإسماعيلية : فبينما يرى الفاطميون ، وعلى رأسهم عبيد الله ، استخدام الدعوة الإسماعيلية لمصلحة الدولة ، كان مؤسسو المذهب الإسماعيلي الأوائل ، أئمة وحججا ، يرون استخدام الدعوة لتكوين دولة تهدف إلى هدم العباسيين ، وبسط نفوذها على أنقاض دولتهم ، وذلك بحمل السيف ، وإراقة الدماء ، وإذاعة عقائد المذهب الإسماعيلي في صراحة مطلقة . وقد سار القرامطة على هذه السياسة بعد قيام الدولة الفاطمية نفسها ، مخالفين في ذلك سياسة عبيد الله المهدي ، ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، تلك السياسة التي كانت تقوم على الدهاء والمكر ، مما حدا ببعض المؤرخين على أن يعزو أسباب النزاع الذي قام بين القرامطة والفاطميين إلى هذا الأمر وحده .

وإذن فقد رأى عبيد الله بعد أن أخفق في تعميم مذهبه بين رعاياه ، ونشر

Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors

(١)

(JRAS, 1933); p. 366.

مبدأ تقديس الأئمة بين المغاربة خاصة ، أن لا ينشر خصائص الدعوة الإسماعيلية بين العامة ، كما رأى وجوب إخفاء حقيقة مذهبه ، والاعتماد على هذه المدارس التي أطلق عليها اسم مدارس الدعوة ، لبث عقائد المذهب الإسماعيلي بين الأشيعاء سرا ، بمعنى أنه أراد أن تكون مدارس الدعوة أداة اتصال بينه وبين أشيعاءه ، لا بينه وبين رعاياه عامة ، حتى تظل زعامته عليهم قائمة ، ويظل المذهب الإسماعيلي رائجا بينهم . وبعبارة أخرى ، بدأ عبيد الله ، بإنشائه مدارس الدعوة ، في تنفيذ سياسته المزدوجة ، حتى يظهر أمام رعاياه ، علويا صريحا يأخذ بناصر العلويين ، ويبطن المذهب الإسماعيلي ومبادئه في الوقت نفسه ، ويشجع هذا المذهب سرا عن طريق هذه المدارس وغيرها من وسائل الاتصال مع الأشيعاء البعيدين خاصة . وإنما فعل عبيد الله ، ذلك ، لأن المغاربة وعامة أهالي شمالي إفريقيا كانوا ، كما يقول دوزي^(١) ، أصعب مراسا من المشاركة في فهم أسرار المذهب الإسماعيلي . فكان يتعذر عليهم فهم تأويل القرآن والحديث والفقه ومظاهر الكون على أساس تأويل الإسماعيلية ؛ فلا يستطيعون مثلا أن يفهموا بأن الشيطان المقصود بقوله تعالى : (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر^(٢)) هو عمر بن الخطاب ، وأن الانسان ، هو أبو بكر ، وأن معنى « اكفر » : لا تقل بإمامة علي بن أبي طالب ، كما لا يستطيعون أيضا فهم قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)^(٣) ؛ بأن هناك موتا عرضيا وموتا أبديا ، وأن الموت العرضي يقصد به عدم نشاط الحجج مع وجود الإمام الظاهر . وأما الموت الأبدي فهو عدم الهداية إلى المذهب الإسماعيلي ، إلى غير ذلك . كما لا يستطيعون فهم عدد الحجج بعدد فقرات الظهر (١٢) ، ولا عدد الأئمة بعدد فقرات الرقبة (٧) وفتحات الوجه ، إلى غير ذلك مما لم يكن يألفه المغاربة . وهذا وحده يفسر لنا لماذا أمسى المذهب الإسماعيلي في شمال إفريقيا ، على حين ظل قويا منتشرا في بلاد المغرب ، وانبعث اليوم على يد أغاخان وأنصاره الأغاخانية أو الخوارج ، وعلى يد البهرة أنصار الامام الطيب ابن الخليفة الأمر وأبنائه.

Histoire des Musulmans d'Espagne (vol. iii, p. 124.) (١)

سورة المشر آية ١٧ . (٢)

سورة الزمر آية ٤٢ (٣)

على أن هناك أمرا آخر قد حدا بعبيد الله المهدي إلى إيجاد مدارس الدعوة ، ذلك أنه بقيام الدولة الفاطمية وتربعه على عرشها ، انتهى دور من أدوار التاريخ الإسماعيلي ، هو دور الستر ، وبدأ دور آخر هو دور الظهور . ولكل دور من هذين الدورين نظامه الخاص في نشر الدعوة ، كما أن لكل منهما فلسفته الخاصة : فبينما يدعو الدعاة في الدور الأول لإمام مستور ، إذا بهم يدعون في الدور الثاني لإمام ظاهر ؛ وبينما هم في الدور الأول يثيرون حماسة أشياعهم لنصرة هذا الإمام المستور بحمد السيف ، حتى يظهر ليعمل الأرض عدلا كما ملئت جورا ، إذا بهم في دور الظهور يحوّلون بهالة من التقديس والإجلال ، ولا يلجئون إلى إثارة حماسة الأشياع على حمل السيف إلا عند الضرورة القصوى . وإن يستطيع عبيد الله المهدي أن يحوّل أشياعه عن تلك السياسة إلا عن طريق مدارس منظمة ودعاة مرئوا على هذا .

ومهما يكن من شيء فإن مدارس الدعوة راجت في المهديّة — قاعدة الدولة الفاطمية الناشئة — في عهد عبيد الله . ثم راجت في المنصورية في عهد حفيده المنصور ، ثم في القاهرة في عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ؛ وعرفت هذه المدارس في مصر باسم « مدارس الحكمة » ، التي كان لها شأن كبير في نشر الثقافة الإسماعيلية . ومن هذه المدارس كانت دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله ؛ ولم يكن هذا النوع من المدارس مقصورا على القاهرة ، بل تجاوزها إلى أقاليم الدعوة الرئيسية ، أو بحارها وجزرها ، كما كان يطلق عليها في ذلك الحين . وكانت الدولة الفاطمية تهتم في هذه المدارس بتخريج دعاة ينشئون في عامة البلاد الإسلامية لينشروا المذهب الإسماعيلي بين الناس ، ويكونوا أداة اتصال بين رئاسة الدعوة والدولة وبين أشياعهم المسيحيين . وليس معنى ذلك أنه لم تكن ثمة مدارس في الدور القداحي ، أي دور الستر ، بل كانت هناك مدارس كثيرة في سلبية والأهواز وغيرهما من نواحي العالم الإسلامي . والفرق بين هذين النوعين من المدارس هو ، كما سبق ، أن الأولى كانت مندفعة دائما نحو السياسة الهدامة ؛ فكانت تعمل على قلب حكومة بغداد وشغلها عن الإمام الإسماعيلي المستور . وأما المدارس الفاطمية فقد أخذت تندفع في تيار السياسة الفكرية ، وبعبارة أصح ، كان الغرض الأول الذي ترمى إليه تعاليم تلك المدارس ، هو مناصرة الفاطميين والدفاع عنهم . ونرى ذلك

واضحاً جلياً في مؤلفات الدعاة في هذا العصر . ويرى الدكتور حسين الهمداني أنه من الخطأ الاعتقاد بأن الدعوة الإسماعيلية في ذلك الحين ، كانت ترمي إلى عبادة الأئمة ورؤسائها ، وإنما كانت على العكس ترمي إلى وضع نظام ديني على رأسه أهل البيت (١) .

وفي الحق أن عبيد الله وأنصاره ، من كبار الإسماعيلية خاصة ، رأوا أن يروجوا تلك الحركة الإصلاحية الخطرة ، التي تنادى بالإصلاح الشامل ، والتي انتشرت في معظم بقاع العالم الإسلامي وخاصة الشرق منه . وتتصف هذه الحركة — على ما يقوله ماسنيون (٢) — من الناحية العلمية بانتشار اصطلاحات وتعاليم وآراء هلينية ، كما تتصف من الناحية السياسية بنشر آراء سرية تنادى بأحقية العلويين والغض من شأن العباسيين ؛ وأما من الناحية الدينية فتتصف باستخدام تعاليم ذات طابع خاص يتفق مع اعتقادات جميع الناس . وكان هذا الاتجاه الديني السياسي الأدبي من أخطر الأشياء على الإسلام والمسلمين في القرن الرابع الهجري خاصة . وقد اعتمد عبيد الله المهدي في ترويج تلك الحركة الإصلاحية الشاملة على مدارس دعوته التي قامت بمهمتها خير قيام ، والتي أنجبت فيما بعد دعاة من الأقطاب ، مثل جعفر بن منصور البين ، صاحب المؤلفات الكثيرة في الدور المغربي ، وأبي حاتم الرازي وغيره من ذكرنا . والخلاصة أن عبيد الله الفاطمي بذر بذور مدارس الدعوة الفاطمية الجديدة ، ثم جنى خالفاه ثمار ما بذر .

(ح) أبو عبد الله السيمى يهرقي ما لوقاه أبو مسلم الخراساني

صادف عبيد الله المهدي منذ اعتلى عرش الفاطميين بإفريقية مصاعب جمة ، أهمها وجود منافسين كثيرين في داخل بلاده ، سنيين كانوا أو شيعيين ؛ فكان حتماً عليه أن يتخلص من هؤلاء . ويتم السنيون عبيد الله بأنه استباح لنفسه قتل العلماء المسلمين السنيين ، لمناقضتهم إياه ، ومعارضتهم مذهب الإسماعيلي (٣) . ولا نستبعد ذلك على

(١) Some Unknown Ismaili Authors (JRAS, 1933), p.366.

(٢) عجب نامه ص ٣٢٩ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠١ .

عبيد الله ، الذي كان يعتقد أن المذهب الإسماعيلي حركة إصلاحية شاملة ، وأن الإسلام قد تطرق إليه الضعف والوهن . ولكن الغريب حقا أن نرى عبيد الله المهدي يعمل على التخلص من أبي عبد الله الشيعي ، الذي أخلص له ولآبائه وأئمته ، وأجلسه على العرش بعد أن ذاق الأمرين . أضف إلى ذلك أن أبا عبد الله لم يستبد بهذا الملك الذي أئله يديه ، ولم يقلد ابن فضل الجدني في اليمن ، ولا أبا سعيد في البحرين ، في محاولتهما الاستقلال بالبلاد التي فتحاها باسم المذهب الإسماعيلي . إذن فما العوامل الحقيقية التي دفعت عبيد الله المهدي إلى التخلص من أبي عبد الله الشيعي ؟ يغلو بعض العلماء السنيين ، فيرمي المهدي بالإسراف في العبث بالشرعية الإسلامية ، وخروجه على الدين الإسلامي ، وبأن أبا عبد الله الشيعي لم يرض عن هذه السياسة واحتج على المهدي ، فكان ذلك سبب قتله . يقول عريب بن سعد : (١) « كان عبيد الله يعرف أول دخوله القيروان بابن البصري ، فأظهر شرب الخمر والغناء ، فقال المحتسب : ما على هذا خرجنا ، وأنكر فعلته . فدس عليه عبيد الله رجلا من المغاربة فقتله . ولا يعقل أن يشور أبو عبد الله على رئيسه تمسكا منه بالشرعية الإسلامية ؛ لأن الجميع يؤمنون بمذهب واحد ، يقدسون فيه رؤسائهم ، ويرون أنه لا عيب مطلقا إذا شربوا الخمر ، لأنه لا جناح عليهم فيما طعموا . كما أن المشهور عن أبي عبد الله أنه كان ينادي بمبدأ الحلول ، ويرى أن المهدي حلول لآدم فحمد عليه السلام (٢) ؛ وهذا يجعلنا نعتقد أن هناك سببا آخر غير ذلك .

ويظهر أن عبيد الله أدرك خطر بقاء أبي عبد الله الشيعي في بلاد المغرب ، حتى لا يفتتن الناس به ، فيضعف ذلك من نفوذه . ويظهر أيضا أن نفوذ أبي عبد الله في بلاد المغرب كان عظيما ، حتى إنهم نادوا بعودته بعد مقتله . وما كان لهم أن يفعلوا ذلك لو لم يكن ذا مركز ممتاز بينهم . ولا شك أن أبا عبد الله الشيعي كان موضع ثقة كثير من السكتامين ، مما أثار عليه حنق مولاة المهدي . وبما لا شك فيه أن المهدي كان يميل بطبيعته إلى الاستبداد بالأمور ، والاستئثار بها دون سواء ؛ ولابد أن يكون أبو عبد الله قد رغب في الاحتفاظ بنفوذه قويا بين المغاربة ، كما رغب في

(١) صلة تاريخ الطبري ج ١٢ ص ٢٨

(٢) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد ج ١ ورقة ٢٤٢ .

الاحتفاظ بمركزه الممتاز بالقبض على زمام الأمور . فلما استلب منه المهدي هذا النفوذ ، عز عاياه ذلك وتآمر عليه . وفي الحق أن المهدي : « باشر الأمور بنفسه ، وكف يد أبي عبد الله ، ويد أخيه (أبي العباس) ، فداخل أبا العباس الحسد وعظم عليه العظام عن الأمر والنهي ، والأخذ والعطاء . فأقبل يزري على المهدي في مجلس أخيه ، ويتكلم فيه وأخوه فيها ، ولا يرضى فعله ، فلا يزيد إلا لجاجا . ثم إنه أظهر أبا عبد الله على ما في نفسه وقال له : ملسكت أمرا فحشت بمن أزالك عنه ، وكان الواجب ألا يسقط حقلك ؛ ولم يزل حتى أثر في قلب أخيه » (١) .

وإن ما ذهب إليه المنصوري لا يبعد أن يكون السبب الأساسي لقتل أبي عبد الله ، ولا سيما أن المصادر الإسماعيلية تؤيده . فهذا المعز لدين الله يبرئ المهدي ، ويتم أبا العباس . ويقول عن أبي عبد الله الشيعي : « إن أخاه أبا العباس كان سبب قتله ، وإن المهدي ، عليه السلام ! ما أراد قتله ، وإن استحققت القتل عنده ، حفظا لما تقدم له ؛ وإن كان قد سمى مع أخيه ومال إليه ، وغلب الهوى عليه ، لما رأى الأمور خرجت من يديه » (٢) .

وقد أجمع مؤلفو الإسماعيلية على أن أبا عبد الله كان يميل إلى الزعامة والتسلط ، وأن المهدي وجد في هذا الأمر افتئاتا على زعامته ونفوذه . ولذلك لما تعارضت هاتان النزعتان ، دبر المهدي قتل تابعه وداعيه أبي عبد الله الشيعي . وإن زعامة عبيد الله المهدي للدولة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية كانت تحتم عليه أن ينفرد بجميع شئون الدعوة والدولة معا ؛ لذلك لانعجب إذا رأيناه يعمل على التخلص من منافسيه من الإسماعيلية ، فيقتل ابن فضل وأبا سعيد ، ويعزل ابنه لأنه لم يكن على هواه . وصفوة القول أن المهدي لم يرض عن سياسة أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس ، اللذين كانا يعملان على « أن يكون الأمر والنهي ، والإصدار والإيراد لهما دون المهدي ، وأن يكون المهدي كالمولى عليه معهما » (٣) .

(١) المنصوري : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (مخطوط) ج ٥ ص ١٦٦ .

(٢) الثمان المغربي : المجالس والمساربات ج ١ ورقة ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) شرح الأخبار ص ٣٤ (من المنتخب من بعض كتب الإسماعيلية) .

أما ما ذهب إليه بعض آخر من أن أبا العباس وأبا عبد الله قد أنارا شكوك الناس في شخصية المهدي ، فيبدو بعيد التصديق ؛ لأنهما إذا كانا قد شكا في المهدي ، فكيف رضيا عنه سنتين في الخلافة (٢٩٦—٢٩٨ هـ) ؟ ولو كان هذا صحيحا لحُتِم عليهما اختيار الوقت الملائم لإظهار شكهما ؛ وخير وقت لذلك ، هو ذلك الوقت الذي قامت فيه الدولة الفاطمية وأتى فيه المهدي من سجلماسة . على أنهما إن كانا قد شكا في شخصية المهدي - وهو ما لا يمكن أن يحدث - فلم لم يشكا في شخصية القائم ؟ ولم لم يناديا به إماما وخليفة ، بدلا من المهدي الذي شكا فيه ؟ لهذا لا تتفق مع ما ذكره الداعي إدريس (١) في كتابه «زهر المعاني» من أن أبا العباس دخل في عقل أخيه أبي عبد الله ، واستأذنه وقال له : ليس هذا المهدي ، لأن ذلك يبدو بعيد التصديق . كما لا نستطيع أن نوافق على ما ذكره النويري في قوله : «عمد أبو العباس إلى الدعاة - وكانوا يعظمونه - فجعل يرمز لهم ، ثم صرح وطقن في عبيد الله ، وأدخل فيه الشبهة . وما زال أبو العباس يتحيل إلى أن قال للدعاة : إن الإمام هو الذي يأتي بالآيات والمعجزات ، ويختتم بخاتمه على البلاط ؛ فأما هذا فقد شككنا فيه . فعند ذلك أرسل هارون بن موسى (أحد المشايخ) إلى عبيد الله يقول : إنا شككنا في أمرك ! فأتنا بآية إن كنت المهدي كما قلت . فتعاضم ذلك على عبيد الله وقال : ويحكم أنسكم كنتم قد أيقنتم ، والشك لا يزيل اليقين ، فأبيتهم إلا الإصرار ، ثم أمر من قتله (٢) . ومثل ذلك أيضا ما يقوله يحيى بن سعيد وهو : «كُتِبَتْ أبو العباس جماعة من الدعاة ، ومن وجوه كتامة ، وأوقع في نفوسهم الشبهة في المهدي ، وكاشفه مقدم الدعوة بالنفاق (٣)» .

إذن كان هناك سخط من أبي عبد الله وأخيه أبي العباس على المهدي بسبب استبداده بالأمور ؛ فرماه أبو العباس ، بالحق أو بالباطل ، بكل نقيصة ؛ وتكوّنت مؤامرة قوامها كل من كان يميل إلى الزعامة ، أو أقصى عن الأمر ، واتخذوا معقلهم قصر الزعيم المغربي ، أبي زاكى بن معارك ، وكان قد تولى شؤون إفريقية حين

(١) ص ٦٨ (من المنتخب من بعض كتب الاسماعيلية) .

(٢) نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٦ ورقة ٣٤

(٣) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٠٨ .

خرج أبو عبد الله لإحضار المهدي ، وأخذوا يدبرون مؤامرة ترمي إلى اغتيال المهدي وهجموا عليه غير مرة . ويظهر أن تعاليم أبي عبد الله التي تقوم على تقديس عبيد الله المهدي الإمام ، كان لها أثرها في قلوب المغاربة ، الذين كانوا يرهبونه على الرغم من إجماع الثوار على الإنهاء عليه ؛ كما كانت قلوبهم تذوب خوفاً واهلماً ، حين تقع عيونهم عليه . ومهما يكن من شيء . فقد أجمع ذلك النفر على الفتك بعبيد الله ، واجتمعت كتامة إلا قليلاً منهم ... لجمع عبيد الله إليه من سلم من النفاق والعبيد ، واستعد لهم ، على كثرتهم وقلة المبايعين له ، فجمعوا له الجموع ، وأحاطوا بقصره ليوقعوا به ، وهو في ذلك جالس منتصب غير مكترث (١) .

وما يمتاز به عبيد الله المهدي الصبر والثبات ؛ فقد أدرك أن أبا عبد الله الشيعي قد عراه الاضطراب ، حتى كان يدخل عليه وجلبابه مقلوب ثلاثة أيام ، وهو لا يعقل أمر قيصره ، لأنه يبيت مخالفاً على أن يكون على ولي مخالفاً خادعاً (٢) . ولذلك لجأ عبيد الله المهدي إلى المكر والحيلة ، وتظاهر بتجاهل ما يدور حوله ، وبدأ يحارب الثوار بنفس سلاحهم . ولما كان يعرف أن مهمهم الحكم والجاه ، أخذ في توزيعهم وتفريقهم ، وقلدهم الولايات وأجزل لهم الهبات ؛ فعين الزعيم أبا زاكى ابن معارك واليا على طرابلس ، ولسكنه أمر عاملاً من قبله بقتله عند وصوله ، وفعل مثل ذلك مع أغلب المتآمرين . وأما أبو عبد الله وأخوه أبو العباس ، فقد أمرهما بالبقاء معه ، وعمل على التخلص منهما باستغلاله مذهب تقديس الإمام عند بعض المخلصين له ، وأمر أحد أنصاره بقتلهما في منتصف جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ هـ . فلما صاح به أبو عبد الله قائلاً : لا تفعل ! أجابه : الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك (٣) . وكان قتلهما في نفس الوقت الذي قتل فيه الزعيم المغربي أبو زاكى بطرابلس .

ويكاد المؤرخون السنيون والإسماعيليون يجمعون على أن المهدي لم يتألم لقتل أبي العباس ، وإنما أظهر حزنه على قتل داعيه التخلص أبي عبد الله الشيعي . ويعتقد

(١) النويري : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٦ ورقة ٣٤ .

(٢) الداعي إدريس عماد الدين : زهر المعاني (من المنتخب) ص ٦٩ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٧ .

كثيرون أن المهدي قتل أبا عبد الله ليظهره من الخطأ الذي وقع فيه ، بسبب اتباعه أخاه أبا العباس ، وأن قتل المهدي أبا العباس كان تخليصا للدعوة من « المستكبر المصر على الإblas » ، وأن المهدي « طهر مته دعوته ، وتبرأ منه ، معلما بذلك كافة الناس » (١) . ويقول السنيون : إن المهدي ترحم على أبي عبد الله وقال : « رحمك الله أبا عبد الله . وجزاك في الآخرة بقديم سعيك ! ولا رحمك الله أبا العباس ، فإنك صددته عن السبيل وأوردته موارد الهلاك . ثم قرأ (ومن يعيش عن ذكر الرحمن فقيض له شيطانا فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون (٢)) . وكتب إلى الشيعة بالمشرق يقول : قد علمتم محل أبي عبد الله وأبي العباس من الإسلام ، فاستزلهما الشيطان ، وطهرتهما بالسيف والسلام » (٣) . وبهذا لقي أبو عبد الله من الفاطميين ما لقيه أبو مسلم الخراساني من العباسيين .

وكان من أثر مقتل أبي عبد الله ، أن دب النزاع في بلاد المغرب ؛ فنارت طرابلس على المهدي ، وهب أهالي القيروان في وجهه ، وخالفه أهل صقاية وأهالي بعض مدن إفريقية . إلا أن عبيد الله تمكن من إخماد تلك الثورات جميعا . وكان أشدها خطرا تلك الثورة التي أشعل نارها أتباع أبي عبد الله المخلصون له من السكتاميين . فقد هبوا في وجهه ، وادعوا أن أبا عبد الله حي لم يمت . يقول ابن الأثير (٤) : « وثار فتنة بسبب قتلها ، ووجد أصحابها السيوف ، فركب المهدي وأمن الناس فسكنوا . ثم تبعم حتى قتلهم . وثار فتنة بين كتامة وأهل القيروان ، قتل فيها خلق كثير ؛ فخرج المهدي وسكن الناس ، وكف الدعاة عن طلب التشيع من العامة » . ولم يكتفوا بذلك ، بل أقاموا طفلا ادعوا أنه المهدي ، وأنه يوحى وكان هؤلاء (على ما يظهر) قوة خطيرة ، حتى إنهم زحفوا إلى مدينة

(١) الداعي لإدريس : زهر المعاني ص ٦٩ .

(٢) سورة الزخرف آية ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٦٤ .

(٤) الكامل ج ٨ ص ١٩ .

«ميلة» ، فأخرج لهم المهدي ولده أبا القاسم فضربهم ، وقتل الطفل الذي نصبوه مهديا لهم .

ولا يبعد أن تكون ثورة ابن فضل ، وفتور العلاقة بين المهدي وأبي سعيد الجنابي نتيجة لقتل أبي عبد الله الشيعي . وكأن هؤلاء أدركوا أنهم سيلاقون مالا قاه أبو عبد الله الشيعي (١) . ومهما يكن من شيء ، فقد استطاع المهدي أن يقبض على أزمة الأمور في إفريقية بيد قوية . ومن ثم نراه يوجه نشاطه إلى الصراع الخارجي بعد أن استولى على جزء كبير من بلاد المغرب ، ثم يمم شطر المشرق لفتح مصر ، واتخاذها قاعدة ثانية ، أو نقطة ارتكاز أخرى ، يتجه منها إلى بغداد نفسها ، ويقضي على الخلافة العباسية السنية المتداعية .

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية . السياسي (ج ١ ورقة ٢٤١) .

الباب الخامس

أشهر مميزات الدعوة الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي

وتمتاز الدعوة الإسماعيلية في عهد عبيد الله بأمور كثيرة منها : أنها مرت في طورين يعرف أولها بطور الاستتار ، وثانيهما بطور الظهور . فكان عبيد الله في الطور الأول إماما مستورا ، وفي الطور الثاني إماما ظاهرا ، وكان دعااته ينشرون في الطور الأول مبادئ ثلاثم استتار الإمام ، وينشرون في الطور الثاني مبادئ ثلاثم ظهور ، كما تمتاز الدعوة الإسماعيلية في ذلك الحين بترويج كثير من الآراء ، من أهمها المناد بدين عام يتفق مع مشارب الناس ، والتأويل غير المشروع ، والإباحة أحيانا والقول بنظريات الإمامة إلى غير ذلك . كما أن هناك كثيرا من المصاعب استطاع عبيد الله التغلب عليها . ويرجع نجاحه إلى عوامل مختلفة ، منها ضعف العالم الإسلامي وضعف الطوائف الشيعية الأخرى ، وتحمس الناس لنظرية المهدي ، وتطلعهم إلى ظهوره ؛ كما يمتاز عبيد الله نفسه بصفات كان لها أثرها في حياته ، منها الصبر والهدوء والثقة بالنفس ، والصدق ، وغير ذلك .

١ - استتار الإمام وظهوره

(١) استتار عبيد الله :

مر عبيد الله — سعيد الخير — في دورين من أدوار تاريخ الإسماعيلية : وقد تطورت به الأحوال في الدور الأول ؛ فكان نائبا عن الإمام ، أو على حد تعبير الإسماعيلية « حجاب » الإمام و « حجة » تارة ، وتقمص شخصية الإمام المستور تارة أخرى . وكان في الحالين يرأس جماعة تعمل في الخفاء ، وتدعو لإمام مستور . وقد تسلم منصب الحجة ، ثم منصب الإمام في أواخر القرن الثالث الهجري ، في

الوقت الذي نضجت فيه ثمار ماغرسه آباؤه وأجواده وأئمة . وقد راجت دعوته في فارس وخراسان والعراق ، وتركزت في سواد الكوفة على يد حمدان قرمط وعبدان ، ثم على يد زكرويه وأبنائه ؛ ثم استقرت في إقليم القطيف ، جنوبي البصرة ، وفي البحرين ، على يد أبي سعيد الجنابي ، والتهبت جهرتها في بلاد اليمن ، حتى اعتقد بعض أن دولة المهدي ستنبعث من هناك . وفي هذه البلاد راجت الدعوة الإسماعيلية على يد ابن حوشب (منصور اليمن) وابن فضل . أما في بلاد المغرب فقد انتشرت على يد داعيه أبي عبد الله الشيعي الذي استطاع أن يوجه ضرباته إلى الدولة الأغلبية المتداعية ، ثم يقضى عليها ، ويغد السير إلى سجناسة في أقصى بلاد المغرب لإحضار سيده عبيد الله المهدي .

وقد استطاع المهدي أن يقوم بعمله على أكمل وجه باعتباره حجاب الإمام ، ؛ ولكنه أخذ يلقى كثيرا من المصاعب ، وكان من أشدها خطرا عليه وعلى دولته ، انتقاض حمدان قرمط زعيم قراطة السواد ، في الوقت الذي أصبح فيه عبيد الله إماما ، وتبع ذلك اضطراب الدعوة نفسها بين القرامطة أنفسهم ، فاستخفى حمدان قرمط وصهره عبدان من سواد الكوفة ، وحل محلها زكرويه وأبنائه . كما ظهر في الميدان زعيم من أبناء القداح ، وضع زكرويه وأبنائه في مكان حمدان ، وأصبح ينافس عبيد الله — سعيد الخير . وبذلك سامت أحواله ، فهب في وجه أبناء زكرويه ، حتى اضطر إلى الهرب من سلبية عند ما أصبح إماما ، لأن بعضا لم يرض به إماما مستورا ، بعد أن كان حجة الإمام المستور ، بمعنى أن عبيد الله عاجز عن أن يوضح لأتباعه أو لبعضهم وظائفه الجديدة واختصاصاتها ، فثاروا عليه . وبذلك نرى أن إمامة عبيد الله المستورة لم تسر في طريقها في سهولة ، بل اعترضت أعقبات . ومهما يكن من شيء ، فقد امتازت الدعوة الإسماعيلية في عهد إمامة عبيد الله المستورة بأمور منها .

(١) التعمق في السرية :

فقد غمرت هذه الدعوة أمواج من السرية الدقيقة ، حتى التبس الأمر على المؤرخين ، فلم يقفوا على حقيقة القائمين بهذه الدعوة : أنهم من الدعاة ، أم من الأئمة

الحقيقيين من أبناء إسماعيل ؟ والحق أن رئاسة الدعوة في عهد عبيد الله وقبل عهده ، وضعت خطط الدعوة السرية ، وأن القائمين بها نجحوا نجاحا كبيرا في تكوين مجتمعات إسماعيلية قوية عمادها التقية والتخفي . فانظر أبا عبد الله الشيعي (٢٩٨ هـ) يكتّم أمره ، فلا يدرى الأغلبة عنه شيئا ، حتى يدهمهم بجوشه . وانظر أبا سعيد الجنابي (٣٠١ هـ) يكون دولة ، أو ما يشبه الدولة ، في بلاد البحرين ، التي كانت تابعة للعباسيين الذين لم يكونوا يعرفون عنه شيئا . ويظهر أن الإسماعيلية تشبهوا بجماعة الأبي هاشمية ، أتباع أبي هاشم بن محمد بن الحنفية وأنصار العباسيين ، في إمعانهم في طرق التخفي ، حتى إننا لا نغالي إذا قلنا ، إن نصيبا كبيرا من النجاح الذي ناله الإسماعيلية في عهد إمامة عبيد الله يرجع إلى حد كبير إلى هذه السرية المنظمة .

(٢) الخمس الحربي :

ولا يقل أثر التحمس الحربي في نجاح الدعوة في عهد إمامة عبيد الله عن أثر التعمق في السرية ؛ فقد كان من سياسة عبيد الله الاستعانة بسيوف أنصاره في تحقيق مآربه . التي تنلخص في تكوين دولة إسماعيلية أولا ، وهدم الدولة العباسية ثانيا . نعم ! لقد قام أنصار عبيد الله الإمام المستور بحركات حربية رائعة ، تذكرنا بشجاعة الخوارج و ثباتهم ؛ فنجح أبو سعيد الجنابي في هزيمة العباسيين هزائم متتالية ، كما نجح في قرمطة بلاد القطيف والبحرين . وهام أولاء جماعة زكرويه بن مهرويه يهزمون جيوش الطولونيين والعباسيين ، ويلقون الذعر في الشام وباديتها ، وفي شمال العراق العربي . وهكذا نال هؤلاء القرامطة ، بفضل الدعاية المنظمة ، شيئا غير قليل من النجاح . وليس هذا كل ما كان للتحمس الحربي من أثر ؛ فإن أبا عبد الله الشيعي استطاع بفضل هذه الدعاية المنظمة بين السكتاميين أن يغزو عقولهم ، فيندفعون كالسيل المنهمر يعرفون أمامهم دولة الأغلبة ، التي لم تستطع الصمود أمام تحمسهم المنقطع النظير . وبفضل هذه الحماسة الحربية استطاع أبو عبد الله أن يحقق للدعوة الإسماعيلية غرضها الرئيس : فأقام دولة الفاطميين ، بعد أن أباد أنصار العباسيين . وقد شاهد عبيد الله بعينه نجاح دعوته ، وهو إمام في بلاد اليمن والمغرب والبحرين وسواها .

٣ - الدعوة للإمام المستور

ومن خصائص استتار الإمام مضاعفة أنصاره ونوابه نشاطهم في نشر الدعوة للمذهب الإسماعيلي ؛ وكان أفراد بيت القداح الدعامة التي قامت عليها أسس هذا المذهب . ولا غرو فقد استعان الإمام محمد بن إسماعيل بميمون القداح ، كما استعان الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، والإمام أحمد بن عبد الله بحجتهم وداعيهم الأكبر عبد الله بن ميمون القداح . واستمر هذا وأبناؤه الساعد الآمين للأئمة المستورين . وكان عبيد الله نفسه ، وهو سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح ، كما ذهبنا إليه ، حجة الإمام المستور الحسين بن أحمد ، ثم حامل وديعته في الإمامة ، ليوصلها إلى ابنه أبي القاسم ، الذي عرف بعد ذلك بالقائم بأمر الله . وعلى يد عبيد الله قامت الدولة الفاطمية . وهكذا كانت مساهمة القداحية في نشر الدعوة الإسماعيلية في دور الستر عظيمة حقا ، مما يجعلنا نميل إلى تسمية دور الستر هذا بالدور القداحي . وليس معنى ذلك أن الأئمة الإسماعيلية كانوا خاملين ، بل كانوا جميعا في نشاط دائم ، وإن كان أبناء القداح هم الذين قاموا بتنفيذ أعمالهم . وسواء أكان الأئمة الحقيقيون هم الذين قاموا بنشر الدعوة ، أم أن أبناء القداح استبدوا بها ، أم أنهم جميعا كانوا يتعاونون على نشرها ، وهو ما نميل إليه ، كانت الدعوة الإسماعيلية رائجة بطريقة سرية رائعة ، وأنها أقيمت للإمام المستور من أبناء إسماعيل الحقيقيين أولا ، ثم من أبناؤه الروحانيين أو التعليميين ثانيا .

(٤) استعمل نظرية المهدي المنتظر

عمل دعاة الإسماعيلية الأوائل على رواج هذه النظرية في أنحاء العالم الإسلامي كافة ، متخذين ميل كثير من الناس إلى أهل بيت الرسول ، واعتقادهم فساد المجتمع الإسلامي ، وسيلة لجذب الأشياع . وضاعف دعاة عبيد الله في عهد استتاره جهودهم في استغلال هذا الرى ، فادعوا أنهم يمهّدون لعصر جديد هو عصر « دولة الله » ، وأن المنتقد المنتظر على وشك الظهور ، لينغيث الناس مما هم فيه من سوء . ولذلك بادر كثيرون إلى الانضمام إلى جماعة عبيد الله ، معتقدين أنهم

« جند الله » ، وحملوا السيف لتكوين « دولة المهدي » ، أو « دولة الله » . وبفضل هذه النظرية ، نجح عبيد الله وعامة دعااته في تنفيذ خططهم كاملة ؛ فقد كان لتصريح أبي عبد الله الشيعي بقرب ظهور المهدي ، وقوله : طوبى لمن ألقى بنفسه بين يديه ، أثر فعال في القضاء على الأغلبة ونجاح الإسماعيلية في بلاد المغرب . وهكذا تملك قلوب الإسماعيلية في دور الستر ، وفي عهد إمامة عبيد الله ، فكرة الإمام المنتظر ؛ فاندفع القوم يعلنون عداؤهم الصريح للحكم العباسي ، بل للدين القائم ، حيث اعتقد الإسماعيلية فساد هذا وذاك ، فعملوا على تقويضهما معا ، ليحل محلهما دين المنقذ المنتظر (المذهب الإسماعيلي) ودولته (الدولة الفاطمية) . وهكذا كان كل واحد من إسماعيلية ذلك الزمن ، يود أن يكون من جند المهدي المنتظر ، وحاملي لواء دينه الجديد ، ويجد في ذلك منتهى سعادته ، بل يعتقد أن موته نوع من الجهاد أو الاستشهاد يثاب عليه . وبهذا كله نالت الدعوة الإسماعيلية شيئا كبيرا من النجاح (١) .

(ب) ظهور عبيد الله (٢٩٦ - ٣٢٢ هـ)

كان جلوس عبيد الله المهدي على عرش الدولة الفاطمية ، إيذانا بحدوث تطور جديد في تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، ودليلا على نهاية عهد استتار الأئمة ، وبداية عصر ظهورهم على مسرح السياسة المذهبية الحكومية . فبعد أن كان أئمة الاستتار يمنحون نوابهم ودعاتهم كثيرا من النفوذ والسلطان ، حتى كانوا أشبه بمستقلين في أقاليم دعوتهم ، أصبح عبيد الله ، الإمام الظاهر ، يتدخل في شئونهم ، ويملي عليهم سياسته الجديدة ، فلا يقر تعيين أولياء عهدهم . بل يختار لزمامة الإسماعيلية ، من يثق به منهم . وقد أصبح واجبه مزدوجا ، لاجتماع رئاسة الدعوة ورئاسة الدولة في شخصه ؛ فعمل على تنظيم الأولى في الداخل والخارج ، ونظر إلى الدعوة ذاتها باعتبارها أداة ترتكز عليها الدولة ، وتعتمد في حياتها ، أو بعبارة أخرى نظر إلى الدعوة كوظيفة من وظائف الدولة ، فوضع تبعاً لذلك الأسس التي سلكها خلفاؤه من بعده . وأما رياسته للدولة ، فكانت تحتم عليه أن

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسي حتى سقوط بندهاء ج ٢ ورقة ٥٥ .

يعمل على زعامة العالم الإسلامي . كما كان عليه أن يحول شمالي إفريقيا إلى دولة إسماعيلية ؛ ولذلك حارب شرقا وغربا ، فنجح أحيانا وأخفق أحيانا . ولم يكن المهدي يرى من وراء ذلك إلى الجاه والاستعمار وحدهما ، بل كان يعمل على أن ينتزع من العباسيين زعامة العالم الإسلامي . لأنه كان يعتقد أنه أحق بهذه الزعامة منهم . ولا غرو فإن دولته هي دولة العلويين الذين ينتسبون إلى الرسول ، وهم في نظره ، وفي نظر كثير من الناس ، أحق من بني العباس .

وتمتاز الدعوة الإسماعيلية في دور ظهور عبيد الله المهدي (٢٩٦ — ٣٢٢ هـ) بأمور منها : اتسام الدعوة بالطابع الحكومي ؛ فقد انتقلت من أيدي رجالها ورؤسائها إلى أيدي رجال الدولة وخلفائها ، وبعبارة أخرى من أيدي الدعاة إلى أيدي الحكوميين . ومن ثم أصبحت الصفة الحكومية هي المتغلبة عليها ، المميّزة لها ، واستحال رجال الدعوة في عهد عبيد الله ، ثم في عهد خلفائه ، إلى طبقة من الموظفين . وأصبحت الدعوة ، على كره من رجالها المخلصين ، تسير سيرا آليا محضا ؛ ولم يعد للحماس المذهبي الذي كان من أظهر مميزات عصر الستر ، ما كان له من تأثير ، وأضحى رجال الدولة الحكوميون يشرفون على رجال الدعوة ويتزعمونهم . كما أخذ هؤلاء يعنون بالشكل الظاهري من أشكال الدعوة فقط ، فيعقدون المجالس ، وينشرون بعض المبادئ الإسماعيلية بين الناس ، رعايا كانوا أم أشياعا وأتباعا . ولولا اعتقاد كثير من أهالي بلاد المغرب ، بأن الفاطميين علويون ، لوقفت الاستجابة إلى المذهب الإسماعيلي عند هذا الحد . أضف إلى ذلك أن مستجبي تلك البلاد لم يعرفوا من خطوات الدعوة إلا مراحلها الأولى .

ولم تكن الدعوة للحكومة الفاطمية الإسماعيلية في دور الظهور تضارع الدعوة للامام المنتظر في دور الستر ؛ فقد أخذ المستجيبون في دور الستر طريقهم إلى المذهب الإسماعيلي في حماس زائد ، معتقدين أنهم يعملون لإنقاذ أهل البيت . أما في الدور الذي نطلق عليه دور ظهور عبيد الله ، فقد كانت الاستجابة فيه ، وبخاصة في بلاد المغرب ، نتيجة خوف الناس من الحكومة القائمة ؛ كما كان رجال الدعوة أنفسهم يعملون من جانبهم على إرضاء رجال الدولة ، ويسعون للحصول على المال عن طريقهم ، شأنهم في ذلك شأن كل موظف . وقد جر ذلك على الدولة كثيرا

من النكبات ، ولا سيما بعد أن أقيم على رأس الدعوة أفراد غير جدّيرين بالاضطلاع بها . فمن ذا الذى يقول إن بدر الجمالى ، ذلك الوزير العظيم فى عهد المستنصر الفاطمى ، وهو - كما نعلم - إمامى اثنا عشرى ، يكون هو وأبناؤه على رأس الدعوة الإسماعيلية ؟ ولا غرو فقد أضعف عبيد الله المهدي الدعوة الإسماعيلية بيده ، حتى أصبحت وظيفة ثانوية من وظائف الدولة ؛ هذا إلى أن ذلك التحول من نشر الدعوة إلى تكوين دولة بإراقة الدماء الكثيرة ، ومن إقامة الدعوة لإمام مستور إلى الدعوة لإمام ظاهر ، والإبقاء على الدولة ، والعمل للتوفيق بين الرعايا وبين المذهب الإسماعيلى - كل هذا أدى إلى تطرق الضعف إلى هذه الدعوة .

ولا نغالى إذا قلنا ، إن ثورة أبى عبد الله الشيعى ، وأخيه أبى العباس على عبيد الله المهدي ، لم تكن إلا ثورة قام بها رجال الدعوة المخلصين لها على النظام الحكومى الجديد ، الذى آلت إليه الدعوة الإسماعيلية ، فكأن عبيد الله المهدي قد مهد بعمله هذا للحسن الأعصم القرطبى للثورة على المعز وابنه العزيز ، كما مهد لدعاة الحاكم الغلاة ، وهم الدروز ، للقيام فى وجه الدعوة الحكومية ، والجهري بتأليه هذا الخليفة ، وكما مهد للحسن الصباح لإذكاء نار الثورة على المستعلى بن المستنصر ووزيره الأفضل بن بدر الجمالى (١) .

كذلك تمتاز الدعوة الإسماعيلية فى ذلك العهد بإقامة الدعوة لعبيد الله باعتباره إماما ظاهرا . فقد كانت هذه الدعوة فى دور الستر تتجه إلى إمام مستور من سلالة إسماعيل بن جعفر . وكان كثير من الدعاة لا يعرفون شخص ذلك الإمام ؛ إلا أن الفرع كان يغمهم ، سواء أكانوا دعاة أم مدعوين ، كما كان يغمهم أمواج من الحماسة لذلك الإمام العلوى المستور الذى لا يعرفه أكثرهم على وجه التحقيق . أما بعد قيام الدولة الفاطمية فى سنة ٣٩٦ هـ ، فقد اتجهت جهود رجال الدعوة إلى

(١) ويلقب شاهنشاه ، وقد حارب نزار بن المستنصر ، استخلص الملك منه لابن اخته المستعلى . وكان الأفضل حربا على الإسماعيلية ، نزارية كانوا أو مستعلية . واستمر كذلك طول عهد الخليفة المستعلى ، وردحا من عهد الخليفة الأسر ، ومات مقتولا فى سنة ٥١٥ هـ على يد الإسماعيلية ، ولا نعرف على وجه التحقيق إلى أى طائفة من هاتين الطائفتين ينسب القاتلون .

الإشادة بهذا الخليفة الفاطمي الذي أصبح على رأس دولتهم المنشودة ، واستمرت الدعوة للإمام الظاهر طوال الحكم الفاطمي تقريبا ، حتى إننا نستطيع أن نسميها « الدعوة الفاطمية » . ونرى كبار الدعاة وأعلامهم في عهد عبيد الله المهدي يقرون بتلك النظرية الجديدة ، وبخاصة أبو طاهر الجنابي ، زعيم قرامطة البحرين (٣٠٥ — ٣٣٢ هـ) ، كما نرى دعاة اليمن وفارس وخراسان يعملون على الإشادة بالخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي ، وينادون بأحقية بالحكم وزعامة المسلمين . ومن الأمثلة التي تؤيد هذا الرأي قول أبي طاهر : « أنا الداعي إلى المهدي (١) » ، وقوله يسبب الخليفة المقتدر العباسي (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) : « هذا وقد خرج عليك الإمام المنتظر خروج الأسد الغضنفر ، في سراييل الظفر ، متقلدا سيف الغضب ، مستغنيا عن نصرة العرب (٢) » . ونرى مثل ذلك في مؤلفات الدعاة في فارس واليمن ، وفي حركاتهم كذلك .

على أنه لم يكن للدعاة ولا للدعوة في دور الظهور ما كان لهم من نفوذ في دور الستر ؛ فقد أصبح مركز كبير الدعاة في المهديّة أقل شأنا من مركز نائب الإمام المستور ، أي حجابيه وحجته في دور الستر ؛ ولم يستطع داعي الدعاة أن يتمتع بالزعامة المطلقة التي كان يتمتع بها الحجة في دور الستر ، لوجود الخليفة الفاطمي واستبداده بكافة الأمور دونه . أضف إلى ذلك أن داعي الدعاة أصبح موظفا من موظفي الدولة ، يأتى بأوامرها وينتهى بنواهيها . ولا نغلو إذا قلنا إن هذه الحركة التي قام بها أبو عبد الله الداعي في وجه المهدي ، كانت نتيجة لما حدث من تغيير في أساس الدعوة ؛ فقد شعر هذا الزعيم الجريء أن مركزه قد ضعف بظهور المهدي ، كما شعر الحسن الصباح مؤسس الدعوة النزارية ، بمثل ما شعر به أبو عبد الله من بعده ، فنار على الإمام المستعلي ، ونادى بأحقية أخيه نزار والعودة إلى الدعوة للإمام المستور ، ثم حذا حذوهما ابن مدين (٣) ، باب أبواب الدعوة الإسماعيلية

(١) الذهبي : تاريخ الاسلام (مخطوط) ج ٣ ورقة ٦١ .

(٢) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٣٤ .

(٣) منذ اليوم الذى خرج فيه ابن مدين مع إمامه الطفل ، الطيب بن الأمر ، في سنة ٥٣٦ هـ ، طهرت

جماعة يعرفون باسم الطيبية ، نسبة إلى الإمام الطيب هذا ، وكانوا ينادون بالانفصال عن الدولة الفاطمية —

(أى رئيسها) فى عهد الخليفة الأمر (٥٢٤ هـ)، ونادى هو وأنصاره بإمامة الإمام الطيب المستور، وعملوا على ترويج مبادئ دور الستر، وثاروا على الخليفة الفاطمى الحافظ، وأعلنوا أنه العدو الأساسى أو التقليدى The Arch Enemy للدعوة الإسماعيلية.

ومن أهم مميزات الدعوة فى ذلك الدور علاقتها السرية بالمستجيبين. نعم! لقد تغير مركز الدعوة الفاطمية وأنصارها بقيام الدولة الفاطمية؛ فلم تعد هذه الدولة ترضى ببقاء بعض مبادئ الإسماعيلية الغالية، وعرضها على العامة، حتى لا يثوروا عليها، ويعيدوها سنية كما كانت. ولذلك حُتِم على القائمين بأمر هذه الدولة أن يتظاهروا فى عهد عبيد الله المهدي للناس بغير ما هم عليه، وأن يحكموا، فى الوقت نفسه، الاتصال السرى مع أشياخهم وأنصارهم الإسماعيلية، حتى لا يتطرق الضعف والوهن إلى المذهب الإسماعيلى بينهم. ولذلك نرى عبيد الله يتصل سرا بأبى سعيد الجنابى، ويأمره بإعلان الحرب على العباسيين فى جنوب العراق، فى الوقت الذى تغزو فيه جيوش الدولة الفاطمية مصر؛ ويتصل هو سرا بأنصاره القرامطة ليعلموا الثورة على ولى عهد أبى سعيد، وينادوا بأحقية أخيه أبى طاهر، وكان مولىا لعبيد الله، فيقره هذا على عرش القرامطة، ويتصل به سرا ليقابل جيوشه فى مصر سنة ٣٠٧ هـ. بل ذهب ابن خلدون. الذى عرف بميله إلى الفاطميين، إلى القول بأن القرامطة، كانوا إذا ذكروا الحجر الأسود يقولون: «أخذناه بأمر من إمامنا عبيد الله، ونرده بأمره وبأمر خليفته»^(١). بل لقد عزى عبد القاهر البغدادي إلى عبيد الله أنه أرسل إلى أبى طاهر رسالة مطولة، اطلع البغدادي^(٢) عليها بنفسه، وفيها الثورة على

== وخلفائهما، ونادرا كما نادى النزارية من قبلهم (فى أواخر القرن الخامس) بأحقية هذا الامام وسلالته، وظالوا يعملون فى اليمن من سنة ٥٢٦ هـ إلى سنة ٧٩٩ هـ. ولذلك تسمى هذه الفترة فى تاريخ الدعوة الطيبية باسم «الدعوة اليمنية»، وانقسموا بعد ذلك إلى فريقين: فريق بزعامه داود بن عجب شاه فى الهند، ويعرفون بالفاودية، وفريق نادى بزعامه سليمان بن عبد الله، ويعرفون بالمليانية، وهم فى اليمن خاصة ولا يزالون جميعا، داودية وسليمانية، يتادون بالامام المستور، ويعرفون جميعا باسم البهرة.

(١) انظر ص ٢٢٥ من هذا الكتاب.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٨ - ٢٨١.

المهدى وعلى مبادئه ، وعلى الرسل جميعا . ومع أننا نشك كثيرا في نسبة هذا الكتاب إلى عبيد الله ، ليس لدينا ما يثبت بطلانه . وقد يكون هذا نوعا من الدهاء السياسى الذى عرف به عبيد الله ، فهو يخاطب كل شخص على قدر عقله وإدراكه ؛ وكان هذا القول يلائم ميول أبى طاهر والذين شايعوه من القرامطة : وعلى الجملة ، كان عبيد الله على اتصال دائم ، بأشياعه فى اليمن والبحرين ، وكان يتآمر معهم سرا على قتل ابن فضل وأبى سعيد ، ويتدخل فى نوع الحكم الذى يتفق مع ميوله وأهوائه فى تلك البلاد .

وبما تمتاز به الدعوة الإسماعيلية فى عهد عبيد الله المهدى ، اتخاذ حاضرة الدولة مستقرا لرياسة الدعوة ، أو بعبارة أخرى ، اتخاذ هذه الحاضرة دار هجرة للإسماعيلية ؛ فأصبحت المهدية ، التى حلت محل سلمية ، غاصة بمدارس الدعوة التى تغذى طائفة الإسماعيلية فى كافة أنحاء العالم بالآراء والدعاة الذين مروا على العمل ، وأصبحت دار الهجرة الأولى لجماعات الإسماعيلية . وليس معنى ذلك أن أنصار الإسماعيلية كانوا يقلدون الدولة فى اتخاذ حواضر بلادهم دور هجرة ، فإن ابن حوشب ، وكبار قرامطة السواد بعد حمدان قرمط ، وأبأ طاهر القرمطى ، كانوا لا يزالون يعتمدون على إقامة دور هجرة يأوى إليها الإسماعيلية إذا حز بهم الأمر ، وينشرون منها آراءهم وجيوشهم . ولكن هذه الدور لم تكن فى حواضر بلادهم . فهذا أبو طاهر الجنابى ينشئ المؤمنين ، لتكون دار هجرة ، بالقرب من مدينة الأحساء ، ويظل ابن حوشب فى دار هجرته بعدئذ لاعة لنشر الدعوة منها . أما المهدى عبيد الله فيترك دار هجرة الإسماعيلية بفج الأخيار بجبل كتمانة ، ويحيل حاضرتة إلى دار هجرة إسماعيلية ، تبث مبادئها فى هذا الوقت من القصور الملكية ، والمساجد ، ومن مدارس الدعوة نفسها .

وقد طرأ على الدعوة الإسماعيلية تطور آخر فى الناحية المالية ، فبعد أن كانت الأموال فى دور السתר من تبرعات محسنى الإسماعيلية ، كما فعل دندان الذى تبرع لعبيد الله القداح بمليون دينار ، ومن الضرائب الوقتية التى فرضها الدعاة على المستجيبين عند أخذ العهد عليهم ، ومن سن ضرائب منظمة فرضها كبار الدعاة على الاتباع ، كما فعل حمدان قرمط وأبو سعيد الجنابى ، اللذان كان لنظامهما المالى البديع أثره فى

بقاء جماعة القرامطة رديحا طويلا من الزمن ، أصبحت الدعوة الإسماعيلية في دور ظهور المهدي تأتي من الجزية ، وبما يدفعه المستجيبون بعد سماع مجالس الدعوة ، وهي المحاضرات التي كان يلقيها كبار الدعاة في عقائد المذهب الإسماعيلي . وقد تطور نظام هذه المجالس تطورا مدهشا في عهد الفاطميين بمصر . أضف إلى ذلك أن أشياخ المهدي كانوا يرسلون إليه خمس أموالهم ، وهو ما يعرف بخمس الإمام ، أو خمس صاحب الزمان . ولابد أن تكون الدولة الفاطمية قد وقفت بعض الأوقاف للانفاق على الدعوة ، حتى لا يتطرق إليها الضعف والانحلال . وهكذا حدثت تغييرات شاملة في تنظيم الدعوة وشؤونها ؛ ولكن هذه الدعوة ظلت تعمل لصالح الأئمة المستورين والظاهرين . ولا غرو فقد كان للجهود الهائلة التي بذلت في تنظيم الدعاية للمذهب الإسماعيلي في دور التكوين ، وهو دور الستر ، ثم في دور الظهور ، أثره في بقاء جماعة الإسماعيلية ، سواء أكانوا من البهرة أم من الأغاخانية إلى اليوم .

٢ — أشهر مبادئ الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي :

للإسماعيلية في عهد عبيد الله ، في ستره وظهوره ، مبادئ كثيرة نتناول منها الكلام على مبدأ الإمامة وبعض نظرياته المختلفة ، لما كان لها من أثر في حياة عبيد الله بوجه خاص والإسماعيلية بوجه عام ، ثم نتناول الكلام على مبدأ الإباحة ، والمناداة بدين عام يتفق ومشارب الجميع .

(١) مبدأ الإمامة في عهد عبيد الله المهدي :

كانت الإمامة السلاح الذي تسلح به العلويون ، منذ فجر تاريخ الشيعة ، لمقاومة الأمويين أولا ، والعباسيين ثانيا . وقد استمر مبدأ الإمامة على قوته ، كما رأينا ، بين الاثنا عشرية والإسماعيلية . وقد ابتدع الإسماعيلية نظريات كثيرة للإمامة ، ترمي في مجموعها إلى تقديس شخص الإمام الإسماعيلي ، مستورا كان أم ظاهرا ،

فوازنوا بين الإمامة والرسالة ، وبحشوا علاقة إحداهما بالأخرى ، كما بحثوا في تعيين الإمام ، وحتموا أن يكون ذلك التعيين بالنص ؛ ثم تناولوا أشخاص الأئمة من الناحية العلمية ، فذهبوا إلى أنهم مصدر المعرفة دون سواهم . ولم يكتفوا بذلك ، بل نادوا بعصمة الأئمة واستتارهم وظهورهم ، كما بحثوا الاستقرار والاستيداع الإماميين ، وفرقوا بين الإمام المستقر والإمام المستودع ، إلى غير ذلك من النظريات المرتبطة بهذا المبدأ الأساسى ، وهو مبدأ الإمامة .

أولاً : نظرية الإمام والناطق في عهد عبيد الله . كان لرواج الدعوة الإسماعيلية في عهد عبيد الله ، في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ، أثره الكبير في محاولة ربط مبادئ المذهب الإسماعيلي وفلسفته ، بالنهضة العلمية التي راجت في ذلك الوقت . ولذلك نرى الإسماعيلية يبتدعون نظرية فلسفية جديدة خاصة بالرسول ، أى النطقاء ، والأئمة من سلالة على بن أبى طالب . وقد تأثر الإسماعيلية بالفلسفة اليونانية التي تقول بمذهب الصدور Emanation Doctrine ، وهو أن الواحد يصدر عن الواحد ، كما يصدر الضوء عن النور ، وأن البارى تعالى خلق العقل الكلى Raison Universelle ، وهذا خلق النفس الكلية Ame Universelle ، وأن الأنبياء - أى النطقاء - حلول للعقل الكلى ، كما أن الأئمة حلول للنفس الكلية . وكذلك كان الإسماعيلية في ذلك العصر يرون أنه لما كان في العالم العلوى عقل كلى ونفس كلية ، وجب أن يكون هناك من يمثلهما على الأرض في شخصى الناطق والإمام .

ويعتقد الإسماعيلية أن كلمة الناطق كضوء الشمس ينساب من السماء فيغمر الأرض ، أو كال مطر ينهل من السماء فيحى موات الأرض . أما الأساس^(١) ، فهو ترجمان كلمات الرسول ، يتولى شرحها وتأويلها ، وعنه تصدر الحقيقة ، كما يصدر النبات عن الأرض بعد استقبالها ماء المطر . ومن هذا ندرك ، لماذا يعبر الإسماعيلية عن الناطق بكلمة « السماء » ، وعن الأساس بكلمة « الأرض » . ولهذا يقولون : إن التنزيل خاص بالناطق ، والتأويل خاص بالأساس^(٢) ، كما يسمون المذهب

(١) الأساس : هو الامام الأول الذى يماهر الناطق .

(٢) جريار : عقيدة الإسماعيلية ص ١٨٥ .

الإسماعيلي أحيانا مذهب التأويل الذى وجد لتوضيح التنزيل وشرحه .

وترجع أهمية نظرية النطقاء Prophets والأئمة فى تاريخ الإسماعيلية ، إلى ما يعتقدونه من أن محمدا ﷺ ورث عليا النطق ، وأن عليا ورث أبنائه من الأئمة النطق والإمامة معا ، بمعنى أن الإمام الإسماعيلي قد جمع بين الصفتين . وهذا رأى كثير من دعاة الإسماعيلية وعلمائهم . على أن جميع الإسماعيلية ، تقريبا ، يرون أن محمد بن إسماعيل هو الناطق السابع (١) ، وأنه أتى بشريعة جديدة هى شريعة التأويل . ويقول الداعي إدريس عماد الدين (٢) : إن شريعة محمد بن إسماعيل لم تنسخ شريعة محمد ﷺ ، بل توضحها بالشرح والتأويل . وكان لهذه النظرية صداها فى العالم الإسماعيلي فى دورى السر والظهور .

والواقع أن هذه النظرية ترمى إلى غرض سياسى خطر ، هو بعث الأمل فى نفوس الاتباع ، وجعلهم يعتقدون إمكان ارتفاع الحدود السفلية من حدود المستجيبين ، حتى يصلوا إلى أرقى الحدود وأعلاها درجة : فالدعاة مثلا إذا أخلصوا ، وصلوا إلى رتبة الحجج ، وإذا أخلص هؤلاء الحجج وصلوا إلى رتبة الأئمة ، فالنطقاء فما فوق ذلك . ويفسرون ذلك بأن النفس السكلية التى يمثلها الإمام ، تستطيع أن تصل إلى مرتبة خالقها ، وهو العقل السكلى الذى يمثله الرسول على الأرض ، وذلك راجع إلى دوام حركة النفس السكلية وميلها إلى الرفة والتطلع إلى رتبة العقل السكلى ، وأنها بحركاتها هذه تتحد بمصدرها الاصلى (٣) . وهكذا يحرص كل حد ، من حدود الدعوة الإسماعيلية على التمسك بمبادئ المذهب الإسماعيلي ، لأن فى ذلك التمسك رفعة له ؛ لأنه قد يصل إلى رتبة الداعي فالحجة فالإمام . ولاغرو فقد جنى عبيد الله ثمار هذه النظرية ، واجتمعت فيه رتبتان ، أوجدان من رتب الدعوة وحدودها ، هما رتبة الحجة والإمام . ويرى الإسماعيلية فوق ذلك أن عبيد الله اجتمعت فيه صفتا النبوة والإمامة معا ، فجمع بذلك بين الرتب الثلاث : الحجة ، والإمام ، والناطق ، وهذا أسى ما يصل إليه الإسماعيلي . ولسنا بصدد تقصى شرح الإسماعيلية .

Ikbal : The Development of Metaphysics in Persia, p. 62 (١)

Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam, vol. v. p. 35 (٢)

Ibid. (٣)

لهذه النظرية ، وإنما نكتفي بأن نقول : إن عبيد الله جنى ثمارها ، حيث وجد مجتمعاً يقدره ، لجمعه بين صفات الكمال المذهبي كلها ، وتفانيه في الإخلاص لمذهبه وجماعته ، وأنه بهذا الإخلاص يسمو إلى أعلى الدرجات .

وكان من أثر ظهور هذه النظرية أن تغانى جماعات الإسماعيلية في الدفاع عن شخص عبيد الله ، وإقامة دولته . انظر جهود ابن حوشب في اليمن ، وأبي سعيد الجنابي في البحرين ، وما قام به أبو عبد الله الشيعي وأنصاره في المغرب ، تر أن ذلك كله راجع إلى عقيدة الإسماعيلية في إمامة عبيد الله التي اتحدت بالنطاق النبوي أو النبوة أيضاً . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن هذه النظرية جعلت جميع المستجيبين بحيث يستسلم كل منهم إلى رئيسه الأعلى ، أو مفيده على حد تعبيرهم (ما وراء خود) ، ويطيعه طاعة عمياء . وبهذا الخضوع ساد المذهب الإسماعيلي والمجتمع الإسماعيلي (١) .

ثانياً : عصمة الإمام عبيد الله . ليس من شك في أن القول بعصمة الإمام أمر معترف به من جميع الإسماعيلية منذ فجر تاريخهم ؛ لأنهم يردون على من يقول : إن إسماعيل بن جعفر الصادق شرب الخمر ، بأنه لا جناح عليه ، وأنه فعل ذلك لحكمة لا يدريها أحد . ولذلك كان من الواجب ألا يعترض إنسان على فعل الأئمة . ويقرر الإسماعيلية فيما بينهم ، أن من يولد إماماً لا يمكنه أن يقترب الجريمة ، وأن شرب الخمر غير محرم على الأئمة ، وأن هؤلاء ليسوا مجبرين على الصوم أو الصلاة أو الحج ، أو غير ذلك ، لأنهم من الخاصة ؛ وأن تكاليف الشريعة مقصورة على العامة وحدهم ، وأنه لا تنطبق أوامر الشرائع الظاهرة على عالم الحقيقة الباطنة المطلقة ، التي ينتمى إليها هؤلاء الأئمة (٢) . ويرى الإسماعيلية ، فوق ذلك ، أن الأئمة قادرون على فسخ أوامر الشرائع السابقة ؛ وغلا بعضهم في ذلك فقالوا : إن الإمام معصوم حتماً ، على حين لا يعصم غيره حتى الأنبياء أنفسهم (٣) . وفي الحق أن عصمة الأئمة عند الفاطميين ، وبخاصة في عهد عبيد الله ، لم تصل إلى تفضيل

(١) Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam, vol. v. p. 35.

(٢) Ivanow : Kalami Pir, p. xliii

(٣) ابن الوليد : تاج العقائد ومعدن الفوائد (نشره الأستاذ إيفانو) ص ٤٠ .

الأئمة على الأنبياء والرسل ، بل كانوا يفضّلون النبوة والإمامة . ولكن الذى لا نشك فيه ، أن المستجيبين الذين كانت حياتهم مرتبطة بعبيد الله ارتباطا وثيقا ، كانوا يقدرونه ويحترمونه كثيرا ، ولكنهم لم يصلوا به إلى درجة العبادة . أما أولئك الذين كانوا بعيدين عنه ، فقد كانوا أكثر تطرفا في تقديسه ، حتى كانوا يعتقدون عصمته اعتقادا لا يعنونه شك .

أما الغرض السياسى الأول من القول بعصمة الأئمة ، فيتلخص في جعل العامة من الإسماعيلية يخلصون لإمامهم ظاهرا كان أو مستورا . وقد كان لهذه النظرية أثرها في جذب المستجيبين إلى الدعوة وأنصارها ، وخضوعهم لعبيد الله خضوعا أعمى . ويتجلى القول بعصمة الأئمة في تأليف الدعاة المشاركة خاصة كالنسفي والسجزي (٣٣١ هـ) .

ثالثا : نظرية التعليم من عبيد الله . يعتقد الإسماعيلية أن أسرار الشرائع وبواطنها وقف على الأئمة وحدهم ، وأنه لا يمكن معرفة هذه الأسرار إلا عن طريقهم أنفسهم ، أو عن طريق أنصارهم من الدعاة . وقد استغل دعاة الأئمة المستورين في الدور القداحى تلك النظرية في تثبيت نفوذهم ، بدعوى أنهم نواب الأئمة وحججهم . ولا غرو فقد كان نواب الأئمة من بيت القداح ، وعلى رأسهم عبيد الله ، ينادون بالتعليم من الإمام المستور ، أو نوابه ، حتى يستغلوا ذلك لمصلحتهم ، وينالهم من تقديس الاتباع لهم ما يناله الأئمة أنفسهم . ومن ثم يرون أن كل زمان لا بد فيه من إمام معصوم ، يرجع إليه فيما يستقبلهم من أمور الدين ، (١) .

وكان أول من روج تلك النظرية الخطيرة ، عبد الله بن ميمون القداح . ونستطيع أن ندرك ذلك من مقابلة ابن حوشب للإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله ابن محمد بن إسماعيل ، وكذلك من مقابلة ابن فضل له (٢) (أو لأحمد بن عبد الله بن ميمون القداح) . ويظهر أن القائلين بنظرية التعليم كانوا قوة هائلة ، وأن نظريتهم هذه قد لقيت رواجا كبيرا على مر السنين ، وظهرت حججهم في إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم ، وضعف قول المنكرين في مقابلته ، (٣) .

(١) النزالي : فضائح الباطنية ص ٨ .

(٢) انظر ص ٧١ من هذا الكتاب .

(٣) النزالي : المنقذ من الضلال ص ١١٠ .

وكان عبيد الله يستغل نظرية التعليم ويثبتها بين أشياعه ، كابن حوشب ، وأبي طاهر الجنائى وغيرهما ، وأن هذه الرسائل التى تبودلت بين عبيد الله وبينهم تدل على صحة ما ذهبنا إليه . حقيقة راجت نظرية التعليم فى القرنين الخامس والسادس ، حتى خشى الناس ازدياد خطرهما ، فهب العلماء السنيون يقاومونها ، كما نرى ذلك واضحا فى أقوال أبي بكر الباقلانى من علماء القرن الخامس ، والغزالى من علماء القرن السادس الهجرى . ومع هذا فإن أسس نظرية التعليم وضعت فى دور الست الأول (الدور القداحى) ، وأفاد منها عبيد الله فى ستره وظهوره (١) .

ويخيل إلينا أن عبيد الله وغيره من الأئمة المستورين والأئمة الظاهرين ، لم يريدوا أن يأخذوا علومهم عن أئمة السنيين أو الاثنا عشرية أو المعتزلة أو ما إلى ذلك ؛ فكانوا يقولون لأتباعهم : لا بد من الانقياد للشرع فى تكاليفه ، على التفصيل الذى يفصله الإمام من غير متابعة الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما وإن ذلك واجب على الخلق والمستجيبين ، إلى أن ينالوا رتبة الكمال فى العلوم . فإذا أحاطوا من جهة الإمام بحقائق الأمور ، واطلعوا على بواطن هذه الظواهر ، انحلت عنهم هذه القيود ، وأنحطت عنهم التكاليف العملية ، (٢) .

رابعا : عبيد الله وإمامة الاستيداع . وينفرد جماعة الإسماعيلية بنظرية جديدة من نظريات الإمامة ، تلك هى نظرية الإمام المستودع . وعلى الرغم من أننا قد تعرضنا

(١) كانت المناظرة حادة بين الإسماعيلية وبين علماء السنيين ، لأن السنيين لا يقرون بنظرية الأنام المصوم ، ولا بنظرية التعليم ، كما يفهمها الإسماعيلية ، وبرهون من يعتقد بها بالاحاد والكفر . ينضح ذلك من وصف الغزالى مذهب التعليم فى قوله : إنه مذهب ظاهره الرفض (أى التشيع لعل وأبنائه) ، وباطنه الكفر المحض ، ومفتحه حصر مدارك العلوم فى قول الإمام المصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق ، لما يعترضها من التسمات ، ويتطرق إلى الظاهر من الاختلافات ، وإيجاب الطلب الحق بطريق التلميح والتعلم ، وأنه (أى الإمام) مطلع من جهة الله على جميع أسرار الشرائع ، يهدى إلى الحق ، ويكشف عن المشكلات ؛ وأن كل زمان فلا بد فيه من إمام مصوم ، يرجع إليه بما يستهم من أمور الدين (فضائح الباطنية ص ٧ - ٨) . وليس هذا فقط ، بل يجب الغزالى عليهم قولهم : أن الإمام الظاهر قد علم الدعاة وبشهم فى البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا ، أو أشكل عليهم مشكله .

(٢) الغزالى : فضائح الباطنية ص ١٠ .

لهذه النظرية في غير موضع من هذا الكتاب ، نرى من الواجب ألا نوافق القائلين ، بأن نظرية الاستقرار والاستيداع نظرية حديثة ، لم تدخل في المذهب الإسماعيلي إلا في العصور المتأخرة ؛ لأن هذا القول ينقضه مؤلفات جعفر بن منصور اليميني الذي عاصر المهدي ، والقائم والمنصور ثم المعز ، وجعفر الحاجب الذي شاهد حوادث فرار عبيد الله المهدي ، وتكلم عليها في إسهاب ، كما ينقضه غير هذين من المؤلفين .

ونستطيع أن نرد على الأستاذ إيفانوف حين ينفي نظرية الاستيداع في عهد عبيد الله المهدي ، بأن عبيد الله لو صح أنه من سلالة القداح ، لما أمكن نقل الإمامة إليه ، لأنه من غير سلالة علي ، وما رأينا أجنبيا عن هذه الأسرة يستطيع أن ينال شرف الإمامة (١) ، بأنه ليس من الضروري عند الإسماعيلية أن يكون الشخص ابنا حقيقيا لآخر حين يقال فلان بن فلان ، لأن الأب قد يكون أباً روحانياً أو أباً جسمانياً . وبذلك لا يبعد أن يكون عبيد الله الابن الروحاني للإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله ابن محمد بن إسماعيل ، وبالتالي الأب الروحي للقائم بأمر الله ، الإمام الإسماعيلي المستقر .

أضف إلى هذا ما ذكرناه من قبل ، وهو أن الإسماعيلية يؤولون القرآن تأويلاً غير صحيح ، في سبيل إقرار نظريتهم في الاستيداع والاستقرار ، فيقولون : إن الإمام المستقر ، والإمام المستودع هما المقصودان من قول الله تعالى : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين) (٢) ، ومن قوله تعالى : (فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) (٣) . وهذا الشرح لا يتفق مع شرح الآيات شرحاً معقولاً .

ويجب ألا يعزب عن أذهاننا أن الإسماعيلية كانوا يقصدون من نظرية الاستيداع نفي إمامة معارضتهم ؛ ولذلك حاربوا أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب بهذه النظرية ، بدعوى أن الحسن كان إماماً مستودعاً ، وأن أخاه الحسين إمام

(١) Ivanow : The Rise of the Fatimids, pp. 153—5.

(٢) سورة هود آية ٨ .

(٣) سورة الأنعام آية ٩٨ .

مستقر . ولذلك كان لنظريتهم هذه أثرها في انضمام فلول الحسينين ، أتباع الحسن بن علي وأبنائه ، على ما رأينا ، إلى الإسماعيلية في العصر العباسي الأول ثم في العصر الثاني . كما حارب الإسماعيلية الأبي هاشمية بتلك النظرية ، فقالوا : إن الحسين استودع أخاه محمد بن الحنفية الإمامة ، لينقلها إلى ابنه علي زين العابدين بن الحسين ، وأن محمد بن الحنفية رد الإمامة إلى مستقرها في حياته . وإذن فإن الهاشميين ، أتباع أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، استبدوا بالأمر ، كما أن دعوى العباسيين بأنهم أخذوا الأمر عن أبي هاشم هذا تقوم على غير أساس . وكأن الإسماعيلية اتخذوا مبدأ الاستبداد الإمامي لمقاومة الأبي هاشمية والعباسيين معا . ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا ، إن الغرض الأساسي من نظرية الاستبداد الإمامي ، هو مقارعة الاثنا عشرية ، وإبطال ادعائهم أن موسى الكاظم نال الإمامة بعد جعفر الصادق ؛ فإن المعتدلين من الإسماعيلية يقرون بأن موسى الكاظم تولى الإمامة على أثر موت أبيه ، ولكنهم يقولون إن موسى الكاظم كان مع محمد بن إسماعيل كالحسن ابن علي مع أخيه الحسين وأبنائه ؛ فكما أن الحسن كان إماما مستودعا للحسين وأبنائه ، كذلك كان موسى الكاظم مستودعا لإمامة محمد بن إسماعيل وأبنائه (١) .

والواقع أن الإسماعيلية استخدموا نظرية الاستبداد الإمامي ، لمقاومة الاثنا عشرية ، وإبطال حقهم في الإمامة من جهة ، وجذبهم إلى المذهب الإسماعيلي من جهة أخرى ؛ لأنهم أقروا للاثنا عشرية بإمامة موسى الكاظم ، ولكنهم ، في الوقت نفسه ، نفوها عن أبنائه . وقد استغل عبيد الله وأنصاره هذه النظرية أحسن استغلال ، كما يظهر ذلك واضحا من هذا النقاش الطريف الذي قام بين الداعي لإدريس وبين الاثنا عشرية ، والذي يبين مدى استغلال الإسماعيلية نظرية الاستبداد بقولهم : « إن الصادق عليه السلام أقام موسى بن جعفر حجابا على محمد بن إسماعيل ، وعلى من جعله له بابا ، الذي هو ميمون ، الستر عليه والكفيل . وكان موسى دارسا في التأويل والحقيقة ، واجتمع عاياه كثير من الشيعة المخالفين للطريقة ، فقصدوا الاسم دون المسمى ، وقنعوا باللفظ دون المعنى ، أي أن من

قال بإمامة موسى الكاظم ، لم يفهم حقيقة هذا الاستيداع الإمامي (١) .
خامسا : عبيد الله والتعيين بالنص . يذهب الإسماعيلية إلى القول بأن عبيد الله وغيره من الأئمة الإسماعيلية ، قد عين كل منهم بالنص من الإمام السابق . وسواء أكان عبيد الله الابن الجسدي للإمام الحسين أم الابن الروحي له ، فقد عين بنص من هذا الإمام الحقيقي المستقر ، وهو الحسين . ويرى الطوسي أن الإمامة أو القدسية ، على حد تعبيره ، تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الميلاد الطبيعي ، فيكون ذلك بمثابة نص من الأب بتعيين ابنه (٢) . وكذلك يرى الإسماعيلية أن الإمام ، بما أوتي من معرفة خارقة للعادة ، يستطيع أن يعرف أى أبنائه قد ناله النص ، أى انتقلت إليه الإمامة (٣) . كما يرون أن الإمام لا يخطئ في معرفته هذه بحال من الأحوال ، وإلا لما عد إماما ، لأن معارفه مقدسة ، لا يتطرق الخطأ إليها ، وهذا ما جعل الإمامة قوة لا ترد ولا يمكن فسخها ونقضها .

ونستطيع أن نتحقق من أن الإسماعيلية اتخذوا هذه النظرية كسابقة لمقاومة الاثنا عشرية ، ليطلوا إمامة موسى الكاظم أولا ، ويؤكدوا تقليد أخيه الأكبر ، إسماعيل ، بالنص من جعفر الصادق ، كما يقولون ، إن التعيين الأول هو الصحيح ، والنص عليه لا يرجع القهقري ، والبداية (٤) من الله ومن الأئمة بحال . وبهذا تعتبر نظرية تعيين الإمام بالنص ، التي استمسك بها عبيد الله وسواه ، ثورة سياسية خطيرة من الإسماعيلية على الاثنا عشرية .

ويعتقد الإسماعيلية اعتقادا جازما بأن إمامهم إسماعيل وخلفاءه هم الأئمة الحقيقيون ، لأنهم كانوا جميعا يعينون بالنص ، وبخاصة إسماعيل الذي نص عليه أبو جعفر الصادق ، ويعترضون في الوقت نفسه على إمامة موسى الكاظم ، ويقولون ،

(١) الداعي عماد الدين إدريس : زهر المعاني (من المنتخب) ص ٥٢ .

(٢) روضة التسليم ص ٥٣٩ (من المجلة الآسيوية الملكية سنة ١٩٣١) .

(٣) ورد في كتاب كلامي ير (ص ٧٦) أن الامام يعين ابنه تعيينا مباشرا ، أى بالنص ، وأن ذلك النص قد يكون تصريحاً أو تليفا . ولذلك كان من الضروري أن يعين الامام أحد أبنائه خليفة له ، أو يعلن أن فلانا سيصبح إماما بعده .

(٤) البداية : من بدله إذا راجع نفسه ، ثم نقص قوله .

إنه لو كان موسى إماما مستقرا حقا ، لما انقطع نسله بالحسن العسكري وابنه محمد المنتظر ، على عكس الإمامة الإسماعيلية ، فإنها باقية ما بقي الدهر ، وأنه لا بد من وجود إمام إسماعيلي ، ظاهر أو مستور ، حتى لا تخلو الأرض لحظة من إمام ، وإلا ماتت بأهلها^(١).

سادسا : استمرار الإمامة مدى الدهر . يعتقد الإسماعيلية ، في عهد عبيد الله المهدي وبعده ، استمرار الإمامة إلى آخر الدهر ؛ ولذلك وضعوا أحاديث كثيرة ، يثبتون فيها نظرية استمرار الإمامة ، فيقولون : إن الكون لا يستطيع البقاء لحظة بدون إمام ، وإنه لو فقد الكون إمامه لحظة واحدة لذهب وتبدد . وكان من أثر ذلك أن ظل الإسماعيلية يعتقدون إلى اليوم بقاء الإمامة في أحد سلالة الإمام الطيب ابن الأمر (وهؤلاء هم البهرة) ، الذين يترقبون الفرصة المواتية لظهوره ، لينشر دين التوحيد والعدل بين الخلق . ويعتقد جماعة من الإسماعيلية في الوقت نفسه (وهم الخوارج أو الأغاخانية) ، بقاء الإمامة في زعيمهم سمو أغاخان . وهم جميعا بهرية كانوا أو أغاخانية يؤمنون بأن إمامتهم باقية ما بقي الدهر . وإلا ماتت الأرض بأهلها . ومما يوضح عقيدتهم في استمرار الإمامة ، قول جعفر بن منصور البين : « فالإمامة لا تتغير جاريا أبدا مع مرور الدهر . فالأئمة ينتقلون ويصيرون إلى دار كرامته ومحل رضوانه ، بغيبة أشخاصهم ، وقيام الخلف منهم في مقام السلف باتصاله بالإمامة ، لأن الإمامة تنتقل ولا تزول ، وإنما الأئمة ، صلوات الله عليهم ا يتوارثون بالاتصال والاتصال ، خلفا عن سلف ، كما أن عرش الله حال لا يزول^(٢) » .

سابعا : الستر والظهور . من نظريات الإسماعيلية المحيية إليهم ، نظريتا الستر والظهور ، وقد تسكلمنا عليهما . ويهمننا هنا أن نقول ، إن عبيد الله من الأئمة الذين نالوا صفتي الستر والظهور معا ، وإنه نجح في الأمرين نجاحا يذكرك ؛ فكان في ستره يعتمد على جماعة يوغلون مثله في التخفي ، ويتفننون تفننا يقيمهم عادية «الأضداد» ،

(١) كلامي بير ص ٤٢ .

(٢) الداعي عماد الدين إدريس : زهر المعاني (من المنتخب) ص ٥٢ .

فإنهم تارة تجارا ، وأخرى من المتصوفين ، وثالثة يتزيفون بزى النساء . وليس هذا كل شيء ، بل استغل عبيد الله ، كغيره من أئمة الاستتار ، فرصة هذا الستر ، وملا الجوامع إشاعات تؤكد قرب ظهور المهدي المنتظر ، فاندفع الناس إلى طائفة الإسماعيلية اندفاعا أدى إلى قيام الدولة الفاطمية . والواقع أن الإسماعيلية كانوا ينشرون أن إمامهم حى يتحين الفرصة للظهور ، وأنه يعمل فى الخفاء ، ولو تكاتف الأتباع حوله ، وأقاموا له دولته ، لظهر بينهم ، وملسكهم الأرض جميعا . وكان لهذا القول صدق فى قلوب الناس ، وخاصة الاثنا عشرية ، الذين ملوا انتظار إمامهم ومهديهم . وبذلك كان الستر وسيلة استغلال من هذه الناحية ؛ كما كان الحجج وكبار دعاة الإسماعيلية يستغلون استتار الأئمة ، ويعملون على تقوية نفوذهم باسم هؤلاء . وهذا ما حدا بعض المؤرخين على القول بأن أبناء القداح ، ومنهم سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، وهو المهدي ، قد استغلوا ذلك . وأصبح نفوذهم يفوق نفوذ الأئمة أنفسهم . وإن نظرية الستر وبعث الأمل بظهور المهدي ، قد راجت راجعا كبيرا بين الشعوب التى اضطهدتها العباسيون ، فولوا وجوههم شطر المنقذ الإسماعيلي وأنصاره من الحجج والدعاة .

وهاك صورة من صور التخفى ، التى كان الأئمة والحجج والدعاة من الإسماعيلية يلجئون إليها ، قال الداعى إدريس : « كان لشدة استتار الإمام ، عليه السلام ! إذا أخذ أحد من حدود دينه العهد ، مستجيبين إلى دعوته ، يقول له : وإنك سمعا وطاعة لولى العصر . ولا يفوه باسمه ، وإذا ترشح فى العلم ، وعلت فيه درجته ، وارتفعت منزلته ، كتب له اسم الحجب ، ولا يكشف له اسم إمامه ، ولا يبينه بإشارة ولا عبارة فى كلامه ، إلا بحد قد بلغ الإطلاق ، واستحق كشف معرفة إمامه باستيجاب واستحقاق . وجرى ذلك مدة الأئمة المستورين ، حتى طلعت شمس الحق من مغربها ، وأنارت آفاق الدين لكل مستمسك بالعروة الوثقى ، (١) . ويقول الداعى إدريس فى موضع آخر : « فمن أخذ العهد على مستجيب سمي له أحد أولئك الحجب ، حتى يمضى الوهم إليه

(١) زهر الممانى (من المنتخب) ص ٥٩ .

سترا على صاحب الأمر ، وجرت بذلك السنة والقضية في الأئمة المستورين الثلاثة (١) . فمن ذلك أن الدعاة في أوضاعهم يسمون هؤلاء الأئمة بأسماء مختلفة ، ما اتفق منها في ذلك اثنان ، (٢) . وهذا يفسر لنا اختلاف أسماء الأئمة أحيانا ، وخلطها بأسماء حججهم من أبناء القداح أحيانا أخرى .

ولا يقل الظهور عند الإسماعيلية شأننا عن الستر ؛ ولذلك استمر تقديسهم لعبيد الله الممدى بعد قيام الدولة الفاطمية . إلا أن دعاة الإسماعيلية في عهد عبيد الله كانوا نشيطين في دور ستره ، خامين نوعا ما في دور ظهوره (٣) . وهذا القول ينطبق على دعائه المقربين إليه ؛ أما دعائه الذين عاشوا بعيدا عنه كأبي طاهر الجنابي (٣٣٢ هـ) ، والنسفي (٣٣١ هـ) ، والسجزي (٣٣١ هـ) وغيرهم ، فكانوا على شيء كبير من الحرية والاستقلال في الرأي ، ولو أن عبيد الله كان يعمل دائما على إشعارهم بقوة شخصيته ووجوده . وعلى الجملة فهذه أهم نظريات الإسماعيلية ، وخاصة في عهد عبيد الله ، في الإمامة .

أما تاريخ الدعوة القديمة ، فقد مر في ثلاثة أدوار ، يسمى الدور الأول منها دور التكوين أو دور الستر ، وينتهي هذا الدور بقيام الدولة الفاطمية . وأما الدور الثاني ، فيعرف بدور الظهور ، وفيه أصبح الأئمة خلفاء ، ويبدأ بقيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ هـ ، وينتهي باختفاء الإمامة في شخص الإمام الطيب بن الأمر سنة ٥٢٦ هـ . ومن ثم يبدأ الدور الثالث من أدوار الدعوة القديمة ؛ وهناك جماعة

(١) يقصد هؤلاء : الامام عبد الله الأكبر ابن محمد بن إسماعيل ، والامام أحمد بن عبد الله ثم الحسين بن أحمد .

(٢) Dozy : Esai sur l'Histoire de l'Islamisme, p. 261.

(٣) ويجدر بنا أن نوضح في كلمة عاجلة أدوار الستر وأدوار الظهور في تاريخ الإسماعيلية . الواقع أن تاريخ الإسماعيلية يبدأ ببداية الدولة العباسية ، ولكنه لا يزال يماير تاريخ الإسلام حتى اليوم . وقد مر تاريخ الإسماعيلية ، بوجه عام ، في شكلين سياسيين أساسيين هما : الدعوة القديمة (منذ ظهور المذهب الإسماعيلي حتى اليوم) ، وأنصار هذه الدعوة في تلك الأيام هم البهرة ؛ والدعوة الجديدة (منذ وفاة المستنصر حتى اليوم) ، ويمثلها حديثا جماعة الخوجات .

يعرفون باسم الطيبية ، وينادى هؤلاء بإمامة الطيب ثم أبنائه من بعده ، ويعرفون باسم البهرة .

أما الدعوة الجديدة فقد مرت في أدوار أربعة ، يعرف أولها بدور الستر الأول (٤٨٨ — ٥٥٩ هـ) . وكان دعاة النزارية يدعون فيه لإمام مستور من أبناء نزار ابن المستنصر ؛ ويبدأ الدور الثاني بادعاء الحسن الثاني (٥٦١ هـ) أنه حفيد الإمام نزار بن المستنصر ، ومن ثم يستمر دور الظهور بين النزارية حتى يبيدهم هولاء ، ويقتل آخر ملوكهم في سنة ٦٥٥ هـ . ومن هذا الوقت يبدأ الدور الثالث ، وهو دور اختفاء أئمة النزارية أو دور الاختفاء الثاني ، وينتهي بظهور أغاخان محمد حسين . ويستمر الدور الرابع ، وهو دور الظهور الثاني ، حتى اليوم ، وتشتمل فيه الإمامة الإسماعيلية النزارية في شخص أغاخان ، الذي يعتقد أنصاره اعتقاداً جازماً أنه من سلالة علي وفاطمة ، ويغلون في حبه وتقديسه .

(ب) الدعوة العامة للجميع :

وضع مؤسس المذهب الإسماعيلي مبدأ الدعوة لمذهب عام يتفق مع مشارب الجميع . وكان عبد الله بن ميمون أول من وضع تلك الأسس ، وسار على هديها أبنائه من بعده مع الأئمة المستورين المعاصرين لهم . ومن ثم وجد الزرادشتية والمناوية والمزدكية والصابئة ، واليهود والمسيحيون والشيعة والسنيون وغيرهم في المذهب الإسماعيلي كل ما تصبو نفوسهم إليه . وقد قلد الإسماعيلية في ذلك جماعة العيسوية الأصفهانية اليهودية ، التي كانت تنادى بصحة نبوة موسى ومحمد . وكان الإسماعيلية يقولون للزرادشتي : إن نبيه زرادشت كان على حق ، وإن مبادئه على حق كذلك ؛ كما كانوا يقولون إن زرادشت نفسه هو علي بن أبي طالب ، وبعبارة أخرى الإمام المستور . وكذلك كانوا يقولون مثل ذلك لمعتنقي الأديان الأخرى : فعلى بن أبي طالب ثم عبيد الله هو نفسه حلول زرادشت وماني ومزدك ، وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ، وعلي أيضاً . يقولون بهذا لجميع أنصار المذهب الإسماعيلي ، ومعتنقي الأديان المختلفة . وقد نحنا إخوان الصفا في ذلك منحنى الإسماعيلية الأوائل .

فجعلوا يبحثون الإخوان على عدم الغض من شأن مذاهب الآخرين أو احتقار مؤلفاتهم ، وينهونهم عن الغلو المذهبي .

وفي أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع انتشرت فكرة التعميم . وهو الالتجاء إلى المسائل العامة التي تلائم أفكار الناس ، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . ومن ثم لجئوا إلى فكرة التأويل والباطن ، بمعنى أنهم كانوا يؤولون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وما ورد في الكتب السماوية الأخرى وغيرها ، بما يتفق مع ميول معتنقي هذه الأديان والمذاهب . وإذن فإن دعوة الإسماعيلية إلى مذهب عام ، لم تكن إلا صدى للحالة السائدة في عصرهم ؛ ولذلك عملوا على جذب الفيلسوف والمعتزلي والمتصوف وغيرهم إلى صفوفهم ، كما عملوا على أن تكون تعاليمهم متفقة مع تعاليم هؤلاء وأولئك .

ومن ثم نرى علماء الإسماعيلية يتعمقون في دراسة المذاهب والأديان الأخرى ؛ فكانوا يدرسون التوراة والإنجيل والفلسفة والتصوف ومذاهب المجوس ، ومبادئ الفرق الإسلامية الأخرى ، ليلائموا بذلك بين عقائد المذهب الإسماعيلي وعقائد المذاهب الأخرى . ومن ثم نرى الداعي النسفي (٣٣١ هـ) ، والداعي السجزي (٣٣١ هـ) في عهد عبيد الله ، وحفيد الدين الكرمانى في عهد الحاكم ، وعبد الله بن ميمون نفسه قبل ذلك ، ملين إماما تاما بالتوراة والإنجيل وعقائد المذاهب الأخرى . ولا غرو فقد استمر الإسماعيلية منذ عهد عبيد الله المهدي (بل قبله) حتى اليوم ، على هذه السياسة ؛ فترى كتب الدرزية تشيد باليهودية والمسيحية وغيرهما ، كما نرى نزارية الشام يتحدثون مع مبشرى الصليبيين ، ويعملون على جذبهم للمذهب الإسماعيلي ، بدعوى أن عيسى بن مريم هو علي ، وأنه هو إمامهم الإسماعيلي . ولم نذهب بعيدا ؟ ألم يعمل الإسماعيلية على جذب اليمانيين إلى مذهبهم ، فقالوا لهم : إن الدين يمانى ، والحكمة يمانية ، وكل شيء يخرج من اليمين ؟ ألم يقولوا لهم : إن المهدي سيظهر من اليمين على يد المنصور (أى ابن حوشب) ؛ فلما لم تلائمهم الظروف ولم تتحقق نبوءتهم قالوا : ستخرج الشمس من مغربها ، مما جعل أبا عبد الله الشيعي وأنصاره يستميتون في حرب الأغالبة ، حتى أقاموا الدولة الفاطمية سنة ٢٩٩ هـ .

كذلك ترى جماعة الدرزية يعتقدون في رسالتهم « السفر إلى السادة » ، أن دين الدرزية أودين التوحيد على حد تعبيرهم ، سيسود العالم ، ويجمع بين دفتيه الأديان الأخرى والمذاهب والفرق المختلفة . كما كان الإسماعيلية يأتون بالأحاديث التي تؤيد هذا الاتجاه ، فيروون عن محمد الباقر بن علي زين العابدين أنه قال : « إذا قام قائمنا أهل البيت ، قسّم بالسوية ، وعدل في خلق الرحمن ، البر منهم والفاجر منهم . من أطاعه أطاع الله ، ومن عصاه عصاه الله . ويستخرج التوراة والإنجيل وسائر كتب الله بأنطاكية ، فيحكم بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وبين أهل القرآن بقرآنهم »^(١) . وهكذا كان المذهب الإسماعيلي ، كما يقول ميور^(٢) ، محاولة يقصد بها جمع الأديان في دين عام يسمى الدين السابع أودين محمد بن إسماعيل .

وقد أثارت هذه الحركة مخاوف العلماء السنيين ، فوقفوا للإسماعيلية بالمرصاد يعيرون عليهم طريقتهم . يتضح ذلك بجلاء فيما ورد في أبحاث ابن رزام وعبد الجبار والباقلاني ، ثم فيما ذكره الغزالي وابن تيمية وغيرهم . وبعبارة أخرى ، كانت هذه الفكرة الجامعة الشاملة تجد طريقها معبدا بين قلوب القرامطة ، وكان يناصرها عبيد الله المهدي ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين . ومن ثم نراهم يقربون إليهم اليهود والنصارى ، ويتخذون منهم الوزراء ، ويسرفون في التسامح الديني ، حتى آلمت هذه السياسة الرعايا السنيين . وفي الحق أن هذه الدعوة الشاملة كانت تعتبر في نظر الإسماعيلية قاطبة في كل زمان ومكان حركة إصلاح شامل . ومن هنا يتضح التشابه الكبير بين الإسماعيلية والبهائية الذين يقولون بصحة الأديان جميعا ، ويدعون للتوفيق بينها . ويجد هؤلاء البهائية اليوم من المعارضة والمقاومة ما كان يجده الإسماعيلية وخصوصا بين القرامطة^(٣) .

(١) شرح الأخبار (من المنتخب) ص ١٢٤ .

(٢) Muir : The Caliphate, Its Rise, Decline and

Fall, p. 558.

(٣) Arnold : The Preaching of Islam, p. 212.

(ح) الاشتراكية:

من أهم التهم التي يوجهها السنيون للإسماعيلية ، أنهم اشتراكيون ، ينادون بالإباحة في المال والنساء . وقد رأينا كيف استغل المتشيعون ، الذين تشيعوا تشيعا قبيحا ، آراء المزدكية في أواخر الدولة الأموية ، وعملوا على نشرها بين المسلمين ؛ حتى إن نظام الملك وغيره عزوا ذلك إلى تأثير «خُرّماء» امرأة مزدك ، وقالوا : إن عمارا بن بديل المعروف بخدّاش ، وكان أحد كبار دعاة العباسيين في فارس ، كان ممن يؤمنون بمبادئ «خُرّماء» زوجة مزدك في الاشتراكية ، وأن قتله لم يضع حدا لهذه الآراء الخطرة . بل لقد لقيت هذه الاشتراكية رواجاً بين الفاطميين ، أتباع فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني وابنها فيروز ، وبين غيرهم من فرق الأبي مسلمية ، أتباع أبي مسلم نفسه ، الذي رمى بنفس التهمة ، وهي اعتقاد المذهب المزدكي الاشتراكي . ولم تكن ثورة سُنْبَادِ المَجُوسِي ، والمقنّع الخراساني من بعده ، إلا تشجيعاً لنشر مبادئ الاشتراكية المزدكية المجوسية بين الناس . ولئن كان العلماء يسمون أتباع خُرّماء بالخرمية أو الخرمدينية الأوائل ، فإنهم يطلقون على أتباع بابك الخرمي ، الخرمية أو الخرمدينية الأواخر ، ويقولون عن بابك هذا ، إنه أحد أحفاد أبي مسلم الخراساني . وقد ذهب نظام الملك ، وكثير من العلماء إلى القول بأن آراء المزدكية الاشتراكية ، التي كانت منتشرة بين الفرس في أواخر العصر الساساني ، والتي وجدت طريقها بين صفوف المسلمين في صدر الإسلام ، تركزت واستقرت في العصر العباسي الأول ، ثم في العصر الثاني بين الإسماعيلية أنفسهم ، خاصة بين القرامطة منهم . وعلى الرغم من أن نظام الملك كان متحاملا على هذا المذهب تحاملا شديدا ، حتى إنه غلا في الرد على أنصاره ، وخرج في كثير من الأحيان عن الحد الذي ينبغي أن لا يتجاوزه العالم المدقق ؛ تكاد الأدلة تثبت صحة ما ذهب إليه ، إن لم يكن كله ، فبعضه على الأقل فيما يتعلق بالقرامطة^(١).

ونكتفي هنا بذكر أمثلة قليلة تبين منها صحة هذه الدعوى ، وهي انتشار مبدأ الاشتراكية بين الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي .

(١) انظر ص ٦٤ من هذا الكتاب .

وخير مثل لذلك اشتراكية حمدان قرمط ، الذى يعتبر بحق حجر الزاوية للمذهب الإسماعيلى عند القرامطة ؛ فقد سن لأتباعه ضرائب مختلفة متدرجة ، انتهت بوضع مالية جماعته بين يديه^(١) ، وتوزيعها على الجميع فى عدل تام . وبهذه السياسة الاشتراكية استطاع حمدان أن يكون جماعة متحمسة ليس بينها فقير ، كما استطاع بفضل اشتراكية المالية هذه ، أن يعد العدة لنضال عنيف مع العباسيين ؛ فاشترى السلاح الكثير بالمال الذى وضعه بين يديه ، وبنى دار هجرة كانت تضارع المدن الكبيرة ، « وأقام الدعاة فى كل قرية رجلا مختارا من ثقاتها يجمع عنده أموال أهل قريته ، من بقر وغنم ، وحلى ومتاع وغيره . وكان يكسوعاريهم ، وينفق على سائرهم ما يكفيهم ، ولا يدع فقيرا بينهم ولا محتاجا ولا ضعيفا ؛ وأخذ كل رجل منهم بالانكماش والمكسب جهده ، فيكون له الفضل فى رتبته ؛ وجمعت المرأة كسبها من مغزلهما ، والصبي أجره نظارته للطير ، وأتوه بها ، فلم يملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه ،^(٢) .

وبهذه الطريقة الفذة استطاع حمدان قرمط ، فى عهد حجابة عبيد الله المهدي ، أن يكون جماعة متحدة فى الآمال والشعور ، لا هم لأحد منهم إلا أن يحمل سيفه للذود عن حياض جماعته . وهكذا تكونت جماعة حربية قرمطية ، تخضع خضوعا

(١) كانت أولى هذه الضرائب ، « ضريبة الفطرة » ، وهى الضريبة الواجبة على كل فرد من القرامطة ، ومقدارها درهم واحد . أما الضريبة الثانية فهى ضريبة « الهجرة » ، ومقدارها دينار واحد ، يدفعه المستجيب لرئيسه المباشر ؛ وسميت بذلك لانفاقها على المهاجرين من الإسماعيلية فى إقامة دور هجرة هؤلاء القرامطة . ثم فرض حمدان قرمط ضريبة ثالثة تعرف بضريبة « البلغة » ، وهى ما يُسبَلُغ به ، ويتقرب إلى الله ، ومقدارها سبعة دنانير على كل فرد : « فكان ينفذ إلى كل داع مائة بُلغة » (وهى ماعام على قدر البنادق) ، ويطلبه بسبعائة دينار لكل واحد منها سبعة دنانير ، (المقرئى : انعاظ الخنفا ص ١٤) . أما الضريبة الرابعة فهى ضريبة « الخس » ، وهى أن يدفع كل مستجيب خمس ما يملك وما يتكسب . وتعتبر ضريبة الألفه آخر هذه الضرائب ، وسميت بذلك لأنها تؤلف بين قلوب الجميع ، على ما يعتقدون ؛ وهى أن يدفع كل إسماعيلى جميع ما يملك إلى رئيس دعوته . وقد عرفهم حمدان ، « أن لاحتاجة بهم إلى أموال تكون معهم ؛ لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم ، وقال لهم : هذه محتكم إلى امتحتكم بها ... وطالهم بشراء السلاح وإعداده » . النويرى (نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٥٨) .

(٢) النويرى : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٣ ورقة ٥٨ .

أعنى لرؤسائها الدينيين ؛ لأنهم اعتقدوا أنهم بعملهم هذا سيكوّنون « دولة الله » ، وأنهم وحدهم هم « المؤمنون » ، وأن الأرض جميعا ستكون لهم . وهذا خير رد على من ينفي اشتراكية القرامطة المالية^(١) . وقد ذهب بعض^(٢) إلى القول بأن ما قام به حمدان قرمط في عهد عبيد الله من الاشتراكية المالية ، إنما كان حركة إصلاح هائلة ، ترمى إلى إيجاد عصر لإصلاح شامل ورخاء عام . وإذا صح ما عزى إلى حمدان قرمط ، دل على أن الاشتراكية كانت من مبادئ الإسماعيلية وقتئذ ، وإلا لعد حمدان قرمط نائرا عليهم . ومهما يكن من شيء ، فقد نجحت الاشتراكية على يد حمدان نجاحا منقطع النظير ؛ لأنه نشرها بين الجماعات الفقيرة من النبطيين ، وبين فقراء السواد^(٣) ، والأعراب وسواهم .

كما تعتبر اشتراكية أبي سعيد الجنابي مثالا حيا لانتشار ذلك المبدأ بين الإسماعيلية في عهد عبيد الله ؛ فقد نجح هذا الداعي كما نجح أستاذه حمدان ، في نشر الاشتراكية المالية بين أتباعه . وقد نشر أبو سعيد الاشتراكية في نظام المجتمع القرمطي نفسه ؛ فوضع مالية جماعته بين يديه ، وأخذ يوزعها عليهم ، بحيث لا يأخذ أحدهم إلا ما يعينه له . وهكذا دقبض على كل مال البلد ، والثمار والخنطة والشعير . وبفضل اشتراكية أبي سعيد المالية ، استطاع أن يعكف على تعمير البلاد وإصلاح الزراعة . ولا غرو فقد جعلت حكومته تنفق على الرعايا ، وتوزع عليهم الاقوات والملابس ، وتعين لهم نوع العمل الذي يزاوله كل منهم ، إلى غير ذلك . ولهذا عمل أبو سعيد على « إصلاح أراضى المزارع ، وأصول النخل وعمارته . . . » ونصب الأماناء على ذلك ، وإقامه العرفاء^(٤) . . . حتى بلغ من تفقده واحتياطه أن الشاة

(١) بنفى دى غويه . (Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn, vol. ii, p.30)

اشتراكية القرامطة ، وبخاصة الاجتماعية منها ، لكنه يقول : إنها كانت موجودة على الأقل عند القرامطة الأوائل ، لأنها تتفق مع « دولة الله » ، التي كان حمدان قرمط يفتشها ويسمى إلى إيجادها ، كما تلائم النظرية الإسماعيلية القائلة بأن جميع الأرض ستكون ملكا للمؤمنين أى القرامطة .

(٢) ماسنيو : عجب تأمه ص ٣٢٩ .

(٣) أى سواد الحكومة ، وهى الأرض الزراعية بأقليم الكوفة .

(٤) جمع عريف وهو من يكون على النفير ، والنفير عدة رجال من ٣ إلى ١٠ .

كانت تذبح ، ويسلم اللحم إلى العرفاء ، ليفرقوه على من يرسم لهم . ويدفع الرأس ، والآكارع والبطن إلى العبيد والإماء ؛ ويجز الصوف والشعر من الغنم ، ويفرق على من يغزله . ثم يدفع إلى من ينسجه عيبا وأكسية وغرائر وجوالقات^(١) ، وتقتل منه حبال ، ويسلم الجلد إلى الدباغ ؛ فإذا خرج من الدباغ سلم إلى خرازي القرب ، والروايا والمزاد ، وما كان من الجلود يصلح نعالا وخفافا عمل منه . ثم يجمع ذلك كله إلى خزائن ، فكان ذلك دأبه لا يغفل عنه^(٢) .

فهذه اشتراكية عامة ، لا في المال وحده ، بل في نظام العمل والمجتمع كذلك . ولذلك نرى حكومة القرامطة تدفع للصناع ثمن آلاتهم ، وتعينهم على القيام بعملهم ، كما كان إصلاح المنازل والأعمال العامة من واجب الحكومة لا الأفراد ؛ فإذا آل منزل إلى السقوط ، أصلحته الدولة على أيدي رجالها وعبيدها ، من غير أن تأخذ مالا من صاحب المنزل ، كما أن طحن القمح والشعير كان من عمل الدولة ، إذ كان الناس يطحنون حبوبهم من غير أجر^(٣) .

وتتضح الاشتراكية الاجتماعية عند قرامطة الشمال ، وهم أتباع زكرويه بن مهوريه وأبنائه . فقد كان هؤلاء القرامطة يديحون لأنفسهم أن تزوج المرأة أكثر من واحد ، حتى إنهم لم يعقدوا عقود الزواج على النحو الذي يعقدها به المسلمون . وقد أفاضت المراجع السنوية خاصة في ذكر حوادث تؤيد هذه الحقيقة ، فذكرت حادثة المرأة الهاشمية التي تزوجها بضعة رجال ، وأنجبت مولودا لم تعرف لمن تنسبه . ولنترك هذه الأم تحدثنا عن نفسها وعن ابنها فتقول : « أنا امرأة هاشمية ، أخذنا هؤلاء القوم فذبجوا أبي وأهلي جميعا ، وأخذني صاحبهم فأقمت عنده خمسة أيام ، ثم أمر بقتلي ؛ فطلبني منه أربعة أنفس من قواده ، فوهبني لهم ، وكنت معهم ، فوالله ما أدري لمن هذا الولد^(٤) » . ومن الغريب أن هؤلاء القرامطة كانوا يعتقدون أنهم

(١) الغرائر والجوالقات شيء واحد ، وهو العدل من الصوف أو الشعر .

(٢) الذيرى : نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧٤ .

(٣) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السيامي ج ١ ورقة ٢٧٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٧ .

على صواب ، وأن غيرهم على ضلال . ويعتقدون كذلك أن تركهم الإسلام ، على المذاهب السنية ، واعتناقهم المذهب الإسماعيلي نعمة كبرى ، حتى كانوا يقولون : « ما كنا فيه باطل ، والدين ما نحن فيه اليوم ^(١) » .

ولا تقل اشتراكية ابن فضل ، أحد داعيي اليمن (هو وابن حوشب) في عهد عبيد الله ، عن غيرها ؛ حتى إن المراجع الإسماعيلية والسنية تسكاد تجمع على خروج هذا الداعي على الشريعة الإسلامية والمذهب الإسماعيلي ؛ فإنه لم يكتف بالاشتراكية الاجتماعية ، ومناداته بالإباحة ، بل نادى بالالوهية . ومهما يكن من شيء ، فإن ابن فضل طلب من أشياعه التحرر من أوامر الشريعة ، فلا صلاة ولا صوم ولا حج ؛ ونادى في الوقت نفسه بإباحة تزوج المرأة من محارمها ، وطلب إلى نساء عصره أن يكن ملكا للجميع . أليست هناك اشتراكية سافرة تتجلى في قوله مخاطبا إياهن ؟ يقول الجندي في كتابه السلوك : إن ابن فضل هذا « صعد المنبر ، وأنشد هذه الآيات وهي :

خذي الدف يا هذه والعبي	وغنى هزاريك ^(٢) ثم اطربي
تولي نبي بني هاشم	وهذا نبي بني يعرب ^(٣)
لكل نبي مضى شرعة	وهذه شريعة هذا النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة	وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهض	وإن صوموا فكلّي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا	ولا زودة القبر في يثرب
ولا تمنعي نفسك المؤمنين	من الأقربين مع الأجنبي
فلم ذا حلت لهذا الغريب	وصرت محرمة للآب ^(٤) ؟

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٧ .

(٢) الهزار : العنديل .

(٣) نبي بني هاشم هو الرسول ، ونبي يعرب هو علي بن فضل عندهم .

(٤) عمارة اليمن : تاريخ اليمن ص ١٤٤ .

ويقول الداعي النعمان المغربي في علي بن الفضل : «إنه استحل المحارم ، ورفض الظاهر»^(١)، ودعا الناس إلى الإباحات^(٢).

(٥) الحلول^(٣) :

ويقصد به حلول الله في البشر ، وهو من أهم مبادئ الإسماعيلية ، التي راجت بينهم منذ ظهورهم . وقد تطور تطورات مختلفة على مر الزمن ، ونجح عبد الله ابن سبأ في بث هذا المبدأ ذي الخطر في تأليه علي بن أبي طالب . ومن ثم وجدت نظريات هذا المبدأ طريقها إلى قلوب المتشيعين ، حتى استقرت في جماعة الخطابية أتباع أبي الخطاب ، وهم البذرة التي نبت منها المذهب الإسماعيلي ؛ فأطهوا جعفر الصادق ، وصلوا له وصاموا ، واستمر أتباعهم على هذا الغلو . ولا نستطيع أن ننفي هذا المبدأ عن الإسماعيلية ، برغم تبرؤ جعفر الصادق وبعض الخلفاء الفاطميين من القائلين به ؛ لأن هذا المبدأ يعد من أصول المذهب الإسماعيلي ومقوماته . فهم يعتقدون - كما رأينا - في العقل الكلي والنفس الكلية ، وإمكان انتقال كل منهما في البشر ؛ كما يعتقدون أن كلا منهما ليس بشراً بالطبع ، بل إن العقل الكلي إله استطاع أن يخلق النفس الكلية التي تستطيع بدورها أن تسيطر على قوة الخلق والإبداع . كما يعتقدون أن الأنبياء أو النطقاء - على حد تعبيرهم - حلول العقل الكلي ، وأن الأئمة الإسماعيلية حلول النفس الكلية والعقل الكلي معا . ومن ثم كان الحلول فيهم مزدوجاً . لذلك لا نعجب إذا اعتقد الإسماعيلية تأليه هؤلاء الأئمة وتقديسهم ، لأنهم حلول الإله الذي يتمثل في العقل الكلي ، والإله الذي يتمثل في النفس الكلية .

وقد رمى عبيد الله المهدي بأنه كان يؤمن بهذه العقيدة ، وأنه سمع مدح بعض الشعراء له بهذا المبدأ ، وأنه لم يعترض عليه . وقد رأينا كيف أن ابن عذارى - وهو سني مغال - يقول : «إن الشعراء مدحوه بالكفر فاستجازه ، وإنه قيل فيه حين دخل رقادة ، حاضرة الأغالبة :

حلّ برقادة المسيح حل بها آدم ونوح

(١) أي كأنه نادى بالباطن وهو جوهر المذهب الإسماعيلي .

(٢) افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٠ .

(٣) The Incarnation.

حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواه ريج

وكذلك قيل إن عبيد الله المهدي قد رمى بادعاء الغيب وغيره . إلا أننا نشك كثيرا في صحة ذلك كله ، لأنه لم يكن من البله حتى يدعى الصفات التي لا تكون إلا لله سبحانه ، ويثير بذلك حنق رعاياه السنيين ، فيقوموا في وجهه ويخلعوه . والذي نستطيع أن نذهب إليه أن هذه المذاهب الغالية لم يكن من اليسير أن يقوموا بنشرها بين رعاياهم ، ولكنها كانت رائجة بين أنصار المذهب أنفسهم ، الذين ارتقوا إلى درجات الدعوة الإسماعيلية العليا ، والذين كانت تؤهلهم ثقافتهم المذهبية إلى فهم النظريات المختلفة في الحلول والتجرد من العقائد السنية . ونحن لا نستبعد رواج مثل تلك المبادئ الغالية في ذلك الزمن ؛ فقد نادى بالحلول أشياخ الحلّاج (٣٠٩ هـ) ، وكان معاصرا لعبيد الله المهدي ، كما نادى بها أشياخ الشلغاني (٣٢٠ هـ) . ونحن نعلم أنهم رموا الحلّاج بأنه إسماعيل قرمطي ؛ فدعوى التأليه كانت بدعة رائجة في ذلك الوقت ، لكن عبيد الله المهدي كان من الحنكة السياسية بحيث امتنع عن الظهور بها أمام رعاياه السنيين ، ليضمن ولائهم له . أضف إلى ذلك أن عبيد الله لم يكن إلا حجة من حجج الأئمة الإسماعيلية ، بمعنى أن الإمامة انتقلت إليه على طريقة الاستدعاء ، وأنه لم يكن في نظر أنصار المذهب أنفسهم العالمين بأصول مبادئ التأليه الإمامي ، سوى شخص ممتاز لا إله . وقد يتضح ذلك من آراء الدرزية الإسماعيلية فيه وفي الخليفة « القائم » ، الذي يصفونه بالالوهية الكاملة ، ويجردون عبيد الله من كل صفات التأليه (١) .

ولم يكن بدعا إذن أن ينتشر هذا المذهب ذو الخطر ، وهو الحلّول ، بين أشياخ المذهب الإسماعيلي . ويتضح ذلك من دعوى ابن فضل الالوهية ؛ فإنه لم يكتف بنشر مبادئ الإباحة والاشتراكية ، بل نادى بالالوهية . وكان يخاطب أتباعه بقوله : « من رب العزة فلان ، إلى عبده فلان ، وتسمى رب العالمين (٢) » ، وتسمى

(١) انظر كتاب النقط والدوائر ص ٧٥ ، حيث نرى الدرزية يقولون : إن القائم هو الله تعالى .

ولا يقولون ذلك عن عبيد الله المهدي ، لأنه في نظرهم إمام مستودع لا مستقر .

(٢) Arendonk : De Opkomst Van Het Zaïdïetische in Yemen, p. 305.

ابنه باسم « ابن رب العزة » ، إلى غير ذلك من الأسماء التي تؤكد رواج مذهب الحلول بين أتباع ابن فضل في بلاد الصين . وعلى الرغم من سب الإسماعيلية لإياه ، ورميه بالخروج عن الظاهر وبالزندقة أيضا ، لم يخرج ابن فضل - في نظرنا - عن سمات المذهب الإسماعيلي . وإن كان قد خرج على الأصول الإسلامية السنية ، فهو بمناداته بمذهب الحلول ، إنما ينادى بمذهب محب إلى الإسماعيلية ، الذين اتخذوه وسيلة لتحقيق مآربهم ، والذين آمنوا بفلسفة الحلول إيمانا يفوق إيمان السبئية والنصيرية في تأليه علي بن أبي طالب . وإلى هؤلاء يشير أبو العلاء المعري بقوله : « وهذه الطبقة . لعننا الله ! تستعبد الطعام بأصناف مختلفة من الأباطيل ، فيدعي رؤساؤها النبوة أحيانا ، والالوهية أحيانا أخرى ، ويجحدون من مرءوسهم إيمانا وتصديقا^(١) .

ولم يكن القرامطة أقل إيمانا بمذهب الحلول من ابن فضل ؛ حتى إننا نرى أبا طاهر الجنابي يؤمن بالحلول إيمانا قويا ، ويقدس أبا زكريا الصامي^(٢) ، ويأمر أتباعه بعبادته ، معتقداً أنه إله حل بينهم . وقد شغلت هذه العقيدة من نفوسهم مكانا كبيرا ، حتى أصبحت ديننا لهم . ولما تبين لأبي طاهر أن أبا زكريا لإنسان لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وأنه ليس إله ، قتله وأمر أشياعه بالارتداد عن اعتقادهم بالوحيته . والذي يلفت النظر حقا ، أن القرامطة لما أمروا بترك اعتقادهم ألوهية أبي زكريا الصامي ، كادوا يقومون بشورة عامة في وجه أبي طاهر وحكومته ، وهو الأمر الذي يدلنا على مدى تأثير مبدأ الحلول وتأليه البشر في نفوسهم .

وقريب من هذا ما ذكره أبو العلاء المعري عن تأليه بعض كبار القرامطة أنفسهم ، واعتقادهم أنهم آلهة يبعثون الرسل . يقول أبو العلاء^(٣) : « ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة في الدهر القديم لما حضرته المنية ، جمع أصحابه وجعل يقول لهم لما أحس بالموت : إني قد عزمت على النقلة^(٤) . وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمدا ، ولا بد لي أن أبعث غير هؤلاء . »

(١) رسالة الففران من ١٤٣ ، ١٤٥ .

(٢) يسميه عريب بن سعد (ج ١٢ ص ٨٤) ذكرى الخراساني .

(٣) رسالة الففران من ١٤٥ .

(٤) أي الانتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة ، والمعنى عند موته .

من هذا نرى أن مبدأ الخلول كان رائجاً بين طوائف الإسماعيلية كافة عدا الفاطميين ، وبعبارة أخرى ، لا نجد الحكومة الفاطمية تشجع هذا النوع من التأليه بين الرعايا السنيين ، على حين وجد هذا المبدأ طريقه إلى الإسماعيلية في بلاد اليمن عند أتباع ابن فضل ، وفي بلاد البحرين بين القرامطة ، بطرق وصور مختلفة ؛ كما راج بين الإسماعيلية في فارس وخراسان ، وخصوصاً أنهم كانوا في العصور القديمة يقولون بنظرية الحق المقدس ملوكهم *The Divine Right of Kings* ، فاستمروا في تقديس رؤسائهم الروحانيين من الأئمة الإسماعيلية خاصة . وكانت لعبيد الله المهدي مواقف كثيرة ، تؤكد أنه لم يكن يرضى عن محاولون تأليهه ، وينشرون ذلك بين الرعايا السنيين . وكان العلماء في المغرب يسمعون المناداة بمثل ذلك الغلو « التشريق » ، كما ذهبوا إلى القول بأن عبيد الله حاول المناداة بذلك المذهب في بلاده ؛ فلما أدرك نفور الناس وسخطهم ، عدل عنه وقتك بمنتهحليه .

من ذلك أن أحد الدعاة ، ويسمى منيب بن سليمان الكناس الداعي ، أظهر في سنة ٣٠٩ هـ « التشريق »^(١) بجانب تهرت (تاهرت) ، وتحليل المحرمات . وقيل إن عبيد الله وجهه وغيره إلى الأطراف ، وأمرهم بإظهار التشريق ، فإن وجدوا الناس محتلمين له ، ومغضين عليه ، نشره عند العامة ، وأظهروه . فلما كشف منيب . . . ما أمره عبيد الله به . . . فقام عليهم الناس ، وقتلوا بعضهم ؛ فكفوا^(٢) . « وهذا يبين لنا السياسة التي كان الفاطميون يسلكونها مع رعاياهم من السنيين خاصة .

وليس معنى ذلك أن مذهب الخلول وغيره من مذاهب الغلو قد امتحت في بلاد المغرب ، بل إننا نرى جماعة يؤلهون الأئمة ، حتى لقد هال عبيد الله نفسه أن يرى أسرار المذهب الإسماعيلي تذاع بين العامة ؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى ثورة قد تطيح بعرشه . ولذلك نراه يقبض على جماعة « أظهروا التشريق بالقيروان ، وباجة ، وتونس ، وجاهروا بتحليل المحرم ، وأكلوا الخنزير ، وشربوا الخمر في رمضان

(١) يقصد التشريق القول بالغلو ، والمناداة بباطن المذهب الإسماعيلي وأسراره .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٠ .

جهارا ... فكتب عبيد الله إلى عماله بهذه المواضع ، بأن يرفعوهم إلى بابه مقيدين ، ثم حبسوا فمات أكثرهم بالسجن (١) .

ومن الغريب أن يكون من بين هؤلاء المغالين جماعة يعرفون بالتقوى والورع ، ولكنهم آمنوا بالحلول إيماناً ملك عليهم نفوسهم ؛ فكانوا يعبدونه ، ويخلصون في عبادته ، حتى إن واحداً منهم كان يصلي إلى رقادة أيام كون عبيد الله بها ، وهي منه في الغرب . فلما انتقل عبيد الله إلى المهديّة ، وهي في الشرق صلى إليها ، وكان يقول : لست بمن يعبد من لا يرى ! وكان يتصدى لعبيد الله ويقول : لارق إلى السماء ! كم تقيم في الأرض ، وتمشي في الأسواق ؟ وكان يقول لأهل القيروان في عبيد الله : إنه يعلم سركم ونجواكم . وكذلك نرى شخصاً آخر يأكل في شهر رمضان جهاراً ، ويرتكب الكبائر ، وكان في أيام بني الأغلب من المتزهدين (٢) .

من هذا كله نرى أن مذهب الحلول كان يروج بين الإسماعيلية رواجاً كبيراً في البلاد التي لم تكن تحت حكم الفاطميين مباشرة ، وأن هؤلاء كانوا يعملون على القضاء على هذا المذهب ، وأن الحاكم بأمر الله (٤١١ هـ) لم يكن حينئذ نفسه ناثراً على المذهب الإسماعيلي ، وإنما كان ناثراً على هذه السياسة التي وضعها عبيد الله ، من تظاهره لرعاياه السنين بعكس ما يعتقد الإسماعيلي المخلص لمذهبه . ونعتقد أن هذه السياسة المزدوجة كانت السبب في بقاء الدولة الفاطمية نحو ثلاثة قرون (٢٩٦ — ٥٦٧ هـ) . ولو أن القائمين بهذه الدولة عملوا على ترويح مبادئ المذهب الإسماعيلي السرية بين العامة ، لما قدر لها البقاء طويلاً .

٣ — عوامل نجاح عبيد الله المهدي

من حسن حظ عبيد الله ، أنه ظهر في عصر كان الانحلال يسود فيه العالم الإسلامي . فقد أصبحت الخلافة العباسية ، العدو الأساسي لطوائف الإسماعيلية ، غير جديرة . بمكانها ، فسادها الاضطراب وقامت الثورات . ولم يعد هناك بين العلويين جماعة

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٠ — ١٩١ .

قوية تستطيع منافسة الإسماعيلية ، فلم يجد عبيد الله منافسة قوية من سائر العلويين ، بل على العكس من ذلك ، وجد من أشياعه وغيرهم تحمسا عاما لفكرة المهدي المنتظر . هذا بالإضافة إلى أساليب الدعوة المنظمة ، التي وضع أساسها عبد الله ابن ميمون القداح ، وقام على تنفيذها أبنائوه بمساعدة الأئمة المستورين ، حتى انتهى الأمر بانعقاد لواء الزعامة على عبيد الله مستترا وظاهرا ، ونال أقصى ما تصبو إليه نفسه من توفيق ونجاح .

(١) ضعف العالم الإسلامي :

وقد أخذ الضعف يدب في جسم العباسيين منذ أوائل العصر العباسي الثاني ، لزيادة نفوذ الأتراك الذين احتلوا أعلى مناصب الدولة ، فسلطوا على جميع مرافقها ، وأصبح بأيديهم عزل الخلفاء وتوليتهم ، وأصبح الخليفة العباسي كما قال الشاعر :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالوا له كما تقول البيغا

أو كما قال الخليفة المعتمد نفسه (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلَّ تمتعا عليه
وتؤخذ باسمه للدنيا جميعا وما من ذلك شيء في يديه (١)

وهكذا كان لضعف زعيم العالم الإسلامي ، وهو الخليفة العباسي ، أثره في ازدياد قوة عبيد الله المهدي ونجاحه ؛ لأن أتباعه ضاعفوا جهودهم في الخفاء ليحل زعيمهم محل الخليفة العباسي الضعيف .

وقد أدى ضعف الخلافة العباسية إلى قيام الثورات عليها ، واشتغالها بإخمادها ، وتركها عبيد الله وأنصاره يعملون في هدوء واطمئنان ؛ فلم يشعر العباسيون إلا وسيوف الإسماعيلية تعمل في رقابهم . وكانت ثورة صاحب الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ)

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٥ .

من أهم الثورات التي مهدت لنجاح عبيد الله ، الذي استطاع أنصاره من القرامطة وسواهم أن ينشروا في الوقت الذي كانت فيه نار هذه الثورة مشتعلة ، عقائد المذهب الإسماعيلي في بلاد العراق نفسها ، وفي فارس واليمن . ولما تولى عبيد الله زعامة الإسماعيلية في سنة ٢٨٠ هـ وجد الأمور مهيأة موطأة له .

أضف إلى ذلك ضعف الطولونيين في مصر والشام ؛ فقد ساعده ذلك الضعف على أن يغمر بالولاء في سلبية مدة طويلة ، وأن يفلت من أيديهم دون كبير عناء . ومن أهم العوامل التي ساعدت على نجاح عبيد الله ، ثورة قرامطة الشمال في الشام وباديتها ثم في العراق ؛ فقد شغلوا العباسيين خمس سنوات ، وأضعفوا الدولة الطولونية ، فطمع فيها العباسيون وأزالوها . وفي وسط ذلك الاضطراب الذي ساد بلاد الشام ومصر ، كان عبيد الله يأخذ طريقه إلى المغرب لتأسيس دوائته فيها . وهكذا لم يكن ضعف العباسيين وحدهم هو السبب في نجاح عبيد الله ، بل كان لضعف أتباعهم الطولونيين أثره في ذلك النجاح .

وليس هذا وحده ، بل كان لضعف الدولة الزيدية في اليمن ودولة الأغالبة في المغرب ، أثر كبير فيما أصابه عبيد الله المهدي من نجاح ؛ فاستطاع دعاته أن يستولوا على بلاد اليمن ، وينشروا عقائد المذهب الإسماعيلي بين أهلها ، الذين أصبحوا يؤمنون بنظرية المهدي المنتظر ، كما استطاع ابن حوشب (منصور اليمن) أن يمد عبيد الله ، وهو بسلبية ، بأموال وفيرة ، كانت عوناً له في حله وترحاله . أضف إلى ذلك أن ضعف الأغالبة في تونس ، وسخط البربر عليهم قد أتاحا لأبي عبد الله الشيعي الفرصة للوصول إلى أغراضه ، عن طريق نشر الدعوة إلى المذهب الإسماعيلي ، والقضاء على الأغالبة في تلك البلاد .

(ب) انتشار التشيع :

كذلك كان لانتشار التشيع في البلاد التي راجت فيها مبادئ المذهب الإسماعيلي أثر كبير في نجاح عبيد الله المهدي . فهذه بلاد اليمن قد سادها مذهب الزيدية ، أتباع زيد بن علي زين العابدين ، منذ أيام الدولة الأموية ، الأمر الذي ساعد الإسماعيلية على الاستقرار في هذه البلاد . إذ أن كثيراً من مبادئ المذهب

الإسماعيلي ، كبداً المهديّة ، كانت منتشرة بين الزيدية . وكان اليمينيون ، منذ أيام بنى أمية ، يعتقدون بظهور القحطاني المنتظر . وقد استغل ابن حوشب وابن فضل هذه الميول الشيعية ، واتخذوا من بنى موسى وبنى الوزان المتشيعين عيوناً وأعوّاناً لهم . يقول المقرئ (١) : « كان باليمن من هذا المذهب كثير بعدن ، في قوم يعرفون بنى موسى » . وكان الشيعيون في بلاد اليمن يلجئون إلى البلاد الجبلية ويعتصمون بها ، حتى لقد قالوا : « كانت جبال اليمن على مذهب الشيعة ، وسائر اليمن بقواعلي مذهب أهل السنة » ، مع اختلاف (٢) .

وكان للتشيع في بلاد المغرب أثر كبير في نجاح عبيد الله ؛ ذلك أنه في العصر العباسي الأول ، وجد التشيع طريقه إلى هذه البلاد على يد الإمام إدريس بن عبد الله الحسيني العلوي ، الذي تمكن من الفرار بعد موقعة فخ في عهد الخليفة المهدي العباسي . وقد التف البربر حول الأدارسة في المغرب الأقصى ، وكون هؤلاء إمبراطورية شيعية ، تعرف بدولة الأدارسة (٣) . ومن ثم أصبحت بلاد المغرب أرضاً صالحة لذلك المذهب الإسماعيلي ، فأرسل الإسماعيلية إليها دعاة جريئين ، ليحرثوها ويكربوها . ولقد دوا لصاحب البذر ، هنالك . وقد حدث ذلك حين كان عبيد الله لا يزال طفلاً ؛ فلما دخل المهدي في دور الشباب أرسل الإسماعيلية أبا عبد الله الداعي إلى هذه البلاد ؛ فوجد الأمور مهيأة له ، ووجد التشيع الإسماعيلي قد استقر في عقول البربر واعتقده كثير من وزراء الأغلبة وموظفيهم .

ولم يكن التشيع أقل انتشاراً في بلاد الشام ومصر ؛ فقد وجد عبيد الله بلاد الشام تزخر بالمتشيعين من الإسماعيلية ، الذين استطاع بفضلهم الفرار من سيوف منافسيه القرامطة وأعدائه العباسيين .

وكذلك كان لظهور القرامطة في العراق والشام ثم في البحرين ، وانتشار التشيع في بغداد حاضرة العباسيين ، ذلك الأثر نفسه في نجاح عبيد الله ، الذي اتخذ من دعاة ببغداد عيوناً على العباسيين . ولا عجب في ذلك ، فإن كثيراً من الأئمة

(١) انماظ الحنفا ص ٢٧ .

(٢) أنباء الزمن في تاريخ اليمن (مخطوط) ص ٢٤ .

Sanhoury : Le Califat, p. 380.

(٣)

المستورين كانوا يعتمدون على أنصارهم ببغداد في عزل من يشاءون ، وتولية من يشاءون من عمال سلبية . ناهيك بالكوفة وسوادها . فقد كانت منذ أيام علي بن أبي طالب كعبة الشيعة ، فتركزت فيها الدعوة الإسماعيلية على يد قرامطة السواد . وكان هؤلاء كالبركان يلقى بحمسه في وجوه العباسيين ، حتى استطاعوا قرمطة جنوبي فارس وإقليم القطيف ، وانتشر التشيع على أيديهم في عهد عبيد الله ببلاد البحرين ، وأصبح العباسيون يُلَقَّون بجيوشهم ذات اليمين وذات اليسار ، فتحل بها الهزيمة على أيدي هؤلاء .

وكان التشيع في بلاد فارس رائجاً منذ أيام الدولة الأموية ، مما سهل على دعاة الإسماعيلية مهمتهم ، فاستغلوا هذا التشيع ، كما استغلوا الشعوبية ، ووجهوا هذا وذلك في عهد عبيد الله المهدي لمصلحة الدعوة أولاً ، ثم لمصلحة الدولة ثانياً ؛ فانتشر المذهب الإسماعيلي في طبرستان والري وخراسان وما وراء النهر وغيرها . وبفضل هذا الانتشار استطاعت رسل المهدي أن تجذب إليه أمراء تلك النواحي البعيدة ، من أمثال مرداويج الديلي أمير طبرستان ، ويوسف بن أبي الساج أمير آذربيجان وقائد العباسيين ، ونصر بن أحمد الساماني أمير خراسان وما وراء النهر ، وقد انضموا إلى عبيد الله ، أو كانوا — على الأقل — يعطفون على المذهب الإسماعيلي .

(ح) ضعف الطوائف الشيعية الأخرى :

ضعفت طوائف الشيعة الأخرى على مر الزمن ؛ وأتاح ذلك للضعف فوز عبيد الله ونجاح مذهبه الإسماعيلي . حقا كان للحنفية (أتباع محمد بن الحنفية) ، والآبي هاشمية (أتباع أبي هاشم بن محمد بن الحنفية) شأن كبير في أخريات الدولة الأموية ، وفي صدر العصر العباسي الأول ؛ إلا أنهم زالوا على مر الزمن أمام ضربات العباسيين ، الذين كانوا بالأمس من أكبر أنصارهم ، حتى إنه لم يبق بين هؤلاء العلويين إلا فلول قليلة تركت ، على ما ذهب إليه العلماء حديثاً ، في جنوب العراق . وقد قيل إن هذه البقية الباقية هم أتباع حمدان قرمط . ولو أخذنا — هذا الرأي ، لعد بقايا الحنفية من مؤسسي المذهب الإسماعيلي .

وقد أخذ الزيدية طريقهم إلى البلاد النائية في اليمن وطبرستان ؛ ولكن قوتهم

كجماعة محاربة لم يعد لها وجود ، اللهم إلا أنهم كانوا يمدون بمبادئهم الشيعية لنجاح الإسماعيلية هنا وهناك . وأما جماعة الحسينيين فكانوا لقمة سائغة للعباسيين ، وهدفا صالحا لسيوفهم ؛ فقد روى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بدمائهم بلادا الحجاز والعراق ، بعد أن مزق جنود النفس الزكية وأخيه إبراهيم وأنصارهما شر ممزق ، وفك الهادي في موقعة فح بالبقية الباقية من هؤلاء الحسينيين . ولولا فرار الإمام إدريس بن عبد الله إلى بلاد المغرب ، وأخيه يحيى بن عبد الله إلى بلاد المشرق ، لزال هؤلاء الحسينيون (كقوة سياسية دينية) منذ عهد الخليفة الهادي . ومع ذلك فقد قضى الرشيد على يحيى ، وكون دولة الأغلبية لتتحد من قوة الإدارة ، ومن ثم لم يعد هؤلاء الحسينيون خطرا على العباسيين ، كما أنهم لم يكونوا من هؤلاء الذين يخشى الإسماعيلية بأسهم وقوتهم .

أما الفريق الذي كان الإسماعيلية يخشون بأسه حقا ، وهم جماعة الإمامية الموسوية أو الاثنا عشرية ؛ فقد كان أئمتهم خطرا على أئمة الإسماعيلية من الناحية السياسية ، لأنهم يدعون الإمامة كما يدعيها أئمة الإسماعيلية ، ولأن السواد الأعظم من الشيعة قد انضموا إليهم . لذلك أصبح هؤلاء الاثنا عشرية خطرا يهدد كيان تلك الفرقة الإسماعيلية الناشئة . إلا أن العباسيين كفوا الإسماعيلية بثورة مقاومة الاثنا عشرية . فسجن الرشيد موسى الكاظم حتى مات ، وولى المأمون عليا الرضا ابن موسى الكاظم عهده ، ثم غدر به فمات مسموما ؛ وظل أحفاد موسى الكاظم يلاقون من العباسيين كل أنواع الاضطهاد ، حتى لاقوا حتفهم بين سجين أو هارب أو مقتول . ولم تأت سنة ٢٢٠ هـ حتى ادعى هؤلاء الاثنا عشرية — أمام ضغط العباسيين المتزايد — اختفاء محمد بن الحسن العسكري ، مهديهم المنتظر ، فلم يعودوا قوة يأبه لها الإسماعيلية ، خصوصا وأنهم وجدوا في قولهم بنظرية الإمام المنتظر ، فرصة ينددون بها عليهم ، ويفرقون بين إمامهم الإسماعيلي المستور وإمام الاثنا عشرية المنتظر . وكان لهذه الحرب الكلامية أثرها البين في جذب كبار أشياع الاثنا عشرية إلى المذهب الإسماعيلي . وإذا علمنا أن ابن حوشب ، وابن فضل ، وأبا عبد الله الشيعي ، وهم دعاة عبيد الله ، كانوا من الاثنا عشرية ، ظهر لنا أثر الموسوية فيما أحرزه بحيد الله المهدى من نجاح .

(٥) خمسمى المستعجلين لعقبة المهدي المنتظر :

كان لا انتشار عقيدة المهدي منذ أوائل حكم الأمويين في المشرق أثر كبير في نجاح الإسماعيلية عامة وعبيد الله المهدي خاصة ؛ فقد وضعت الأحاديث السكثيرة عن المهدي ، فاستغلها دعاة عبيد الله أحسن استغلال ، حتى إن النجاح الهائل الذي أحرزوه في كافة أنحاء العالم الإسلامي ليرجع إلى هذه النبوءات . فقد رأينا كيف استغل ابن حوشب هذه النظرية ، كما استغل اعتقاد اليمنيين في القحطاني المنتظر ، وجعلهم يؤمنون بأن القحطاني المنتظر هو مهدي الإسماعيلية ؛ ويعتقدون أنهم جنود المهدي ، وأن دولة « صاحب الزمان » و « إمام الوقت » ستنبعث من بينهم ، وأنهم سيملكون الأرض قاطبة . وبفضل هذه النظرية اعتقد بعض أن الدولة الإسماعيلية المنشودة ستقوم في اليمن ، وأن شمس الإسماعيلية ستشرق من البلاد اليمنية .

وقد لقيت فكرة مهدية عبيد الله نجاحا ملموسا في بلاد المغرب ، لأن دعاة الإسماعيلية الأوائل ، وبخاصة الحلواني وأبا سفيان ، كانوا قد لوحوا للمغاربة بتلك النظرية المهدية . فلما جاء أبو عبد الله الشيعي اعتمد عليها في دعوته اعتمادا كبيرا ، وأكد لهم قرب ظهور المهدي بينهم ، ووضع لهم من الأحاديث ، أو سردهم من الأحاديث الموضوعية في المهدي ما أثار في نفوسهم النزعة الحربية ، ليكونوا أول جنود المهدي الذين يجلسونه على العرش . ألم يقل لهم أبو عبد الله : « المهدي يخرج في هذه الأيام ؟ ، ثم ألم يقل لهم : « هذا فج الأختيار ، وما سمي إلا بكم . ولقد جاء في الآثار أن للمهدي هجرة تلبو عن الأوطان ، ينصره فيه الأختيار من أهل هذا الزمان ، قوم اشتق اسمهم من الكتان ؛ فأنتم كتامة ، وبخروجكم من هذا الفج سمي فج الأختيار (١) ؟ ، و « إن الشمس تطلع من مغربها ، وإنها لا تنكس راية المهدي عليه السلام حين يقوم بها ؟ » . وكذلك روى الإسماعيلية كثيرا من الأحاديث ؛ فما ينسبونه إلى الرسول قوله : « فإذا قام العاشر من ولدي ، هاجر

(١) انظر ص ١١٨ من هذا الكتاب .

إلى أرض المغرب ، وبنى بها مدينة تسمى باسمه ، ويكون أصداده كثيرا من أهل المغرب ، وهو الشمس الطالعة من المغرب ، وهو الذى يفتح الله على يديه المغرب ، وبه يعز من قال : أنا من أمى وعترتى (١) . وهكذا استطاع أبو عبد الله الشيعي أن يجمع المغاربة حول عبيد الله ، على أساس أنه المهدي ، وأن يقلب دولة الأغالة بمساعدة هؤلاء البربر الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم . كما استطاع أن يخضع جميع البربر في شمال إفريقيا (٢) .

وقد شهد خلفاء المهدي له بالفضل ، فقال فيه المعز لدين الله : « كان المهدي مفتاح قفل الفضل والرحمة والبركات والنعمة ، فيه فتح الله تعالى ذلك للعباد ، وذلك يتصل عنه من ذريته حتى يتم لهم وعد الله الذى وعدهم إياه » (٣) . كما يروون عن سلمان الفارسي أنه قال : « لا بد من قائم من ولد فاطمة يقوم من المغرب ، فيكسر شوكة المبتدعين ويقتل الظالمين » (٤) .

وأغرب من هذا ما يروونه عن تنبؤ الرسول بالمهدي . وبأمور أخرى كثيرة ، ما يجعلنا نعتقد أن مثل هذه الأحاديث موضوعة لا محالة . ومن تلك الأحاديث التى نشك في صحتها ما يروونه عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « قال رسول الله يوما : انطلق معي يا بن مسعود ! فضيت معه حتى أتينا (مكانا) قد غص ببنى هاشم . فقال لهم رسول الله ﷺ : من كان معكم من غيركم فليقم ، فقام من كان معهم من غيرهم ، حتى لم يبق إلا بنو هاشم خاصة : بنو عبد المطلب وبنو العباس . فقال لهم النبي : يا على ! أخبرني جبرائيل أنك مقبول بعدي ، فأردت أن أراجع ربي ، فأبى على ، قال : ... فالويل لعترتي ولأهل بيتي ، ولبنى أمية مما يلقون من بنى العباس . ويهرب من بنى أمية رجال ، فيلحقون بأقصى المغرب ، فيستحلون فيه المحارم زمانا . ثم يخرج رجل من عترتي غضبا لما لقي أهل بيتي وعترتي ، فيملا

(١) المجلس السابع عشر والمائة من مجالس سيدنا حاتم بن إبراهيم الحارثي ص ١٠٨ (من المنتخب)

(٢) Sanhoury : Le Califat, p. 380.

(٣) شرح الأخبار ص ٢٠ (من المنتخب) .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٤ — ٢٥ .

الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما ، (١) .

هذه الأحاديث وغيرها كان يستغلها دعاة الإسماعيلية إلى أبعد حد ؛ وبفضل هذه والتنبؤات ، استطاع دعاة المهدي في المشرق أن يصلوا إلى سويداء قلوب الناس ، حتى خيل للعباسيين أن الأرض ستميد بهم ، وأن أنصارهم ، كإسماعيلية والزارية ، وقوادهم كيوسف بن أبي الساج وسواه ، سيكونون جنودا للفاطميين ، وحربا عوانا عليهم .

وقد عملت نظرية المهدي عمل السحر في نفوس القرامطة ؛ فنادوا بها جميعا . ولما قامت الدولة الفاطمية جهر أبو طاهر الجنابي بأنه من دعاة المهدي ، الذي خرج على العباسيين ، خروج الأسد الغضنفر ، والذي سيملك الأرض شرقا وغربا . ومع ذلك فقد غرر به بعض الأدعياء في أخريات حياته (في سنة ٣١٩ هـ ، ٣٢٠ هـ) ، فادعى له أنه يعلم الغيب ، حتى إنهم سموه « المهدي الكذاب » . وهذا يدل على عظم تأثير هذه النظرية في الإسماعيلية . ومهما يكن من شيء ، فإن نظرية المهدي كانت عونا لعبيد الله فيما أحرزه من نجاح في زمن استتاره ؛ وإليها يرجع الفضل في جلوسه على العرش في سنة ٢٩٧ هـ .

(هـ) برامج الإسماعيلية ووسائلهم الخاصة لنشر مذهبهم :

كان من أهم عوامل نجاح الإسماعيلية في نشر دعوتهم ، أنهم نهجوا مناهج بذوا فيها غيرهم من الفرق الشيعية الأخرى ؛ فكان الإسماعيلية يبالغون في التخفي في نشر دعوتهم ومبادئ مذهبهم . على شكل خطوات تتدرج من المعلومات البسيطة ، حتى تصل بالمستجيب إلى مبادئ فلسفية عميقة ، لا يفهمها إلا القليلون ؛ حتى إن المستجيب كان لا يعرف شيئا عن الدرجات التي تلي درجته ، وإنما كان همه الوصول إلى درجة أعلى من الدرجة التي وصل إليها ، وأصبح كثير من الإسماعيلية لا يعرفون شيئا عن زملائهم الذين انتظموا في سلك المذهب الإسماعيلي ، وخفي أمرهم على خصومهم العباسيين .

كذلك استغل الإسماعيلية ، وعلى رأسهم عبيد الله ، مذهب التقية ؛ فكانوا سنيين مع أهل السنة ، شيعيين مع الشيعيين ، يهودا مع اليهود ، ومسيحيين مع المسيحيين ، ومجوسيين مع المجوس . وبذلك انضم إلى عبيد الله ألوف مؤلفة من المسلمين ، ولم يشعر العباسيون إلا وقد حقق الإسماعيلية أغراضهم بإقامة دولة إسماعيلية خالصة . كما برع الإسماعيلية منذ نشأتهم في تنظيم دعوتهم تنظيماً رائعاً ، فتظاهروا بالتقشف والورع ، وبالبلاغة والتضلع في العلم . وخصصوا لكل منهم مبادئ يلقونها المستجيبيين . وكان لنظام التخصص هذا أثره في تكوين جماعة من العلماء الدعاة الذين يتقنون ناحية مذهبية خاصة ، ويستطيعون أن يمثلوها في أذهان سامعيهم من المستجيبيين . وكان دعاة عبيد الله المنتشرون في كافة أنحاء المملكة الإسلامية ، أشبه بجواسيس ينقلون إلى عبيد الله أسرار الدولة العباسية وأخبار ولايتها ، ويحذرونه الخطر الذي قد يحدق به أو بدعوته ودولته . وقد اعتمد عبيد الله على دعاة المقيمين وعلى دعاة السيار ، اعتماداً تاماً في وقت فراره من سلمية إلى بلاد المغرب ؛ واستطاع بفضل هؤلاء أن يتجنب الأخطار التي كادت تحيق به . كما آمن الناس بفضلهم بمهدية عبيد الله ، فهب الإسماعيلية في البحرين واليمن وبلاد المغرب ، يذودون عن مذهبهم بسلاحهم ، حتى أقاموا له دولة قوية العمار تربع على هرشها .

وكان لنظام أخذ العهود على المدعوين ، أثر كبير في جذبهم إلى المذهب الإسماعيلي ورؤسائه ، كما أن القيود ، التي كانت تربطهم بهذا المذهب برباط وثيق لا ينفصم ، وتجعل المستجيبيين يتركون معتقداتهم السابقة ويلتفون حول رئيس دعوتهم الجديدة ، لا تقل أثراً في هذه السبيل .

وليس من شك في أن نظام الدعوة الإسماعيلية نظام يقوم على الإخاء والمودة ، ويربط الفرد بالمجموع بوشائج قوية ، بحيث يرى هذا الفرد أن حياته في تماسك الجماعة . ولذلك ترى الإسماعيلية مرتبطة بعضهم ببعض ارتباطاً يشير الدهش ، وترى جماعتهم تتكون من أفراد مختلفي المشارب والنزعات . ومع ذلك يرتبطون بالحب والإخاء ، والتفاني في سبيل النهوض بمذهبهم والدفاع عن رئيسهم وخليفته . فهذا الفيلسوف النسفي يدافع عن مذهبه ورئيسه بقلبه ولسانه ، وهذا الداعي المحارب ، كأبي عبد الله الشيعي وابن حوشب ، يزيلان الدول ويثلان

العروش لإحياء دولة إسماعيلية . كما ترى عامة أتباع هذا المذهب وسوادهم ، ومنهم الزارع والتاجر والصانع ، وكل هؤلاء يتنافسون في الدفاع عن المذهب الإسماعيلي وأنصاره . وبفضل هذا كله استطاع عبيد الله المهدي أن يتقلد رئاسة الدولة الإسماعيلية .

ناهيك بهذه المبادئ الخلابية التي كان الإسماعيلية ينادون بها ، وما كان لها من أثر في النهوض بالمذهب الإسماعيلي ، والانتفاف حول عبيد الله المهدي . فقد استغلوا مبدأ التأويل ، ليثفروا الناس من أديانهم ومذاهبهم ، ويربطوهم بمبادئ المذهب الإسماعيلي برباط متين ، وينشروا كثيرا من الغموض ، ليمثلوا نفوس الأتباع بالأمل . وقد استغلوا ذلك المبدأ الجذاب ليثبتوا للبلأ والأتباع أن مذهبهم إنما وجد لمحاولة فهم حقيقة الدين الإسلامي وباطنه ؛ أو بعبارة أخرى ، أن المذهب الإسماعيلي دين الباطن ، والإسلام دين الظاهر ، لأن عليا صاحب التأويل ، ومحمدا ﷺ ! صاحب التنزيل .

وكذلك استغل الإسماعيلية مبدأ الشعوية ذي الخطر ، ليستثيروا الوطنية في الشعوب المغلوبة على أمرها ، ويوجهوهم إلى محاربة أعدائهم الأساسيين وهم العباسيون . وكان للشعوية أثر كبير بين مستجبي الفرس والديلم والنبطيين وسواهم ؛ فقد آلى هؤلاء على أنفسهم أن ينتقموا من العباسيين الذين أذلّوهم ، فثاروا تحت رايات زعمائهم الإسماعيلية من الدعاة وسواهم . وقد رأينا عبد الله بن ميمون القداح ، مؤسس المذهب الإسماعيلي ، يستعين بكثير من أنصار الشعوية ، لينقض بهم على العباسيين ، ويحقق مآربه السياسية الدينية في خلق جماعة تدين للأئمة الإسماعيليين بالطاعة . ولا يقل تأثير مبدأ الدعوة لدين عام يتفق مع مشارب الجميع ، ومبدأ المهديّة ، عن هذه المبادئ السابقة أثرا ؛ فقد ظهر تبعاً لذلك جماعة من طيقات مختلفة يسعى كل منها في إخلاص في سبيل نجاح دعوة المهدي المنتظر .

خاتمة القول في عبيد الله المهدي

أهم صفاته :

يعتبر عبيد الله المهدي من الرجال الذين لا يجود بهم الدهر إلا نادرا . فقد استطاع ، بفضل ما أوتيته من قوة الشخصية ، وما جبل عليه من الصفات العالية ، أن يحقق ما عقده عليه الإسماعيلية من آمال بعيدة ، في توطيد دعائم المذهب الإسماعيلي في كثير من أرجاء العالم الإسلامي ؛ كما استطاع أن يخلق بال الدولة العباسية ويشير مخاوفها ، ويقضي على دولة الأغالبة التي اعتمد عليها العباسيون منذ أيام هارون الرشيد في الوقوف في وجه الأدارسة ، ورد هجماتهم نحو الشرق . ويقع في النهاية دولة مهيبة الجانب ، استطاعت أن تقتطع خيرة بلاد الدولة العباسية في المغرب ومصر ، وفي الشام وفلسطين والحجاز واليمن وغيرها ، كما عولت على مد نفوذها إلى بغداد حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين . كل ذلك كان راجعا إلى الصفات التي تجلّى بها عبيد الله المهدي ، والتي كان لها أثر بعيد فيما أحرزه من نجاح .

فقد امتاز المهدي بالصبر . ونستطيع أن ندرك أثر تلك الصفة في موقفه من القرامطة ؛ فقد رأى انتفاض حمدان قرمط عليه ، وحدة منافسة أبناء زكرويه ابن مرويه له . ومع ذلك ظل يصابرهم ، ويعمل في هدوء على تنظيم جماعته ، وعين داعيا لدعائه يحل محل حمدان قرمط ، واتصل بأبناء زكرويه دون أن يثور عليهم كما ثاروا عليه ، وظل يرقب في ثبات جميع حركاتهم في الشام . فلما أخفق في معالجته الأمور في صبر وروية ، غادر بلاد الشام . وكان لهدوئه أثر عظيم في كل ما ناله من نجاح . فقد عرف عن طريق دعائه المقيمين في الشام ، أن رسل العباسيين يلاحقونه ؛ ومع ذلك لم يجد الهلع إلى نفسه سبيلا ، بل أخذ ينظم برامج رحلته في هدوء واطمئنان . وفي مصر عرفه أحد المصريين ، وهم بالقبط عليه وإفشاء سره ، ومع ذلك تخلص منه عبيد الله في لباقة تدل على الذكاء والثبات والصبر . ثم انظره وقد بكى داعيه المقيم بين يديه حين رأى المصاعب تلاحقه من كل جانب ، يهدى من روعه في هدوء محسد عليه ، ويتغنى بشعر لا يدل على الثبات فقط ، وإنما يدل على

الاستماتة في تحقيق كبار الآمال . ولولا ثباته وثقته بنفسه وصبره ، لما استطاع تحمل المسكاره وهو بسلبية ، ثم وهو في طريقه إلى مصر ؛ بل لما استطاع أن يصل إلى سجناسه ويمر ببلاد الأغلبة الذين كانوا يتحرقون شوقا للقبض عليه والفتك به . وقد رأيتاه ثابتا هادئا حين هب في وجهه أنصار أبي عبد الله الشيعي ، وأرادوا الفتك به بعد أن التفوا حول قصره ، فتقهقروا بسبب ثباته ، وعادوا من حيث أتوا .

ومن أهم صفات المهدي الجود . فكان ينفق عن سعة ، ولم يكن ذلك راجعا إلى ماله ، بل لأنه كان جوادا بطبعه . وقد استطاع بفضل جوده أن يجذب إليه أهل سلبية وعمالها ، حتى طجت الألسن بالثناء عليه . ولكن جوده قد أثار الشكوك على ما رأينا . وانتهى الأمر بخروجه من سلبية . وبفضل جوده سكنت عنه محمد ابن سليمان وعيسى النوشري ، واستطاع أن يجذب إليه اليسع بن مدرار صاحب سجناسه حينما من الزمن . وهكذا كان جود عبيد الله المهدي من العوامل التي ساعدته على التغلب على الصعاب التي كانت تعترضه . ولا ننسى أنه بفضل جوده وكرمه ، زاد تعلق أتباعه به ، وتقانوا في إخلاصهم له ، حتى كان يقرض لحم الواحد منهم ، وتقلع أظفاره ، على أن يقر عليه فلا يفعل . وبفضل جوده كان يجد من الأصدقاء من يعتمد عليه . انظره وقد أصبح رئيس قافلة هربه طوع بئانه ، يقطع الفيافي والقفار ، ويحمل القافلة كل أنواع المشاق . وإنما فعل ذلك كله لإرضاء لعبيد الله المهدي ؛ ولولا ذلك لوقع في قبضة زيادة الله الأغابي .

وكان عبيد الله فوق ذلك مهيبا ، يفرض احترامه وتقديره على من يراه ، حتى إن علماء الإسماعيلية يرجعون سبب نجاحه في الإفلات من مصر ، إلى هذه المهابة التي ألقى الله بها في قلب عيسى النوشري ، كما يقولون : إنه بفضل مهابته لم يلحق به سوء من ناحية اليسع بن مدرار . يقول أبو حنيفة النعمان عن عبيد الله في سجناسه : « أقام بها ، وكل ذلك تلاحظه العيون في طريقه ، وحيثما نزل ، وفي أي مدينة دخل ، ويقول كل من رآه من له تمييز وبصيرة : والله ما هذا تاجر . وما هذا إلا سلطان أو ملك من الملوك . وكذلك كان يقول فيه كثير من أهل سجناسه . وكان مما يدل

عليه إفضاله على من يصحبه أو يأتيه ، وما أنزل الله من المهابة والجلالة في عين من رآه ^(١) . ثم انظره وقد أنقذته هيئته وجلالة قدره من صلف اليسع ، وه أنزل الله بأكثر الهيبة في قلبه (أى قلب اليسع) والجلالة في عينه ، فلم يمتحنه بأكثر من أن جعله في دار . وجعل عليه حرسا ، وجعل ابنه القائم بأمر الله كذلك في دار أخرى ^(٢) .

كما امتاز عبيد الله المهدي بالصدق ، حتى في أخرج أوقاته ؛ فقد أعلن لعبدان ، أحد زعماء قرامطة السواد ، أنه من نسل القداح ^(٣) ، مع أن ذلك يعرضه للخطر . لكنه لم يشأ أن يقرب غير الصدق ، ويعان في شيء من اللباقة لليسع بن مدرار ، صاحب سبيلاسة ، أنه ينتمى إلى العلويين حقا ، ويقرر أنه لا يعرف أبا عبد الله ، ويقسم له بأغلاظ الإيمان على ذلك . وهو صادق في اعترافه ، لأنه لم ير أبا عبد الله حقا . وهكذا اعترف له بالنسب ، إذ لم يسعه إنكاره ، ولغزله في ذكر أبي عبد الله فقال : ما رأيته ولا أعرفه ، وكذلك كان ، لم يره . ولما سأله اليسع بن مدرار : « فهذا الرجل الذى ظهر ببلد كتامة ، وغاب على نواحي إفريقية إليك يدعو ؟ قال : ما رأيت هذا الرجل ولا أعرفه . وكذلك كان ، لم يكن - صلح - ، رآه كما ذكر... قال : ولكنه بلغنى أنه يدعو إلى الرضا من آل محمد . قال : فإنه قد أخذ بإفريقية . وأقبل بعساكره إلينا ، وما يدعو إلا إليك . قال (المهدي) : أهل النسب بالمغرب كثير . فإن كان يدعو إلى نفعك عنده ، ولم أضرك ، وإن كان إلى غيرى لم يكن على في ذلك مقال ^(٤) .

كان عبيد الله المهدي وسيما جميل المنظر . ويروى الإسماعيلية فيه حديثا يؤيد ذلك : « المهدي رجل من ولدى ، أرى وجهه كالنكوكب الدرى : اللون لون-

(١) افتتاح الدعوة الزاهرة (من المنتخب) ص ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ .

(٣) انظر ص ٨٥ من هذا الكتاب .

(٤) شرح الأخبار (من المنتخب) ص ٣٢ .

عربي (١). والجسم جسم إسرائيلي (٢). فكان المهدي «وسيمًا جسيمًا بساطًا ، لا يكاد أحد يماشيهِ إلا قصر عنه ، وصغر إلى جانبه» .

وكان عبيد الله قوى الساعد ، شديد البطش . جاء في شرح الأخبار «روى عبد الله بن عمر ، وذلك بما أثره أو نقله عن رسول الله قال : يعطى المهدي قوة عشرة» . ويقولون أيضا عنه : «كان المهدي قويا أيذا ، معروفا بذلك من حداثة سنه» . وكان حين تولى الإمامة وتقلد الدعوة شابا يمتلئ قوة ونشاطا ، حتى قالوا فيه : «يقوم المهدي ع م . وليس في رأسه ولا لحيته طاقة بيضاء» ، وأنه «لما قام بالإمامة وسلمها إليه إمام الزمان (٣) الذي كان في عصره ، ونص عليه بأنه مهدي الأئمة ، ودعت بذلك إليه دعااته ، وهو يومئذ حديث السن ، مقتبل الشباب من الفتيان وأحسن الشبان» (٤) . فهذه الصفات وغيرها تدل على أن المهدي كان جديرا بالزعامة .

أولاده وزوجاته :

تسكاد تجمع المراجع الإسماعيلية التي تذهب إلى القول بأن المهدي أبو القائم . على أنه لم يكن له ولد سواء ؛ على حين يرى بعض آخر أن عبيد الله كان له ولد آخر غير القائم . لم يل الأمر بعده ، وإنما انتقلت الإمامة من المهدي إلى القائم ، بخلاف ما ذهبنا إليه من أن القائم لم يكن ابنا حقيقيا جسيميا لعبيد الله المهدي ، وإنما كان ابن الإمام المستقر السابق ، وهو الحسين بن أحمد بن عبد الله ، أو على ابن الحسين هذا . ونحن نعلم أن عبيد الله حين فر لم يصحب معه غير القائم . لذلك لا نجمع عن القول بأن المهدي حين تولى عرش الخلافة الإسماعيلية الفاطمية في سنة ٢٩٧ هـ ، لم يكن له من الأبناء الجسمانيين أحد . كما أننا لا نعرف هل كان قد تزوج بعد اعتلائه العرش ، أو أنه أنجب من نسائه وهو في سلمية . وقد

(١) لأنه أبلغ تشويه حجة .

(٢) جسم إسرائيلي : أى جسم فهو أجسم من العرب .

(٣) يقصد بإمام الزمان : الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق

(٤) شرح الأخبار ص ٩ .

ذكرت المراجع الإسماعيلية أنه لما غادر سلبية ، لم يصحب عند هربه غير القائم . وأم حبيب زوجة القائم ، ثم زوجته هو وابنتيه وابنتي أخيه (١) . كما أنه ترك في قصره جارية له تدعى دلع ، ومعها ابن ذكر منه . ولكن الحسين بن زكرويه المعروف بأبي مهزول ، قتله في مذبحه العلويين بسلبية (٢) ، حيث رميت هذه الجارية د في الصهريج . وقتل ولدها ، ومن كان معها . وفرق الصقالبة فأتوا إليه بجميع من في ذلك القصر (أى قصر المهدي) من صغير وكبير ، من الرجال والنساء . فقتلهم كلهم ، ورعى بهم في ذلك الصهريج ، وكانوا ثمانين وثمانين نفساً (٣) . ومن ذلك نستطيع أن نقول إنه لم يكن للمهدي ولد جسماني أو روحاني ، سوى القائم . على أن ما ذهب إليه ابن عذارى من أنه كان لعبيد الله ستة أولاد ، أكبرهم أبو القاسم ولي عهده وخليفته ، لا يتعارض مع ما ذهبنا إليه ، وهو أن المهدي لم يكن له أبناء عند وفاته سنة ٣٢٢ هـ . وأما الذي يلفت النظر حقاً فهو ما ادعاه ابن عذارى (٤) من أن المهدي كان له ولد آخر ، وأنه أشيع بين الناس أنه يريد نقل ولاية العهد إليه في سنة ٣١٦ هـ ، حتى إن أبا القاسم (القائم فيما بعد) حين علم من ابنه د قاسم ، أن الناس تحدثوا بمبايعة عبيد الله لابنه أحمد المسكنى بأبي علي ، ألقاه ذلك (٥) . أضف إلى هذا ما كان من ادعاء رجل من أهالي طرابلس أنه ابن المهدي ، وثورته على القائم (٣٢٢ هـ) . كل هذا — إن صح — يؤكد ما ذهبنا إليه من أن القائم ليس ابن عبيد الله ، وإلا لما ثار على القائم ابن طالوت القرشي في طرابلس ، وادعى أنه ابن المهدي ، ولم يقل إنه أخو القائم . أضف إلى ذلك أن النعمان ينسب إليه ولد اسمه الحسن ، أنجبه من أم ولد له في المهديّة ؛ لكنّه لم يدع إليه ، بل أقرت أمه بزوال الأمر عن بيت المهدي إلى بيت القائم (٦) .

(١) سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠ .

(٢) استتار الامام ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٣) استتار الامام ص ١٠٥ .

(٤) البيان المغرب : ج ١ ص ٢١٥ — ٢١٦ .

(٥) النعمان المحاسن والمصاير ج ٢ (المجلد الثاني) ورقة ٦٢١ .

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٩ .

وأما عن زوجات عبيد الله ، فإننا لا نعرف له من الحرائر سوى ابنة عمه التي زوجها إياه الإمام الحسين بن أحمد . بعد أن ولاه عمده . ويدعى بعض أنها أم القاثم ^(١) ، وأنها صحبته في رحلته من سلبية إلى بلاد المغرب . كما لا نعرف له من الإمام سوى جاريته . ولعب . ، التي قتلها الحسين بن زكرويه في مذبحة سلبية ، على ما تقدم ، وأم ولده أبي الحسن الذي ولد بالمهدية وأصيب بالجذري ، وفقد بصره ^(٢) .

وفاته المهرى :

توفي أبو محمد عبيد الله المهدي بمدينة المهدية ، بعد أن حكم بلاد المغرب أكثر من أربع وعشرين سنة ، وتوفي وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة . وقد ذكرنا أنه ولد في سنة ٢٦٠ هـ أو في سنة ٢٥٩ هـ ، وأن ذلك كان بمدينة سلبية ، على ما ذهب إليه جهمرة المؤرخين ، أو بالأهواز على ما ذهب إليه بعضهم ، وتقلد وظيفة الحجّة أو نائب الإمام عقب وفاة عمه أحمد بن عبد الله القداح في سنة ٢٨٠ هـ . ولم يكن عبيد الله قد جاوز العشرين ، فأظهر إخلاصه وتفانيه للمذهب الإسماعيلي ، ولذلك كان موضع ثقة زعيمة الإمام المستور الحسين بن أحمد بن عبد الله ، على ما ذهب إليه عامة مؤرخي الإسماعيلية ، أو على بن الحسين ، على ما ذهب إليه الداعي الخطاب في كتابه غاية الموالي . ومن ثم قلده إمامة الإسماعيلية استمداً على استقراره . ومع أننا لا نعرف السنة التي تولى فيها عبيد الله الإمامة ، فإنه بما لا شك فيه أنه لم يتقلد الإمامة قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، أو بعد أن جاوز الثلاثين ، لأننا نراه يفر من سلبية في سنة ٢٨٩ هـ ، وهو متقلد رتبة الإمامة وسنه لا تتجاوز الثلاثين ، وأنه قام بوظيفته الجديدة خير قيام ، واجتمعت فيه صفتا الحجّة والإمام ، واستمر على ذلك مدة في سلبية ، ثم وهو في طريقه إلى بلاد المغرب ، واستقراره في سجلماسة ، حتى أجلسه داعيه وتابعه أبو عبد الله الداعي على عرش الخلافة في أوائل سنة ٢٩٧ هـ ، بمعنى أن عبيد الله المهدي دخل إفريقية (تونس) .

(١) سيرة جعفر الحاجب ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) الثمان : المجالس والمسارح ج ٢ ص ٦٢١ .

ولما يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره . وكان عبيد الله المهدي في عهد خلافته إماماً مستودعاً لا مستقراً ، ظاهراً لا مستوراً . كما كان مثال الأمانة المطلقة ، حافظ على الإمامة المستقرة ، وردّها إلى مستحقها القائم ابن الإمام الحسين بن الإمام أحمد بن الإمام عبيد الله بن الإمام محمد بن إسماعيل ، وذلك في سنة ٣٢٢ هـ .

هكذا انطوت صفحة عبيد الله المهدي ، مؤسس الدولة الفاطمية ، بعد أن قضى وقتاً طويلاً إماماً مستوراً ، وإماماً ظاهراً ، وخليفة ، يحكم دولة امتد نفوذها فيما بعد من المحيط الأطلسي غرباً إلى بلاد العراق شرقاً ، ومن جبال طوروس شمالاً إلى بلاد السودان جنوباً . وكانت هذه الدولة مضرب المثل في ازدهار الحضارة الإسلامية ، وفي السياسة والدين والثقافة .

ونحن إذ ننتهي من دراسة حياة عبيد الله المهدي ، نرجو أن نكون قد وفقنا إلى تحليل هذه الشخصية الغدة ، وإمطة اللثام عن كثير من الحقائق التي كانت لا تزال غامضة في تاريخ المذهب الإسماعيلي ، وهو الغرض الأول الذي نرمى إليه من دراسة حياة عبيد الله المهدي ، وغيره من الخلفاء الفاطميين ، الذين كان لهم أثر كبير في تطور المذهب الإسماعيلي . على أن تمام بحث تاريخ هذا المذهب إنما يكون بما نحاوله بعد هذا الكتاب من دراسة عصر الخليفة الفاطمي الرابع ، وهو المعز لدين الله الفاطمي ، الذي حكم الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ومصر زهاء أربع وثلاثين سنة (٣٤١—٣٦٥ هـ) ، ثم دراسة عصر الخليفة المستنصر (٤٢٧—٤٨٧ هـ) وما يتلوه من دراسة تاريخ البارزين من أئمة الإسماعيلية مستعلية ونزارية ، فيتصل بذلك بحث تاريخ المذهب الإسماعيلي ، الذي امتد نفوذه في كثير من أرجاء العالم الإسلامي قروناً ، والذي لا تزال مبادئه باقية إلى اليوم في كثير من البلاد الإسلامية ، وبخاصة بين البهرة والأغاخانية .

الملاحق

ملحق ١

نهاية الإمام إسماعيل بن جعفر وإمامته (١)

و مما يدل على إمامة إسماعيل أيضا ، صلوات الله عليه ! أن الصادق ، صلوات الله عليهما ! لما قبض أقامه في مجلسه مسجى ثلاثة أيام ، وهو مكشوف الوجه ، والناس يدخلون عليه فيعرفونه ، من بنى هاشم وغيرهم وسائر أهل المدينة والزوار ، [و] إنه يقول لمن دخل إليه وعزاه فيه : أليس هذا ولدى إسماعيل ؟ ولا يستدل المستول من قول نعم عند ما رأى ما رآه ؛ فعند ذلك يأخذ خطه في محضر حضره . وإنه لم يزل على ذلك ، حتى أخذ خطوط كل من في المدينة وغيرهم من الزوار وأهل المدينة ، وأنه خرج به في اليوم الرابع إلى البقيع ، وهو مكشوف الوجه ، وأنه كان ينزله ويقبله ، ويقول : والله ما أسنى على إسماعيل ، أسنى على ما أودعته إياه ، ويشاهد جماعة من معه ، ويأخذ بذلك خط من لم يحضره من قبل خروجه ، وأنه لم يزل على ذلك مرارا ثلاثة ، ومع الرابعة أنزله على قبره ، وفعل به مثل ما فعله في غيره ، وأشهد الخلق بذلك .

ودفنه بمحضر منهم ، وكتب أصحاب الأخبار بذلك إلى المنصور ضده ، وكتب أيضا الصادق إليه يعزيه فيه ، وكان قد جعل عيونا على الصادق حتى يعرف إلى من يسلم الأمر إليه فيقتله ، وأنه لما وصلت الأخبار إليه اضطرب ، وهم بالتوجه إليه في طلبه ، حتى أتاه موته فسكن ما كان يجده منها . ثم إنه لم يمر له إلا أيام حتى يحكى له أن رجلا كان بالبصرة زمنا ، له ستون سنة (٢) ، وأنه كان قاعدا على باب دكانه يعمل الخوص ، وأنه مر به شاب من وصفه وصفته (٣) ، والناس يهرعون حوله ،

(١) جعفر بن منصور البين : أسرار النطاء ، نقل عن كتاب المنتخب من كتب الاسماعيلية ،

طبعة إيفانو (ص ١٠٣ - ١٠٤) .

(٢) في الأصل ستين .

(٣) يقصد المؤلف إسماعيل بن جعفر الصادق .

ويسمونه ، ويكنونه (١) . وأن الزمن لما مر به ، وكان يتشيع لآليه ، ناداه : يا بن رسول الله - خذ بيدي أخذ الله بيدك ، فرجع يأخذ بيده ، وأنزله من مكانه ، ثم ساربه ساعة وخلاه ؛ فرجع إلى موضعه صحيحا سويا ، فاجتمع إليه الناس . وقيل (له) : من مر بك ؟ قال : إسماعيل بن جعفر بن محمد ، صلوات الله عليهم !

فكتب أصحاب الأخبار بموته (٢) ، ووصل كتاب الصادق بالنعزية فيه ، ثم قرأها . وقال : إنه لا يزول سحر بنى أبي كبشة . . . حتى يفنوا عن آخرهم . ثم إنه أرسل لوقته إلى الصادق ، فأشخصه إلى حضرته ؛ فلما مشل بين يديه ، أخرج إليه كتابه وكتاب أصحاب الأخبار بموته ونعزيته ، وقال له : أليس هذا خط يدك ؟ تعزيني في إسماعيل ؟ قال : نعم فعند إقراره أخرج إليه كتاب أصحاب الأخبار بما كان من قصته بالبصرة ؛ فعند ذلك أخرج الصادق عليه السلام المحضر الذى حضره بموته ودفنه ، فلما رآه ووقف على ما فيه من الشهود ، سكن ما به من الغضب ، فأحضر جماعة من بنى هاشم كانوا عنده ، فشهدوا بما رأوه ، وثبتوا على خطوطهم . فعند ذلك أمر بترك (٣) الصادق وإكرامه ، وردّه إلى موضعه . والخلق لا يعلمون سر الله كيف يجرى فى أوليائه ، ولا ما منحهم به فى كل عصر وزمان . ورجع الصادق إلى حرم جده ، وجلس مجلسه ، كما جلس يعقوب فى مجلس يوسف بعده ، وشعيب لما انقطع التأييد عنه .

صلوات

فى إمامة محمد بن إسماعيل (٤)

« وقام محمد بن إسماعيل ، صلوات الله عليه ! وهو سابع الأئمة وقائهم ، مقابل لجده على أمير المؤمنين تمام الدور الروحاني ، والخلق الآخر الذى هو نفس

(١) فى الأصل ويكنفونه ، وليس هناك ما يمنع صحة هذا التعبير ، غير أن ما ذكرناه أقرب إلى الصواب .

(٢) أى كتب أصحاب الأخبار بموته إلى أبي جعفر المنصور .

(٣) فى الأصل ينزل .

(٤) الداعي إدريس : زهر المعاني ، من كتاب المنتخب من بعض كتب الاسماعيليه ، طبعة لايفانو (ص ٥٢ - ٥٦) .

الشيء وروحه ومعناه ، وهو تمام الدور الأول ، ومنه ابتداء الدور الثاني .

وكان بالمدينة ، فقام بدين الله سبحانه ، وبث الدعاة ، ونشر العلوم ، وأمر دعائه بطلب دار هجرة يلجأ إليها . وكان في عصر الرشيد ، فلما بلغه علم محمد بسبب انتشار دعوته ، أمر بالقبض عليه ، وأن يؤديه إليه . وكان الإمام قد أعد بداره سرية (١) ينسكتم فيه من الضد (٢) . فلما وصل الرسول من الرشيد إلى المدينة ، دخل ذلك السرب واختفى فيه ، وطلبوه فلم يجدوه ولا قدرُوا عليه . فعادوا إلى الرشيد ، وأنهموا إليه خبر ما فعلوه . ولما هدأ الطلب ، سار الإمام في طلب دار هجرته ، وخلف بالمدينة ولدين خالين من الإمامة ، وهما إسماعيل وجعفر ، وشخص إلى نيسابور بنفسه منسكبا عن ضده ، وهو يدور ما بينهما (٣) وبين الديلم . وتزوج بنيسابور امرأة ، فولدت له ولدا فسماه عبد الله ، وكناه الرضى ، وعرف عبد الله الإمام بالعطار كتما لمقامه وإخفاء له . ونصب له حُجبا ، وأمر كل واحد من الحجب والحجج أن يتسمى باسم الإمام ؛ فمن أخذ العهد على مستجيب ، سمي له أحد أولئك الحجب ، حتى يمضى الوهم إليه سترًا على صاحب الأمر . وجرت بذلك السنة والقضية في الأئمة المستورين الثلاثة . فمن ذلك أن الدعاة في أوضاعهم يسمون هؤلاء الأئمة بأسماء مختلفة ، ما اتفق منها في ذلك اثنان .

فقام محمد باللسان ، وصمت عنه السيف إلى بلوغ الكتاب أجله (٤) ، فأظهر العلوم ، وبين الحقائق وكشف لخصائمه منها السر المكتوم ؛ فظهرت منه حقائق ومعجزات ، ودلائل وآيات ، لم تظهر في الأئمة من قبله ، ولا قام أحد من الأئمة كمثلها ، لأنه السابع صاحب القوة والظهور ، والضياء والنور ، ومبين العلم المستور . وكان محمد بن إسماعيل متم الدور المنتهية إليه غاية الشرائع المختومة به ، المشتغل على مراتب حدودها ، المحيطة بعلومهم . وهو القائم بالقوة ، صاحب الكشف الأولى ؛ لأن القائم بالفعل هو القائم الكلى ، الذى هو صاحب الكشف الأخرى والبطشة

(١) السرب : بتفديد السين المقترحة ، الحفير تحت الأرض ، والطريق .

(٢) يقصد به عارون الرشيد ، كما أن ضد جعفر الصادق هو أبو جعفر المنصور .

(٣) في الأصل ما بينهما .

(٤) في الأصل : إلى بلوغ كتاب أجله .

العظمى ؛ قائم القيامة الكبرى ، لأن القيامات كثيرة ، أولها المأذون المكفوف ، ثم
المأذون المطلق ، ثم الداعي المحرم ، ثم الداعي المطلق ، ثم داعي البلاغ ، ثم الحجة ،
وغايتها الباب . وإنما كانت هذه الحدود قيامات ، كقيام كل واحد منهم بما يتصل
من الصور المجردة المفارقة للأجسام الصائرة إلى أفقه المعروفة به .

ويتلو هذه القيامات قائم قيامة كبرى ، وهو المقام الذى هو الإمام عليه أفضل
السلام ؛ فهو قائم القيامة ونهاية النهايات ، وكل أحد من ذكرنا قائم بنسبة إلى من
دونه . ويتلوها جميعا قائم القيامة الكبرى ، صاحب البطشة العظمى ، المجتمعة عنده
جميع المقامات ، وهو لهم غاية الغايات الشريفة ، الجامع لها . . . وإنما وقع عليه
اسم الناطق السابع لنطقه بالامر الإلهى ، وجمعه للفضل الذى هو إليه متناهى ،
وليس يتم ولا رسول ، بل هو منفرد برتبة الوحدة . وقد تم التمام ، واتسق النظام .

وإنما خص محمد بن إسماعيل بذلك ، لانتظامه فى سلك مقامات دور الست ، لأنك
إذا عدت آدم ووصيه وأئمة دوره ، كان خاتمهم الناطق ، وهو نوح عليه السلام . . .
وإذا عدت عيسى ووصيه وأئمة دوره ، كان محمد ﷺ متسلما لمراتبهم ، وهو الناطق
الخاتم للنطقاء ، وكان وصيه عليه السلام بالفضل منفردا . وإذا عدت الأئمة فى
دوره ، كان محمد بن إسماعيل سابعهم ، وللسابع قوة على من تقدمه . فلذلك صار
ناطقا وخاتما للأسبوع وقائما ، وهو ناسخ شريعة صاحب الدور السادس ببيان
معانيها ، وإظهار باطنها المبطن فيها .

. . . ومحمد بن إسماعيل لم يبطل شيئا من ظاهر شريعة محمد صلى الله عليه وآله !
بل أكدها ، وأمر بالعمل بها . وعلى ذلك سنة الأئمة الطاهرين من أبنائه التابعين
لهم ، قياما بالتكليفات ومحافظة على المفترضات ، من غير ترخيص ولا إهمال ،
ولا ترك ولا إبطال ، وإنما عفى الإمام المعز بقوله : وعطلت بقيامه ظاهر شريعة
محمد ، لما كان لمعانيها مبينا ، ولأسرارها كاشفا ومجليا ؛ فأزال عن أتباعه وأشياعه
اعتقاد الظاهر ، على ما فيه من تعطيل وتشبيه للبدع الحق بخلوقاته ، وتمثيل وتجسيم
لللائكة الروحانيين ، واعتقاد لذلك ، على ما هو موجود فى هذه الدار . فعطل ذلك
الاعتقاد ، وبين فيه المراد ؛ كاشفا للحقائق ، وإظهار البيان الصادق ، وقيام بالتأويل
الذى عرف فيه التوحيد بحقيقته ، ونزه البارى سبحانه عن صفة خلقته ، وعرفت

الملائكة بجوهرها اللطيف ، وبين الثواب والعقاب على ما يعتقده أهل التجسيم والتكثيف .

ملحق ٣

ظهور المهدي (١) .

« . . . وكان أهل النجوم والحساب يذكرون ظهور المهدي بالله ، ويبشرون بدولته . ثم إن الملوك والأضداد أيقنوا بذلك ، حتى إن كثيرا منهم تبرأ من الأمر كملك صنعاء ، وكثير منهم . ثم إن الامام صاحب الزمان (٢) ، تقدم للهجرة إلى المغرب والمهدي في كنفه ، فأظهر النقلة في سفره ، وأوصى إلى أخيه سعيد الخير ، واستكفله واستودعه لولده ، وكفله سعيد الخير ، وتسمى بالإمامة ، بأمر الناص عليه . ستر على ولي الله ، وإخفاء لمقامه عن أهل دعوته ، حتى يكون أوان ظهوره . وطلوع نوره . وأمر الحدود بذلك ، وأن يكنوه بالشمس الطالعة ، ستر على ولي الله ولده القائم من بعده ، فلم يطلع أحد عليه ، ولا وقف على سر الله فيه ، إلا الخصاص الأبرار ، المصطفون الأخيار ، العارفون لسر الله في أولياته ، المطلعون على معرفة ما أظهر لهم من أصفياه . حتى إذا آن الميقات ، ووطد (٣) الدعوة الدعاة ، وأشاروا إلى ولي أمرهم الذي أمروا بالإشارة إليه ، وأوضحوا فضله لمتبعيهم ، ودلوا عليه ، وبشروا بظهور الشمس من غربها ، ووعدوا بدنو الميقات لظهورها من استتار حجتها .

فقام المهدي ، صلوات الله عليه ! وقد انتشرت دعوته في الآفاق ، واستدل بواضح براهينه أهل الخلاف فرجعوا إلى الوفاق ، فظهر من سجالسة على يد داعيه أبي عبد الله صاحب الدعوة بالمغرب ، قدس الله روحه ! ومعه الإمام القائم بأمر الله محمد بن عبد الله ، المستحق بعده للخلافة ، والذي إليه دعوة الأولياء كافة ، والمهدي بالله كافل له في كفالته ، ومشير بعالى مقامه إلى أهل دعوته .

« . . . وهو قائم بما قام به جده محمد ﷺ ، خاتم الأنبياء وسيد الأصفياء ، وبه

(١) الداعي لإدريس : زهر المعاني (من المنتخب من بعض كتب الاسماعيليه ، طبعة إيفانو

ص ٦٥ - ٦٧) .

(٢) المقصود به الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل .

(٣) في الأصل ووطدت .

بشر ، وبظهور أمره أنذر في مواقف عدة وإشارات جمة ، وقال : على وفاء الثمينة من هجرتي ، تطلع الشمس من مغربها . فكان شمس الله الطالعة ، وآيته الساحطة ، والحجاب الأعظم ، والباب الأشرف الأكرم ، حامل أمانة الله ووديعته ، ومسلما إلى القائم بأمر الله ، ولده المنتسب إليه بتعليمه وإفادته ، وهو خليفته ، القائم منه كعلي جده أمير المؤمنين ، من محمد رسول الله الأمين ، صلوات الله وبركاته وتحياته عليهم أجمعين ! .

ملحوظة

انتقال الإمامة إلى المهدي (١) والطيب بن الأمر

لأنه لما ظهر النور بالين وبلاد المغرب ، سار ولي الله في أرضه على بن الحسين ، صلوات الله عليه يريد بلاد المغرب ، حتى كان في بعض طريقه ، فأظهر الغيبة ، واستخلف حجتة سعيدا الملقب بالمهدي ، سلام الله عليه ! فثبت قواعد الدعوة ؛ وجرى عليهما من ضدهما بسجلباسة من العمال بالمغرب ماجرى ، ووقى الله وليه ، سلام الله عليه ! كيده ، لما كان من زحف أبي عبد الله عليه ، وظفروه واستخراجهم ولي الله سلام الله عليه من سجنه .

فلما حضرت المهدي النقلة ، سلم الوديعة إلى مستقرها ، وتسلمها محمد بن علي القائم بأمر الله تعالى ، وجرى الإمامة في عقبه ، سلام الله عليه ! حتى انتهت الإمامة إلى مستقرها ومعدنها ، وأطمانت بموضعها من الإمام المنصور أبي علي الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين بالنص عليه .

... فقام صلوات الله عليه بالإمامة ، وولى الأمر بنفسه وظهر فيه . ثم لأنه لما أراد إظهار الغيبة بما أظهرها به ، قدم النص قبل ذلك ، وأمر بإشاعته في كافة الجوازات ، ووردت بذلك أوامره (٢) العاليسة القاهرة ، في سجلاته الموضوعة عليها .

(١) أبو الخطاب الداعي : كتاب غاية المواليد ص ٣٧ - ٣٨ (من المنتخب من بعض كتب

الاسماعيلية) طبعة إيفانو .

(٢) في الأصل أوامر .

العلامة الشريفة ، بخط اليد العالية إلى حجتة ووليته المنصوبة بجزيرتنا^(١) من قبل آباءه الأئمة الطاهرين ، سلام الله عليهم أجمعين ! بسماع منا ووقوف بين يديها ، وإيضاحها ذلك لنا ، وشهادتها بصحة ماورد عليها ، وقيام الأدلة المتظاهرة ، والبراهين الباهرة على صحة ذلك بما تقدم ذكره .

ملحق ٥

الواجب على الأمة للأئمة^(٢) .

إذا كان العلماء في زمان إمام حق ، وأهله فاسقون ، وجب على العلماء عرض أنفسهم إليه ، ليسلمهم إلى الأشكال والحدود التي يجدها أبلغ وأنفع لما يريد . فالذي يجب على عبد أمير المؤمنين من هذا ، كشفه لمولاه من حال نفسه ، اعتقاد ولايته والإخلاص له فيها . وذلك أصل ما لا يزكو عمل إلا به ، والصدق فيما يعوله له وعليه ، لا يسأل الله عن كذب إن شاء الله لا يتعمده ولا يقصده ، والتسليم لمولاه ، واستفراغ المجهود فيما يتحرى به رضا ، وأمير المؤمنين أعلم بعبده وما يراه أهلاله . فإن وقع من قوله أو فعله شيء بخلاف موافقة مولاه ، فمن حيث رأى أن يقع ذلك بموافقة وهواه . وقد قال جده^(٣) رسول الله ﷺ : قد تجاوز الله لأمي عن خطئها ونسيانها ، وما أكرهت^(٤) عليه ، وأمير المؤمنين ﷺ يحيي سنة جده ، ومقتضى أثره ، ومنجز وعده لأهل عصره ، ومتبع أمره .

ملحق ٦

في محاولة عبيد الله فتح مصر^(٥) .

يقول المعز لدين الله : سمعت المنصور بالله يقول : أمر المهدي بالله القائم

(١) المؤلف يعني ، ويقصد بجزيرته بلاد اليمن ، وبمجة الامام ووليته السيدة أروى الصليحية ملكة اليمن المتوفاة سنة ٥٢٣ هـ .

(٢) النعمان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٣) الضمير يعود إلى المعز .

(٤) في الأصل ما لا أكرهت .

(٥) النعمان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٢٤ - ٢٥ .

بأمر الله عم ، بالنهوض إلى مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين ! قد خولك الله وملكك ، وأعطاك من الدنيا ما فيه وسعة وكفاية . فعلام تغم نفسك ، وتشغل صدرك ؟ دع هذا حتى يأتي الله به عفوا . فقبض صلى الله عليه وسلم كفه اليسرى وقال : نعم ! هذا المغرب في قبضتي هذه ، وبسط اليمين وقال : ولكن كفى هذه من المشرق صفر ، إن ثقل عليك ما أمرتك به ، خرجت له بنفسى . قال : بل أنفذ لما أمرت به يا أمير المؤمنين ، وأسارع إليه . قال المعز صلى الله عليه وسلم : ولقد علم المهدي صلى الله عليه وسلم أنه لا يصل إلى ذلك ، ولكنه أحب أن لا يضيع الحزم ، ولم يترك ما افترض الله عز وجل عليه من الجهاد في سبيله .

ملحق ٧

في فضل كتامة على الفاطميين (١)

يقول المعز لدين الله في كتامة : « بارك الله فيهم ، وكثر أعدادهم ! فما أسرف بهم وباحتفالهم ! وما أحب إليّ أشخاصهم ، وأزين في عيني مناظرهم . ثم نظر عم إلى فقال (٢) : أرأيت مثلهم في بهائمهم ، وجمال مراكبهم ، وحسن مناظرهم ؟ أما أنى ربما أقول في نفسى إذا أعجبنى ذلك منهم : إن ذلك لفرط محبتي لهم ، فقلت : هم والله على ما وصفهم أمير المؤمنين عند الولي والعدو . ولقد اتصل بنا من غير وجه ، أن مخلدا وأصحابه اللعناء كانوا يقولون أيام الفتنة ، وهم يقاتلونهم : أما ركوب كتامة وجمالهم فيه ، فما ندعيه ولا ننازعهم فيه ، فقال : هم والله الذين أذاقوهم طعم الموت ، وأحلوهم محل الذل ، وأخرجوهم قسرا بظلمات السيوف وحدث الرماح ، حتى ألحقوهم بقنن الجبال في أطراف البلاد ؛ ثم استنزلوهم منها قسرا ، وأبادوهم قتلا ، بنصر الله لوليه وبركة مقامه وسعادة جده وأيامه ، وطاعتهم له ، وصبرهم معه .

فقال بعض العميد الصقلية : فنحن يا أمير المؤمنين ، فما ترى أنا قصرنا ، وقد كان لنا من العناء والجهاد كمثل ما كان لغيرنا ؛ فمن نازعنا ذلك فليعد مشاهدنا ووقائعنا ومقاماتنا ، ومن استشهد منا . فقال عم : لا سواء بهم (٣) . إنا ملكناكم

(١) الثمان : المجالس والمسائرات ج ٢ ص ١ - ٥ .

(٢) الضمير يعود إلى أى حنيفة الثمان المغربى

(٣) بمعنى أنه لا يتساوى أحد بالكتاميين .

ولم نملكهم بكم . أرأيت لو تركت أنت وأمثالك في بلدانكم ، أكنتم تأتوننا ؟ قال : لا ! قال : فهؤلاء أتونا طائعين ، وبذلوا لنا أنفسهم راغبين ؛ مضى على ذلك أسلافهم ، وثبت عليه أخلافهم ، للسلف منا وللخلف ، قرنا فقرنا ، وجيلا فجيلا . والله ما وفيت أمة من الأمم لنبي من الأنبياء ، ولإمام من الأئمة ، ولا لملك من ملوك الدنيا ، ولا وفي لها ، وفاءهم لنا ووفاءنا لهم ، إلا وقد تداخل أولئك الفشل ، واعتراهم الخلل ، وحال عليهم ملوك الدنيا ، واستأثروا غيرهم دونهم ، واطرحوهم وأوقعوا بهم . وهؤلاء أجدادهم مع أجدادنا وآباؤهم مع آبائنا ، وهم معنا ، وكذلك يكون أعقابهم مع أعقابنا إلى يوم الدين إن شاء الله .

ملحوظة ٨

عبيد الله والزعامة في الرملة (١)

يقول جعفر الحاجب : « وصلنا إلى الرملة فنزلنا بها عند عاملها ، وكان مأخوذا عليه ، فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدي ع م كيف يخدمه ، ورفع المهدي فوق رأسه ، وقبل يديه ورجليه . قال : فأذكر قيامي على رأس المهدي أنا وطيب (٢) ، وأبو يعقوب على المائدة ، والعامل مع المهدي والقائم وفيروز يتغدون ؛ إذ ورد النجائب الذي ورد إلى دمشق من بغداد بكتاب القبض علينا ، وبصفة المهدي واسمه . قال : فقراه العامل ودفعه إلى المهدي عليه السلام . فلما وقف على ما فيه أنكب العامل على رجلي المهدي ع م يقبلهما ويبكي ، فقال له المهدي عليه السلام : طب نفسا وقر عيننا . فوالذي نفسى بيده لا وصلوا إلى أبدا ، ولئلا يكن أنا ولدي نواصي بني العباس ، ولتدوسن خيولي بطونهم ، فلا تخش علي شيئا مما ترى . فكتب عامل الرملة إلى عامل دمشق جواب كتابه ، بأنه ما رأى هذا الرجل ولا هذه الصفة ، ولا علم بجوازه إن كان قد جاز ، وإن لم يكن قد جاز فنحن نترصده على كل طريق إن شاء الله . قال جعفر : فجدد المهدي ع م البيعة على عامل الرملة ، وأقننا عنده . . . فسقطت في تلك الليلة نجوم ، ففرج المهدي والقائم ، صلوات الله عليهما ! والعامل والجماعة إلى سطح دار العامل ينظرون ، وقد انقلبت المدينة بصراخ الناس ، والابتهاال إلى

(١) سيرة جعفر الحاجب ص ١١٢ (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) .

(٢) أحد عبيد سعيد الخويز ، ومثله أبو يعقوب .

الله عز وجل ، قال : كان سقوطها تلك الليلة في سنة تسع وثمانين ومائتين في شهر رجب ، فرأيت المهدي قد شديده على يد العامل ، وقال : هذه النجوم إحدى دلائلي ، ومن بعض علاماتي .

ملحق ٩

عيد الله في مصر (١)

قال جعفر : « وسرنا من الرملة إلى مصر ، فاستقبلنا أبو علي الداعي ، وكان مقبياً يدعو بها ، وأكثر دعاة المهدي من قبله . وكان فيروز الذي دعاه ورباه ، وزوجه ابنته أم أبي الحسين وولده . فتقدم إليه المهدي عليه السلام قبل دخولنا مصر بأن لا ينزله عنده ، ولا عند من يشار إليه بشيء من أمرنا ، وأن ينزله عنده من يثق به ، فأنزله عند ابن عياش . قال : فما أقمنا إلا يسيراً حتى ورد الرسول إلى مصر في طلبنا ، قال : فوجه صاحب مصر (٢) في ذلك الوقت إلى ابن عياش ، فأعلمه بالرسول ، وأقرأ عليه الكتاب ، فقال ابن عياش : أما الرجل النازل عليّ ، فوالله لا وصل إليه شيء إلا ما يصل إليّ ، لأنه رجل هاشمي شريف تاجر من وجوه التجار ، معروف بالفضل والعلم واليسار . والذي أتى الرسول في طلبه قد أعطيت خبره ؛ إنه توجه إلى اليمن قبل ورود هذا الرسول بمدة طويلة . قال جعفر : فقال العامل لابن عياش : نحن نقضي حَقك في هذا الرجل وحقه ، ولكن لا بد لنا أن نبدي عذراً بالقبض على بعض غلبانه ، ونقرره خوفاً من أصحاب الأخبار ، والأمر يجري له ولك على ما نحب ويحب إن شاء الله . قال جعفر : وكنت ذلك الرجل المقبوض عليه ، وقدمت إلى التقرير ، وعلقت وضربت أسواطاً يسيرة ضرباً خفيفاً لم يكن عليّ منه بأس . »

ملحق ١٠

الآمن في عهد أبي عبد الله الشيعي (٣)

يقول جعفر الحاجب : تقدم إلى المهدي « أن أطلب له مزيناً ، وقال : اجتهد

(١) سورة جعفر الحاجب ص ١١٣ - ١١٤ . (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد سنة ١٩٣٦ م)

(٢) عيسى النوسري .

(٣) محمد بن محمد الباق : سورة جعفر الحاجب ص ١١٧ - ١١٨ . (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد سنة ١٩٣٦) .

في أن يكون غريبا ، قال : فخرجت ، فلقيت مزينا عليه أثر السفر ، فقلت له : أغريب أنت ؟ قال : نعم ! قلت : متى دخلت هذا البلد ؟ قال : في يومى هذا ، فأخذته معى وجئت به إليه ، وعرفته أنه غريب . فلما رآه سأله عن اسمه وعن بلده ، وهل هو حر أو مملوك ، وكذلك كانت عادته عليه السلام إذا رأى شخصا لا يعرفه ، لم يكلمه ولم يؤانس ، حتى يسأله عن اسمه ونسبه وبلده . فلما سأله عن جميع ذلك ، عرفه الرجل أنه من أهل إفريقية من القيروان ، وأنه غاب عنها مدة طويلة إلى بلد كتامة ، ومنه وافى إلى هذه المدينة . قال له : كيف استطعت دخول بلد كتامة والمقام فيه على ما قيل فيه من الفتن وتغير السنن ؟ قال له : والله يامولاي ! مآله ولرسوله سنة صحيحة إلا ببلد كتامة . قال له المهدي عليه السلام : هذا خلاف ماوردت به الأخبار من كل الجهات عن الرجل الخارجى بها ، فقد قيل إنه لقد فتنهم ، وأحل لهم البنات والأخوات ، ورفع عنهم الصوم والصلاة . قال له المزين : والله الذى لا إله إلا هو ، مامن هذا يامولاي قليل ولا كثير ، ولا لله دين إلا الذى عليه الرجل الذى ببلد كتامة . فقال المهدي : ما الذى استحسنت من أفعاله ، حيث أراك تمدحه هذا المدح الذى لا يجامعك عليه أحد ؟ فقال له : والله يامولاي لقد شاركت شريكا ، وقلت له : اعزم بنا أن ندخل في مدينة سطيف (١) ، ونعمل بها مدة شهر ، فما قسم الله عز وجل لنا من رزق قسمناه بيننا ، فسرنا إليها ؛ فلما أردنا الدخول من باب المدينة ، منعنا من الدخول بسلاحنا إليه ، قلنا لهم : فكيف نعمل به وليس نعرف هاهنا أحدا نودعه إياه ؟ فقالوا لنا : اطرحوه خلف سور المدينة ، فقلنا : وكيف نضع سلاحنا ؟ فقلل لنا : اطرحوه ولا تخافوا عليه ! قال : فطرحناه ودخلنا المدينة واحتسبناه ، لأن الرجوع شق علينا بعد أن وصلنا المدينة ؛ فأقننا فيها شهرا ، ثم خرجنا ، فإذا سلاحنا بحاله ماضع لنا منه شيء . فهذه يامولاي سيرة رجل يرمى بالكفر وتبديل الشريعة . قال جعفر : فرأيت وجه المهدي عليه السلام يتهلل .

(١) في الأصل سطيق ، والصواب سطيف ، وهو من مدن كتامة كما رأينا .

ملحق ١١

المناظرة الأولى بين أبي عثمان (١) سعيد بن محمد بن الحداد

وأبي العباس أخى أبي عبد الله الشيعي (٢)

• قال أبو عثمان سعيد بن محمد : أتاني رسوله ، يعنى أبا العباس ، فدخلت عليه في قصر إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ، وحوله وجوه أصحابه ، ومعى موسى القطان ، فسلمت وجلست . وقد كان أتاه قبل ذلك جميع أهل بلدنا ، أعنى من أهل العلم ، بغير إرسال . فقلت له : قد كان من كان قبلك في هذا القصر ، وقد علم الله وعلم من حضر من أصحابنا ، أنى لم أكن بجيأ للبلوك ، ولا آتى أحدا منهم بغير رسول . فتكلم ثم قال لى : من أين قلت بالقياس ؟ قلت (٣) : قلته بكتاب الله ، قال : وأين هو في كتاب الله ؟ قلت : قال الله : (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاءه مثل ما قتل من النعم ، يحكم به ذوا عدل منكم) (٤) . فالصيد منصوص ، والذي أمرنا أن نمثله بالمنصوص ليس بمنصوص ، فعلينا بذلك أن من دين الله تمثيل ما لم ينص بما نص .

قال أبو عثمان : تم قال : ومن ذوا عدل ؟ وأوما إلى أنهم قوم دون قوم فقلت : هم الذين قال الله فيهم في المراجعة من الطلاق ، (وأشهدوا ذوى عدل منكم) .

(١) من كبار علماء القرن الثالث وأوائل القرن الرابع في بلاد المغرب ؛ اشتهر بالمناظرة والجدل فيها ، وكثير نقاشه مع الشيعيين . وقد ناظر أبا العباس أخا أبي عبد الله مناقشات كثيرة ، أهمها تلك المناظرات الأربع التي وردت في كتاب طبقات علماء إفريقية ؛ ولذلك يعد أبو عثمان من كبار العلماء السنيين في بلاد المغرب ، الذين ذبوا عن الاسلام ، والذب عن الاسلام ، والذب عن السنة . ناظر فيها أبا العباس المجدوم ، أخا أبي عبد الله الشيعي الصنعاني ببلد فوه ومنى نفسه ، مناظرة القرن المسامى ، بل مناظرة المتعزز المتعالي ، لم يتلثم لفظاعة المقام ، ولا أحجم لمهبة السلطان ، ولا خاف مما خيف عليه من سطوة الحدان . واقد قال له ابنه محمد يوما : اتق الله في نفسك ولا تبالغ في مناظرة الرجل ، فقال له : حسبي من له غضبت وعن دينه ذببت ، (طبقات علماء إفريقية ص ١٩٩) .

(٢) أبو العرب محمد بن أحمد التيمي : كتاب طبقات علماء إفريقية (الجزائر سنة ١٣٣٢ هـ -

١٩٩ م) ص ٢٠٢ .

(٣) في الأصل قال ، والصواب قلت .

(٤) سورة المائدة آية ٩٥ .

قال أبو عثمان : وأجابه موسى القطان من فوري^(١) بحديث عليّ في الخمر إذ قال في السكران : إذا سكر هذى ، وإذا هذى افترى ، فوجب عليه ضرب ثمانين أدنى أن يضرب ثمانين . فقال له : ألم يقل النبي ﷺ ، عليّ أفضلكم . قال أبو عثمان : فقلت لموسى وهو إلى جنبي : وفي الحديث « ومعاذ أعلمكم بالحلّ والحرام ، وعمر أقواكم في دين الله » ، فكلمه بذلك ، فغضب وقال : أيكون أقواكم في دين الله من فر بالراية يوم خيبر ؟ فقال له موسى : ماسمعنا بهذا ، قال أبو عثمان : فقلت : قال الله : « لا تمسحوا بالقتال أو تمسحوا إلى قسّة » . فعمر من تحرف لقتال ، أو تحيز إلى فئة . فقال : وأي فئة أكثر من النبي ، وقد كان حاضرا ولم يتحيز إليه ، فقلت : جاء عنه ﷺ أنه قال : عمر فئة ، فمن تحيز إلى عمر فقد تحيز إلى فئة . فسكت . فحركه بعض أصحابه وقال : ألا تسمع ما يقول هذا الشيخ ؟ فقال : صدق ، أو نحو هذا من القول . سمعتها أنا منه ومن كان يليه .

قال أبو عثمان : ثم عطف فقال : أنتم تبغضون عليا يأهل المدينة ، قال أبو عثمان : علي مبغض عليّ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وكيف أبغض عليا وقد سمعت سحنون بن سعيد ، وهو إمام أهل المدينة بالمغرب ، يقول : علي بن أبي طالب إمامي في ديني ، أهتدى بهديه ، وأستمد بسنته ، رحمة الله عليه ! فقال لي : بل صلوات الله عليه ، قال : فرفعت صوتي وقلت : إن الصلاة في كلام العرب الدعاء ، وقلت : قال الأعشى :

تقول بلى وقد قربت مرتحلا :

يارب جنبّ أبي الأوصاب والوجعا

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي

نوما ، فإن لجنب المراء مضطجعا

قال أبو عثمان : سم قلت : نعم ! صلى الله على عليّ بن أبي طالب والحسن والحسين ، وأهل طاعة الله أجمعين من أهل السموات وأهل الأرضين ! قال أبو عثمان : ثم قال لي : أليس عليّ مولاك ؟ يقول النبي : اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . قال : قلت : هو مولاي بالمعنى الذي أنا به مولاة ، ولا ولاية ، لا ولا عتاقة ، لأن المولى في كلام العرب متصرف : يكون المولى ، ويكون ابن العم ، ويكون المعتق ، ويكون المنعم عليه . ثم قلت : قال الله حكاية عن زكريا :

(١) كذا في الأصل .

(وإني خفت الموالى من ورائى) ، يريد العصبية . وقال ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم . يريد أن الله ولى المؤمنين ، وأن الكافرين لا ولى لهم . وقال فى المؤمنين : « بعضهم أولياء بعض » ؛ فعلى مولى المؤمنين ، لأنه وليهم وهم مواليه بأنهم أوليائه ، فعلى موالى بالمعنى الذى أنابه مولا .

قال أبو عثمان : ثم قال لى : فالحديث الآخر وأنت منى بمنزلة هارون من موسى . قال : قلت هارون كان حجة فى حياة موسى ، وعلى لم يكن حجة فى زمان محمد ﷺ ، ولم يكن بأخيه ، وإنما كان له وزيراً ، والمؤمنون وزراء رسول الله ﷺ . قال : ثم قال لى : أليس على بأفضلهم ؟ قال : فقلت له : الحق متفق عليه ، غير مختلف فيه ، قال لى : نعم ! قال فقلت له : قد ملكت مدائن كثيرة قبل مدينتنا هذه وهى أعظم مدينة ، واستفاض الخبر عنك أنك لم تذكره أحداً خالفك فى مذهبك ، على الدخول فيه ، فاسلك بنا مسلك غيرنا .

ملحق ١٢

المناظرة الثانية بين أبى عثمان وأبى العباس (١)

« قال أبو عثمان : ثم دخلت عليه فى مجلس ثان ، فأقبل يسأل من حضر من المدينيين والعراقيين السنة ما هى ؟ فقال بعضهم : السنة (هى) السنة . وما درى أحد منهم ما يجيب ، قال : ثم حوّل وجهه إلى وقال : بلغنى أنك تقول بالكتاب والسنة ، ولكن السنة ما هى ؟ فقلت له : السنة محصورة فى ثلاثة أوجه ، فقال : وجهها ، فقلت : الائتمار بما أمر به رسول الله ﷺ ، والانتفاء بنبيه ، والإتمام به فى فعله ﷺ ، قال : فقال لى : فإذا اختلف عليك فيما نقل إليك عنه من الحديث ، قال قلت : أطلب الدليل على موضع الحق فى أحد الأحاديث ، ويكون سبيل فى ذلك سبيل من شهد عنده شهود ، فاختلفوا فى شهادتهم ، فقال بعضهم : أعلم ، وقال بعضهم : لا أعلم . فلا يد من طلب الدليل على موضع الحق فى إحدى الشهادات ، فقال أبو العباس : أناظركم على أنى إن وجدت الحق فى مذهبكم رجعت إليه ، وإن وجدت الحق فى مذهبى رجعت إليه ، أليس هذا الإنصاف كما قال الله : (قل فأتوا بكتاب من عند الله

(١) أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي : مطبقات علماء إفريقية ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١).
قال أبو عثمان : فقلت : أئى الله ما ذكرت ، ولم تدبر ما أراد الله . إنما أراد الثنى لأن
يأتوا بكتاب هو أهدى منهما ، لا على أنه يمكن أن يأتوا بكتاب أو بسورة من مثله ،
وهو القائل : (قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (٢). فثنى عنهم الإتيان بكتاب هو
أهدى منهما ، كما قال عز وجل : (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا مَنْ
اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا) (٣).
فعلم بذلك أنه إنما دعاهم بحجهم عن الإتيان بسورة من مثله . قال : فبادر إلى
ابن عبدون وقال لى : يا أبا عثمان ! الحق بنا لنا ، فهضنا ، فقال لى بعد الخروج :
خفنا أن يطرد الكلام ، فبادرناك بالقيام .

ملحق ١٣

المناظرة الثالثة بين أبى عثمان وأبى العباس (٤)

قال أبو عثمان : دخلت عليه فأجلسنى معه فى مكانه ، وهو يقول لرجل من أهل
العراق : المعلم يكون أعلم من المتعلم أبدا ، والعراقى يقول : نعم ! وأهل المجلس
لا ينطقون ، قال : فقلت : بقى شيء أو أتكلم ؟ فتبادى وقال : أليس المتعلم يكون أبدا
محتاجا إلى المعلم ؟ والعراقى يقول : نعم !

قال أبو عثمان : وفهمت مراده وقصده ، وإنما أراد تأكيد الطعن على أبى بكر
الصديق ، إذ سأل عليا عن فرض الجدة ، وذكر لى معنى ذلك . فبدرت وقلت :
أسمع كلاما يجب على الله فيه ألا أسكت ، فقال لى : وما ذلك ؟ فقلت : المتعلم
يكون أعلم من المعلم وأفقه ، ويكون أفضل منه أيضا ، فقال لى : وما دليلك على ذلك ؟
قال : قلت رسول الله ﷺ حيث يقول : رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ،

(٢) سورة القصص آية ٤٩ .

(٣) سورة الامراء آية ٨٨ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٣ - ٢٤ .

(١) التقيي في طبقات علماء إفريقيا ص ٢٠٣ - ٢٠٧ .

حرب حامل فقه غير فقيه ، قال : قلت : وأخرى ، ما هو معروف بين الخليقة ، أن المعلم يعلم الصبيان ، فلا يزال يعلم حتى يكبر الصبي ، فيعطى الله الصبي من الفهم بخاص القرآن وعامه ، وغير ذلك من أسباب العلم ووجوهه ، ما لا يقدر عليه معلمه . قال لى : اذكر من خاص القرآن وعامه شيئاً . فقلت : نعم ! قال الله تعالى : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن)^(١) ، فكان ظاهرها العموم . فلما قال فى موضع آخر : (يسألونك ماذا أحل لهم قل : أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم)^(٢) ، دل على الآية الأولى ، أنه إنما أراد بها الخصوص : المشركات غير الكتابيات .

قال أبو عثمان : ثم قال لى : فمن المحصنات ؟ قال : قلت : العفاف ، فقال : المحصنات المتزوجات . قال : فقلت له : الإحصان فى كلام العرب التى نزل بلسانها القرآن ، الإحراز ، فمن أحرز شيئاً فقد أحصنه . فالإيمان إحراز لمن صاحبه وماله ، والعق يحصن المملوك ، لأنه يحزره من أن يجرى عليه ما يجرى على المملوك ، والتزويج يحصن الفرج من أن يكون له مباحا ما كان له قبل التزويج ، والعفاف إحصان لأنها أحرزت فرجها بالعفاف . قال أبو عثمان : فقال لى : ما الإحصان عندى إلا النكاح . قال : فقلت له : فنزل الفرقان يأتى ما ذكرت . قال الله عز وجل : (ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها)^(٣) يريد أعفته . قال : أعفته ؟ قال : نعم أعفته ، وقال : (محصنات غير مسافحات) ، يقول : عفاف غير زوان . قال : فقد قال فى الإمام : (فإذا أحصن فإن أتيت بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) . فكيف يقول العذاب على المحصنات وهن عندك قد يكن عفاف ؟ قال : قلت : سماهن بمتقدم أسمائهن قبل زناهن . قال الله تبارك وتعالى : ولكن نصف ما ترك أزواجكم ، وقد انفصمت العصمة بالموت ، يريد اللاتى كن أزواجكم ؛ وهذا كثير . قال أبو عثمان : وذكرت من ذلك ، فعارضنى بعض أحداث العراقيين ، فقلت له : أمسك يا حدث ! قال : فلم ينطق .

(١) سورة البقرة آية ٢٢٠ .

(٢) سورة المائدة آية ٥ .

(٣) سورة التحريم آية ١٢ .

قال : فقال لى أبو العباس : فعذاب المحصنات الرجم ، فكيف يعقل نصف الرجم وقد يقتل بواحدة ، وربما لم يقتل بأكثر من ذلك . قال : فقلت : هذا مما كنى فيه ، أراد خاصا دون عام ، أراد نصف ما علم من عذاب الجلد دون الرجم . فقال لى : ومن يقول بالجلد مع الرجم ؟ قال : قلت : على بن أبى طالب رضى الله عنه جلد شراحة مائة ورجمه . وقال : جلدتك بكتاب الله ، ورجمتك بسنة رسول الله ، قال : فقال لى : يا شيخ ! أنت تلوذ^(١) . قال : فقلت لى أنا الذى ألوذ ، لأنى أنا المجيب ، وأنت الذى تلوذ ، لأنى إذا وقفتك من المسألة على حد ، لذت أنت إلى مسألة أخرى غير ما سألتنى عنه . قال : ثم صحت أن لا أحد يكتب ما أقول ويقول ، توفى الله شره . قال : فكأنك تقول : إنك أعلم الخلق . قال : قلت : أما بدينى فنعم ! لأن دينى هو الحق الذى ليس الحق فى سواه . قال : أفأحتاج فيه إلى زيادة . قال : قلت : لا ! قال لى : فأنت إذن أعلم من موسى حين قال للخضر : هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ؟ قال : قلت : قائل هذا القول غامض على موسى فى نبوته ، إذ يزعم أن الله اصطفاه برسالته وبكلامه ونبوته ، وهو يحتاج إلى أن يعلم بعد ذلك شيئا من دينه . معاذ الله ! إنما كان العلم الذى كان عند الخضر ، علم سفيينة كان عرفها ، لعلمه بالملك الذى يأخذ كل سفينة غصبا ، وغلاما قتله لعلمه بكفره ، وإيمان أبويه ، وجدارا أقامه عليا بالكفر الذى كان تحته ، وذلك لا يزيد فى دين موسى شيئا^(٢) .

قال أبو عثمان : ثم قال لى : فأنا أسألك . قال : قلت : أورد أبدا ، وعلى الإصدار بالحق ... قال : قال لى : ما تفسير «الله» ؟ قال : قلت : ذو الإلاهة (لعلمها الألوهية) . قال : وما الإلهة ؟ قلت : الربوبية . قال : وما الربوبية ؟ قال : قلت المملك للأشياء . قال : فقال لى : فقريش كانت فى جاهليتها تعرف الله ؟ قالت : لا ! قال : لا ! قلت : لا ! لأنها كانت تقول : الله ذو الشركاء والآلهة ، فلم تعرفه إذ قالت ذو الشركاء . وإنما يعرف الله من قال : إن الله وحده لا شريك له . قال : فمن الذين آمنوا ؟ قال : قلت : نحن ومن ترى ، وأوميت إلى أصحابنا .

(١) يقصد هنا أنت تهرب .

(٢) يشير بذلك إلى ما ورد فى سورة الكهف آيات ٧١ - ٨٢ .

وهم بين يديه . وقال : ومن الذين هادوا ؟ قال : قلت هذا من ذلك الذى تقدم ذكره .
سماعهم بمتقدم ، كلة كانت منهم يأتونها ، وكانوا بها مسلمين ، يقولون هُدُّنا إليك .
قال : فن النصرى ؟ قال : قلت : المتكلمون فى المسيح - صلى الله على نبينا محمد
وعليه ! قال : فن الصابئون ؟ قال : قلت : هم الذين عبدوا الملائكة ، وزعموا أنهم
بنات الله . قال أبو عثمان : وهذا قول أهل العلم ، فبدأت بجوابهم قبل أن أجيبه
بكلام المتكلمين . قال أبو عثمان : فقال لى : هم الذين عبدوا الملائكة قال : قلت : نعم !
وزعم هشام أنهم أصل المنافية^(١) . قال : فن الذين أشركوا ؟ قال : قلت : هم الذين
عبدوا الأصنام ، الذين أرسل إليهم رسول الله ﷺ على بن أبى طالب بآية من
سورة براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا فى الأرض
أربعة أشهر^(٢) . قال : فقال لى : وما كانت تعبد قريش ؟ قلت : الأصنام ، قال لى :
وما الأصنام ؟ قلت : الحجارة ، قال لى : والحجارة كانت على النسكر ، لأن تكون
الحجارة هى الأصنام . قال : قلت : نعم ! والعزى كانت تعبد ، وهى شجرة ، والشعري
كانت تعبد ، وهى نجم . الله يقول : أمَّن لا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي ، فكيف تقول : إنها الحجارة
والحجارة لا تهدي إذا هديت ، لأنها ليست من ذوات العقل ، فعارضنى بعض أهل
المجلس ، كالمعين له . فقال : كيف تعقل الحجارة وليست من ذوات النطق ؟ قال :
فقلت للمعارض : أمسك ! مالك ولذا ؟ ثم قلت : قد أخبرنا الله أن الجلود تنطق فى
الآخرة ، وليست من ذوات النطق ، قال : فقال : نسب إليها النطق على المجاز ،
والنطق للأفواه . قال : فقلت : منزل الفرقان يأبى ما ذكرت . قال الله : (اليوم نختم
على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون)^(٣) . قال أبو عثمان :
وأشرت بإصبعى السبابة إلى فمى ، فقلت : ختم الله على أفواههم ، ثم نفى بقوله :
وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ . وما الفرق
بين جسمك وأجسامنا والحجارة ، إلا أنه عقلنا الله فعقلنا ، ولو لم يعقلنا ما عقلنا ؟
وكذلك الحجارة ، إذا شاء أن يعقلها عقلت . هذا الجبل لما عقله الله عقل جلال

(١) أتباع ما فى نبي الفرس القدماء ، وهم تنوية زنادقة .

(٢) سورة التوبة آية ١ - ٢

(٣) سورة يسن آية ٦٥ ، وردت كلة يكسبون فى الأصل يعملون .

تجليله واندك ، قال الله تبارك وتعالى : (فَلْيَسَّاجِدْ لِرَبِّهِ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكَّا) (١) .

ملحق ١٤

المناظرة الرابعة بين أبي عثمان وأبي العباس (٢)

قال أبو عثمان : هذا مجلس دار بيني وبينه (٣) ، ما رأيته أقرب إلى الإنصاف منه فيه . وكأنه في مناظرته لي ، إنما يناظرني عن مذهب غيره . وذلك أن المسألة جرت بيننا وبينه في باب الفاضل والمفضول ، لأن من أصل مذهبه ، القول بأنه لا يجوز تقديم المفضول على الفاضل بعد الاتفاق من الخصمين على الفاضل ، فقال لي : أليس قولك لإجازة تقديم المفضول على الفاضل ؟ فقلت : أعزك الله بتوفيقه ! أنا متبع في ذلك لكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام ، وذلك لا يخفى عن ذي لب نظر في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعدوهما إلى غيرهما . قال لي : وأين تجد ذلك في كتاب الله ؟ قال : قلت له : قال الله ، وقال لهم نبيهم : «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ، قَالُوا أَأُتَىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ، وَنَحْنُ أَحَقُّ مِنْهُ . قَالَ : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، (٤) . فقال عند ذلك كالمغضب : ليس القصة كما توهمت . فقلت له : والامر الذي لم أتوهمه وفيه الحق عندك ، هل إلى ذكره من سبيل ؟ فقال : نعم ! ذكرت خبر طالوت ، واحتججت فيه بقول نبيهم وقول أهل الجيش . فقلت له : قال الله وقال لهم نبيهم : إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ، فاقصد إلى موضع حجتك هاهنا . ثم قلت : أعز الله الأمير ! لما كان خروج طالوت من فوق إذن نبيهم ، ثبت أن الله قدم المفضول على الفاضل ، إذ كنا لا نشك نحن ومن خالفنا أن نبيهم أفضل من طالوت ، وطالوت هو المفضول ، فقال لي : وهكذا اعتقادك ؟ فقلت : نعم أيها

(١) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

(٢) التميمي : كتاب طبقات علماء إفريقيا ص ٢٠٨ - ٢١٠ (الجزائر سنة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م)

(٣) الضمير يعود على أبي العباس أخى أبي عبد الله الشيعي .

(٤) سورة البقرة آية ٢٤٧ .

الأمير ! فقال لجميع من حضره من حوله من أهل الجاس : انهموا عنا ، ثم أوماً إلى وقال لي : إنما كان خروج طالوت من تحت يدي نبيهم ، لا كما توهمت أنه من فوق إذنه . لأن نبيهم هو الذي أخبرهم أن طالوت مقدم على الجيش . فلما كان هذا هكذا ، كان الفاضل بعد هو المفضل ، فقد تبين فساد قولك وتناقضه . فقلت له : إني يا ذنك أستوفي حجتي ، فإن أذنت لي في الكلام أتيت على ما أريد ، فقال لي : قل ، ولا تبق من حجتك شيئاً .

فقلت له : نفس الآية لي شاهد ، ولا تكون الحجة من غيرها ، وذلك أن الله أخبر عن نبيهم أنه قال لهم ، إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، ولم يقل : إني بعثته لكم . فلما جاء الخبر من نبيهم وأضافه إلى الله لا إلى نفسه ، وجب بهذا أن أمر طالوت من فوق إذن نبيهم ، وكذلك قالت الآية . ثم قلت له : وهذه سنة رسول الله ﷺ ، فانظر منها إلى تقديم المفضل على الفاضل ، وهو ما لا ينكره أحد . من ذلك أن رسول الله ﷺ أمر على جيش عمرو بن العاص (١) ، فكان يقسم النخيل ويأمر وينهى فيطاع ، ويصلي لهم الصلوات ويشاورونه ويستأذنونهم في جميع شأنهم وتحت يديه في الجيش أبو بكر وعمر ، وهما جميعاً أفضل منه ، لا يشك في ذلك أحد ، وأيضاً أن النبي ﷺ أمر على جيش زيد بن حارثة ، فكان يفعل في ذلك وفيمن تحت يديه من المسلمين كفعل عمرو بن العاص فيمن تحت يديه من المسلمين ، وتحت يديه في الجيش ذو الجناحين جعفر بن أبي طالب ، وهو أفضل من زيد بن حارثة . فلما ثبت ذلك عندنا وقام مقام العيان ، جاز للأمة تقديم المفضل على الفاضل . فقال لي : نحن لا نقول كقولك ، إن للأئمة أن يجتمع ، فتقدم على نفسها إماماً ؛ وإنما يكون الإمام من اصطفاه الله ورسوله . وأما من لم يقدمه الله على خلقه ، ولم يقدمه رسول الله ﷺ ، فكيف له والتقديم ؟

فقلت : أعز الله السيد ! إن الذي اصطفاه الله ورسوله ، لا يعدو لإحدى منزلتين . إما أن ينطق به كتاب ناطق ، أو سنة ثابتة عن رسول الله . ولما لم نجد في كتاب الله ، أن الله نصب إماماً ، وفرض طاعته ، ولا رسوله ، لم يقم لإنساناً بعينه فيقول : أيها الناس ! هذا وصي وخليفة من بعدي . وكان يقول صباحاً

ومساء : خلفت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا : كتاب رب وحواري أصحائي ؛
علينا الحلال والحرام ، وما نأتى وما نذر . كأن من اجتمع المسلمون عليه ، ثابت
الأمر ، صحيح الأحكام ، يعمل بكتاب الله وسنة رسوله . وما لم يجده في كتاب
الله ولا في سنة رسول الله ، فهو مأخوذ من الاجتهاد ، ومن أتباع السلف المتقدمين .
هذا قولنا ، والأمر على ذلك إلى هذا الوقت . فقال لي : قد ثبت فساد هذا عليك
في صدر مناظرتنا ، بما أوردته عليك في تقديم المفضول على الفاضل .

فلما سمعت كلام رجل يباهت العيان ويحول عن الحق ، رأيت الصواب في
الإعراض عن معارضته ، وذلك أني لم أحتج عليه بحجة عقل ، ولا وزن من قياس ،
ولأنما قابلته بكتاب الله وأفعال نبيه ﷺ ، وإجماع المسلمين ، وجعل يُدخل عليَّ
كثرة الاستفهام وكثرة التكرار ، بلا حجة حاسمة ولا برهان مبين . نعوذ بالله من
الحيرة في الدين . وإياه أسأل المعونة والتوفيق !

مصادر الكتاب

نورد في الثبت الآتي أهم مصادر الكتاب ، وقد رتبته أسماء المؤلفين
بحسب جميعها حسب أحرف الهجاء .

- ١ — ابن الأثير (٦٣٠ هـ = ١٢٢٨ م) : على بن أحمد بن أبي الكرم .
"الكامل في التاريخ" ، ١٢ جزءا (بولاق ١٢٧٤ هـ) .
Arendonck : Van فان أرندونك .
٢ — "De Opkomst Van Het Zaidieecische Imâmaat in Yemen" (Leiden, 1919).
Arnold : Thomas W. . أرنولد : توماس ر .
"The Preaching of Islam", 3rd edition, by — ٣
Reynold A. Nicholson (Lond. 1935).
الأشعري (٣٢٤ هـ = ٩٣٥ — ٩٣٦ م) : أبو الحسن علي بن إسماعيل .
٤ — "مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين" ، جزءان (استنبول ، ١٩٢٠ م) .
Ikbâl : Sheikh Mohammed إقبال : الشيخ محمد
"The Development of Metaphysics in Persia" — ٥
(Lond. 1908).
Amari : Michel آماري : ميشيل
٦ — "مكتبة صقلية العربية" ، Biblioteca Arabo-Sicula في جرتين :
Ameer Ali : Sayed أمير علي : سيد
٧ — "مختصر تاريخ العرب والتدين الاسلامي" ، (القاهرة ١٩٣٨) نقله إلى العربية
رياض رافت .
أوتينا (٣١١ هـ = ٩٢٩ م) : سعيد بن البطريق .
٨ — "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق" ، (بيروت ١٩٠٩) .
O'Leary : De Lacy . أوليري : دي ليسي
٩ — "A Short History of the Fatimid Khalifate" — ٩
(Lond. 1923).
Ivanow : Valadimir إيفانوف : فلاديمير
١٠ — "The Rise of the Fatimids" (Calcutta, 1942).
١١ — "A Guide to Ismaili Literature" (Lond. 1933).
١٢ — "The Alleged Founder of Ismailism" (Bombay, 1946).
١٣ — استنار الامام : للتبصيري (نشره في مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول سنة ١٩٣٦) .

١٤ — سيرة جعفر الحجاب ،، اللباني ،، (نشره في مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول .
سنة ١٩٣٦) .

١٥ — "Kalamī Pīr" (Bombay, 1934.)

،، أين كتاب مستطاب عن حقيقت مذهب إسماعيل مسمى كلام يور يعنى هفت باب ،، ،
وينصب خطأ إلى ناصر خسرو .

١٦ — ،، مختصر العقائد ،، اميدنا علي بن الوليد المتوفى — سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م)
نشره الاستاذ ايفانو بعنوان "A Creed of the Fatimids"

(Cambridge, 1936.)

براون : إدوارد ج. Browne : Edward G.

"Literary History of Persia—from the Earliest — ١٧

Times until Firdawsi (Lond, 1909.)

البغدادى (٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر .

١٨ — ،، الفرق بين الفرق ،، (القاهرة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م) .

البكري (٤٨٧ هـ = ١٠٩٧ م) : أبو عبيد الله بن عبد العزيز .

١٩ — ،، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ،، (طبعة دي سلان De Slane

باريس ١٩١١) .

بلوشيه : ل. Blochet : L.

"Le Missianisme dans l'Heterdoxie Musulmane" — ٢٠

(Paris, 1903.)

تاج الدين (نقيب حلب)

٢١ — ،، كتاب غاية الاختصار في أخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الفبار ،،

(مصر ١٣١٠ هـ) .

النجي (من علماء القرنين الثالث والرابع) : أبو العرب محمد بن أحمد .

٢٢ — ،، كتاب طبقات علماء إفريقية ،، (الجزائر ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م) .

تيلور : و. و. س. Taylor : W. C.

"History of Mohammedanism and its Sects" — ٢٣

(Lond. 1839.)

ابن الجوزي (٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م) : أبو الفرج عبد الرحمن .

٢٤ — ،، تليس إبليس ،، أو نقد العلماء (مصر ١٣٤٠ هـ) .

٢٥ — ،، المنتظم ،، رسالة عن القرامطة نشرها جوزيف دي موموجي في

Revista degli Studi Orientali, vol. xiii.

ابن الجوزي (٦٥٤ هـ = ١٢٥٧ م) : أبو المظفر عبدو علي سبط بن الجوزي :

٢٦ — ،، مرآة الإيمان في تاريخ الأعيان ،، ، غطوط مصور بدار الكتب المصرية ،

رقم ٥٥١ تاريخ .

جولد تسير : إيجاز Goldziher : Ignaz

٢٧ — "Le Dogme et la Loi de l'Islam", (Paris, 1920.)

حسن إبراهيم حسن : دكتور

٢٨ — "، الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص"، (القاهرة ١٩٢٢) .

٢٩ — "، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي"، الجزء الثالث ،

(القاهرة ١٩٤٦) .

٣٠ — "، السيادة العربية والشيعية والاسرائيليات في عهد بني أمية"، تأليف فان فلون ،

وترجمة حسن إبراهيم حسن ، وعمد زكي إبراهيم (القاهرة ١٩٣٤) .

ابن حماد : القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد .

٣١ — "، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم"، (الجزائر ١٣٤٦) .

الحادي (أواسط القرن الخامس الهجري) : محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحادي البياقي

٣٢ — "، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة"، (مصر ١٣٥٧ هـ) .

ابن حوقل (٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م) : أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصل

٣٣ — "، كتاب المسالك والممالك والمفاوز والممالك"، (نشره دي غريب - لندن ١٨٧٣ م) .

ابن خلدون (٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد

٣٤ — "، مقدمة ابن خلدون"، (مصر ١٣١١ هـ) .

٣٥ — "، العبر وديوان المبتدأ والخبر"، ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ) .

ابن خلصان (٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الدافقي

٣٦ — "، رفيات الأعيان"، (مصر ١٣١٠ هـ) .

دوذي : ر . ب . ا . Dozy : R. P. A.

٢٧ — "Essai sur l'Histoire de l'Islamisme" (T.R.V. —

Chauvin, Paris, 1879.)

٢٨ — "Histoire des Musulmans d'Espagne" (Leyden, 1861.)

دفريميري : م . س Defréméry : M.C.

٣٩ — "Essai sur l'Histoire des Ismaéleens de la Perse."

ابن أبي دينار (١١١٠ هـ = ١٦٩٨ م) : محمد بن أبي القاسم بن عمر القيرواني

٤٠ — "، كتاب المونس في أخبار إفريقية وتونس"، (تونس ١٢٨٦ هـ) .

الذهبي (٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ — ١٣٤٨ م) : شمس الدين محمد بن أحمد

٤١ — "، تاريخ الاسلام"، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٦ تاريخ .

المجلد الثالث .

الرازي (٣١١ هـ = ٩٢٢ م) : أبو بكر محمد بن زكريا .

٤٢ — "، رسائل فلسفية"، (نشره بول كراوس ، القاهرة ١٩٣٩) .

الرضي (٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م) : الشريف أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن الحسين

ابن علي بن أبي طالب .

٤٣ — ديوان الشريف الرضى (بيروت ١٣٠٧ هـ) .

دي ساسي : س De Sacy : Silvestre

٤٤ — "Exposé de la Religion des Druzes ... précédé d'une Introduction et de la Vie du Khalife Hakim—Biamr-allah", 2 vols. (Paris, 1838.)

٤٥ — "Recherches sur l'Initiation à la Secte Ismaé-lienne (Journal Asiatique, 1824).

ابن سعيد (٦٧٣ هـ = ١٢٧٥ م) : علي بن موسى المغربي .

٤٦ — "كذاب المغرب في حل المغرب" ، (لندن ١٨٩٨ - ١٨٩٩ م) .

السلامي : الشيخ أحمد بن خالد الناصري .

٤٧ — "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" ، أربعة أجزاء (القاهرة ١٣١٠ هـ) .

— (١٣١٢ هـ) .

السنهوري : الدكتور عبد الرزاق أحمد باشا Sanhoury: Dr. A.A.

٤٨ — "Le Califat" (Paris, 1926.)

سيولد : كريستيان فردريخ الألماني .

٤٩ — "نشر كتاب" ، النقط والدوائر ، من كتب الدور (١٣١٩ هـ = ١٩٠٢ م) .

السيوطي (٩١١ هـ = ١٥٠٥ م) : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين .

٥٠ — "تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة" (مصر ١٣٥١ هـ) .

أبو شامة (٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ - ١٢٦٨ م) : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبي شامة شافعي من أهالي دمشق .

٥١ — "كتاب الوصيتين في أخبار الدولتين" ، جزءان (مصر ١٢٨٧ هـ) .

الشهرستاني (٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .

٥٢ — "المال والنحل" ، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣٧١ هـ) .

ابن طباطبا (٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م) : محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي .

٥٣ — "الفنرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية" ، (القاهرة ١٣٤٥ هـ = ١٩٢٧ م)

الطبري (٣١٠ هـ = ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير .

٥٤ — "تاريخ الأمم والملوك" ، ١٢ جزءا (القاهرة ١٣٢٦ هـ) .

طه أحمد شرف : دكتور .

٥٥ — "الزندقة والزنادقة" ، مخطوط ، رسالة الماجستير .

٥٦ — "تاريخ الاسماعيلية السياسية حتى سقوط بنهاد" ، مخطوط ، رسالة الدكتوراه .

ابن عذارى (توفي في أواخر القرن السابع الهجري) : أبو محمد عبد الله محمد المراكشي .

٥٧ — "البيان المغرب في أخبار المغرب" ، نشره دوزي في ثلاثة أجزاء (لندن)

— (١٨٤٨ - ١٨٥١ م) .

- عريب بن سعد (٣٦٩ هـ = ٩٧٦ - ٩٧٧ م) القرطبي .
 ٥٨ — « صلة تاريخ الطبري » ، (القاهرة ١٣٢٦) .
 عمارة البهي (٥٦٩ هـ = ١١٧٤ م) : أبو الحسن نعيم الدين الحسكي البهي .
 ٥٩ — « تاريخ اليمن » ، (لندن ١٣٠٩ هـ = ١٨٩٢ م) ، نشره هنري كاسل .
 العيني (٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م) : بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى .
 ٦٠ — « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٨٤ تاريخ .
 الفزالي (٥٠٥ هـ = ١١١١ م) : الامام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد .
 ٦١ — « المنقذ من الضلال » ، أر المال والنحل (دمشق ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م) .
 ٦٢ — « فضائح الباطنية » ، أو المستظاري ، نشره جولد آصير (١٩١٦ م) .
 دى غويه : م . ج . De Goeje : M. J.
 ٦٣ — "Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides" (Leyden, 1886.)
 ٦٤ — "La Fin de l'Empire des Carmathes du Bahraïn" (Journal Asiatique, 1895.)
 ٦٥ — "The Karmathians" (Encyclopaedia of Religion and Ethics.)
 فايطي : ١ . ١ . Fayzee : Asaf, A.A.
 ٦٦ — "A Chronological List of the Imams and Daïs of the Musta'lian Ismailis" (Journal of Bombay Branch of the Royal Asiatic Society, 1934.)
 كارادى نو Carra de Vaux
 ٦٧ — "Les Panseurs de l'Islam" (Paris, 1926, vol. v.)
 ابن القلانسي (٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) : أبو يعلى حمزة .
 ٦٨ — « تاريخ ابن القلانسي » ، المسمى « ذيل تاريخ دوشق » ، مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفاروق وسيط بن الجوزي والذهبي (بيروت ١٩٠٨ م) .
 كامل حسين : دكتور محمد .
 ٦٩ — « المزيد في الدين هبة الله الشيرازي » ، رسالة الدكتوراه .
 كترمير : إتيين Quatremère : Etienne
 ٧٠ — "Mémoires Historiques sur la Dynastie des Khaliphs Fatimites" (Journal Asiatique, 1836, série ii.)
 السكندى (٣٥٠ هـ = ٩٦١ م) : أبو عمر محمد بن يوسف .
 ٧١ — « كتاب الولاة والقضاة » ، (نشره دوفن جست) (E. J. W. Gibb Memorial Series, vol. xix, 1912.)

- لامانس : Lammens — ٧٢
 "Islam Beliefs and Institutions."
 لويس : برنارد Lewis : Bernard
 "The Origins of Ismailism" (Cambridge, 1940.) — ٧٣
 ماسنيو : لوى Massignon : Louis
 "Esquisse d'une Bibliographie Carmathe" (Cam- — ٧٤
 bridge, 1922) مقالة نشرت في كتاب عجب تامه
 مامور : برنس Momour, Prince
 "Polemics on the Origin of the Fatimi Caliphs" — ٧٥
 (Lond., 1934.)
 أبو المحاسن (٨٧٤ هـ = ١٤٦٩ م) : جمال الدين بن يوسف بن تفرى بردى .
 ٧٦ — "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" ، (القاهرة ١٩٣٥) .
 محمد عبده : الامام .
 ٧٧ — "رسالة التوحيد" ، (القاهرة ١٣٢٤ هـ) .
 المسعودى (٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي .
 ٧٨ — "التنبيه والاشراف" ، (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) .
 مسكويه (٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م) : أبو علي أحمد بن محمد .
 ٧٩ — "كتاب تجارب الأمم" ، جزآن (طبعة هـ . ف . أمدروز H.F. Amedroz)
 وترجمه د . س . مرجليوث (D. S. Margoliouth ، أكسفورد ١٩٢١ م) .
 المعري (٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م) : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان .
 ٨٠ — "رسالة الغفران" ، (طبعة هندية بالقاهرة ١٩٠٣ م) .
 المقرئى (٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) : تقي الدين أحمد بن علي .
 ٨١ — "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" ، جزآن (بولاق ١٢٧٠ هـ) .
 ٨٢ — "اتعاظ الخلفاء بأخبار الخلفاء (بيت المقدس ١٩٠٨) .
 المنصورى (٧٢٥ هـ = ١٣٢٥ م) : ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار
 ٨٣ — "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة فؤاد الأول ،
 المجلد الخامس .
 ميور : وليام تمبل Muir : William Temple
 "The Caliphate : Its Rise, Decline and Fall" — ٨٤
 (Lond., 1924.) ،
 ابن النديم (٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) : محمد بن إسحاق .
 ٨٥ — "كتاب القهرست" ، (القاهرة ١٣٤٨ هـ) .
 نظام الملك (٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م) : الوزير .

- ٨٦ — "سياسة نامة" ، المجلد الثاني (باريس ١٨٩٣ م) .
 ظنمان (٣٦٣ هـ = ٩٧٢ - ٩٧٣ م) : أبو حنيفة بن حيون المغربي .
 ٨٧ — "المجالس والمعارف" ، ثلاثة أجزاء ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٦٠٦٠ .
 ٨٨ — "افتتاح الدعوة الزاهرة" ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول .
 النويحي (٣٠٢ هـ = ٨١٧ م) : أبو محمد الحسن بن موسى .
 ٨٩ — "كتاب مرق الفيلة" ، (استمبول ١٩٣١ م) .
 النويري (٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م) : أحمد بن عبد الوهاب .
 ٩٠ — "نهاية الأرب في فنون الأدب" ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٥٧٠ .
 تاريخ ، ٥٤٩ معارف .
 النيصايري .
 ٩١ — "استنار الإيمان" ، (نشره إيفانو في مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٦)
 نيكلمون : أ . رينولد . Nicholson : A. Reynold
 "Literary History of the Arabs" (Cambridge, 1930.) — ٩٢
 نيكلمون : جون Nicholson : John
 "An Account of the Establishment of the Fatemite — ٩٣
 Dynasty in Africa" (Tübingen, 1840.)
 هامر : فون Hammer : Von
 «Histoire de l'Ordre des Assassins» (trad. par — ٩٤
 Hellert, Paris, 1833.)
 ابن هاني. (٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م) : أبو القاسم المسكني بأبي الحسن محمد .
 ٩٥ — "ديوان ابن هاني" ، (بيروت ١٢٢٦ هـ) .
 الحمداني : دكتور حسين
 "Some Unknown Ismaili Authors and their Works" — ٩٦
 (J. R. A. S. 1933.)
 ٩٧ — "A Compendium of Ismaili Esoterics" ، زهر المعاني
 (Islamic Culture, 1937, vol. ii.)
 "The Letters of al-Mustansir" (B.S.O.S. 1934.) — ٩٨
 ياقوت (٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحوي الرومي .
 ٩٩ — "معجم البلدان" ، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٢٢٣ هـ = ١٩٠٦ م) .
 يحيى بن سعيد الأنطاكي (٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م) .
 ١٠٠ — "صلة تاريخ أوتينا" ، جزآن (بيروت ١٩٠٩ م) .

فهارس الكتاب

١ - الأعلام

٦٥ ، ٧٣ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩١ ، -

٢٠٨ ، ٢٥٣ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٨٨ ، -

٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، -

إدريس بن عبيد الله الحسني - آخر محمد النفس .

الزكية : ٣٠٧ ، ٣٠٩

أستاذ سيس — من أتباع أبي مسلم .

الخراساني : ٢٣

أسفار بن شيرويه - أحد عظماء طبرستان والديلم : ٢٤٦ -

إسماعيل بن إبراهيم الخليل : ٢٧

إسماعيل بن جعفر الصادق : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ ،

٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٦٥ ،

٧٧ ، ٧٩ ، ٨١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ،

٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤

الاشعري الفقيه : ٢٣ ، ٦٤

أغا خان — زعيم الاسماعيليه الحالي : ١٢٤ ، ١٧٩ ، -

٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢

الأفضل بن بدر الجمالي الوزير : ٧٩ ، ٢٧٦

إقبال — المؤلف : ٢٨٢

إقبال — أغا سردار المؤلف : ١٥٥

(ب)

بابك الخرمي : ٢٣ ، ٤٩ ، ٢٩٥

بدر الخامي — قائد أحمد بن طولون : ٧٩ ، -

١٠٤ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٢٧٦

برنارد لويس : ٤٩ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٠٩

البساسيري : أبو الحارث : ١٤٤

بسام — أحد القلاء : ٣٣

ابن البصري — : ٩٩

بيان بن سيمان — مؤسس جماعة البيانية : ٢٣ -

(١)

آدم — النبي : ٢٧ ، ٣٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،

٢٦٤ ، ٢٧٨ ، ٣٠٠ ، ٣٥٥

الأمير — الخليفة الفاطمي : ٢٤١ ، ٢٧٨ ، ٢٢٧

إبراهيم — الخليل عليه السلام : ٢٧ ، ٢١٧

إبراهيم بن الأغلب — وال إفريقيا في عهد

العباسيين : ١٣٣ ، ٢٣٣

إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي

٣٠ ، ٢٦ ، ٤٣ ، ٣٠٩

إبراهيم بن عبد الله الأكبر بن محمد بن إسماعيل : ١٥٢

أبو بكر الباقلاني — القاضي : ١٤٧ ، ١٦٢ ،

٢٨٥ ، ٢٩٤

أبو بكر الصديق : ١٧ ، ٩٧ ، ١٧٢ ، ٢٦١ ، ٢٣٦

ابن أبي العجاج — الأمير : ١٨٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨

أحمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله القداح : ٨٤

أحمد أبو الفضل بن عبد الله القداح - حجة الامام

الحسين بن أحمد : ٤٥ ، ٧٧ ، ٨٥ ، ٩٨ ،

١١٦ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٦٥

أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل — الامام

المستور : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٣ ،

٦٣ ، ٦٦ ، ٩٠ ، ١٠٥ ، ١٢٢ ، ١٥٢ ،

١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠

أحمد بن عبيد الله المسكني بأبي علي : ٣١٩

أحمد بن قريش — أمير صقلية : ٢٠٠ ، ٢٠١

أحمد بن طولون : ٤٧ ، ٦٩

أحمد بن محمد بن الحنفية : ٢٦

أحمد الوقي بن موسى الكاظم — الجلد الثاني لمبيد

الله في بعض الانساب : ١٠٥

إدريس عماد الدين — الداعي : ٢٦ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ،

٢٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٣ ،

للشريف الرضى : ١٤٧

عباسة بن يوسف : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٩٠ ، ١٩١

حيثى بن أحمد المغربي القائد : ١٨١

حريث بن مسعود — من زعماء القرامطة : ٢٣١

الحسن بن أحمد بن أبي خنيزر الكتامي —

والى صقلية : ١٩٩ ، ٢٠١

الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجنابي —

الأعصم : ٨٦ ، ٨٧ ، ١٥٧ ، ١٨٤

١٨٥ ، ٢١٠ ، ٢٧٦

الحسن بن أحمد الكلبي — أحد ولادة صقلية : ٢٠٣

الحسن الثاني — حفيد نزار بن المستنصر

الفاطمي : ٢٩٢

الحسن بن الصباح : ١٢٤ ، ١٥٤ ، ٢٥٠ ، ٢٧٦

٢٧٧

الحسن بن عبيد الله المهدي : ٣١٩ ، ٣٢٠

الحسن العسكري : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٨٩

الحسن بن علي بن أبي طالب : ١٧ ، ٢٦ ، ٢٧

٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٨١ ، ١٨٧ ، ٢٨٦

٢٣٤

الحسن بن القاسم بن إدريس : — أجداد موسى

ابن أبي العافية عن المغرب : ١٩٧

الحسن بن محمد بن إسماعيل : ٤٠

الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل —

الامام المستنصر : ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٣ ، ٦٥

٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٨

٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٩

١١٢ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٦

١٥٨ ، ١٦٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤

٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٦

الحسين بن حوشب الداعي : ٤٠ ، ٧١ ، ٢٣٦

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١

أبو الحسين — داعي الدعوة : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢

١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٢٦ ، ١٣٨

الحسين بن زكرويه — القرمطي : ٤٣ ، ١٠١

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧

(ت)

تكنين — والى العباسي بمصر : ٢١٥

(ج)

جبريل — عليه السلام : ٣١١

جعفر الهاجب — صاحب السيرة التي كتبها

اليماني : ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢١ ،

١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٦٦ ، ١٤٠ ، ١٤١

١٤٢ ، ٢٢٤ ، ٢٨٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣١

جعفر الصادق الامام : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ ،

٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩

٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥

٥٦ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧

٨٩ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٠٠

٣٢٤ ، ٣٢٣

جعفر بن محمد بن إسماعيل — أحد أئمة الاسماعيلية :

٢٤ ، ٣٨ ، ٣٢٤

أبو جعفر المنصور : ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٥٠ ،

١٦١ ، ٢٠٦ ، ٣٠٩ ، ٢٣٣ ، ٣٢٤

جعفر بن منصور اليماني الداعي : ٣١ ، ٣٤ ، ٣٦ ،

٢٧ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٣

٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٣٢٢

جوهري الصقلي : ١٧٤ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٤٢

(ح)

أبو حاتم البوراني — رئيس البورانية

الاسماعيلية : ٩٧

أبو حاتم الرازي — الداعي الاسماعيلي : ١٨٦ ،

٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨

٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٣

أبو حاتم معروف التميمي بوري — الشاعر

الفيلسوف : ١٢٣ ، ١٢٤

الحافظ — الخليفة الفاطمي : ٢٧٨

الحاكم بأمر الله : ٢٢٣ ، ٢٤٨ ، ٢٦٢ ، ٢٩٣

٣٠٤

أبو حامد الاسفرايني — أرسله القادر بأمر الله

(خ)

خداش — الداعي العباسي : أنظر عمارة
أبو الخطاب المنتشع — صاحب فرقة الخطابية :
٢٤ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٨ ، ٧٩ ،
٣٣٧ ، ٣٠٠

خلف الداعي : ٦٤ ، ١٢٢ ، ١٢٤
ابن الخليج — أحد قواد العلوليين : ١٢٢

(د)

داود بن مجبشاء — صاحب فرقة الداودية
بالهند : ٢٧٨

دندان — كاتب عبد العزيز بن أبي دلف :
٥٥ ، ٥٧ ، ٦٩ ، ٢٧٩
ويصان — والد ميمون القداح في بعض
الروايات : ٤٨

(ذ)

أبو ذر النفاذ المقية — صاحب المباديء
الاشتراكية : ٢٥٧
ذلول — استخلفه مصالة بن حبوس بتكرار : ١٩٣

(ر)

ابن رزام : ٢٩٤
الرشيد : ٢٧ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٩ ،
٥٥ ، ١٢٧ ، ٢٥٩ ، ٣١٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٤

(ز)

أبو زكريا مبارك — الوعيم المغربي : ٢١٦ ، ٢١٧
الزراذشي — ينتمي إلى الزرادشتية : ٢٩٢
أبو زكريا الصماني الداعي : ١١٠ ، ١١١ ، ٣٠١
زيادة الله الأغلب : ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٥ ،
١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ٣١٦
زيد بن حارثة — الذي أمره النبي على أحد
الجيوش : ٣٤١
زيد بن خادم المهدي : ١٨١
زيد بن علي بن الحسين العلوي : ١٩ ، ٢٠٠ ،
٢٨ ، ٣٠٦

١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٣٥

الحسين بن عبد الله القداح — ينسب إليه

عبد الله : ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ،

٨٠ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤

الحسين بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل : ٧١ ، ١٥٧

الحسين بن علي بن أبي طالب : ١٨ ، ١٩ ، ٢٦ ،

٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٨٠ ،

٨١ ، ١١٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٣٣٤

الحسين بن علي المروزي — أمير خراسان :

١٢٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨

الحسين بن علي الهادي : ١٥٦

ابن حفصون — التأثير بالاندلس : ٢٠٣ ، ٢٥٤

الحلاج المتصوف : ٣٠١

الحلواني — الداعي الاسماعيلي باليمن : ٤٥ ،

٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ٢٥٤ ، ٣١٠

حمدان قرمط : ٢٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧١ ، ٨٤ ،

٨٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،

٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ،

١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ٢١١ ،

٢١٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٩ ، ٢٩٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٥

حميد الدين الكرمانى — داعي الحاكم بأمر الله

في فارس : ٢٤٨ ، ٢٩٣

حميد بن يصل — والي تاهرت : ١٩٨

أبو حنيفة الامام : ٢٨٥

أبو حنيفة النعمان المغربي : ٨٣ ، ١١٣ ، ١١٤ ،

١١٧ ، ١٢١ ، ١٥٠ ، ٢٣٤ ، ٢٥٩ ،

٣٠٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩

ابن حوشب — الداعي الاسماعيلي باليمن :

٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ،

١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ،

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ،

٢٧١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ،

٢٩٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٣

٢٥٤ ، ١١٦ ، ١١٢ ، ١١٠
 سليمان الفارسي : ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٧٩ ،
 ٣١١ ، ٢٥٧ ، ٨٠
 أبو سلمة الخلال — وزير آل محمد : ٢٩
 سليمان بن أبي طاهر بن أبي سعيد الجنابي —
 أحد زعماء قرامطة البحرين ٢١٦
 سليمان بن عبد الله — زعيم فرقة السليمانية باليمن
 ٢٧٨
 سليمان بن عبد الملك — الخليفة الأموي : ١٩
 سنان راشد الدين الداعي : ١٥٤
 سنبذ المجوسي — تار في عهد المتصور : ٢٣ ،
 ٢٩٥
 السهري باشا : ٣٠٧ ، ٣١١
 السيد الخيري الشاعر الآبو هاشمي : ٢٦

(ش)

الشافعي الإمام : ٢٨٥
 الشاوري داعي اليمن : ١٧٦
 الشريف الرضي الشاعر : ١٤٥ ، ١٤٦
 الشاذلي المتصوف : ٣٠١

(س)

صاحب الزنج — صاحب الثورة المشهورة : ٧٠
 ٣٠٥
 صالح بن سعيد — قتل ذلولاً والى نكور ١٩٣
 الصولي الشاعر : ١٧٧ ، ١٧٩

(ط)

طلوت : ٣٤٠ ، ٣٤١
 ابن طلوت القرشي — الثائر بطرا بلس :
 ٣١٩ ، ١٨٥
 أبو طاهر الجنابي — أحد زعماء قرامطة
 البحرين : ٨٦ ، ٩٤ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
 ١٨٤ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
 ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ،
 ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩١ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣٢٤
 (م — ٢٣)

ذكرويه بن مبرويه القرطبي : ٥٦ ، ٦٩ ، ٨٦ ،
 ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،
 ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،
 ٢١٢ ، ٢٩٨ ، ٣١٥

(س)

سالم بن راشد — أحد ولاة الفاطميين بصقلية :
 ٢٠٢
 ابن سبأ — أنظر عبد الله
 الصعزي — أحد دعاة المهدي : ١٨٦ ، ٢٤٤ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٣

ابن سعدون الوجيهي — الشاعر : ١٧١
 أبو سعيد — أحد ولاة الفاطميين بصقلية : ٢٠٢
 أبو سعيد الجنابي القرطبي — أحد زعماء
 قرامطة البحرين : ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٠ ،
 ١١٠ ، ١١١ ، ١٢٠ ، ١٧٥ ،
 ١٧٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
 ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ،
 ٢٥٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٧

سعيد الخير بن إبراهيم بن عبد الله الأكبر بن
 محمد بن إسماعيل : أنظر سعيد الله
 سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح : ٣٩ ،
 ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
 ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ،
 ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،
 ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
 ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ،
 ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
 ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٩٠ ، ٢٣٣ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٩٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧

سعيد بن أبي سعيد الجنابي القرطبي : ٢١٤ ،
 ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧

سعيد بن صالح — صاحب مدينة نكور بالمغرب :
 ١٩٣

أبو سفيان الداعي : ٤٥ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ،

- أبو العلاء المعري الشاعر : ٥٢ ، ٥٤ ، ٣٠٢
 علي بن يويه — قائد مرداويج الديلي : ٢٤٦
 علي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن
 إسماعيل — والد القائم بأمر الله في بعض
 الروايات : ٦٥ ، ٦٦ ، ٨٢ ، ٨٩ ،
 ١٦٠ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧
 علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب : ١٨ ، ٢٨
 علي بن حمدون الأندلسي — بني مدينة الحمديّة
 بالمغرب : ٢٠٩
 علي بن أبي خنزير — أخو أمير صفاية : ١٩٩
 أبو علي الداعي : ٧٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
 ١٣٨ ، ١٧٣ ، ٢٣١
 علي الرضا : ٤٣ ، ٤٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٣٠٩
 علي زين العابدين : ١٨ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٨١
 علي بن أبي طالب : ١٧ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ،
 ٣٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٧٩ ،
 ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٩ ،
 ١٢٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ،
 ١٥٢ ، ١٦٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٨١ ،
 ٢٩٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣١١ ، ٣٢٧ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٣٣٩
 علي بن عبد الله القداح القرمطي : ٦٤ ، ٦٦ ،
 ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١١١ ، ١٥٨
 علي بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل : ٩٨
 علي بن عيسى الوزير — وزير المقتدر : ٢١٢ ،
 ٢١٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣١
 علي بن أبي الغرارس — والي صفاية : ١٩٩
 علي بن الأيثم بن محمد بن إسماعيل : ٤٠
 علي بن محمد الصليحي — داعي المستنصر باليمن : ٢٤١
 علي الهادي بن محمد بن علي الرضا بن موسى :
 ١٤٥ ، ١٥٥
 ابن العلقمي — وزير المستنصر العباسي : ٧٩
 عماد الدين الداعي : أنظر لإدريس
 عماد بن بديل الداعي العباسي : ٢٢
 عمار بن ياسر من الصحابة : ٢٥٧
 للدعوة الإسماعيلية : ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ،
 ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٥ ،
 ١١٠ ، ١٦٢ ، ٢٣١ ، ٢٧١ ، ٣١٧
 عبد الله بن الحسن بن محمد بن عبد الله القداح :
 ١٥٤ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧
 عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله الأكبر :
 ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢
 عبيد الله بن الحسين بن علي الهادي بن محمد
 الحواد : ١٥٦
 عبيد الله بن الحسين الزكي بن محمد بن إسماعيل :
 ١٤٨ ، ٧٧
 -عبيد الله المهدي : ١٧ ، ٢١ ، ٤٧ ، ٦٧ ، ٧٣ ،
 ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ،
 ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢٠ ،
 ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،
 ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،
 ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
 ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ،
 ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
 ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ،
 ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،
 ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،
 ١٩٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،
 ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ،
 ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ ،
 أبو عثمان سعيد بن محمد بن الحداد الفقيه — ناظر
 أبا العباس الداعي : ٢٣٣ ، ٢٣٥ ،
 ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠
 هروية بن يوسف : ١٩٠ ، ١٩١
 العزيز الخليفة الفاطمي : ٩٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،
 ٢٧٦
 -عقيل بن أبي طالب : ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٩٣ ، ٩٥

١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٨ ،
٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٩ ، ٢٤٢ ،
٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٨٦ ،
٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٣٧ ،
٣٣٠

أبو القاسم بن زكرويه — صاحب الناقة : ٩٨ ،
١٠٠ ، ١٠١

أبو القاسم سعيد بن أبي سعيد الجنابي القرمطي : ٢١٦
أبو القاسم الحسن بن فرج — بن حوشب في
عرف صاحب كتاب استنار الامام : ٧١

القاهر — الخليفة العباسي : ١٨٢
القحطاني المنتظر — يعتقد البنيون بقرب
ظهوره : ٣٠٧ ، ٣١١

القجاح : أنظر ميمون بن غيلان
قرمط : أنظر حمدان

(ك)

كثير عزة الشاعر : ٢٦ ، ٢٨
الكرماني الداعي : ٢٥٠ ، ٢٥٣
ابن كلس الوزير الفاطمي : ١٦٢
ابن كيداد : أنظر أبا يزيد

(م)

المأمون : ٢٢ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
٣٠٩ ، ١٥٩

ماني — تنسب إليه المانوية : ٢٩٢

المبارك — مولد لإسماعيل بن جعفر الصادق :
٦٤ ، ٥٠

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : ٢٧ ، ٣٢ ،
٤٤ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ١٤٦ ، ٢١٥ ،
٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٢٨٢ ، ٣٢٧ ، ٣٦٤ ،
٣٣٥ ، ٣٣٩

محمد بن أبي بكر — والي مصر من قبل علي : ١٧٧
محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون والد عبيد الله
في بعض الروايات : ١٦٤ ، ١٦٥

عمارة البختي الشاعر : ٧٤ ، ١١٢ ، ٢٤٠ ، ٢٦٩
عمر بن الخطاب : ١٧ ، ٩٧ ، ٢٦١ ، ٢٣٤
عروة بن العاص : ٢٤١
عمير بن بيان المعول — صاحب مذهب العميرية :
٢٤

ابن عياش — نزل المهدي بداره بمصر : ١١٢ ،
١٣٠ ، ٣٣١

عيسى بن سريم : ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٩ ، ٢٥٣ ،
٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٢٥

عيسى بن موسى الداعي : ٢٣١

عيسى النوشري — والي مصر : ١٢٩ ، ١٣٠ ،
١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ،
٣١٦ ، ٣٣١

(ف)

ابن فضل الجندى — الداعي الاسماعيلي باليمن :
٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ١١٣ ، ١١٥ ،
١٢٥ ، ١٧٦ ، ٢١٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ،
٢٤٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ،
٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩

أبو الفوارس — أخلص دعاة حمدان : ٩٧
فيروز — حفيد أبي معلم الخراساني : ٢٣
فيروز — داعي الدعاة : ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١

(ق)

القائد — الخليفة العباسي : ١٤٥ ، ١٤٧
القاسم النقي بن أحمد الوقي بن محمد الوصي بن
موسى المكاظم : ١٥٥

أبو القاسم القائم بأمر الله الخليفة الفاطمي الثاني :
٤٦ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٨٨ ،
٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٢٩ ،
١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،

ابن مدين الداعي : ٢٧٧
مدين بن موسى بن أبي العافية — استبد يقاس :
١٩٨

مرداويج بن رياو الديلمي : ١٤٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦
٣٠٨

المروزي — منع الفقهاء من الافتاء : ٢٥٧
مزدك — تنسب اليه المزدكية : ٢٢ ، ٤٨٠
٢٩٢ ، ٢٩٥

المستعلي الفاطمي : ٧٩ ، ٢٤١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧
المستكفي : ٢٢٥
المستنصر : ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٤١ ، ٢٥٠
٢٧٦ ، ٣٢١

ابن مسرة : العالم الفيلسوف : ٢٥٥
أبو مسلم الخراساني : ٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨
٢٦٣ ، ٢٦٨

مصالة بن حيوس — القائد المغربي : ١٩٢ ،
١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨
المعتصم : ٢٣ ، ٥٦

المعتضد : ٨٩ ، ٩٧ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٢
المعتد : ٣٠٥
معروف الداعي : ١٢٣

المعز لدين الله : ٣٩ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ،
١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٨ ، ٢١٠ ،
٢١٩ ، ٢٤٢ ، ٢٦٢ ، ٢٧٦ ، ٢٨٦ ،
٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩

المغيرة بن سعيد المعجلي — مؤسس المغيرية : ٢٣
المقتدر : ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ،
١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،
٢٠١ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢١

٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
المقتع الخراساني : ٢٣ ، ٢٩٥
المكتفي : ١٢٥ ، ١٣٢

المكرم الصليحي : ١٥٤
ابن مليح الداعي : ٩٥
منون بن سعيد — إمام أهل المدينة بالمغرب : ٣٣٤
أبو منصور أحمد بن أبي سعيد الجنابي القرطبي : ٢١٦

محمد بن إسماعيل بن جعفر — الامام المسمكوم
٤ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٢ ،
٦٣ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ،
٨٥ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ،
١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،
١٦٧ ، ١٧٠

محمد الباقر — بن علي زين العابدين : ٢١ ، ٢٨ ،
٢٩ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٢٩٤
محمد البديل الشاعر : ٢٥٧

محمد الحبيب — والد عبيد الله في بعض الروايات :
٣٦ ، ٥٨ ، ٧٤ ، ٨٧ ، ١٤٨
محمد المنتظر بن الحسن العسكري بن علي الهادي
ابن محمد الجواد — اختفى بسر داب في سامرا : ٣٠ ،
١٥٢ ، ١٥٥ ، ٢٨٩

محمد بن الحنفية : ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ،
٢٨ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٣ ، ٢٨٧ ، ٣٠٨
محمد بن خلف التيرماني : ٢٢٧ ، ٢٢٨
محمد بن زكريا الرازي — الفيلسوف : ٢٥٢

محمد بن سليمان — رآه مصر : ١٠٨ ، ١٣٣ ،
١٣٨ ، ٣١٦
محمد بن طنجج الاخفيد : ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤
محمد بن عبد الله — النفس الزكية : ٣٠٠

محمد بن عبد الله — المعروف بأبي الفطاح :
٦٦ ، ٦٧ ، ١٦٢
محمد بن عبد الله القداح : ١٥٩ ، ١٦٥
محمد الجواد بن علي الرضا — زوج ابنة المأمون :
١٥٥ ، ١٥٦

محمد بن علي بن عبد الله بن العباس : ١٩ ، ٢٠ ،
محمد بن القاسم بن إدريس — أجلى ابن أبي
العافية أبنائه عن المغرب : ١٩٧
محمد بن محمد بن عبد الله القداح : ١٦٤

المختار بن أبي عبيد الثقفي : ١٩ ، ٢٢ ، ٣٤
المدثر — قائد الحسين بن زكروية : ١٠٥
المدثر — عبد الله بن عيسى بن محمد بن إسماعيل : ١٠٥

نصر بن أحمد الساماني : ١٤٥ ، ١٨٧ ، ٢٢٩ ،
٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٣٠٨
نظام الملك — وزير ملكهاه السلجوقي : ٥٢ ،
٦٤ ، ١٢٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ،
٢٩٥

نوح — الرسول : ٣٩ ، ٢٥٧ ، ٣٠٠ ، ٣٢٥
نوح بن نصر الساماني — طارده الاسماعيلية
وقتل النفسى : ٢٥٠

(ه)

الحادي العباسي : ٢١ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ،
هارون — أخو موسى الرسول : ٦٢ ، ٢٣٥
هارون بن خماروية : ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٣٢ ، ١٥٢
هارون بن سعد العجلي — أحد الزيدية : ٢٥
أبو هاشم بن محمد بن الحنفية : ٨١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٧ ، ٣٠٨
هولاكو القائد المغول : ٧٩ ، ١٧٠ ، ٢٩٢

(ي)

يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس : ١٩٤ ، ١٩٥ ،
١٩٦
يحيى بن زيد بن علي زين العابدين : ١٧ ، ١٩
يحيى بن عبد الله العلوي — آخر محمد النفس
الزكية : ٢٧ ، ٢٧ ، ٣٠٩
يحيى بن المهدي — علي قذاح الطالقان كجا
يذكر بعض : ١١٠ ، ١١١
أبو يزيد غنله بن كيداد — الخارجي بالغرب
١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ،
٢٠٩ ، ٣٢٩
اليسع بن مدرار — أمير سلجقاسة : ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ،

١٧٨ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢١٦ ، ٣١٧

أبو يعقوب — أحد عبيد سعيد الخير : ٢٣٠
يعقوب بن إسحاق — قائد الحملة البحرية التي
أرسلها المهدي : ٢٠٢
أبو يعقوب إسحاق بن أحمد : أنظر السجزي

المتصور : ١٥٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ،
٢٠٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٨٦
منيب بن سليمان الكتاس الداعي : ٣٠٣
المهدي العباسي : ٣٧ ، ١٦٠ ، ١٦١
المهدي الفاطمي : أنظر عبيد الله
المهدي المنتظر : ٤٣ ، ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٣ ،
٧٤ ، ٧٥ ، ٨٠
أبو مهزول بن زكرويه صاحب الشامة : ٩٨ ،
١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٢٩ ، ٣١٩

موسى — الرسول : ٦٢ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٣٥ ،
٣٣٨
موسى بن أبي العافية : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،
١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٣
موسى القطان — حضر مناظرة أبي عثمان مع
أبي العباس الداعي : ٣٢٣ ، ٣٣٤
موسى الكاظم : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٢٨ ،
٤٩ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٨١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
١٦٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٩
مؤنس الخادم — قائد المقتدر : ١٧٤ ، ١٧٥ ،
١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ٢١٩
المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي الداعي : ١٥٣
ميمون الداعي : ٢٠٣
ميمون بن غيلان الفارسي القذاح : ٢٤ ، ٣٥ ،
٤٠ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ،
٥٥ ، ٥٦ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ،
٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ١١١ ،
١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
٢٧٣

(ن)

نزار بن المستنصر الفاطمي : ٧٩ ، ١٢٤ ، ٢٧٦ ،
٢٧٧ ، ٢٩٢
النسفي الداعي : ١٨٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،
٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣١٣

أنطاكية : ٢٩٤
الأسواز : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
٦٨ ، ٢٦٢ ، ٢٢٠
أوربة — قبيلة مغربية : ١٩٤
أيريا — شبه جزيرة : ٢٥٥
إيطاليا : ١٨٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢
إيكجان — جبل بأفريقية يقع فيه فج الأخيار :
٢٠٤

(ب)

باجة — مدينة بالمغرب : ٣٠٣
البحرين : ٤٧ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١١٠ ، ١١١ ،
١١٢ ، ١٧٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ ،
٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
٢٥٤ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٣٠٧ ،
٣٠٨

بحارى : ٢٤٨

بدخشان — مركز ناصر خسرو داعية المنتصر :

٢٥٠

برقة : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٣ ،
القصرة : ٣١ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،
٢١١ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
بغداد : ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ،
١١٠ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٤٤ ،
١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ،
٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٦٩ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،
٣١٥ ، ٣٣٠

البقيع — موضع قرب المدينة : ٣٠ ، ٣٢٢

بلغ — من أعمال خراسان : ٦٨

(ت)

تاهرت — مدينة بالمغرب الأوسط : ١٩ ،
١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،
١٩٦ ، ١٩٨ ، ٣٠٣

ترامة : ٢٣٤

توزر — مدينة بكرة قسطنطينة : ١٣٦

أبو يعقوب بن أبي سعيد الجنابي القرمطى : ٢١٦
يوسف عليه السلام : ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٤ ، ٣٠٨ ،
٣١٢ ، ٣٢٣

النساء

أم حبيب — زوجة القائم بأمر الله : ٢١٩
أم أبي الحسين — ابنة فيروز الداعي : ٢٣١
خرما زوجة مزدك : ٢٢ ، ٢٩٥
فاطمة بنت رسول الله : ٢٦ ، ٢٩ ، ٥٠ ، ٧٩ ،
٨٢ ، ٨٧ ، ١١٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،
١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ،
٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٩٢ ، ٣١١
فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني : ٢٣ ، ٢٩٥
لعب — جارية عبيد الله : ٣٢٠

٢ — الأماكن

(أ)

الأحساء : ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٧٩
أذر بيجان : ١٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٤ ،
٢٤٥ ، ٣٠٨
أسبانيا : انظر الأندلس
الاسكندرية : ١٤٨ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨١ ،
١٨٢ ، ٢٠٥
أصفهان : ٢٤٥ ، ٢٤٦
إفريقية : ٢٧ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١١٨ ،
١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
١٤٣ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٨ ،
١٨٩ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ،
٢٠٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٤٦ ، ٢٦١ ،
٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣١١ ،
٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٤٠
ألموت — قلعة جنوبي بحر قزوين : ٧٩
الأندلس : ١٧٠ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ،
١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥

رحبة مالك بن طوق : ٢٢٩
 الرصافة — مدينة غربي الرقة : ٢٠٤
 رضوى — جبل بالحجاز : ٢٦
 رقادة — مدينة بأفريقية : ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٤٣ ،
 ١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٥٧ ، ٣٠٠ ،
 ٣٠٤

الرقة : ١٠٤ ، ٢٣٠
 الرملة : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٢٥ ،
 ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ٢٣٠ ،
 ٣٣١
 الرى : ٣٨ ، ٤٣ ، ٦٤ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٤٥ ،
 ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٣٠٨

(ز)
 الزاب — بالمغرب : ٢٠٩
 زويلة — مدينة بناها المهدي قرب المهدي : ٢٠٦

(س)
 ساباطه أبي نوح — من قرى الأهواز : ٦٨
 سامرا : ٣٠ ، ٤٢
 سبته — من موانئ المغرب الأقصى : ٢٠٣
 سوطاسة — من مدن المغرب : ٨٢ ، ٩١ ،
 ١٠٩ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
 ١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،
 ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،
 ١٦٨ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٦٦ ،
 ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧
 سردانية — انتصر الفاطميون على الروم بالقرب
 منها : ٢٠٢

سطيف — من مدن كتامة : ٣٣٣
 سفاقس — ميناء بتونس : ٢٠١
 سلا — مدينة بالمغرب الأقصى : ١٩٥
 سدية : ٢٤ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ،
 ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ،
 ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩

تونس : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٧٠ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ،
 ٢٠٥ ، ٢٠٣ ، ٢٢٠

(ج)
 الجريد — بأفريقية : ١٧١
 الجزائر : ٣٧ ، ١٧٠
 جناية — من موانئ الخليج الفارسي : ٢١٩
 جيحون : ٢٤٨
 الجيزة : ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨١

(ح)
 الحجاز : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٧٦ ، ١٢٢ ،
 ١٧٩ ، ١٨٦ ، ٢٦٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٥
 حماء — من مدن الشام : ٩٦
 حصص : ٤٢ ، ٥٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
 ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٣٧
 الحسيرة : ٢٣

(خ)
 الخابور : ٢٢٩
 خراسان : ١٩ ، ٤٥ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ،
 ٧٨ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ،
 ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٤ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٧١
 ٣٧٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٣
 خوارزم : ٤٠ ، ٤٣
 خوزستان : ٤٢ ، ٤٣

(د)
 دجلة : ٢٢٨
 دمشق : ٦٩ ، ٨٦ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،
 ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٥١ ،
 ٢٠٥ ، ٣٣٠
 دوماوند — جبل قريب من الرى : ٣٨
 الديلم — قرى إليها يحيى بن عبد الله : ٢٧ ،
 ٢٤٣ ، ٢٤٦

(ر)
 الرحبة : ٢٢٩ ، ٢٣٠

١٨٧ ، ٣٠٤ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦
طبرمين — ثغر بصقلىة ٢٠٠
طبرية — مدينة بالشام : ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٨
طرابلس الشام : ١٣٦
طرابلس الغرب : ١٢٦ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٥
١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩٠
٢٠١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨
طوروس — بآسيا الصغرى : ٣٣١
طنجة — ميناء بالمغرب الأقصى : ٢٠٣

(ح)

عدن لاعة باليمن : ٧٢
العراق : ٢٦ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
٧١ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٧ ، ١٣٨ ، ١٤٦ ،
١٥٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٩٣ ،
٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ،
٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٥٤ ،
٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ،
٣٠٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٦
عسكر مكرم — إحدى ضواحي مدينة الأهواز :
٥٧ ، ٦٨ ، ١٦٠
عمان : ١١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٤١

(خ)

الخوز : ١٢٣

(ف)

فارس : ٤٥ ، ٦٩ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٣ ، ١١٠ ،
١١١ ، ١٢٣ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٨ ،
١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٧١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٤٢ ،
٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ،
٢٥٤ ، ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣ ،
٣٠٦ ، ٣٠٨
فج الأخيار — موضع بجبل إيكجان بأفريقية :
١١٦ ، ١٤٣ ، ٢٠٤ ، ٢٧٩ ، ٣١٠ ،
٣٠٩ ، ٣٠٧ ، ٣١

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،
١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ،
١١٣ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ،
١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ٢١٠ ،
٢١١ ، ٢٣٢ ، ٢٦٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٩ ،
٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٠
سنجار — مدينة بتواحي الموصل : ٢٣٠

الساوة — بادية يشبه الجزيرة : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٦

سلا — موضع قرب الزى : ٣٨
السند : ١١٢
سوسة — من مدن تونس : ٢٠١

(ش)

الشام : ٤٧ ، ٥٦ ، ٦٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
١٠٩ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٥٤ ،
١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٢ ،
١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٢٧ ، ٢٥٠ ،
٢٥٤ ، ٢٧٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٥
شيران : ٣١٢

(ص)

الصفا — موضع قرب مكة : ٢٩٩
صقلية : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٩ ،
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٣٦٨
صنعاء : ٧٣ ، ١١٢ ، ٢٣٤ ، ٣٣٦

(ط)

الطاحونة — موضع بطرابلس الغرب : ١٣٤
الطالقان بخراسان : ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٩٦ ، ٩٨ ،
١١١
طبرستان : ٤٩ ، ٦٤ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٧٠

(م)

- مازندران — وهي طبرستان : ٤٢
مالقة — من ثغور الأندلس : ١٩٣
معد آباد — سجلا سابقا : ٣٨
المحمديه — مدينة بالمغرب الأوسط : ٢٠٤ ،
٢٠٨ ، ٢٠٩
المدينة المنورة : ٣٠ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ١٧٣ ،
٣٢٢ ، ٣٢٤
مراكش : ١٧٠ ، ١٩٥
مرو الروذ بخراسان : ٦٨ ، ١٢٣
مسور — جبل بأعمال صنعاء ، ٧٣
المصيلة — مدينة بالمغرب الأوسط : ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
٢٦٩
مشتول : ١٧٣
مصر : ٢١ ، ٢٦ ، ٤٧ ، ٨٦ ، ١١٢ ، ١١٣ ،
١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،
١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ،
١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،
١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٦ ،
٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ،
٢٣٣ ، ٢٤٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٨ ،
٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٣١ ،
٣٣٩ ، ٣٣٨
المغرب : ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ،
١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ،
١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ،
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
١٨٧ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،
٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ،
٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ،
٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٩ ،
٣٣٣

الفرات ٢٢٧

- فرغانة — فر إليها محمد بن إسماعيل : ٣٨ ، ١٨٢
فلسطين : ٤٩ ، ١٠٢ ، ١٢٩ ، ٣١٥

(ق)

- قايس — مدينة بترنس : ٢٠١ ، ٢١٩
القادسية : ٧٢ ، ٢٢٩
القاهرة : ٤٣ ، ١٤٧ ، ٣٠٨ ، ٣٦٢
قرطبة : ١٩٨ ، ٢٥٤
قرقيسيا — بلد على نهر الخابور : ٢٢٩
القسطنطينية : ٢٥٤
قسطنطينية : — مدينة إلى الشمال من رقادة : ٢٠٨
القطائع : مدينة ابن طولون : ٦٩ ، ١٢٩
القطيف : ١١٠ ، ١١١ ، ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٢٦ ،
٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٠٨
قنصة — مدينة بإفريقية : ٢٠٦
قلورية بإيطاليا : ٢٠٠ ، ٢٠٢
قوهستان — مركز لنشاط عبد الله القذافي :
٦٤ ، ١٧٠
القيروان : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ١٧١ ،
٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ،
٢٥٧ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،
٣٣٢

(ك)

- كنانة — قبيلة مغربية : ٦٨ ، ٨٨ ، ١٣٦ ،
١٤٢ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ٢٦٦ ،
٢٦٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٧ ، ٣٣٩ ، ٣٣٣
الكرخ — قرب بغداد : ٢٠٦
كلبريا — شبه جزيرة جنوبي إيطاليا : ١٨٩
كلواذا — قرب بغداد : ٦٩ ، ١١٠
الكوفة : ٥٠ ، ٥٧ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ،
٧٧ ، ٧٨ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٦ ،
١٥٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٧ ،
٣٠٨

٣ - الكلمات التي تدل على حوادث تاريخية هامة

(أ)

الأبوسلية — أتباع أبي مسلم الخراساني :
٢٩٥ ، ٢٣

الأبوهاشمية — أتباع أبي هاشم بن محمد بن
الحنفية : ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٧٢ ،
٢٨٧ ، ٣٠٨

الأتراك ، ٥٦ ، ٢٢٦ ، ٣٠٥

الاثنا عشرية : ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٥

٣٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٧١

١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤

١٥٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠٩

الاخشيديون ، ١٨٥

الأخشيد ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤

هارون بن خماروية ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٣

الإدارة ، ١٧ ، ٢٧ ، ١٧٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥

١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥

١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩

إدريس بن عبد الله الحنفي : ٣٠٧ ، ٣٠٩

الحقن بن القاسم بن إدريس : ١٩٧

يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس : ١٩٤ ، ١٩٥

١٩٦

الإسماعيلية : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥

٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢

٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢

٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠

٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧

٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١

٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠

٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨

٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١

١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤

مكتاتبة ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨

مكة : ٣٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٢١٨

٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤

٢٢٥

المنصورة ، ٢٠٨ ، ٢٦٢

المهدي ، ٨٣ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٩٦

٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧

٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٣١

٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢

٢٧٩ ، ٣٠٧ ، ٣٢٠

المؤمنية ، ٢٢٦ ، ٢٧٩

(ن)

نكور — مدينة بالمغرب الأقصى : ١٩٢ ، ١٩٣

نهارند : ٤٣ ، ٤٢

نيسابور : ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٣٢٤

(هـ)

هجر : ١٧٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠

هراة — من أعمال خراسان : ١٢٣

الهند : ٧٩ ، ١١٢ ، ٢٠٤ ، ٢٤١ ، ٢٧٨

(و)

واسطة : ٢٢٧

(ع)

يثرب : أنظر المدينة

الين ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣

٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢

٧٦ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣

١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٥٦ ، ١٧٢

١٧٥ ، ١٨٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤

٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠

٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ ، ٢٧٢

٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣

٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١٥

٣٢٧ ، ٣٢٨

إمامة أحمد بن عبد الله : ٤٣ — ٤٥
 إمامة الحسين بن أحمد : ٤٥ — ٤٧
 إمامة عبد الله الرضى : ٤٥ — ٤٣
 إمامة محمد بن إسماعيل : ٣٦ — ٤٥
 آئمة الاسماعيلية : ٢٤ ، ٢٩
 الآئمة المستوردون يتخذون سلبية مركزا لدعوتهم :

٤٧

الأمويون : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ،
 ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٣ ، ١٧٠ ، ١٨٨ ، ١٩١ ،
 ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ،
 ٢٠٥ ، ٢٥٤ ، ٢٨٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،
 ٣٠٨ ، ٣١٠

الانجيل : ٢٩٣ ، ٢٩٤

(ب)

البابكية — أتباع بابك الخرمى : ٢٣
 الباقرية — أنصار محمد الباقر :
 البربر : ١١٦ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٧١ ، ١٩١ ، ٢٠٣ ،
 ٢٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١١

بنو رستم : ١٨٩

بنو عبد المطلب : ١٨٩

بنو مدوار — ملوك سجلماسة : ١٨٩

الجمانية — فرقة تقول بصحة الأديان جميعها : ٢٩٤
 البهرة : جماعة من أنصار المستعل القاطمى : ٧٩ ، ٢٢١
 البورانية — فرقة إسماعيلية من أتباع البوراني :

٩٧

البويهيون : ٨٦ ، ١٨٤

البيانة — أتباع بيان بن سمان : ٢٣

البيزنطيون : ٢٣١

(ت)

التوراة : ٢٩٣ ، ٢٩٤

(ث)

الثنوية — أصحاب نظرية إله الخير والشر :

٥٥ ، ٢٣٩

١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ،

١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،

١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ ،

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،

٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،

٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،

٢٥٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،

٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،

٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ،

٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،

٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ،

٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ،

٣٢٢ ، ٣٢٧

الاسماعيلية تساهم في النشاط العلمى فى عهد

المأمون : ٤٤

الاسماعيلية تفصل محمد بن اسماعيل على أبيه : ٣٩

الاسماعيلية الذين يؤيدون صحة نسب عبيد الله :

١٤٩ — ١٥٢

الأخاخرية — أتباع آغا خان : ٣٢١

الأخاخرية : ٩٨ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ،

١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ،

١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ،

٢٩٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ،

٣١٥ ، ٣١٦

الأفطمية — اعتقدوا بإمامة عبد الله بن جعفر

المعروف بالأفطح : ٣٥ ، ٣٦

الأفطونية : ٥٠ ، ٦٠

الإمامة : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،

٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٨١ ،

٨٢ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ،

٩٤ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ،

١٢٥ ، ١٤٩ ، ١٥٧ ، ١٥٨

الزنادقة : ٦ ، ٢٢ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ،

١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ٣٣٩

الزيارية — من أنصار العباسيين : ٣١٢

الزيدية — أتباع زيد بن علي : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٥ ،

٢٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨

(س)

السامانية — أنصار نصر بن أحمد الساماني : ٣١٢

السبئية — أتباع عبد الله بن سبأ : ٢٣ ، ٢٤ ،

٣٠٢

السليمانية — أتباع سليمان بن عبد الله . ٢٧٨

السنثيون : ٣٣ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ،

٥٨ ، ٦٠ ، ٨٢ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٢٣ ،

١٢٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ،

١٧٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٢٥ ،

٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٨ ،

٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ،

٢٦٨ ، ٢٩٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٣

السنثيون الذين يؤيدون صحة نسب الفاطميين :

١٤٤ — ١٤٩

(ش)

الشعوبية : ٢٢ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ١٢٣

الشيعة : ١٧ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٧ ،

٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٠ ، ٨١ ،

١٢٤ ، ١٤٧ ، ١٧٠ ، ٢٦٨ ، ٢٩٢ ، ٣٠٧ ،

٣٠٨

(ص)

الصائبة : ٢٩٢

الصقالبة : ٣١٩ ، ٣٢٩

الصالحيون باليمن : ٧٣

صناجة — قبيلة مغربية : ١٩٦ ، ١٩٧

(ج)

الجمهرية : ٢١ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٥٠ ، ٥٦

الجنابية — أتباع أبي سعيد الجنابي : ٩٣

(ح)

الحجة — وظيفة تقليدية في بيت ميمون القداح : ٧٧

الحسينيون — أتباع الحسين بن علي : ١٩ ، ٢٠ ،

٢١ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٥٦

الحنفية : — أتباع محمد بن الحنفية : ١٩ ، ٢٠ ،

٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠٨

الحواشب — أتباع ابن حوشب : ٩٢ ، ١٨٤

(خ)

الخرمية — أتباع بابك الخرمي : ٤٤ ، ٢٩٥

الخطابية — أتباع محمد بن زيفب الأجدع

المعروف بأمر الخطاب : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٣ ،

٥٦ ، ٦٤ ، ٣٠٠

الخوارج : ١٣٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٧٢

(د)

الداودية — أتباع داود بن مجشاه : ٢٧٨

الدرزية — جماعة تعتبر القداح أساس الأئمة

الاسماعيلية : ٥٣ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ،

٨٦ ، ٩٠ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٩ ، ٢٧٦ ،

٢٩٤ ، ٢٩٣

الدعوة الاسماعيلية في بلاد الأندلس : ٢٥٤-٢٥٥

الديالة : ٢٤٨ ، ٣١٤ ، ٣٢٤

(ر)

الرافضة — الذين يرفضون طاعة زيد : ١٩

الروم : ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢١٧ ،

٢٢٧ ، ٢٣٠

(ز)

الزاد شتية — أتباع زرادشت : ٢٤٣ ، ٢٩٢

زناتة : قبيلة مغربية : ١٩٠ ، ١٩٦

(ف)

الفاطميون : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٥١ ، ٧٤ ،
٨٢ ، ٨٧ ، ٨٧ ، ١٠١ ، ١١٠ ، ١١١ ،
١١٣ ، ١٤ ، ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ،
١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
١٧٠ ، ١٧ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ،
١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
١٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
٢٠٠ ، ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،
٢٤٢ ، ١٤٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٧٧ ،
٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٩

[illegible]

الغياثية أتباع غياث الداعي : ١٢٢

القبط ١٧٣

[illegible]

- المعتزلة : ٥٧ ، ١٥٣ ، ٢٨٥
 المعيرية — أتباع الخيرة بن سعيد العجلي : ٢٣
 الموسوية — أتباع موسى الكاظم ٣٠ ٣١
 ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ١٤٣ ، ١٥٢ ، ١٥٣
 ٣٠١ ، ١٥٥
 الميعونية — نسبة إلى ميمون القلاح : ٤٩

(ك)

- الكيسانية — أتباع محمد بن الحنفية وأصحاب
 المختار الثقفي : ٩ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦
 ٩٤ ، ٩٣ ، ٥٦

(م)

- الماثوية أتباع ماثي : ٢٤٣ ، ٢٩٢
 المباركية — أتباع المبارك : ٣٣ ، ٥٠ ، ٦٤
 المجوس : ٢٣ ، ٥١ ، ٥٤ ، ١٩٤ ، ٢٩٣ ، ٣١٣
 المجوسية : ١٦ ، ٢٢ ، ١٦٤
 المحمدية — أتباع محمد بن جعفر الصادق : ٣٦
 بنو مدرار — ملوك سجلماسة : ١٢٠
 المستعالية — أتباع المستعلي بن المستنصر : ٢٧٦ ،
 ٢٧٩
 المسيحية : ٥١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣

(ن)

- النجديون : ٣١٤
 النزارية الاسماعيلية — أتباع نزار بن المستنصر
 ٧٩ ، ١٢٤ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٦
 ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٩٢
 النصارى : ٢٩٤
 النصيرية : ٢٧ ، ١٥٤ ، ٣٠٢

(هـ)

- نواشيم : ٢١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٩٤ ، ١٠٧
 ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣
 هواردة — قبيلة مغربية : ٢٠٩

(ي)

- اليهود : ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

THE MAHDI UBAY'D-ULLAH

**The Ismaili Imam and Founder of the
Fatimid Dynasty in North Africa**

BY

HASSAN IBRAHIM HASSAN

D.Litt. (Cairo), Ph.D., D Lit. (London)

Professor of Islamic History, Head of the Dept. of History
Fouad 1st University, Cairo

and

TAHA AHMED SHARAF

M. A., D. Litt. (Cairo)

1366 — 1947

Published By
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9, Adly Pacha Street, Cairo

Shibokshi Press - Azhar Cairo

0392852

To: www.al-mostafa.com